العقيدة في ضوء الكتاب والسنة 

القيامة الصغرى

أ.د. عمر سليمان عبدالله الأشقر



دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

- ٥ -

اليوم الآخر



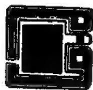
القيامة الصغرى

وعلامات القيامة الكبرى

تأليف

الدكتور عمر سليمان الأشقر





دار النفائس

مكتبة الفلاح

٢٥٣ و ٢١٤
عمر

عمر سليمان الأشقر

اليوم الآخر : القيامة الصغرى . عمر سليمان الأشقر
ط ٣ . عمان : (د . ن) ١٩٩١
(٣٠٣) ص
ر . أ . ١٩٩٠/١٠/٧٠٤
١ ـ الإيمان باليوم الآخر أ ـ العنوان

تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية ـ عمان

الطبعة الرابعة
١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار النفائس

الأردن - عمّان - العبدلي - مقابل جوهرة القدس
هاتف ٦٩٣٩٤٠ - ص.ب ٢١١٥١١ - فاكس ٦٩٣٩٤١

مكتبة الفلاح

الكويت - شارع بيروت - مقابل بريد حولي القديم
تلفون: ٢٦٤٧٧٨٤ - ص.ب: ٤٨٤٨ الصفاة
الرمز البريدي: ١٣٠٤٩ الكويت - برقياً: لاغالكو

مقدمة الكتاب

الحمد لله واهب الحياة وسالبها ، المقيم الأجساد بالأرواح وقابضها ، الذي خلقنا من تراب وإليه يُصَيِّرنا ، ومن التراب عندما يشاء يقيمنا ويبعثنا .

وأصلي وأسلم على المصطفى المختار الذي أطال الحديث عن الموت وشدته ، والقيامة وأهوالها وأحوالها ، والنار وعذابها ، والجنة ونعيمها ، فنبَّه العباد من غفلتهم ، وخلصهم من حيرتهم ، ووجههم الوجه الصحيحة .

وأصلي وأسلم على آله الأطهار وصحبه الأبرار ومن اتبعوهم بإحسان الذين سكنوا الدنيا بقلوب معلقة بالآخرة ، فكانوا لتلك الدار الباقية يعملون ، ولنيلها يبذلون ، ومازال هذا حالهم حتى لقوا ربهم ، فرضوان الله عليهم وبعد : فإننا جئنا الحياة بإرادة واهب الحياة ومبدعها ، ونمضي من الحياة عندما يريد واهب الأمانة سلبها وقبضها ، أقوام يأتون ، وآخرون يرحلون ، مثلهم في ذلك مثل أمواج البحر المتلاحقة كلما انكسرت على الشط موجة تبعتها أخرى ، ومثلهم كمثل النهر المتدفق ، تراه دائما يجري ، ولكن الماء الذي تراه أمامك الآن غير الماء الذي رأيته قبل لحظة من الزمان ، ومثلهم كمثل خمائل الزرع الدائمة الخضرة ، كلما يبس منها شيء نبت غيره ، ومثلهم كمثل لوحة مضاءة بمئات الألوف من الشموع ، تراها مضاءة دائما ، ولكننا عندما ننعم النظر فيها نعلم السر في ديمومة إضاءتها ، ذلك أن ما يحترق منها يخلفه غيره ، بل قد يضاء على صفحتها أكثر مما يحترق منها .

ولكن هذا الامتداد الإنساني المتلاحق سيتوقف يوما ، سيأتي اليوم الذي ينتهي فيه الوجود الإنساني كله ، بل سَيُدَمَّر فيه الكون كله ، فتنطفىء نجوم الليل جميعا ، وتتوقف أمواج البحر ، وييبس الزرع كله ، وتجف مياه الأنهار والعيون .

ولكن هذا الفناء ليس هو النهاية ، بل هو مرحلة في الأطوار التي يمر الانسان بها ، وسيأتي يوم نعود جميعا فيه إلى الحياة ، لنحاسب على ما قدمنا وعملنا .

إن الإيمان بالرجعة إلى الحياة ، ثم الخلود بعد ذلك ضروري لتقويم مسار الإنسان ، فالإنسان مركوز في أعماق نفسه حب الخلود والبقاء ، ولذا فإن إبليس أغرى آدم بالأكل من الشجرة المحرم عليه الأكل منها مدعياً أن الأكل منها يمنحه وزوجه الخلود ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ .

والكفر بالبعث والنشور يحدث شقوة للنفوس البشرية ، كما يحدث انحرافاً في مسيرة البشر في الحياة .

إن بعض الذين يرفضون فكرة الرجعة إلى الحياة يبدؤون بالنواح الحزين على حياتهم التي تتلاشى وتتناقص في كل لحظة تمضي ، وقد يسلمهم هذا إلى العزلة والألم حتى يوافيهم الموت ، وإن كانوا كتابا أو شعراء فإنهم يسجلون مشاعرهم الحزينة التي يندبون بها حياتهم في مقالات أو كتب أو أشعار تجسم شقوتهم وحيرتهم وألمهم ، لتكون سلوى لمن كان على مثل ما كانوا عليه ، ولكنها في الحقيقة داء يضاف إلى الداء ، فيزيد المريض مرضاً ، ولا يجلب له الشفاء . وبعض الذين يكفرون بالبعث والنشور يسارعون إلى اقتناص الملذات والشهوات كأنما هم في صراع مع الزمن يخشون أن تمضي أيامهم ولما يشبعوا من مباهج الحياة .

إن فترة وجودنا القصيرة في هذه الدنيا ذات قيمة كبيرة في مسارنا فيما بعد حياتنا هذه ، وإن طريق السعادة الأبدي الذي يوصل إلى الخلود في دار الخلود مرهون بتحقيقنا الرقي الحقيقي في أنفسنا وفي الآخرين ، وهذا الرقي الذي يُصَفِّي أرواحنا ، ويُقَوِّم أعمالنا ، ويهذب أخلاقنا ، له منهج أصيل واضح بين فيما جاءتنا به الرسل الكرام ، وما تضمنته الكتب السماوية .

ولما كان الارتباط بين حياتنا هذه وحياتنا الأخرى وثيقا ، إذ كانت هذه الحياة بمثابة الحرث والزرع ، وكانت تلك بمثابة الجنى والحصاد ، كان لابد للإنسان من أن يعلم عن حياته الآخرة ما يدعوه للاستعداد لها ، وإقامة حياته الدنيا على النمط الذي يحقق له في الآخرة خيرا وفضلا .

ولما كانت الحياة الأخرى غيب لا يستطيع أصحاب العقول الثاقبة ، والقلوب المبصرة اختراق حجبها فضلا عمن هم دونهم ، فإن الله تولى إخبارهم عن مسارهم في رحلتهم بعد الحياة ، وعن مصيرهم المحتوم ، ومزج الحديث عن الحياة الأخرى بالحديث عن هذه الحياة مزجا يجعلهما متداخلتين ، تحقيقا لاصلاح النفوس وتقويمها ، في عالم تدأب فيه مخلوقات كثيرة بشرية وجنيَّة على العمل لاضلال العباد وإبعادهم عن جادة الصواب .

والعلوم التي عرَّفنا الله بها عن اليوم الغائب المستور الذي سنلقاه فيه لا تصلح فيه الإشارات والرموز ، بل لابدَّ من حديث واضح مفصل ، يرى فيه الانسان ما يجعله يقف على اليقين ، فلا يخالطه ريب ، ولا ينازعه شك ، ومن طالع ما دوناه في كتابنا هذا عن اليوم الآخر فإنه سيرى الكم الهائل من نصوص الكتاب والسنة الصحيحة ، وهي نصوص تعطي صورة مفصلة لكثير من الأمور التي تكون بعد الموت وفي المعاد .

والمعاد غيب ، ولكنه غيب صادق ، ولا يكون كذلك إلا إذ صحت نسبة الخبر إلى الله أو إلى رسوله ﷺ ، ولذلك أعرضت في هذا المؤلف عن الأخبار التي لم يصح إسنادها إلى الرسول ﷺ ، كما أعرضت عن منهج الذين يرفضون الاحتجاج بما صح من الأحاديث إذا كانت آحاداً .

ورفضت أيضاً اتباع نهج المؤوِّلين المحرفين للنصوص ، أولئك الذين أقاموا من عقولهم حكما يقاضون إليه النصوص ، فقلبوا الميزان ، فأصبح الحاكم عندهم

محكوما ، فضلوا وأضلوا ، ووصل الحال ببعضهم إلى تكذيب كثير مما يجري في الآخرة مما صحت به الأخبار ، وعمدتهم في ذلك مقاييس عقلية ، لو دققوا النظر فيها لتبين لهم فسادها ، ولو تعمقوا في علوم الآخرة لبان لهم أن الآخرة غير الدنيا ، وإن مقاييس وموازين الآخرة مخالفة لما عليه الحال في الدنيا .

لقد طال البحث في بيان هذا الأصل الاعتقادي العظيم ، ولذا احتجنا إلى أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم منها يصدر في كتاب :

القسم الأول : موضوعه القيامة الصغرى وأشراط القيامة الكبرى .

القسم الثاني : القيامة الكبرى .

القسم الثالث : الجنة والنار .

وهذا هو الكتاب الأول ، وهو يتكون من بابين كما يدل عليه عنوانه ، الباب الأول يبحث في القيامة الصغرى ، ونعني بها الموت ، فهو في الموت وأهواله وسكراته ، والقبر وفتنته ، ونعيمه وعذابه ، ثم في الروح ومصيرها في البرزخ .

والباب الثاني في علامات الساعة ، وعلامات الساعة الدالة على قرب وقوعها كثيرة ، ومن هذه العلامات ما هو كبير ، ومنها ما هو صغير ، والعلامات الصغرى منه ما وقع ومضى ، ومنها ما لم يقع بعد ، والعلامات الكبرى لم تقع بعد ، وهذا الباب حديث عن ذلك كله .

وفي الختام أسأله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يجعله خالصا لوجهه ، وصلى الله عليه وسلم على عبده ورسوله محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

د ـ عمر سليمان الأشقر

الكويت في السادس من رمضان ١٤٠٦

١٩٨٦/٥/١٤

الباب الأول

القيامة الصغرى

الفصل الأول

تعريف وبيان

يطلق على المرحلة التي يمر بها الإنسان بعد هذه الحياة الدنيا عدة أسماء ، منها : القيامة الصغرى ، والبرزخ ، والموت .

وسنعرض لهذه الثلاثة بشيء من التفصيل فيما يأتي .

المبحث الأول

تعريف القيامة الصغرى

القيامة الصغرى هي الموت ، فكل من مات فقد قامت قيامته ، وحان حينه ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة قالت : كان رجال من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسألونه عن الساعة ، فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول : « إن يعش هذا ، لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم »[1] .

قال ابن كثير : « والمراد انخرام قرنهم ، ودخولهم في عالم الآخرة ، فإن كل من مات فقد دخل في حكم الآخرة ، وبعض الناس يقول : من مات فقد قامت قيامته ، وهذا الكلام بهذا المعنى صحيح »[2] .

وقد أشار ابن كثير إلى أن هذا القول يقوله الفلاسفة ، ويريدون به معنى

---

(١) مشكاة المصابيح : (٤٨/٣) .

(٢) النهاية لابن كثير : (٢٤/١) .

فاسدا . فإن الملاحدة يريدون أن الموت هو القيامة ولا قيامة بعدها . يقول ابن كثير : « وقد يقول هذا بعض الملاحدة ، ويشيرون به إلى شيء آخر من الباطل ، فأمّا الساعة العظمى ، وهي وقت اجتماع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فهذا ما استأثر الله بعلم وقته »[1] .

وتسمى القيامة الصغرى أيضا بالمعاد الأول ، كما تسمى بالبرزخ .

يقول ابن القيم : « الموت بعث ومعاد أول » ، فإن الله جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزي فيهما الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . فالبعث الأول : مفارقة الروح للبدن ، ومصيرها إلى دار الجزاء الأول »[2] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الروح ، لابن القيم : ص ١٠٣ .

المبحث الثاني

البرزخ

البرزخ في كلام العرب الحاجز بين الشيئين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾[1] ، أي حاجزا والبرزخ في الشريعة : الدار التي تعقب الموت إلى البعث . قال تعالى :﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2] . قال مجاهد : هو مابين الموت والبعث ، وقيل للشعبي : مات فلان ، قال : ليس هو في دار الدنيا ، ولا في الآخرة[3] .

وقال ابن القيم : « عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه ، وهو ما بين الدنيا والآخرة، قال تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[4] وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة » .

---

(١) سورة الفرقان : ٥٣ .

(٢) سورة المؤمنون : ١٠٠ .

(٣) تذكرة القرطبي : ١٧٧ .

(٤) سورة المؤمنون : ١٠٠ .

المبحث الثالث

الموت

المطلب الأول

الموت في اللغة والاصطلاح

الحياة والموت متناقضان تناقض النور والظلام والبرودة والحرارة ، ولذا فإن معاجم اللغة العربية تُعرِّف كل واحد منهما بأنه نقيض الآخر ، ففي تعريف الحياة تقول : « الحياة نقيض الموت ، والحي من كلِّ شيء : نقيض الموت ، والجمع أحياء »[1] ، وفي تعريف الموت تقول : « الموت والمَوَتان ضد الحياة »[2] ، وأصل الموت في لغة العرب : السكون ، وكل ما سكن فقد مات[3] ، فتراهم يقولون : « ماتت النار موتا : إذا برد رمادها ، فلم يبق من الجمر شيء ، ومات الحر والبرد إذا باخ ، وماتت الريح : ركدت وسكنت ، وماتت الخمر : سكن غليانها ، والموت مالا روح فيه »[4] .

وإذا كان السكون أصل الموت في لغتنا ، فإن الحركة أصل الحياة ، ففي لسان العرب : « الحي كل متكلم ناطق ، والحي من النبات ما كان طريا يهتز »[5] ، والحياة الإنسانية تتحقق بنفخ الروح في جسد الجنين في رحم أمّه ، والموت « انقطاع تعلق الروح بالبدن ، ومفارقته وحيلولة بينهما ، وتبدل حال ، وانتقال من دار إلى دار »[6] .

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور : (١/ ٧٧٤) .
(٢) لسان العرب : (٣/٥٤٧) .
(٣) لسان العرب : (٣/٥٤٧) .
(٤) لسان العرب : (٣/٥٤٧) .
(٥) لسان العرب : (١/٧٧٣) .
(٦) التذكرة للقرطبي : ٤ .

المطلب الثاني

الوفاة الكبرى والوفاة الصغرى

النوم شبيه الموت ، ولذلك يسميه علماؤنا بالوفاة الصغرى، فالنوم وفاة، والقيام من النوم بعث ونشور﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾[1]وفي النوم تقبض أرواح العباد ، ومن شاء الحق أن يمسك روحه في حال نومه أمسكها ، ومن شاء بقاءها ردها إلى الأجل الذي حدده الحق ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[2] . « فقد أخبر الحق أنّ كلا من النفسين الممسكة والمرسلة توفيتا وفاة النوم ، وأمّا التي توفيت وفاة الموت فتلك قسم ثالث ، وهي التي قدمها بقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[3] . . . فإن الله ذكر توفيتين: توفى الموت ، وتوفى النوم ، وذكر إمساك المتوفاه ، وإرسال الأخرى .

ومعلوم أنه يمسك كل ميتة سواء ماتت في النوم أو قبل ذلك ، ويرسل من لم تمت ، وقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[4] يتناول ما ماتت في اليقظة وما ماتت في النوم ، فلما ذكر التوفيتين ذكر أنه يمسكها في إحدى التوفيتين ويرسلها في الأخرى ، وهذا ظاهر اللفظ بلا تكلف »[5] .

---

(١) سورة الأنعام : ٦٠ .

(٢) سورة الزمر : ٤٢ .

(٣) سورة الزمر : ٤٢ .

(٤) سورة الزمر : ٤٢ .

(٥) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤٥٢/٥) .

المطلب الثالث

الموت حتم لازم

الموت حتم لازم لا مناص منه لكل حي من المخلوقات ، كما قال تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(1)، وقال : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(2) . وقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(3) .

ولو نجا أحد من الموت لنجا منه خيرة الله من خلقه محمد ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(4) ، وقد واسى الله رسوله بأن الموت سنته في خلقه ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾(5) .

والموت حق على الإنس والجن ، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لايموت ، والإنس والجن يموتون » .

---

(1) سورة القصص : 88 .
(2) سورة الرحمن : 27 .
(3) سورة آل عمران : 185 .
(4) سورة الزمر : 30 .
(5) سورة الأنبياء : 34 .

المطلب الرابع
للموت أجل محدد

للموت وقت يأتي فيه ، فلا يستطيع أحد أن يتجاوز الأجل الذي ضربه الله ، وقد قدر الله آجال العباد ، وجرى بذلك القلم في اللوح المحفوظ ، وكتبته الملائكة الكرام والمرء في بطن أمه ، فلا يتأخر المرء عما كتب له ولا يتقدم ، وكل إنسان مات أو قتل أو غرق أو سقط من طائرة أو سيارة أو احترق أو غير ذلك من الأسباب ، فإنه قد مات بأجله الذي قدره الله وأمضاه ، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾[1] ، وقال : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3] وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾[4] ، وقال : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾[5] .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال : قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ ، ورضي الله عنها : « اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية » .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٥ .
(٢) سورة النساء : ٧٧ .
(٣) سورة الأعراف : ٣٤ .
(٤) سورة الجمعة : ٨ .
(٥) سورة الواقعة : ٦٠ .

قال : فقال النبي ﷺ : « لقد سألت الله لآجل مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة . لن يعجل شيء قبل أجله ، ولن يؤخر الله شيئا بعد أجله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذكَ من عذاب النار ، وعذاب في القبر كان خيرا وأفضل »[1] .

المطلب الخامس
وقت الموت مجهول لنا

لا علم للعباد بالوقت الذي يحضر فيه الموت ، وينزل بهم ، فإن علم ذلك لله وحده ، وهو واحد من مفاتح الغيب التي استأثر الله بعلمها ، قال تعالى : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2]،وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[3] .

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [4][5] وقد روى أحمد والترمذي وغيرهما عن جماعة من الصحابة قالوا : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ـ أو قال : بها ـ حاجة » .

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر من صحيحه ، وأحمد في المسند : (١/ ٣٩٠ ، ٤١٣ ، ٤٤٥) .

(٢) سورة الأنعام : ٥٩ .

(٣) سورة لقمان : ٣٤ .

(٤) سورة لقمان : ٣٤ .

(٥) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء وفي كتاب التفسير .

الفصل الثاني

الاحتضار

المبحث الأول

حضور ملائكة الموت

إذا حان الأجل وشارفت حياة الإنسان على المغيب أرسل الله رسل الموت لسل الروح المدبِّرة للجسد والمحركة له ، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾(1) ، وملائكة الموت تأتي المؤمن في صورة حسنة جميلة ، وتأتي الكافر والمنافق في صورة مخيفة ، ففي حديث البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنّة ، وحنوط(2) من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدَّ بصره ، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام ، حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة (وفي رواية : المطمئنة) اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها . . .

---

(1) سورة الأنعام : ٦١ .

(2) بفتح الحاء ، ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة .

وإن العبد الكافر (وفي رواية الفاجر) إذا كان في انقطاع من الآخرة، وإقبال من الدنيا ، نزل إليه من السماء ملائكة [غلاظ شداد] سود الوجوه ، معهم المسوح[1] [من النار] فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثمَّ يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب . قال : فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود [الكثير الشعب] من الصوف المبلول ، [فتقطع معها العروق والعصب][2] » .

وما يحدث للميت حال موته لا نشاهده ولا نراه ، وإن كنا نرى آثاره ، وقد حدثنا ربنا تبارك وتعالى عن حال المحتضر فقال : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[3]: والمتحدَّث عنه في الآية الروح عندما تبلغ الحلقوم في حال الاحتضار ، ومَنْ حوله ينظرون إلى ما يعانيه من سكرات الموت ، وإن كانوا لا يرون ملائكة الرحمن التي تسل روحه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[4] كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[5] .

---

(1) جمع المسح ، بكسر الميم، هو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفا ، وقهرا للبدن .
(2) جمع الشيخ ناصر الدين الألباني جميع روايات هذا الحديث ، وساقه سياقا واحدا ضاما إليه جميع الزوائد والفوائد التي وردت في جميع طرقه الثابتة في كتابه القيم : (أحكام الجنائز : ص ٥٩) ، وقد عزاه الشيخ إلى أبي داود (٢/ ٢٨١) والحاكم (١/ ٢٧-٤٠) والطيالسي (رقم ٧٥٣) وأحمد(٤/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦) والسياق له ، والآجري في الشريعة (٣٦٧ - ٣٧٠) وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي ، وهو كما قالا ، وصححه ابن القيم في اعلام الموقعين (١/ ٢١٤) وتهذيب السنن (٤/ ٣٣٧) ، ونقل فيه تصحيحه عن أبي نعيم وغيره » .
(3) سورة الواقعة : ٨٣ - ٨٥ .
(4) سورة الواقعة : ٨٥ .
(5) سورة الأنعام : ٦١ .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[1] والتي تبلغ التراقي هي الروح ، والتراقي جمع ترقوه وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق .

وقد صرح الحديث بأن ملك الموت يبشر المؤمن بالمغفرة من الله والرضوان ، ويبشر الكافر أو الفاجر بسخط الله وغضبه ، وهذا قد صرحت به نصوص كثيرة في كتاب الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[2] .

وهذا التنزُّل ـ كما قال طائفة من أئمة التفسير منهم مجاهد والسدى ـ إنما يكون حالة الاحتضار[3] ، ولا شك أن الإنسان في حالة الاحتضار يكون في موقف صعب ، يخاف فيه من المستقبل الآتي ، كما يخاف على من خلَّف بعده ، فتأتي الملائكة لتؤمنه مما يخاف ويحزن ، وتُطَمْئِنُ قلبه ، وتقول له : لا تخف من المستقبل الآتي في البرزخ والآخرة ، ولا تحزن على ما خلفت من أهل وولد أو دَيْن ، وتبشره بالبشرى العظيمة ، ﴿ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[4] ، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[5] ، وما دام العبد قد تولى الله وحده ،

---

(١) سورة القيامة : ٢٦ ـ ٣٠ .

(٢) سورة فصلت : ٣٠ ـ ٣٢ .

(٣) تفسير ابن كثير : (١٧٤/٦) .

(٤) سورة فصلت : ٣٠ .

(٥) سورة فصلت : ٣٢ .

فإن الله يتولاه دائما ، وخاصة في المواقف الصعبة ، ومن أشقها هذا الموقف ، ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾[1].

أما الكفرة الفجرة فإن الملائكة تتنزل عليهم بنقيض ذلك ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[2] ، وقد نزلت هذه الآية كما أخرج البخاري عن ابن عباس في فريق أسلم ولكنه لم يهاجر فأدركه الموت ، أو قتل في صفوف الأعداء[3] ، فإن الملائكة تقرِّع هؤلاء في حال الاحتضار وتوبخهم ، وتبشرهم بالنار .

وقد حدثنا ربنا عن توفي الملائكة للكفرة في معركة بدر ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[4] .

قال ابن كثير في تفسير الآيات : «ولو ترى يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمرا عظيما فظيعا منكرا ، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون ذوقوا عذاب الحريق »[5] .

وقد أشار المفسر المدقق العلامة ابن كثير إلى أن هذا وإن كان في وقعة بدر ، ولكنه عام في حق كل كافر ، ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر ، بل قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ .. ﴾[6] .

---

(١) سورة فصلت : ٣١ .

(٢) سورة النساء : ٩٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٢/٣٦٩) .

(٤) سورة الأنفال : ٥٠ ـ ٥١ .

(٥) تفسير ابن كثير : (٣/٣٣٥) .

(٦) تفسير ابن كثير : (٣/٣٣٥) .

وهذا الذي قاله ابن كثير صحيح يدل عليه أكثر من آية في كتاب الله تعالى ، كقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾[3] .

(١) سورة الأعراف : ٣٧ .

(٢) سورة النحل : ٢٨ .

(٣) سورة محمد : ٢٥ ـ ٢٧ .

المبحث الثاني

سكرات الموت

للموت سكرات يلاقيها كل إنسان حين الاحتضار ، كما قال تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[1] ، وسكرات الموت كرباته وغمراته ، قال الراغب في مفرداته : « السكر حالة تعرض بين المرء وعقله ، وأكثر ما تستعمل في الشراب المسكر ، ويطلق في الغضب والعشق والألم والنعاس والغشى الناشيء عن الألم وهو المراد هنا »[2] وقد عانى الرسول ﷺ من هذه السكرات ، ففي مرض موته صلوات الله وسلامه عليه كان بين يديه ركوة أو علبة فيهاماء، فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ، ويقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات »[3] ، وتقول عائشة رضي الله عنها في مرض رسول الله ﷺ : « ما رأيت الوجع على أحد أشدَّ منه على رسول الله ﷺ »[4]وقد دخلت عائشة رضي الله عنها على أبيها أبي بكر رضي الله عنه في مرض موته ، فلما ثقل عليه ، تمثلت بقول الشاعر :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

---

(١) سورة ق : ١٩ .

(٢) فتح الباري : (٣٦٢/١١) .

(٣) هذا الحديث أخرجه البخاري عن عائشة في كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت ، فتح الباري : (٣٦١/١١) .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، انظر جامع الأصول : (٦٩/١١) .

فكشف عن وجهه ، وقال رضي الله عنه ، ليس كذلك ، ولكن قولي : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[1][2]» .

ولا شك أن الكافر والفاجر يعانيان من الموت أكثر مما يعاني منه المؤمن ، فقد سقنا طرفا من حديث البراء بن عازب وفيه : أن روح الفاجر والكافر تفرق في جسده عندما يقول لها ملك الموت : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، وأنه ينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول ، فتقطع معها العروق والعصب ، ووصف لنا القرآن الكريم الشدة التي يعاني منها الكفرة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[3] .

وهذا الذي وصفته الآية يحدث ـ كما يقول ابن كثير ـ إذا بشر ملائكة العذاب الكافر بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن ، فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾[4] ، وقد فسر ابن كثير بسط الملائكة أيديهم في قوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾[5] بالضرب ، ومعنى الآية هنا

---

(١) سورة ق : ١٩ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا ، وقد قال ابن كثير في تفسيره (٤٠١/٦) بعد سياقه له : لهذا الأثر طرق كثيرة .

(٣) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٤) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٥) سورة الأنعام : ٩٣ .

كمعناها في قوله ﴿ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾[2] وقد يُحدِّث العقلاء في حال الاحتضار عما يعانونه من شدة الموت وسكراته ، وممن حدَّث بهذا عمرو بن العاص ؛ فعندما حضرته الوفاة ، قال له ابنه : يا أبتاه ! إنك لتقول : يا ليتني ألقى رجلا عاقلا لبيبا عند نزول الموت حتى يصف لي ما يجد ، وأنت ذلك الرجل ، فصف لي ، فقال : يا بني ، والله كأن جنبي في تخت ، وكأني أتنفس من سمّ إبرة ، وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي ، ثم أنشأ يقول :

ليتني كنت قبل ما قد بدالي   في تلال الجبال أرعى الوعولا[3]

الذي يخفف عنه سكرات الموت

أخبرنا الرسول ﷺ أن الشهيد الذي يسقط في المعركة تخفف عنه سكرات الموت ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة » رواه الترمذي والنسائي والدارمي ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب[4] .

---

(١) سورة المائدة : ٢٨ .

(٢) سورة الممتحنة : ٢ .

(٣) التذكرة ، للقرطبي : ص ١٩ .

(٤) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥٨) ورقم الحديث : (٣٨٣٦) ، وقال محقق المشكاة : إسناده حسن .

المبحث الثالث

تمني الإنسان الرجعة عند الاحتضار

إذا نزل الموت بالإنسان تمنى العودة إلى الدنيا ، فإن كان كافرا لعله يسلم ، وإن كان عاصيا فلعله يتوب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[1] ،والإيمان لا يقبل إذا حضر الموت ، والتوبة لا تنفع إذا غرغر العبد ، ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[2] ، وقد ساق الحافظ ابن كثير من الأحاديث ما يدل على أن الله يقبل توبة العبد إذا حضره الموت مالم يصل إلى درجة الغرغرة « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » رواه الترمذي وابن ماجة[3] ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ، ولكن شرط التوبة الإخلاص والصدق ، وقد لايتمكن المرء من التوبة في تلك الأهوال ، فعلى المرء أن يسارع بالتوبة قبل حلول الأجل :

قدم لنفسك توبة مرجوة قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النفوس فإنها ذخر وغنم للمنيب المحسن

---

(١) سورة المؤمنون : ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٢) سورة النساء : (١٧ ـ ١٨) .

(٣) تفسير ابن كثير : (٢٢٤/٣) .

المبحث الرابع

فرح المؤمن بلقاء ربه

إذا جاءت ملائكة الرحمن العبد المؤمن بالبشرى من الله ظهر عليه الفرح والسرور ، أما الكافر والفاجر فإنه يظهر عليه الضيق والحزن والتعب ، ومن ثمَّ فإن العبد المؤمن في حال الاحتضار يشتاق إلى لقاء الله ، والعبد الكافر أو الفاجر يكره لقاء الله تعالى ، فقد روى أنس بن مالك عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، قالت عائشة أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت ، قال : ليس كذلك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيء أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله ، وكره الله لقاءه »(١) ولذلك فإن العبد الصالح يطالب حامليه بالإسراع به إلى القبر شوقا منه إلى النعيم ، بينما العبد الطالح ينادي بالويل من المصير الذاهب إليه، ففي صحيح البخاري وسنن النسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني ، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها ياويلها أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلَّا الإنسان ، ولو سمع الإنسان لصعق »(٢) .

---

(١) رواه البخاري : كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، انظر فتح الباري (١١/٣٥٧) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، قول الميت وهو على الجنازة : قدموني ، فتح الباري : (٣/١٨٤) ، ورواه النسائي كتاب الجنائز ، باب السرعة في الجنازة : (٤/٤١) .

المبحث الخامس

حضور الشيطان عند الموت

إذا حضر الموت كان الشيطان حريصا على الإنسان حتى لا يفلت منه ، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه ، حتى يحضره عند طعامه ، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة ، فليمط ما كان بها من أذى ، ثم ليأكلها ، ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة » ، وقد ذكر علماؤنا أن الشيطان يأتي الإنسان في تلك اللحظات الحرجة في صورة أبيه أو أمّه أو غيرهم ممن هو شفيق عليه ناصح له ، ويدعـوه إلى اتباع اليهودية أو النصرانية أو غيرها من المبادئ المعارضة للإسلام ، فهناك يزيغ الله من كتبت له الشقاوة[1] ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[2] وقد حدث عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل قال : حضرت وفاة أبي أحمد ، وبيدي خرقة لأشدّ لحييه ، فكان يغرق ، ثم يفيق ، ويقول بيده : لا بعد ، لا بعد ، فعل هذا مرارا ، فقلت له : يا أبت أي شيء يبدو منك ؟ فقال : إن الشيطان قائم بحذائي عاض على أنامله ، يقول : يا أحمد فتني ، وأنا أقول : لابعد ، لابعد ، حتى أموت[3] .

---

(١) انظر تذكرة القرطبي : ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران : ٨ .

(٣) تذكرة القرطبي : ٣٤ .

وقال القرطبي : سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي ، يقول : حضرت أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد القرطبي بقرطبة ، وقد احتضر ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فكان يقول : لا لا ، فلما أفاق ، ذكرنا له ذلك ، فقال : أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي ، يقول أحدهما : مت يهوديا فإنه خير الأديان ، والآخر يقول : مت نصرانيا فإنه خير الأديان ، فكنت أقول لهما : لالا . . . »[1] .

ولكن هذا ليس لازما لكل أحد كما يقول ابن تيمية ، بل من الناس من تعرض عليه الأديان قبل موته ، ومنهم من لا تعرض عليه ، وقد وقع ذلك لأقوام ، وهذا كله من فتنة المحيا والممات التي أمرنا أن نستعيذ بها في صلاتنا[2] ، وقد ذكر الشيخ ابن تيمية أن الشيطان أحرص ما يكون على إغواء الإنسان وقت موته ، لأنه وقت الحاجة ، واستدل بالحديث الذي في الصحيح : « الأعمال بخواتيمها » ، وقال ﷺ : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخلها » ، ولهذا روي : « أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت ، يقول لأعوانه : دونكم هذا فإنه إن فاتكم لن تظفروا به أبدا »[3] .

---

(١) التذكرة للقرطبي : ٣٤ .
(٢) مجموع الفتاوي : (٤/٢٥٥) .
(٣) مجموع الفتاوي : (٤/٢٥٦) .

المبحث السادس

أسباب سوء الخاتمة

بعض الذين يظهرون الإسلام ويعملون به يختم لهم والعياذ بالله بخاتمة سيئة، وقد تبدو تلك الخاتمة من بعض من حضرهم الموت، وقد تحدث صديق حسن خان عن سوء الخاتمة فقال: «وله أسباب يجب على المؤمن أن يحترز عنها»[1]، ثم ذكر هذه الأسباب فقال:

١ ـ منها الفساد في الاعتقاد: وإن كان مع كمال الزهد والصلاح، فإن كان له فساد في اعتقاده مع كونه قاطعاً به متيقناً له غير ظان أنه أخطأ فيه قد ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده من الاعتقادات الحقة مثل هذا الاعتقاد باطل لا أصل له إن لم يكن عنده فرق بين اعتقاد واعتقاد، فيكون انكشاف بطلان بعض اعتقاداته سبباً لزوال بقية اعتقاداته، فإن خروج روحه في هذه الحالة قبل أن يتدارك ويعود إلى أصل الإيمان يختم له بالسوء ويخرج من الدنيا بغير إيمان، فيكون من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[2] وقال في آية أخرى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3].

فإن كل من اعتقد شيئاً على خلاف ما هو عليه إما نظراً برأيه وعقله أو أخذاً

---

(١) يقظة أولي الاعتبار: ٢١١.

(٢) سورة الزمر: ٤٧.

(٣) سورة الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

ممن هذا حاله فهو واقع في هذا الخطر ، ولا ينفعه الزهد والصلاح ، وإنما ينفعه الاعتقاد الصحيح المطابق لكتاب الله وسنة رسوله ، لأن العقائد الدينية لا يعتد بها إلا ما أخذت منهما .

٢ ـ ومنها الإصرار على المعاصي ، فإن من له إصرار عليها يحصل في قلبه إلفها ، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره عند موته ، فإن كان ميله إلى الطاعات أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر الطاعات ، وإن كان ميله إلى المعاصي أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر المعاصي ، فربما يغلب عليه حين نزول الموت به قبل التوبة شهوة ومعصية من المعاصي فيتقيد قلبه بها وتصير حجابا بينه وبين ربه ، وسبباً لشقاوته في آخر حياته لقوله ﷺ : « المعاصي بريد الكفر » .

والذي لم يرتكب ذنباً أصلا ، أو ارتكب وتاب فهو بعيد عن هذا الخطر ، وأما الذي ارتكب ذنوباً كثيرة حتى كانت أكثر من طاعاته ولم يتب عنها . بل كان مصراً عليها ، فهذا الخطر في حقه عظيم جداً إذ قد يكون غلبة الإلف بها سبباً لأن يتمثل في قلبه صورتها ، ويقع منه ميل إليها وتقبض روحه عليها فيكون سبباً لسوء خاتمته .

ويعرف ذلك بمثال ، وهو أن الإنسان لاشك أنه يرى في منامه من لأحوال التي ألفها طول عمره ، حتى أن الذي قضى عمره في العلم يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء ، والذي قضى عمره في الخياطة يرى من الأحوال المتعلقة بالخياطة والخياط ، إذ لا يحضر في حال النوم إلا ما حصل له مناسبة مع قلبه لطول الألف. والموت وإن كان فوق النوم لكن سكراته وما يتقدمه من الغشى قريب من النوم ، فطول الإلف بالمعاصي يقتضي تذكرها عند الموت وعودها في القلب وتمثلها فيه وميل النفس إليها ، وإن قبض روحه في تلك الحالة يختم له بالسوء » .

قال الذهبي في الكبائر : « قال مجاهد : ما من ميت يموت إلا مُثِّل له جلساؤه الذين كان يجالسهم ، فاحتضر رجل ممن كان يلعب بالشطرنج ، فقيل له : قل : لا إله إلا الله . فقال : شاهك . ثم مات . فغلب على لسانه ما كان يعتاده حال حياته في اللعب ، فقال عوض كلمة التوحيد : شاهك .

وهذا كما جاء في إنسان آخر ممن كان يجالس شراب الخمر أنه حين حضره الموت ، فجاءه إنسان يلقنه الشهادة ، فقال له : اشرب واسقني . ثم مات ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »[1] .

٣ ـ **ومنها العدول عن الاستقامة** :[2] فإن من كان مستقيما في ابتدائه ثم تغير عن حاله وخرج مما كان عليه في ابتدائه يكون سبباً لسوء خاتمته ، كإبليس الذي كان في ابتدائه رئيس الملائكة ومعلمهم وأشدهم اجتهاداً في العبادة، ثم لما أمر بالسجود لآدم أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وكبلعام بن باعور الذي آتاه الله آياته فانسلخ بإخلاده إلى الدنيا ، واتبع هواه وكان من الغاوين ، وكبرصيصا العابد الذي قال له الشيطان اكفر ، فلما كفر ، قال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ، فإن الشيطان أغراه على الكفر ، فلما كفر تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك ، كما قال تعالى :

﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3] .

٤ ـ **ومنها ضعف الإيمان** : فإن كان في إيمانه ضعف يضعف حب الله تعالى فيه ، ويقوى حب الدنيا في قلبه ، ويستولي عليه بحيث لا يبقى فيه موضع لحب الله

---

(١) الكبائر للذهبي : ص ٩١ .

(٢) يقظة أولي الاعتبار : ص ٢١٢ .

(٣) سورة الحشر : ١٧ .

تعالى ، إلا من حيث حديث النفس بحيث لا يظهر له أثره في مخالفة النفس ، ولا يؤثر في الكف عن المعاصي ، ولا في الحث على الطاعات ، فينهمك في الشهوات وارتكاب السيئات ، فتتراكم ظلمات الذنوب على القلب ، فلا تزال تطفي مافيه من نور الإيمان مع ضعفه ، فإذا جاءت سكرات الموت يزداد حب الله ضعفا في قلبه لما يرى أنه يفارق الدنيا ، وهي محبوبة له ، وحبها غالب عليه لايريد تركها ، ويتألم من فراقها ، ويرى ذلك منه الله تعالى ، فيخشى أن يحصل في باطنه بغضه تعالى بدل الحب ، وينقلب ذلك الحب الضعيف بغضا ، فإن خروج روحه في اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة يختم له بالسوء ويهلك هلاكاً مؤبداً .

والسبب المفضي إلى هذه الخاتمة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح بها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى ، وهو الداء العضال الذي قد عم أكثر الخلق ، فإن من يغلب على قلبه عند الموت أمر من أمور الدنيا يتمثل ذلك الأمر في قلبه ، ويستغرقه ، حتى لا يبقى لغيره متسع ، فإن خرج روحه في تلك الحالة يكون رأس قلبه منكوساً إلى الدنيا ، ووجهه مصروفاً إليها ، ويحصل بينه وبين ربه حجاب .

حكى أن سليمان بن عبدالملك لما دخل المدينة حاجا قال : هل بها رجل أدرك عدة من الصحابة ؟ قالوا نعم ، أبو حازم ، فأرسل إليه، فلما أتاه قال: يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ قال: إنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب ، قال : صدقت ، ثم قال : ليت شعري مالنا عند الله تعالى ؟ قال : اعرض عملك على كتاب الله ، قال فأين أجده ؟ قال في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾(1) .

---

(1) سورة الانفطار : ١٣ ـ ١٤ .

قال : فأين رحمة الله ؟ قال : رحمة الله قريب من المحسنين .

قال : يا ليت شعري كيف العرض على الله تعالى غداً ؟ قال أما المحسن فكالغائب الذي يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه ، فبكى سليمان حتى علا صوته وأشتد بكاؤه ثم قال : أوصني ، قال إياك أن يراك الله تعالى حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك » .

ونقل صديق حسن خان عن الغزالي في «الاحياء» أن سوء الخاتمة على رتبتين : إحداهما أعظم من الأخرى ، فأما الرتبة العظيمة الهائلة فهي أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود ، فتقبض الروح على تلك الحالة فتكون حجاباً بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد .

والثانية : وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا أو شهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره ، فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا ، فالأمر مخطر، لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة يمحو عَنِ القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت ، فإن كان إيمانه في القوة إلى حد مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب ، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار ، ولكن لو لم يكن إلا مثقال حبة فلابد وأن يخرجه من النار ، ولو بعد آلاف السنين ، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به إما تقليداً وإما نظراً بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر ، والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر ، بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق على وفق الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، والبُلْهُ بمعزل عن هذا الخطر[1] .

---

(١) يقظة أولي الاعتبار : ص ٢١٦ .

المبحث السابع
تخيير الأنبياء عند الموت

عندما يحضر الأنبياء الموت فإن الله يريهم مالهم عنده من الثواب الجزيل والأجر العظيم ، ثم يخيرون بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى ذلك المقام الكريم ، ولاشك أن كل رسول يفضل النعيم المقيم ، وقد حدث هذا لرسولنا ﷺ ، خُيِّر فاختار ؛ ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح : « إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنّة ثم يخيّر ، فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ، ثم أفاق ، فأشخص بصره إلى السقف ثم قال : اللهمَّ الرفيق الأعلى ، قلت : إذن لا يختارنا ، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به ، قالت : « فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النبي ﷺ قوله :اللهم في الرفيق الأعلى »[1] وجاء في إحدى رواياته[2] : « فسمعت النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه : وأخذته بُحَّةٌ يقول : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[3] قالت فظننت أنه خيِّر يومئذ .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله ، فتح الباري : (٣٥٧/١١) ، وقد أخرجه أيضا مسلم في صحيحه ، ومالك في موطئه ، والترمذي في سننه ، وقد ساق روايات الحديث عن عائشة ابن الأثير في جامع الأصول : (٦٧/١١) .

(٢) وهي عند جميعهم .

(٣) سورة النساء : ٦٩ .

الفصل الثالث

رحلة الروح إلى السماء بعد نزعها

عن أبي هريرة عند مسلم قال : « إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان ـ يصعدانها » قال حماد[1] « فذكر من طيب ريحها ، وذكر المسك » قال : « ويقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه ، فينطلق به إلى ربه عز وجل ، ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل » .

قال : « وإن الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حماد وذكر من نتنها ، وذكر لعنا ـ ويقول أهل السماء : روح خبيثة من قبل الأرض ، قال : فيقال : انطلقوا به آخر الأجل »[2] .

وقد ذكر الرسول ﷺ في حديث البراء التكريم الذي يكون لروح العبد الصالح بعد خروجها من جسده ، حيث تصلي ملائكة الله على تلك الروح الطيبة ، وتفتح لها أبواب السماء ، وتجعل في كفن من الجنة وحنوط من الجنّة ، وتخرج منها روائح طيبة عطرة تفوق رائحة المسك ، ثم تأخذها الملائكة في رحلة علويّة كريمة ، وتفتح لها أبواب السماء ، أما الروح الخبيثة ، فتلعنها ملائكة السماء

---

(١) أحد رواة حديث أبي هريرة عند مسلم .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت ، (٤/٢٢٠٢) حديث رقم : (٢٨٧٢) .

عند خروجها ، وتغلق أبواب السماء دونها ، ويدعو كل فريق من ملائكة الرحمن على باب ألا تعرج من قبلهم ، وتجعل تلك الروح الخبيثة في حنوط من النار وكفن من النار ، وتفوح منها الروائح الخبيثة التي تؤذي ملائكة الرحمن ، ويعرج بها إلى السماء فلا تفتح لها أبواب السماء ، فتلقى روحه من شاهق ، ففي حديث البراء بن عازب الذي يصف الرسول ﷺ فيه رحلة الإنسان من الموت إلى البرزخ قال : « حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وفتحت له أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج من قبلهم ، فإذا أخذها (يعني ملك الموت) لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، [فذلك قوله تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾][1] ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها ، فلا يمرون - يعني - بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان - بأحسن أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح لهم ، فيشيعه من كل سماء مقربوها ، إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، ﴿ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[2] ،فيكتب كتابه في عليين ، ثم يقال : أعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . . » .

وتحدث الرسول ﷺ عن الروح الخبيثة التي نزعت من العبد الكافر أو الفاجر ، فقال عنها بعد نزعها : « [فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل

---

(١) سورة الأنعام : ٦١ .

(٢) سورة المطففين : ١٩ - ٢١ .

ملك في السماء ، وتغلق أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم] ، فيأخذها ، فإذا أخذها ، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[1] ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى [ثم يقول : أعيدوا عبدي إلى الأرض ، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فتطرح روحه من السماء ، طرحا [حتى تقع في جسده] ، ثم قرأ : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[2] ، فتعاد روحه إلى جسده . »[3] .

وروى ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحا ، قال : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، وربّ غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقول : فلان ، فيقال : مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير

---

(١) سورة الأعراف : ٤٠ .

(٢) سورة الحج : ٣١ .

(٣) حديث صحيح ، سبق تخريجه ص : ٢٠ .

غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تبارك وتعالى[1] ، فإذا كان الرجل السوء : قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغسّاق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال ، من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : لا مرحبا بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنها لا تفتح لك أبواب ، فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر . . . »[2] .

---

(١) ليس المراد أن السماء تحوي الله وتحصره ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل الله فوق سماواته بائن من خلقه ، وقد قال الحق في كرسيه ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ سورة البقرة : ٢٥٥ . وأخبر الرسول ﷺ أن السموات في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، والكرسي في العرش، كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ سورة طه : ٧١ وقوله : ﴿ فسيحوا في الأرض ﴾ سورة براءة : ٢ ليس المراد أنهم في جوف النخل ، وجوف الأرض ، بل معنى ذلك أنه تبارك وتعالى فوق السموات وعليها ، وهذا الحديث مثل قوله تبارك وتعالى : ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ سورة الملك /١٦ أي في العلو ، ومثل قول الرسول ﷺ للجارية « أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال عليه السلام : أعتقها فإنها مؤمنة » والحديث رواه مسلم في صحيحه .

(٢) رواه ابن ماجة في سننه وقد صححه الشيخ ناصر في صحيح الجامع الصغير : (٢/ - ١٦٩) .

الفصل الرابع

القبر

المبحث الأول

هول القبر وفظاعته

روى هانىء مولى عثمان بن عفان ، قال : كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى ، حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشدُّ منه ، قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : ما رأيت منظرا قط إلاّ القبر أفظع منه »[1] أخرجه الترمذي[2] ، ولما كان مابعد القبر أيسر منه لمن نجا فإن العبد المؤمن إذا رأى في قبره ما أعد الله له من نعيم يقول : « رب عجل قيام الساعة ، كيما أرجع إلى أهلي ومالي »[3] والعبد الكافر الفاجر إذا رأى ما أعدّ الله له من العذاب الشديد فإنه يقول

---

(١) أفظع : الفظيع : الشديد الشنيع .

(٢) رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، انظر مشكاة المصابيح : (١/٤٨) وجامع الأصول : (١١/١٦٤) ، وقال الشيخ ناصر في تعليقه على المشكاة : « وسنده حسن » ، وانظر صحيح الجامع الصغير : (٢/٨٥) .

(٣) هذه قطعة من حديث البراء ، وقد سبق تخريجه في ص : ٢٠ .

على الرغم مما هو فيه من عذاب : « رب لا تقم الساعة »[1] ، لأن الآتي أشدُّ وأفظع .

ظلمة القبر

ماتت امرأة كانت تَقُمُّ المسجد في عهد الرسول ﷺ ، ففقدها الرسول ﷺ ، فأخبروه أنها ماتت من الليل ، ودفنوها ، وكرهوا إيقاظه ، فطلب من أصحابه أن يدلوه على قبرها ، فجاء إلى قبرها فصلى عليها ، ثمَّ قال : « إن هذه القبور مليئة ظلمة على أهلها ، وإن الله عز وجل منورها لهم بصلاتي عليهم » رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة والبيهقي وأحمد[2] .

---

(١) هذه قطعة من حديث البراء ، انظر تخريجه في ص ٢٠

(٢) أحكام الجنائز : ص ٨٧ .

المبحث الثاني
ضمة القبر

عندما يوضع الميت في القبر فإنه يضمه ضمة لا ينجو منها أحد كبيرا كان أو صغيرا، صالحا أو طالحا، فقد جاء في الأحاديث أن القبر ضم سعد بن معاذ، وهو الذي تحرك لموته العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، ففي سنن النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: « هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، لقد ضم ضمة، ثمّ فرج عنه »[1] وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عمر أيضا أن الرسول ﷺ قال: « إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجيا منها نجا سعد بن معاذ » رواه أحمد في مسنده[2] وفي مسندي الطبراني الكبير والأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الرسول ﷺ قال: « لو نجا أحد من ضمة القبر، لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضمّ ضمّة، ثم روخي عنه »[3]. ومما يدل على أن ضمة القبر لازمة لكل إنسان أن الصبيان لا ينجون منها، ففي مسند الطبراني الكبير عن أبي أيوب الأنصاري بإسناد صحيح وهو في مسنده الأوسط، وفي الكامل لابن عدي عن أنس أن الرسول ﷺ قال: « لو أفلت أحد من ضمة القبر لنجا هذا الصبي »[4].

---

(١) رواه النسائي، في كتاب الجنائز، باب ضمة القبر وضغطته، (٤/١٠٠)، وقال الشيخ ناصر الدين الألباني في مشكاة المصابيح، (١/٤٩): وسنده صحيح على شرط مسلم.

(٢) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع (٢/٢٣٦) إسناده صحيح.

(٣) قال في صحيح الجامع (٥/٧١) إسناد صحيح.

(٤) صحيح الجامع: (٥/٥٦).

المبحث الثالث
فتنة القبر

المطلب الأول
كيف تكون فتنته

إذا وضع العبد في قبره جاءته ملائكة على صورة منكرة، ففي سنن الترمذي « إذا قبر الميت ـ أو قال : أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر ، وللآخر : النكير ، فيقولان ، ماكنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ماكان يقول ، هو عبدالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . . وإن كان منافقا قال : سمعت الناس يقولون قولا ، فقلت مثله ، لا أدري . . . »[1] .

وجاء في الحديث الذي يرويه البراء بن عازب عن الرسول ﷺ : « فيأتيه ملكان [شديدا الانتهار]فـ[ينتهرانه ، و] يجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن ، فذلك حين يقول الله عز وجل : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2]، فيقول : ربي

---

(١) رواه الترمذي ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، (٣٨٣/٣) وقال الترمذي : حديث حسن غريب ، وقال محقق الكتاب الشيخ أحمد شاكر : لم يخرجه من أصحاب الكتب الستة سوى الترمذي ، وقد رمز له الشيخ ناصر الدين الألباني بالحسن في صحيح الجامع الصغير : (٢٥٩/١) ، وأورده في سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم (١٣٩١) .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٧ .

الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ﷺ ، فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي » وقال في العبد الكافر أو الفاجر : « ويأتيه ملكان [شديدا الانتهار ، فينتهرانه ، و] يجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه ، هاه لا أدري ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول هاه ، هاه لا أدري ، فيقولان : فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فلا يهتدي لاسمه ، فيقال : محمد ، فيقول : هاه ، هاه ، لا أدري ، [سمعت الناس يقولون ذاك ، قال : فيقولان : لا دريت] [ولا تلوت][1] فينادي منادي أن كذب عبدي][2] .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم ، إذا انصرفوا : أتاه ملكان ، فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ، محمد ؟ فأمّا المؤمن ، فيقول : أشهد أنه عبدالله ورسوله . . . وأما الكافر أو المنافق ، وفي روايـة : وأما الكافر والمنافق ـ فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس فيه ، فيقال : لا دريت ، ولا تليت . . . » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي[3] .

ولم يكن الرسول ﷺ يعلم في أول الأمر أن هذه الأمة تفتن في قبورها ، ثم أوحى الله له بهذا العلم ، فقد حدَّث عروة بن الزبير عن خالته عائشة ، قالت : دخل عليَّ رسول ﷺ ، وعندي امرأة من اليهود ، وهي تقول : هل شعرت أنكم تفتنون في القبور ؟ قالت : فارتاع رسول الله ﷺ ، وقال : « إنَّما تفتن اليهود » ، قالت عائشة : فلبثنا ليالي ، ثم قال رسول الله ﷺ : « هل شعرت أنه أوحي إلى

---

(١) أي لا دريت ولا تبعت الناس بأن تقول شيئا يقولونه .
(٢) حديث صحيح ، وسبق تخريجه في ص ٢٠ .
(٣) جامع الأصول : (١١/١٧٣) .

تفتنون في القبور» قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ ، بعد : يستعيذ من عذاب القبر[1] .

المطلب الثاني
هل يفتن الكافر في قبره

دلت الأحاديث التي سقناها على أن الكفار يفتنون في قبورهم ، وقد خالف في ذلك الحكيم الترمذي وابن عبد البر والسيوطي[2] ، واحتج الحكيم الترمذي على عدم السؤال بأن الأمم الماضية إن رفضت الاستجابة لرسلها عوجلت بالعذاب ، بخلاف هذه الأمة ، فقد أمسك عنها العذاب ، وبعث الرسول ﷺ بالسيف ، فمن دخل في الإسلام مخافة القتل ، ثم نافق عذب في قبره ، وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإن الله لم يهلك مكذبي الأمم بعد نزول التوراة[3] ، واحتج ابن عبدالبر بقوله عليه السلام في الحديث الصحيح : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، ومنهم من يرويه . تسأل[4] ، والأحاديث الصحيحة ترد هذا الفهم ، وتدل على أن هذا ليس خاصا بالمؤمنين ، وليس خاصا بهذه الأمة .

وقد ذهب إلى أن السؤال عام عبدالحق الإشبيلي ، وابن القيم ، والقرطبي ، والسفاريني وغيرهم[5] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر ، حديث رقم (٥٨٤) ، (١/ ٤١٠) .

(٢) لوامع الأنوار البهية : (٢/ ١٠) .

(٣) انظر لوامع الأنوار البهية للسفاريني : (٢/ ١٠) .

(٤) لوامع الأنوار البهية للسفاريني : (٢/ ١٠) ، وتذكرة القرطبي : (١٤٧) .

(٥) لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ١٠) ، وتذكرة القرطبي : (١٤٧) .

المطلب الثالث
هل يفتن غير المكلفين

الفتنة عامة لجميع المكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم[1] ، وإلا الشهداء والمرابطين ونحوهم ممن جاءت النصوص دالة على نجاتهم من الفتنة كما سيأتي بيانه .

واختلف في غير المكلفين من الصبيان والمجانين ، فذهب جمع من العلماء إلى أنهم لا يفتنون منهم القاضي أبو يعلي وابن عقيل ، ووجهة نظر هؤلاء أن المحنة تكون لمن كلف ، أما من رفع عنه القلم فلا يدخل في المحنة ، إذ لا معنى لسؤاله عن شيء لم يكلف به .

وقال آخرون : بل يفتنون ، وهذا قول أبي الحكيم الهمداني ، وأبي الحسن ابن عبدوس ، ونقله عن أصحاب الشافعي ، وقد روى مالك وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ صلى على طفل ، فقال : « اللهُمّ قه عذاب القبر وفتنة القبر » ، وهذا القول موافق لقول من قال : إنهم يمتحنون في الآخرة ، وأنهم مكلفون يوم القيامة ، كما هو قول أكثر أهل العلم وأهل السنة من أهل الحديث والكلام ، وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة واختاره ، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد[2] .

---

(١) مجموع الفتاوي : (٢٥٧/٤) .

(٢) راجع مجموع الفتاوي ، لشيخ الإسلام ابن تيمية : (٢٥٧/٤ ، ٢٧٧) .

المبحث الرابع
عذاب القبر ونعيمه

المطلب الأول
أحاديث عذاب القبر ونعيمه متواترة

يقول شارح الطحاوية : « وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ، ولا نتكلم في كيفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول بل إن الشرع قد يأتي بما تحار فيه العقول ، فإن عودة الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا[1] » .

وقال في موضع آخر : « واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه ، قبر أولم يقبر ، أكلته السباع أو احترق حتى صار رمادا ونسف في الهواء ، أو صلب أو غرق في البحر ، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك ، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير »[2] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : (٤٥٠) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : (٤٥١) .

وأنكرت الملاحدة ومن تمذهب بمذهب الفلاسفة من الإسلاميين عذاب القبر ، وقالوا : ليس له حقيقة ، واحتجوا لذلك بأنهم يفتحون القبور فلا يرون شيئا مما أخبرت به النصوص(١) .

وأنكره أيضا الخوارج وبعض المعتزلة كضرار بن عمرو وبشر المريسى ، وخالفهم جميع أهل السنة ، وأكثر المعتزلة(٢) .

وهؤلاء كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وقد ظن هؤلاء أن أبصارهم يمكن أن ترى كل شيء ، وأن أسماعهم يمكن أن تسمع كل شيء ، ونحن اليوم نعلم من أسرار الكون ماكانت أسماعنا وأبصارنا عاجزة عن سماعه ورؤيته ، ومن آمن بالله صدّق خبره .

وقد وردت إشارات في القرآن تدل على عذاب القبر ، وقد ترجم البخاري في كتاب الجنائز لعذاب القبر ، فقال : باب ما جاء في عذاب القبر ، وساق في الترجمة قوله تعالى : ﴿إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾(٣) ، وقوله تعالى : ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾(٤) . وقوله تعالى : ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾(٥) .

والآية الأولى التي ساقها البخاري إنما هي في تعذيب الملائكة الكفار في حال الاحتضار كما سبق بيانه ، والآية الثانية تدل على أن هناك عذابين سيصيبان

---

(١) انظر تذكرة القرطبي : (١٢٥) .

(٢) فتح الباري : (٣/٢٣٣) .

(٣) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٤) سورة التوبة : ١٠١ .

(٥) سورة غافر : ٤٥ .

المنافقين قبل عذاب يوم القيامة ، العذاب الأول ما يصيبهم الله به في الدنيا إمّا بعقاب من عنده وإما بأيدي المؤمنين ، والعذاب الثاني عذاب القبر ، قال الحسن البصري : « سنعذبهم مرتين : عذاب الدنيا ، وعذاب القبر »(١) ، وقال الطبري : «والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والأخرى تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع أو السبي أو القتل والإذلال أو غير ذلك »(٢) .

والآية الثالثة حجّة واضحة لأهل السنة الذين أثبتوا عذاب القبر ، فإن الحق تبارك وتعالى قرر أن آل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا ، وهذا قبل يوم القيامة ، لأنه قال بعد ذلك : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾(٣) ، قال القرطبي : « الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ ، وهو حجّة في تثبيت عذاب القبر »(٤) .

ومن الإشارات القرآنية الواضحة الدالة على فتنة القبر وعذابه قوله تبارك وتعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾(٥) ففي الحديث الذي يرويه البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾(٦) ، وفي رواية أخرى : وزاد ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾(٧) نزلت في عذاب القبر »(٨) .

(١) فتح الباري : (٣/٢٣٣) .
(٢) فتح الباري : (٣/٢٣٣) .
(٣) سورة غافر : ٤٦
(٤) فتح الباري : (١١/٢٣٣) .
(٥) سورة إبراهيم : ٢٧ .
(٦) سورة إبراهيم : ٢٧ .
(٧) سورة إبراهيم : ٢٧ .
(٨) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، فتح الباري : (٣/٢٣١) .

وقد روت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها « أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر ، فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت عائشة الرسول ﷺ عن عذاب القبر ، فقال : نعم ، عذاب القبر . قالت عائشة رضي الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى إلّا تعوذ من عذاب القبر » زاد غندر : « عذاب القبر حق » رواه البخاري(1) .

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : « دخلت عليَّ عجوزان من عُجُز يهود المدينة ، فقالتا : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت : فكذبتهما ، ولم أنعم(2) أن أصدقهما ، فخرجتا ، ودخل رسول الله ﷺ ، فقلت له : يا رسول الله ! إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليَّ ، فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، فقال : « صدقتا ، إنهم يعذبون عذابا تسمعه البهائم » قالت : فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر »(3) . ولعظم هذا الأمر وخطورته كان الرسول ﷺ يعلمه لأصحابه ، بل وخطب فيهم مرة به ، ففي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها : قالت : « قام رسول الله ﷺ خطيباً فذكر فتنة القبر التي يفتن فيها المرء فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة » رواه البخاري(4) والنسائي ، وزاد النسائي : « حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ ، فلما سكنت ضجتهم ، قلت لرجل قريب مني : أي بارك الله لك ، ماذا قال رسول الله ﷺ آخر قوله ؟ قال : قد أوحى إلي : أنكم تفتنون في القبور قريبا من فتنة الدجال »(5) .

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، فتح الباري : (٢٣١/٣) .
(2) (لم أنعم) أي لم تطب نفسي أن أصدقها .
(3) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر : (٤١١/١) .
(4) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، فتح الباري : (٢٣٢/٣) .
(5) رواه النسائي ، انظر جامع الأصول : (١٧٠/١١) .

سماع الرسول ﷺ أصوات المعذبين

وقد أعطى الله رسوله القدرة على سماع المعذبين في قبورهم ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : « بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار ، على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به(١) ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ، فقال : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ فقال رجل : أنا ، قال : فمتى مات هؤلاء ؟ قال : ماتوا في الإشراك ، فقال : إن هذه الأمّة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا(٢) ، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه »(٣) وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن النسائي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس ، فسمع صوتا ، فقال : يهود تعذب في قبورها »(٤) .

ويدل على سماع الرسول ﷺ للمعذبين في قبورهم الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس وفيه أن الرسول ﷺ مرّ بقبرين ، فقال « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير . . . » الحديث ، وسيأتي ذكره بتمامه إن شاء الله .

---

(١) حادت به : أي مالت عن الطريق ونفرت .
(٢) لا تدافنوا : أي مخافة أن لا تدافنوا .
(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، (٤/٢١٩٩) .
(٤) جامع الأصول : (١١/١٧٢) .

سماع غير الرسول ﷺ أصوات المعذبين

لم يزل بعض الناس يتحدثون عن سماعهم أو رؤيتهم للمعذبين في قبورهم ، ومن هؤلاء ثقات أعلام لا مطعن في دينهم وأمانتهم ، يقول ابن تيمية في ذلك : « قد يكشف لكثير من أبناء زماننا يقظة ومناماً ، ويعلمون ذلك ويتحققونه ، وعندنا من ذلك أمور كثيرة »[1] .

وقال في موضع آخر في معرض رده على المكذبين بعذاب القبر : « وإذا عرف أن النائم يكون نائما وتقعد روحه وتقوم وتمشي ، وتذهب وتتكلم وتفعل أفعالا وأمورا بباطن بدنه مع روحه ، ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب ، مع أن جسده مضطجع ، وعينيه مغمضة ، وفمه مطبق ، وأعضاؤه ساكنة ، وقد يتحرك لقوة الحركة الداخلة ، وقد يقوم ويمشي ويتكلم ويصيح ، لقوة الأمر في باطنه ، كان هذا مما يعتبر به أمر الميت في قبره ، فإن روحه تقعد ، وتجلس ، وتسأل ، وتنعم، وتعذب، وتصيح وذلك متصل ببدنه، مع كونه مضطجعا في قبره، وقد يقوى ذلك حتى يظهر ذلك في بدنه ، وقد يرى خارجا من قبره ، والعذاب عليه ، وملائكة العذاب موكلة به ، فيتحرك بدنه ، ويمشي ويخرج من قبره ، وقد سمع غير واحد أصوات المعذبين في قبورهم ، وقد شوهد من يخرج من قبره وهو معذب ، ومن يقعد بدنه أيضا إذا قوي الأمر ، لكن ليس هذا لازما في حق كل ميت ، كما أن قعود بدن النائم لما يراه ، ليس لازما لكل نائم ؛ بل هو بحسب قوة الأمر[2] » .

---

(١) مجموع الفتاوي : (٣٧٦/٢٤) .

(٢) مجموع الفتاوي : (٥٢٥/٥) .

المطلب الثاني
صفة نعيم القبر وعذابه

ذكر الرسول ﷺ في حديث البراء بن عازب أن الملائكة تسأل العبد المؤمن في قبره فيحسن الإجابة وعند ذاك « ينادي مناد في السماء : أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنّة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره ، قال : ويأتيه [وفي رواية : يمثل له] رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، [أبشر برضوان من الله ، وجنات فيها نعيم مقيم] هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : [وأنت فبشرك بخير] من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح [فوالله ما علمتك إلا كنت سريعا في طاعة الله ، بطيئا في معصية الله ، فجزاك الله خيرا] ، ثم يفتح له باب من الجنّة ، وباب من النار ، فيقال : هذا منزلك لو عصيت الله ، أبدلك الله به هذا ، فإذا رأى ما في الجنّة ، قال : رب عجل قيام الساعة ، كيما أرجع إلى أهلي ومالي ، [فيقال له اسكن] » .

وذكر صلوات الله عليه وسلامه أن العبد الكافر[1] أو الفاجر بعد أن يسيء الإجابة « ينادي منادي في السماء أن كذب ، فافرشوا له من النار ، وافتحوا له بابا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه في قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه (وفي رواية : ويمثل له) رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : [وأنت فبشرك الله بالشرّ] ، من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر ،

---

(١) هذا اللفظ ومثله كثير في الأحاديث يرد على ابن عبدالبر والسيوطي والحكيم الترمذي ومن ذهب مذهبهم من القائلين بأن عذاب القبر لعصاة المؤمنين دون الكفار .

فيقول : أنا عملك الخبيث ، [فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئا عن طاعة الله ، سريعا إلى معصية الله] ، [فجزاك الله شرًا ، ثم يقيض الله له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة ، لو ضرب بها جبل كان ترابا ، فيضربه حتى يصير بها ترابا ، ثم يعيده كما كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، ثم يفتح له باب من النار ، ويمهد من فرش النار] ، فيقول : رب لا تقم الساعة »(1) .

وفي حديث أنس أن العبد المؤمن إذا أجاب الإجابة الصادقة في قبره ، « يقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، قال النبي ﷺ : فيراهما جميعا ، قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره » وذكر في حديث أنس أن الكافر والمنافق بعد أن يجيب في قبره تلك الإجابة الكاذبة ، يقال له : « لا دريت ، ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » أخرجه البخاري ومسلم ولفظ الحديث للبخاري ، ولمسلم : « إن العبد إذا وضع في قبره ، ثم ذكر نحوا مما تقدم إلى قوله : وذكر لنا : أنه يفسح فيه سبعين ذراعا ، ويملأ عليه خضرا إلى يوم تبعثون » ، وفي رواية لأبي داود أن العبد المؤمن بعد أن يسأل ويجيب ، « ينطلق به إلى بيت كان له في النار ، فيقال له : هذا كان لك ، ولكن الله عصمك ، فأبدلك به بيتا في الجنّة ، فيراه ، فيقول : دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي ، فيقال له : اسكن »(2) .

وهذا الذي أشارت إليه الأحاديث من أنَّ كل إنسان يعرض عليه مقعده بعد أن يسأل في قبره مستمر طيلة بقائه في القبر ، وقد صرح بذلك الرسول ﷺ ، ففي

---

(1) حديث صحيح ، سبق تخريجه في ص ٢٠ .
(2) انظر هذه الروايات في جامع الأصول : (١١/١٧٣) .

الحديث الذي يرويه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، « أن النبي ﷺ قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »[1] .

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ أخبر أن الملكين يقولان للعبد المؤمن بعد أن يجيب الإجابة السديدة : « قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ، ثم ينور له فيه ، ثم يقال له : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » . وأنهما يقولان للمنافق : « قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض : التئمي عليه ، فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه ، فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك »[2] .

المطلب الثالث

هل يعذب المسلمون في قبورهم

قال القرطبي : « قال أبو محمد عبدالحق : اعلم أن عذاب القبر ليس مختصا بالكافرين ، ولا موقوفا على المنافقين ، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين ، وكل على حاله من عمله ، وما استوجبه من خطيئته وزلله »[3] ، والأدلة على أن المؤمن قد يعذب في قبره بسبب ذنوبه كثيره، وسيأتي ذكر طائفة منها في المبحث التالي .

---

(1) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الميت يعرض عليه مقعده في الغداة والعشى ، فتح الباري : (٢٤٣/٣) ، ورواه مسلم في كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار ، (٢١٩٩/٤) حديث رقم (٢٨٦٦) .

(2) حديث حسن رواه الترمذي في سننه . كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر : (٣٨٣/٣) ، حديث رقم : (١٠٧١) .

(3) تذكرة القرطبي : ١٤٦ .

المطلب الرابع
أسباب عذاب القبر

« الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين : مجمل ومفصّل ، أمّا المجمل فأنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم معاصيه »[1] .

أما المفصل فإن النصوص ذكرت منه الكثير ، وسنشير إلى ما اطلعنا على ذكره في الأحاديث :

١ ، ٢ ـ عدم الاستتار من البول والنميمة :

روى البخاريُّ ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « مرّ النبي ﷺ على قبرين ، فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال : بلى ، أمّا أحدهما فكان يسعى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ، ثم قال : ثم أخذ عودا رطبا فكسره باثنتين ، ثم غرز كل واحد منهما على قبر ، ثمّ قال : لعله يخفف عنهما ، مالم ييبسا »[2] .

وروى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : « دخلت عليَّ امرأة من اليهود ، فقالت : إن عذاب القبر من البول ، فقلت : كذبت ، فقالت : بلى ، إنا لنقرض منه الجلد والثوب ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ، وقد ارتفعت أصواتنا ، فقال : ما هذا ؟ فأخبرته بما قالت فقال : صدقت . قالت : فما صلى

(١) لوامع الأنوار البهية : (١٧/٢) .

(٢) رواه البخاري واللفظ له في كتاب الجنائز ، باب عذاب القبر من الغيبة والبول ، فتح الباري : (٢٤٢/٣) ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على نجاسة البول ، (٢٤٠/١) ، حديث رقم (٢٩٢) ، ورواه النسائي : (١٠٦/٤) .

بعد يومئذ إلا قال دبر كل صلاة : ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أعذني من حرّ النار وعذاب القبر »[1] .

وهذا الذي أشار إليه الحديث من أن بني إسرائيل كانوا يقرضون من البول الجلد والثوب ـ هو من الدين الذي شرعه الله لهم ، ولذلك لما نهاهم من نهاهم عن فعل ذلك عذب في قبره بسبب نهيه ، ففي حديث عبدالرحمن بن حسنة أن رسول الله ﷺ ، قال : « ألم تعلموا ما لقي صاحب بني إسرائيل ، كانوا إذا أصابهم البول قطعوا ما أصابه البول منهم ، فنهاهم عن ذلك ، فعذب في قبره »[2] .

وقد أخبر الرسول ﷺ أن عامة عذاب القبر من البول ، فقد روى أنس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : « تنزهوا من البول ، فإن عامة عذاب القبر منه » ، ورواه ابن عباس بلفظ « عامة عذاب القبر من البول فتنزهوا منه » ورواه أبو هريرة بلفظ « أكثر عذاب القبر من البول »[3] .

٣ ــ الغلول :

ومن الذنوب التي يعذب صاحبها في القبر الغلول ، وقد صح في ذلك أكثر من حديث ، فعن أبي هريرة ، قال : أهدى رجل لرسول الله ﷺ غلاما يقال له :

---

(١) رواه النسائي في سننه ، انظر جامع الأصول : (١١/١٦٧) .
(٢) عزاه في صحيح الجامع (١/٤١٦) إلى أبي داود والترمذي ، وابن ماجة وابن حبان والحاكم .
(٣) وقد خرجه الشيخ ناصر في « إرواء الغليل » ، وقال : صحيح ، وعزا رواية أنس إلى الدارقطني ورواية ابن عباس إلى الدار قطني والحاكم والبزار والطبراني ورواية أبي هريرة إلى ابن أبي شيبة وابن ماجة والآجري والحاكم وأحمد ، انظر إرواء الغليل : (١/٣١١) ، حديث رقم (٢٨٠) .

مِدْعم ، فبينما مدعم يحط رحلا لرسول الله ﷺ إذ أصابه سهم عائر[1] ، فقتله ، فقال الناس . هنيئا له الجنّة ، فقال الرسول ﷺ : « كلا ، والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم ، لتشتعل عليه نارا » ، فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبي ﷺ ، فقال : « شراك من نار أو شراكين من نار » متفق عليه[2] .

وعن عبدالله بن عمرو ، قال : كان على ثقل[3] النبي ﷺ رجل يقال له كركرة ، فمات ، فقال رسول الله ﷺ : «هو في النار» فذهبوا ينظرون فوجدوا عباءَة قد غلّها » رواه البخاري[4] .

٤ ـ ٧ ـ الكذب ، هجر القرآن ، الزنا ، الربا :

أرى الله رسوله ﷺ أنواعا مما يعذب به بعض العصاة ، ففي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال : « كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : من رأى منكم الليلة رؤيا ؟قال : فإن رأى أحد قصها ، فيقول ما شاء الله » .

فسألنا يوماً فقال : هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا : لا قال : لكني رأيت الليلة رجلين أتياني ، فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة ، فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد ـ قال بعض أصحابنا عن موسى : كلوب من حديد يدخله في شدقه ـ حتى يبلغ قفاه ، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ،

---

(١) عائر : لا يدري من رماه .

(٢) مشكاة المصابيح : (٢/٤٠١) .

(٣) الثقل : المتاع المحمول على الدابة .

(٤) مشكاة المصابيح : (٢/٤٠٢) .

ويلتئم شدقه هذا ، فيعود فيصنع مثله .

قلت : ماهذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة ، فيشدخ به رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر ، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو ، فعاد إليه فضربه .

قلت : من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته نارا ، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا ، فإذا خمدت رجعوا فيها ، وفيها رجال ونساء عراة .

فقلت : من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم ، فيه رجل قائم ، على وسط النهر رجل بين يديه حجارة ـ قال يزيد ووهب بن جرير عن جرير بن حازم : وعلى شط النهر رجل ـ فأقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان .

فقلت : ماهذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة ، وفي أصلها شيخ وصبيان ، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها ، فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني دارا لم أر قط أحسن منها ، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان ، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل ، فيها شيوخ وشباب .

قلت : طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت . قالا : نعم . أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة . والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن ، فنام عنه

بالليل ولم يعمل فيه بالنهار ، يفعل به إلى يوم القيامة . والذي رأيته في الثقب فهم الزناة . والذي رأيته في النهر آكلوا الربا . والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام والصبيان حوله أولاد الناس . والذي يوقد النار مالك خازن النار . والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين وأما هذه الدار فدار الشهداء . وأنا جبريل ، وهذا ميكائيل . فارفع رأسك . فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب ، قالا : ذاك منزلك . قلت : دعاني أدخل منزلي . قالا : إنه بقي لك عمر لم تستكمله ، فلو استكملت أتيت منزلك »[١] .

حبس المدين في قبره بدينه

ومما يضر الميت في قبره ما عليه من دين ، فعن سعد بن الأطول رضي الله عنه : « أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم ، وترك عيالا ، قال : فأردت أن أنفقها على عياله ، قال : فقال لي نبي الله ﷺ : « إن أخاك محبوس بدينه ، [فاذهب] فاقض عنه ، [فذهبت فقضيت عنه ، ثم جئت] ، قلت : يارسول الله ، قد قضيت عنه إلاّ دينارين ادعتهما امرأة ، وليست لها بيِّنَه ، قال : أعطها فإنها محقة ، (وفي رواية صادقة)[٢] » .

فقد أخبر الرسول ﷺ أن ذلك الصحابي محبوس بسبب دينه ، ويمكن أن يُفَسَّر هذا الحبس الحديث الآخر حيث قال الرسول ﷺ : « إنه مأسور بدينه عن الجنة » ، ففي الحديث الذي يرويه سمرة بن جندب « أن النبي ﷺ صلى على

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز . فتح الباري : (٢٥١/٣) .

(٢) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (ص : ١٥) : أخرجه ابن ماجة : (٨٢/٢) ، وأحمد : (١٣٦/٤ ، ٧/٥) ، والبيهقي : (١٤٢/١٠) ، وأحد إسناديه صحيح ، والآخر مثل إسناده عند ابن ماجة ، وصححه البوصيري في : (الزوائد) ، وسياق الحديث والرواية الثانية للبيهقي ، وهي والزيادات لأحمد في رواية .

جنازة،(وفي رواية صلى الصبح) ، فلما انصرف قال : أههنا من آل فلان أحد ؟ [فسكت القوم ، وكان إذا ابتدأهم بشيء سكتوا] ، فقال ذلك مرارا ، [ثلاث لا يجيبه أحد] ، [فقال رجل : هو ذا] ، قال : فقام رجل يجر إزاره من مؤخر الناس ، [فقال له النبي ﷺ : ما منعك في المرتين الأوليين أن تكون أجبتني ؟] أما إني لم أنوِّه باسمك إلا لخير ، إن فلانا ـ لرجل منهم ـ مأسور بدينه [عن الجنة ، فإن شئتم فافدوه ، وإن شئتم فأسلموه إلى عذاب الله] ، فلو رأيت أهله ومن يتحرَّون أمره قاموا فقضوا عنه ، [حتى ماأحد يطلبه بشيء] »(١) .

عذاب الميت ببكاء الحي

عندما طُعِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه صهيب يبكي ، يقول : واأخاه ، واصاحباه ، فقال عمر رضي الله عنه : يا صهيب أتبكي عليَّ وقد قال رسول الله ﷺ : « إن الميت يُعَذَّب ببعض بكاء أهله عليه »(٢) .

وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها أن يكون الرسول ﷺ قد قال هذا الحديث ، ففي صحيح البخاري أن ابن عباس ذكر لعائشة ما قاله عمر بعد وفاته ، فقالت : رحم الله عمر ، والله ما حدَّث رسول الله ﷺ أن الله لَيعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليزيد الكافر عذابا

(١) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (ص ١٥) : أخرجه أبو داود (٢/ ٨٤) ، والنسائي (٢/ ٢٣٣) ، والحاكم (٢/ ٢٥ ، ٢٦) ، والبيهقي (٦/ ٤/ ٧٦)والطيالسي في مسنده (رقم ٨٩١ ، ٨٩٢) وكذا أحمد (٥/ ١١ ، ١٣ ، ٢٠) بعضهم عن الشعبي عن سمرة ، وبعضهم أدخل بينهما سمعان بن مُشَنَّج ، وهو على الوجه الأول صحيح على شرط الشيخين ، كما قال الحاكم ووافقه الذهبي ، وعلى الوجه الثاني صحيح فقط ، وقد ذكر الشيخ هناك من أخرج الروايات والزيادات .

(٢) الحديث رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب قول النبي ﷺ : « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه » فتح الباري : (٣/ ١٥١) ، ورواه مسلم أيضا ، انظر جامع الأصول : (١١/ ٩٢) .

ببكاء أهله عليه ، حسبكم القرآن ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1][2] ، وقد أوّلت عائشة رضي الله عنها هذا الحديث أكثر من تأويل ، ورَدَ ذلك عنها في الصحاح والسنن[3] .

وهاهنا أمران : الأول هل قال الرسول ﷺ هذا الحديث ؟ قال القرطبي : « إنكار عائشة ذلك ، وحكمها على الراوي بالتخطئة أو النسيان أو على أنه سمع بعضا ، ولم يسمع بعضا بعيد ، لأن الرواة لهذا المعنى من الصحابة كثيرون، وهم جازمون ، فلا وجه للنفي مع إمكان حمله على محمل صحيح »[4] .

الثاني : كيف يعذب ببكاء أهله عليه وليس ذلك من فعله ، والله يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[5] .

للعلماء في ذلك أجوبة أحسنها ما قاله البخاري في ترجمة الباب الذي وضع الحديث تحته ، قال رحمه الله تعالى : « باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض ما ينح عليه إذا كان النوح من سنته » لقول الله تعالى : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[6] ، وقال النبي ﷺ « كلكم راع ومسئول عن رعيته » ، فإذا لم يكن من سنته فهو كما قالت عائشة رضي الله عنها ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[7][8] وممن ذهب هذا المذهب الترمذي رحمه الله ، فإنه روى حديث عمر رضي الله عنه بلفظ

---

(١) سورة فاطر : ١٨ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، انظر فتح الباري : (١٥١/٣) .
(٣) إذا شئت الاطلاع على هذه التأويلات ارجع إلى فتح الباري : (١٥٢/٣) .
(٤) فتح الباري : (١٥٤/٣) .
(٥) سورة فاطر : ١٨ .
(٦) سورة التحريم : ٦ .
(٧) سورة فاطر : ١٨ .
(٨) انظر فتح الباري : (١٥٠/٣) .

« الميت يعذب ببكاء أهله عليه » ثم قال : « قال أبو عيسى (هو الترمذي) : حديث عمر حديث حسن صحيح ، وقد كره قوم من أهل العلم البكاء على الميت ، قالوا : الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، وذهبوا إلى هذا الحديث ، وقال ابن المبارك : أرجو إن كان ينهاهم في حياته ، أن لا يكون عليه من ذلك شيء »[1] .

وهذا الفقه للحديث هو مذهب القرطبي رضي الله عنه ، فإنه قال: « قال بعض العلماء أو أكثرهم : إنما يعذب الميت ببكاء الحي إذا كان البكاء من سنة الميت واختياره ، كما قال :

إذا أنا مت فانعيني بما أنا أهله وشقي عليَّ الجيب يا ابنة معبد

وكذلك إذا وصى به[2] .

وقد كان النواح ولطم الخدود وشق الجيوب من شأن أهل الجاهلية ، « وكانوا يوصون أهاليهم بالبكاء والنوح عليهم ، وإشاعة النعي في الأحياء ، وكان ذلك مشهورا من مذاهبهم ، وموجودا في أشعارهم كثيرا ، فالميت تلزمه العقوبة في ذلك لما تقدم إليهم في وقت حياته » كذا قال ابن الأثير[3] .

وينبغي أن ينبه هنا إلى لفظ البخاري ، فقد جاء فيه : « يعذب ببعض بكاء أهله عليه » ، ولا يعذب بكل البكاء ، فالبكاء الذي تدمع فيه العين ، ولا شق ، ولا لطم ، ولا شق معه لا يؤاخذ صاحبه به ، وقد جاءت في ذلك نصوص كثيرة .

وقد تعرض العلامة ابن تيمية للمسألة وضعف مذهب البخاري والقرطبي وابن عبدالبر ومن سلك مسلكهم في فقه الأحاديث التي أخبرت أن الميت يعذب

---

(١) سنن الترمذي : (٣/٣٢٦) .

(٢) التذكرة ، للقرطبي : (١٠٢) .

(٣) جامع الأصول ، لابن الأثير : (١٠٢) .

بكاء الحي ، فقد قال رحمه الله تعالى بعدأن ذكر النصوص الواردة في ذلك : « وقد أنكر ذلك طوائف من السلف والخلف ، واعتقدوا أن ذلك من باب تعذيب الإنسان بذنب غيره ، فهو مخالف لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] ، ثم تنوعت طرقهم في تلك الأحاديث الصحيحة .

فمنهم من غلَّط الرواة لها ، كعمر بن الخطاب وغيره ، وهذه طريقة عائشة والشافعي وغيرهما . ومنهم من حمل ذلك على ما إذا أوصى به فيعذب على إيصائه ، وهو قول طائفة ،كالمزني ، وغيره .

ومنهم من حمل ذلك على ماإذا كان عادتهم ، فيعذب على ترك النهي عن المنكر ، وهو اختيار طائفة منهم جدى أبو البركات ، وكل هذه الأقوال ضعيفة جداً[2] » وقد رد قول الذين ردوا هذه الأحاديث بنوع من التأويل ، فقال : « والأحاديث الصحيحة الصريحة التي يرويها مثل عمر بن الخطاب ، وابنه عبدالله ، وأبو موسى الأشعري وغيرهم ، لا ترد بمثل هذا ، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لها مثل هذا نظائر ، ترد الحديث بنوع من التأويل والاجتهاد لاعتقادها بطلان معناه ، ولا يكون الأمر كذلك ، ومن تدبر هذا الباب وجد هذا الحديث الصحيح الصريح الذي يرويه الثقة لا يرده أحد بمثل هذا إلا كان مخطئا[3] » .

ثم بين رحمه الله تعالى أن عائشة وقعت في مثل ما فرت منه ، قال : « وعائشة رضي الله عنها روت عن النبي ﷺ لفظين - وهي الصادقة فيما نقلته - فروت عن

---

(١) سورة فاطر : ١٨ .

(٢) مجموع الفتاوي (٢٤ / ٣٧٠) .

(٣) المصدر السابق : (٢٤ / ٣٧٠) .

النبي ﷺ قوله : « إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه » ، وهذا موافق لحديث عمر ، فإنه إذا جاز أن يزيده عذابا ببكاء أهله ، جاز أن يعذب غيره ابتداء ببكاء أهله ، ولهذا رد الشافعي في «مختلف الحديث» هذا الحديث نظراً إلى المعنى، وقال الأشبه روايتها الأخرى : « إنهم يبكون عليه ، وإنه ليعذب في قبره »[1] .

ورد قول الذين ظنوا أن الحديث يفيد معاقبة الإنسان بذنب غيره ، فقال : « والذين أقروا هذا الحديث على مقتضاه ، ظن بعضهم أن هذا من باب عقوبة الإنسان بذنب غيره ، وأن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، واعتقد هؤلاء أن الإنسان يعاقب بذنب غيره ، فجوزوا أن يدخل أولاد الكفار النار بذنوب آبائهم »[2] وبعد أن أطال النفس في هذه المسألة : مسألة دخول أولاد الكفار النار بذنوب آبائهم ، وأن هذا ليس بصواب من القول، وأن الحق أن الله لا يعذب إلا من عصاه ، وأن الذين لم يبتلوا يمتحنون في عرصات القيامة ، قال : « وأما تعذيب الميت : فهو لم يقل : إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه ، بل قال : « يعذب » ، والعذاب أعمُّ من العقاب ، فإن العذاب هو الألم ، وليس كل من تألم بسبب كان ذلك عقابا له على ذلك السبب ، فإن النبي ﷺ قال : « السفر قطعة من العذاب ، يَمْنَعُ أحدكم طعامه وشرابه » ، فسمى السفر عذابا ، وليس هو عقابا .

والإنسان يعذب بالأمور المكروهة التي يشعر بها ، مثل الأصوات الهائلة ، والأرواح الخبيثة ، والصور القبيحة ، فهو يتعذب بسماع هذا وشمّ هذا ، ورؤية هذا، ولم يكن ذلك عملا له عوقب عليه ، فكيف ينكر أن يعذب الميت بالنياحة ، وإن لم تكن النياحة عملا له ، يعاقب عليه ؟

---

(١) مجموع الفتاوي : (٢٤/ ٣٧١) .
(٢) المصدر السابق .

والإنسان في قبره يعذب بكلام بعض الناس ، ويتألم برؤية بعضهم ، وبسماع كلامه ، ولهذا أفتى القاضي أبو يعلى بأن الموتى إذا عمل عندهم المعاصي فإنهم يتألمون بها ، كما جاءت بذلك الآثار ، فتعذبهم بعمل المعاصي عند قبورهم كتعذيبهم بنياحة من ينوح عليهم ، ثم النياحة سبب العذاب[(١)] » .

وهذا الفقه الذي صار إليه الشيخ العلامة جاءت بعض الأحاديث دالة عليه ، فعن النعمان بن بشير ، قال : « أغمي على عبدالله بن رواحة رضي الله عنه ، فجعلت أخته عمرة تبكي : واجبلاه ، واكذا ، واكذا ، تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئا إلا قيل لي ، أنت كذلك ؟! فلما مات لم تبك عليه »[(٢)] ؛ بل إن هذا المعنى ورد صريحا في الحديث الذي يرويه أبو موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « ما من ميت يموت ، فيقوم باكيه ، فيقول : واجبلاه ! واسيِّداه ! أو نحو ذلك ، إلاّ وكل به ملكان يلهزانه : أهكذا كنت » رواه الترمذي . وقال هذا حديث حسن غريب[(٣)] ، وقال الحافظ في التلخيص بعد سياقه لهذا الحديث : « ورواه الحاكم وصححه ، وشاهده في الصحيح عن النعمان بن بشير[(٤)] » .

وينبغي أن ينبه هنا أنه ليس كل ميت يناح عليه يعذب بالنياح عليه ، فقد يندفع حكم السبب بما يعارضه ـ كما يقول ابن تيميــة ـ كما يكون في بعض الناس من القوة ما يدفع ضرر الأصوات الهائلة ، والأرواح والصور الخبيثة . ثم ذكر أن أحاديث الوعيد يذكر فيها السبب ، وقد يتخلف موجبه لموانع تدفع ذلك ، إما بتوبة مقبولة ، وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بشفاعة شفيع

---

(١) مجموع الفتاوي : (٢٤/٣٧٤) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الجنائز ، باب ماجاء في كراهية البكاء على الميت ، (٣/٣٢٦) . حديث رقم : (١٠٠٣) .

(٤) تلخيص الحبير لابن حجر : ٢/١٤٠ ، حديث رقم (٨٠٦) .

مطاع ، وإما بفضل الله ورحمته ومغفرته . ويبين في الختام أن ما يصيب الميت المؤمن من عذاب في قبره بما نيح عليه يكفر الله به عن سيئاته(١) .

المطلب الخامس
المنجيات من فتنة القبر وعذابه

الذي ينجي المرء من عذاب القبر أن يكون مستعدا للموت ، مشمّرا له ، حتى إذا فاجأه الموت لم يعض أصبع الندم ، ومن الاستعداد للموت الإسراع في التوبة ، وقضاء الحقوق ، والإكثار من الأعمال الصالحة ، فإن الإيمان والصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد وبر الوالدين وصلة الأرحام وذكر الله عز وجل وغيرها من صالح الأعمال تحفظ العبد المؤمن ، وبها يجعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل همٍّ مخرجا .

وقد حدثنا الرسول ﷺ أن الأعمال الصالحة تحرس الإنسان في قبره ، يقول ابن تيمية : « في الحديث المشهور حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، رواه أبو حاتم في صحيحه ، وقد رواه الأئمة قال : «إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن يساره ، وكان فعل الخيرات من الصدق والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه ، فيؤتى من عند رأسه ، فتقول الصلاة : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى عن يساره ، فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى

(١) مجموع الفتاوي : (٤/ ٣٧٥) .

الناس : ما قبلي مدخل ، فيقال له : اجلس ، فيجلس ، قد مثلت له الشمس وقد دنت للغروب ، فيقال له : ماهذا الرجل الذي كان فيكم ، ما تقول فيه ؟ فيقول : دعوني ، حتى أصلي ، فيقولون : إنك ستفعل ، أخبرناعما نسألك عنه ، فقال : عمَّ تسألوني ؟ فيقولون : ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم ، ما تشهد به ؟ فيقول : أشهد أنه رسول الله ، وأنّه جاء بالحق من عند الله ، فيقال على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله تعالى، ثم يفتح له باب من أبواب الجنّة ، فيقال له : ذلك مقَعدك منها ، وما أعدَّ الله لك فيها ، فيزداد غبطة وسرورا ، ثمَّ يفتح له باب من أبواب النار ، فيقال : ذلك مقعدك منها ، وما أعدَّ الله لك فيها ، [لو عصيت الله] ، فيزداد غبطة وسرورا ؛ ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ، وينور له فيه ، ويعاد جسده كما بدىء ، وتجعل نسمته في نسم الطيب ، وهي طير تعلق في شجر الجنة » .

وفي لفظ : « وهو طير يعلق في شجر الجنّة » قال أبو هريرة : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾[1]، وفي لفظ : « ثم يعاد الجسد إلى ما بدىء منه » .

الاستعاذة بالله من فتنة القبر وعذاب القبر

لما كانت فتنة القبر وعذاب القبر من الأهوال الكبار ، والشدائد العظيمة فإن الرسول ﷺ كان يستعيذ من ذلك في صلاته وفي غير الصلاة ، وكان يأمر أصحابه بذلك .

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٧ .

ففي حديث عائشة التي ذكرت فيه أمر اليهودية التي قالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت الرسول ﷺ عن عذاب القبر ؟ فقال : نعم ، عذاب القبر ، قالت فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلاّ تعوذ من عذاب القبر ، زاد غندر : « عذاب القبر حق »(١) .

وعن أنس أن الرسول ﷺ كان يدعو فيقول : « اللهمَّ إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات »(٢) .

وعن عائشة أن الرسول ﷺ كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم ، ومن فتنة القبر ، وعذاب القبر . . »(٣) .

وكان الرسول ﷺ يقول لأصحابه : « تعوذوا بالله من عذاب القبر » فيقولون : « نعوذ بالله من عذاب القبر »(٤) .

وكان يقول لهم : « استجيروا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق »(٥) وكان يأمرهم أن يستعيذوا من أربع فيقول : « استعيذوا بالله من عذاب القبر ، استعيذوا بالله من جهنم ، استعيذوا بالله من فتنة المسيح الدجال ، استعيذوا بالله من فتنة المحيا والممات »(٦)

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، والسياق له ، باب عذاب القبر ، فتح الباري : (١٣/٢٣٢) ورواه مسلم ، كتاب المساجد ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر : (١/٤١٠) .
(٢) قال الشيخ ناصر في صحيح الجامع (١/٤٠٦) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم .
(٣) عزاه في صحيح الجامع (١/٤٠٧) إلى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة .
(٤) رواه مسلم ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه : (٤/٢١٩٩)
(٥) رواه الطبراني بإسناد صحيح ، انظر صحيح الجامع : (١/٣١٧)
(٦) عزاه في صحيح الجامع (١/٣٢٠) إلى الترمذي والنسائي .

وكان يأمرهم بالاستعاذة في الصلاة بعد التشهد من عذاب القبر ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع . يقول : اللهمَّ إني أعوذ بك من عذاب جهنّم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شرّ فتنة المسيح الدجال »[1] .

وعن ابن عباس أن الرسول كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن « اللهمَّ إنا نعوذ بك من عذاب جهنّم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات »[2] .

المطلب السادس
الذين يعصمون من فتنة القبر وعذابه

بعض المؤمنين من الذين قاموا بأعمال جليلة ، أو أصيبوا بمصائب كبيرة يأمنون فتنة القبر وعذابه ، فمن هؤلاء :

١ ـ **الشهيد** : فقد روى المقدام بن معدي كرب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعه ، ويرى مقعده في الجنّة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ؛ الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقربائه » رواه الترمذي وابن ماجه[3] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، (٤١٢/١) حديث رقم : (٥٨٨) .

(٢) رواه مسلم ، كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ به في الصلاة : (٤١٢/١) ، حديث رقم (٥٩٠) .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣٥٨/٢) ، وإسناده صحيح كما قال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني .

وروى النسائي في سننه عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رجلا قال : يا رسول الله ! ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة »[1] .

٢ ـ الذي مات مرابطا[2] في سبيل الله ، فقد روى فضالة بن عبيد ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله ؟ فإنّه ينمي له عمله يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر » رواه الترمذي وأبو داود[3] .

٣ ـ الذي يموت يوم الجمعة ، ففي الحديث عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ ، قال : « ما من مسلم يموت يوم الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر » رواه أحمد والترمذي ، والحديث صحيح بمجموع طرقه أو حسن[4] .

٤ ـ الذي يموت بداء البطن ، وقد ثبت في حديث يرويه عبدالله بن يسار ، قال : « كنت جالسا وسليمان بن صرد وخالد بن عرفطه ، فذكروا أن رجلا توفي ؛ مات ببطنه ، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته ، فقال أحدهما للآخر : ألم يقل رسول الله ﷺ : من يقتله بطنه فلن يعذب في قبره » ؟ فقال الآخر : بلى ، وفي رواية : صدقت[5] .

---

(١) وسنده صحيح ، انظر أحكام الجنائز للشيخ ناصر الدين الألباني : (٣٦) وصحيح الجامع : (٤/١٦٤) .

(٢) الرباط : هو الملازمة في سبيل الله مأخوذة من ربط الخيل، ثم سمي كل ملازم لثغرمن ثغور المسلمين مرابطا فارسا كان أو راجلا ، واللفظة مأخوذة من الرباط .

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥٥) ، وإسناده صحيح كما قال محقق المشكاة .

(٤) رواه أحمد ، والترمذي ، والحديث بمجموع طرقه صحيح أو حسن ، أحكام الجنائز (٣٥) .

(٥) قال الشيخ ناصر في أحكام الجنائز : أخرجه النسائي : والترمذي وحسنه ، وابن حبان في صحيحه ، والطيالسي ، وأحمد ، وسنده صحيح ، (أحكام الجنائز ص ٣٨) .

المبحث الخامس

عظة الموت

المطلب الأول

الموت أعظم واعظ

سقنا إليك طرفا من النصوص التي تحدث عن الموت وسكراته ، والقبر وأهواله ، والعاقل من اعتبر ، فإن الموت أكبر واعظ ، وقد قيل لبعض الزهاد : ما أبلغ العظات ؟ قال : النظر إلى الأموات[١] ، وقد أحسن القرطبي في وصف الموت حيث يقول : « اعلم أن الموت هو الخطب الأفظع ، والأمر الأشنع ، والكأس الذي طعمها أكره وأبشع ، وأنه الأهذم للذات ، والأقطع للراحات ، والأجلب للكريهات ، فإن أمرا يقطع أوصالك ، ويفرق أعضاءك ، ويهدم أركانك ، لهو الأمر الفظيع ، والخطب الجسيم ، وإن يومه لهو اليوم العظيم »[٢] .

المطلب الثاني

التفكر في الموت

كما أن الحياة آية من آيات الله فالموت كذلك آية أخرى تضاد الحياة ، ولكنها لا تقل عنها عجبا ، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٣] .

---

(١) التذكرة للقرطبي : ٩٩ .

(٢) التذكرة للقرطبي : ٢٤ .

(٣) سورة البقرة : ٢٨

والتفكر في هذه الآية تفكر في خلق من خلق الله وعجائبه الدال على عظيم قدرة الله ، وعجيب أمره ، يروى أن أعرابيا كان يسير على جمل له ، فخر ميتا ، فنزل الأعرابي عنه ، وجعل يطوف به ، ويتفكر فيه ، ويقول : مالك لا تقوم ؟ مالك لا تنبعث ؟

هذه أعضاؤك كاملة ، وجوارحك سالمة . ما شأنك ؟ ما الذي كان يحملك ؟ ما الذي كان يبعثك ؟ما الذي صرعك ؟ ما الذي عن الحركة منعك ؟

ثم انصرف متفكرا في شأنه ، متعجبا من أمره[1] .

وأُنْشِدَ في بعض الشجعان مات حتف أنفه[2] :

جاءته من قبل المنون إشارة فهوى صريعا لليدين وللفم
ورمى بمحكم درعه وبرمحه وامتد ملقى كالفتيق الأعظم
لا يستجيب لصارخ إن يدعه أبدا ولا يرجى لخطب معظم
ذهبت بسالته ومرَّ مراره لما رأى حبل المنية يرتمى
ياويحه من فارس ما باله ذهبت مرارته ولما يُكْلَم
هذي يداه وهذه أعضاؤه ما منه عضو غدا بمثلم
هيهات ما حبل الردى محتاجه للمشرفي ولا اللسان اللهذم
هي ويحكم أمر الإله وحكمه والله يقضي بالقضاء المحكم

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٤

(٢) التذكرة للقرطبي : ص ٥

المطلب الثالث

نماذج من عظات الواعظين

وعظ الله رسوله بالموت فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[1] وفي الحديث الذي يرويه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم في مستدركه ، وغيرهم عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، عش ما شئت ، فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس »[2] .

وقد سقنا كثيرا من النصوص التي وعظنا الله ورسوله فيها بالموت، وقد كان هذا دأب الصالحين يعظون أنفسهم بالموت ، ويعظون الناس به ، يقول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : « ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » رواه البخاري في ترجمة باب : الأمل وطوله[3] .

ومن عظات العلماء ماجاء في تذكرة القرطبي : «تفكر يا مغرور في الموت وسكرته ، وصعوبة كأسه ومرارته ، فيا للموت من وعد ما أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله ، كفى بالموت مفزعا للقلوب ، ومبكيا للعيون ، ومفرقا للجماعات ، وهادما للذات ، وقاطعا للأمنيات .

---

(١) سورة الزمر : ٣٠

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، (٥٠٥/٢) ، ورقم الحديث : (٨٣١)

(٣) مشكاة المصابيح : (٦٥٩/٢) ، ورقم الحديث (٥٢١٥) .

فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك ، وانتقالك من موضعك ، إذا نقلت من سعة إلى ضيق ، وخانك الصاحب والرفيق ، وهجرك الأخ والصديق ، وأخذت من فراشك وغطائك إلى غرر ، وغطوك من بعد لين لحافها بتراب ومدر ، فيا جامع المال ، والمجتهد في البنيان ، ليس لك من مالك والله إلا الأكفان ، بل هي للخراب والذهاب ، وجسمك للترائب والمثاب .

فأين الذي جمعته من المال ؟ فهل أنقذك من الأهوال ، كلا بل تركته لمن لا يحمدك ، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك »[1] .

ونقل القرطبي رحمه الله عن يزيد الرقاشي أنه كان يقول لنفسه : « ويحك يا يزيد من ذا يصلي عنك بعد الموت ؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ، من ذا يرضي عنك ربك بعد الموت ؟

ثم يقول : « يأيها الناس ، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم ؟ مَنْ القبر طالبه ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر ، كيف يكون حاله ؟ »[2] .

وقال القرطبي رحمه الله في موضع آخر : « مَثِّلْ نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات ، ونزل بك الأنين والغمرات ، فمن قائل يقول : إن فلانا قد أوصى ، وماله قد أحصى ، ومن قائل يقول : إن فلانا ثقل لسانه ، فلا يعرف جيرانه ، ولا يكلم إخوانه ، فكأني أنظر إليك تسمع الخطاب ، ولا تقدر على رد الجواب . فَخَيِّلْ لنفسك ، يا ابن آدم إذا أخذت لفراشك إلى لوح مغسلك ، فغسلك الغاسل ، وألبست الأكفان ، وأوحش منك الأهل والجيران ، وبكت

(١) التذكرة : ص ٩
(٢) التذكرة : ص ٩

عليك الأصحاب والإخوان ، وقال الغاسل : أين زوجة فلان تحالله ، وأين اليتامى ترككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبدا ، وانشدوا :

ألا أيها المغرور مالك تلعب   تؤمل آمالا وموتك أقرب
وتعلم أن الحرص بحر مبعد   سفينته الدنيا فإياك تعطب
وتعلم أن الموت ينقض مسرعا   عليك يقينا طعمه ليس يعذب
كأنك توصي واليتامى تراهم   وأمهم الثكلى تنوح وتندب
تغص بحزن ثم تلطم وجهها   يراها رجال بعدما هي تحجب
وأقبل بالأكفان نحوك قاصد   ويحثى عليك الترب والعين تسكب[1]

ومن عظات الصحابي الجليل أبي الدرداء قوله : « أضحكني ثلاث ، وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل ليس بمغفول عنه ، وضاحك بملء فيه ، وهو لا يدري أأرضى الله أم أسخطه .

وأبكاني فراق الأحبة محمد ﷺ وحزبه ،وهول المطلع عند غمرات الموت ، والوقوف بين يدي الله ، يوم تبدو السريرة علانية ، ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار »[2] .

وقال أبو الدرداء أو أبو ذر : « تلدون للموت ، وتعمرون للخراب ، وتحرصون على ما يفنى ، وتذرون ما يبقى »[3] .

وقال القرطبي في تذكرته واعظا ناصحا :

« يا هذا ، أين الذي جمعته من الأموال ، وأعددته للشدائد والأهوال ، لقد

---

(١) التذكرة : ص ٢١

(٢) التذكرة : ص ٨٧

(٣) كتاب الزهد والرقائق ، لابن المبارك : ص ٨٨

أصبحت كفك منه عند الموت خالية صفرا ، وبدلت بعد غناك وعزك ذلا وفقرا ، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره ، ويا من سلب من أهله ودياره ؟

ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد ، وأقل اهتمامك لحمل الزاد إلى سفرك البعيد ، وموقفك الصعب الشديد ، أوما علمت يا مغرور أن لابدَّ من الارتحال إلى يوم شديد الأهوال ، وليس ينفعك ثمَّ قيل ولا قال ، بل يعد عليك بين يدي الملك الديان ما بطشت اليدان ومشت القدمان ، ونطق به اللسان ، وعملت الجوارح والأركان ، فإن رحمك الله فإلى الجنة ، وإن كانت الأخرى فإلى النيران .

يا غافلا عن هذه الأحوال إلى كم هذه الغفلة والتوان ؟ أتحسب أن الأمر صغيرا ، وتزعم أن الخطب يسيرا ؟ وتظن أن سينفعك حالك إذا آن ارتحالك ، أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك ، أو يغني عنك ندمك إذا زلت بك قدمك ، أو يعطف عليك معشرك حين يضمك محشرك ، كلا والله ساء ما تتوهم ، ولابدَّ أن ستعلم لا بالكفاف تقنع ، ولا من الحرام تشبع ولا للعظات تسمع، ولا بالوعيد ترتدع ، دأبك أن تتقلب مع الأهواء ، وتخبط خبط العشواء ، يعجبك التكاثر بما لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . يا نائما في غفلة ، وفي خبطة يقظان ، إلى كم هذه الغفلة والتوان ، أتزعم أن ستترك سدى، وأن لا تحاسب غدا ، أم تحسب أن الموت يقبل الرشا ؟ أم تميز بين الأسد والرشا ؟

كلا والله ، لن يدفع عنك الموت مال ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبول إلا العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى ، وحقق ما ادعى ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الفائز من ارعوى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، فانتبه من هذه الرقدة ، واجعل العمل الصالح لك عدة ، ولا تتمنَّ منازل الأبرار وأنت مقيم على الأوزار ، عامل بعمل الفجار ، وراقب الله في الخلوات ، ولا يغرنك الأمل ، فتزهد عن العمل . . وأنشدوا :

تزود من معاشك للمعاد ... وقم لله واعمل خير زاد
ولا تجمع من الدنيا كثيرا ... فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

وقال آخر :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون مثله ... وأنك لم ترصد كما كان أرصدا[1]

المطلب الرابع

نماذج من عظات الشعراء

وقد أكثر الشعراء من ذكر الموت والوعظ به فمن ذلك قول الشاعر :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والإنس والجن فيما بينها ترد
أين الملوك التي كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لابد من وِرده يوما كما وردوا

وقال الآخر :

مشيناها خطا كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطا مشاها
وأرزاق لنا متفرقات ... فمن لم تأته منا أتاها
ومن كتبت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها

(١) تذكرة القرطبي : ٩١ .

وقال آخر :

وإذا وليت قوما ليلة فاعلم بأنك بعدها مسئول
وإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

وقال آخر :

تزود من الدنيا فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من عروس زينوها لزوجها وقد أخذت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرجى طول عمرهم وقد أدخلت أرواحهم ظلمة القبر
وكم من سليم مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر
وكم من فتى يمسي ويصبح لاهيا وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من ساكن عند الصباح بقصره وعند المسا قد كان من ساكن القبر
فكن مخلصا واعمل الخير دائما لعلك تحظى بالمثوبة والأجر
وداوم على تقوى الإله فإنها أمان من الأهوال في موقف الحشر

وقال الآخر :

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فيء أظلك ثم آذن بالزوال

وقال آخر :

يا مقيما قد حان منه رحيل بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
إن للموت سكرة فارتقبها لا يداويك إن أتتك طبيب
كم توانى حتى تصير رهينا ثم تأتيك دعوة فتجيب
وتذكر يوما تحاسب فيه إن من يذكر الممات ينيب
ليس من ساعة من الدهر إلا للمنايا عليك رقيب
كل يوم ترميك بسهم إن تخطى يوما فسوف تصيب

وقال آخر :

المـوت في كل يـوم ينشـر الكفنـا ونـحن في غفـلة عما يراد بنـا
لا تطمئـن إلى الدنيـا وبهجتهـا وإن توشـحت من أثوابـها الحسـنا
أيـن الأحبـة والجيـران ما فعلـوا أيـن الذين هـمو كانوا لنـا سـكنا
سـقاهم الموت كأسـا غير صافيـة فصيرتـهم لأطبـاق الثرى رهنـا

وقال آخر :

قـدم لنفسـك توبـة مرجـوة قبـل الممـات وقبـل حبـس الألسـن
بـادر بها غلـق النفوس فإنهـا ذخـر وغنـم للمنيـب المحسـن

المطلب الخامس
أثر تذكر الموت في إصلاح النفوس

إن لتذكر الموت أثر كبير في إصلاح النفوس وتهذيبها ، ذلك أن النفوس تؤثر الدنيا وملذاتها ، وتطمع في البقاء المديد في هذه الحياة ، وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصي ، وقد تقصر في الطاعات ، فإذا كان الموت دائما على بال العبد ، فإنه يصغر الدنيا في عينه ، ويجعله يسعى في إصلاح نفسه وتقويم المعوج من أمره، فقد روى البيهقي في شعب الإيمان ، وابن حبّان في صحيحه والبزار في مسنده بإسناد حسن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت ، فإنه لم يذكره في ضيق من العيش إلا وسعه عليه ، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها »[1] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٨٨/١) ، ورقم الحديث : (١٢٢٢)

ويذكر ابن المبارك أن صالحا المرى كان يقول: « إن ذكر الموت إذا فارقني ساعة فسد على قلبي »[1] .

وقال الدقاق : « من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوجل بثلاثة : تسويف التوبة ، وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل في العبادة »[2] .

وقال القرطبي : « اعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية ، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية »[3] ويروى أن امرأة شكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة في قلبها ، فقالت لها : اكثري من ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت ذلك فرق قلبها »[4] .

وقال القرطبي : قال العلماء : تذكر الموت يردع عن المعاصي ، ويلين القلب القاسي ، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب[5] .

وقال القرطبي أيضا : قال العلماء ـ رحمهم الله ـ ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور ، وخاصة إن كانت قاسية ، فعلى أصحابها أن يعالجوها بثلاثة أمور :

أحدها : الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يلين القلوب .

الثاني : ذكر الموت ، فيكثر من ذكر هاذم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وميتم البنين والبنات .

---

(١) الزهد والرقائق ، لابن المبارك : ص (٨٨)

(٢) تذكرة القرطبي : ص ٩

(٣) تذكرة القرطبي : ص ٨

(٤) التذكرة : ص ١٢

(٥) التذكرة :ص ١٢

الثالث : مشاهدة المحتضرين ، فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته ، وتأمل صورته بعد مماته ، مما يقطع عن النفوس لذاتها ، ويطرد عن القلوب مسراتها ، ويمسح الأجفان من النوم ، ، والأبدان من الراحة ، ويبعث على العمل ، ويزيد في الاجتهاد والتعب[1] .

وذكر عن الحسن البصري أنه دخل على مريض يعوده ، فوجده في سكرات الموت ، فنظر إلى كربه ، وشدة ما نزل به ، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم ، فقالوا له : الطعام يرحمكم الله ، فقال : يا أهلاه ، عليكم بطعامكم وشرابكم ، فوالله رأيت مصرعا لا أزال أعمل له حتى ألقاه .[2]

وقال أبوالدرداء : « من أكثر ذكر الموت قل فرحه ، وقل حسده »[3] .

---

(١) تذكرة القرطبي : ص ١٢

(٢) تذكرة القرطبي : ص ١٢

(٣) كتاب الزهد لابن المبارك : انظر آخر الكتاب : زوائد كتاب الزهد ، راويه نعيم بن حماد : ص ٣٧

الفصل الخامس
الروح والنفس

المبحث الأول
تعريف وبيان

لابدَّ للباحث في أمر الإنسان بعد موته من إعطاء فكرة عن الروح التي تنعم أو تعذب بعد موتها ، ما هي ؟ وهل لها كيفية تعلم ؟ وهل هي جزء من البدن ، أم شيء آخر غير البدن ؟ فإن كانت غيره فأين مسكنها فيه ؟ وهل هي مخلوقة ؟ وهل هي واحدة في الإنسان أم متعددة ؟ وهل تموت الأرواح ، وكيف موتها ؟ وأين مستقرها في البرزخ ، وهل تعلم الأرواح شيئا عما يجري في الدنيا من البرزخ ؟

يقول ابن تيميه : « والروح المدبرة للبدن التي تفارقه بالموت هي الروح المنفوخة فيه ، وهي النفس التي تفارقه بالموت »(١) ، وقد أخطأ الذين فرقوا بين الروح والنفس واعتقدوا أنهما أمران مختلفان ، ومن تأمل فيما سقناه في بحثنا من نصوص علم أن النفس هي التي تقبضها الملائكة ، وتصعد بها إلى السماء ، وتعود بها إلى الجسد ، وتسأل ، وتنعم وتعذب ، وهي الروح أيضا التي إذا خرجت من الجسد تبعها البصر كما ثبت في الأحاديث .

---

(١) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : ٢/٣٦ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية : ٤٤٥ .

وهذا المخلوق الذي تكون به الحياة ، وتفقد الحياة بفقده يسمى روحا ونفسا ، ولا يمنع هذا أن تطلق كل من الروح والنفس اطلاقات أخرى ، يقول ابن تيمية : « لفظ الروح والنفس يعبر بهما عن عدة معان : فيراد بالروح الهواء الخارج من البدن والهواء الداخل فيه ، ويراد بالروح البخار الخارج من تجويف القلب من سويداه الساري في العروق ، وهو الذي تسميه الأطباء الروح ، ويسمى الروح الحيواني ، فهذان المعنيان غير الروح التي تفارق بالموت التي هي النفس ، ويراد بنفس الشيء ذاته وعينه ، وقد يراد بلفظ النفس الدم الذي يكون في الحيوان ، كقول الفقهاء : « ماله نفس سائلة ، وما ليس له نفس سائلة » فهذان المعنيان بالنفس ليسا هما معنى الروح »(١) .

وتطلق الروح أيضا على جبرائيل ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾(٢) ، وتطلق على القرآن ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾(٣) .

ويلاحظ شارح الطحاوية أن الروح والنفس وإن أطلقا على تلك اللطيفة الربانية ، إلا أن « غالب ما يسمى نفسا إذا كانت الروح متصلة بالبدن ، وأمّا إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها »(٤) .

ويقول ابن تيمية في هذا : « لكن تسمى نفسا باعتبار تدبيره للبدن، وتسمى روحا باعتبار لطفه ، ولهذا يسمى الريح روحا ، وقال النبي ﷺ : « الريح من روح الله »(٥) أي من الروح التي خلقها الله(٦) .

---

(١) المصدر السابق : (٢ / ٣٩)
(٢) سورة الشعراء : (١٩٣)
(٣) سورة الشوري : (٥٢) .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ص (٤٤٤)
(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود والحاكم .
(٦) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٢ / ٣٧)

المَبحَث الثـاني

هَل للرُّوح كيفيَّة تعـلم ؟

لما كانت الروح مخلوقة من جنس لا نظير له في عالم الموجودات فإننا لا نستطيع أن نعرف صفاتها ، فقد عرفنا الله أنها تصعد وتهبط ، وتسمع وتبصر وتتكلم إلى غير ذلك ، إلا أنَّ هذه الصفات مخالفة لصفات الأجسام المعروفة ، فليس صعودها وهبوطها وسمعها وبصرها وقيامها وقعودها من جنس ما نعرفه ونعلمه ، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الروح يصعد بها إلى السموات العلى ، ثم تعاد إلى القبر ، ساعة من الزمن ، وقد أخبرنا أنها تنعم أو تعذب في القبر ، ولا شك أن هذا النعيم على نحو مخالف لما نعلمه ونعرفه .

المبحث الثالث

استقلال الروح عن البدن

« يرى فريق من أهل الكلام المبتدع المحدث من الجهمية والمعتزلة أنَّ الروح جزء من أجزاء البدن ، أو صفة من صفاته ، كقول بعضهم : إنَّها النفس أو الريح التي تردد في البدن ، وقول بعضهم ؛ إنها الحياة أو المزاج أو نفس البدن »[1] .

« والفلاسفة المشاؤون يقرون بأن النفس تبقى إذا فارقت البدن ، لكن يصفون النفس بصفات باطلة فيدعون أنها إذا فارقت البدن كانت عقلا ، والعقل عندهم مجرد عن المادة وعلائق المادة ، والمادة عندهم هي الجسم ، والعقل عندهم قائم بنفسه لا يوصف بحركة ولا سكون ولا يتجدد له أحوال البتة »[2] .

وقد تخبط هؤلاء وهؤلاء في مقالاتهم في الروح ، فأهل الكلام المبتدع المذموم الذين قالوا : إنَّ الروح هي الحياة أو المزاج أو نفس البدن أنكر كثير منهم عذاب القبر ، فليس هناك روح تنعم أو تعذب بعد الموت في البرزخ . ورفضوا النصوص التي أثبتت ذلك .

والفلاسفة الذين زعموا أن الروح إذا فارقت البدن تصبح عقلا ، قالوا : « إذا فارقت البدن لا يتجدد لها حال من الأحوال لا علوم ولا تصورات ، ولا سمع ولا بصر ، ولا إرادات ، ولا فرح ولا سرور ، ولا غير ذلك مما قد يتجدد ويحدث ،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (٣١/٣) ، رسالة العقل والروح لابن تيمية ، انظر مجموعة الرسائل المنيرية : (٢١/٢) .

(٢) مجموعة الرسائل المنيرية ، رسالة العقل والروح : (٢١/٢)

بل تبقى عندهم على حال واحدة أزلا وأبدا ، كما يزعمونه في العقل والنفس »[1] .

وفريق من الفلاسفة يصفونها بما يصفون به واجب الوجود عندهم ، وهي أمور لا يتصف بها إلا ممتنع الوجود ، فيقولون لا هي داخل البدن ولا خارجه ، ولا مباينه له ، ولا مداخلة له ، ولا متحركة ولا ساكنة ، ولا تصعد ولا تهبط ، ولا هي جسم ولا عرض »[2] .

والسبب الذي أوقع كلا الفريقين في هذا الخطأ أنهم اعتمدوا على عقولهم وما وضعوه من مقاييس في البحث في أمر غيبي ، فالفريق الأول أنكر وجود روح مستقلة عن البدن ، وهذا تكذيب للنصوص المتواترة ، وإنكار لأمر معلوم من الدين بالضرورة ، والفلاسفة المشاؤون ومن سلك سبيلهم أثبتوا وجود الروح مستقلة عن البدن ، ولكن لما كانت هذه الروح «ليست من جنس هذا البدن ، ولا جنس العناصر والمولدات منها ، بل هي جنس آخر مخالف لهذه الأجناس »[3] صعب عليهم تعريفها وتصورها ، وضاقت تعبيراتهم ومقاييسهم عن حدها وتصورها، وقد هدى الله الذين استجابوا لله ورسوله، وآمنوا بما أخبرهم به، فعلموا أن « الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ، ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف ، بقي هذا الجسم اللطيف متشابكا بهذه الأعضاء ، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة والإرادة ، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها ، وخرجت عن

---

(1) المصدر السابق : (٢/٢٢)
(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٣/٣١)
(3) المصدر السابق : (٣/٣٢)

قبول تلك الآثار فارق الروح البدن ، وانفصل إلى عالم الأرواح »[1] .

وقد سقنا في تضاعيف بحثنا كثيرا من الأدلة التي تثبت أن الروح شيء مستقل عن البدن ، كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾[2] ، وقوله ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾[3] ، وقوله ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾[4] وقوله : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[5] ، وقوله : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾[6] ، فالذي يمسك ، وتتوفاه الملائكة ، ويبلغ الحلقوم ، ويبلغ التراقي ، والذي يساق - لابدَّ أن يكون شيئا حقيقيا مخالفا للجسد .

وقد سقنا الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ أنَّ ملك الموت يقبض الروح ، وأنَّ الملائكة تضع تلك الروح في كفن من الجنة أو النار بحسب فلاحها أو فسادها ، وأنَّه يذهب بها في رحلة علوية سماوية ، حيث تفتح لها أبواب السماء إن كانت صالحة ، وتغلق دونها إن كانت طالحة ، وأنها تعاد إلى الجسد ، وتسأل

---

(١) هذا تعريف ابن القيم للروح في كتابه :الروح ، وقد نقله عنه السفاريني في لوامع الأنوار البهية : (٢٩/٢) ، وعزاه إليه ، وذكره بنصه شارح الطحاوية من غير عزو ، انظر شرح الطحاوية : ص (٤٣٣) ، وقد قال ابن القيم بعد سياقه لهذا التعريف : « وهذا القول هو الصواب في المسألة ، وهو الذي لا يصح غيره ، وكل الأقوال سواه باطلة ، وعليه دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ، وذكر مائة وخمسة عشر دليلا فأجاد وأفاد وزيف كلام ابن سينا وابن حزم وأمثالها .

(٢) سورة الزمر : ٤٢

(٣) سورة الأنفال : ٥٠

(٤) سورة الأنعام ٩٣ .

(٥) سورة القيامة : ٢٦ - ٣٠ .

(٦) سورة الواقعة : ٨٣ - ٨٤

وتعذب أو تنعم ، وأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، وأرواح المؤمنين طير يعلق شجر الجنة ، وأن الروح إذا قبض تبعه البصر ، إلى غير ذلك من النصوص الدالة في مجموعها دلالة قاطعة على أن الأرواح شيء آخر غير الأبدان ، وأنها تبقى بعد مفارقة البدن .

المبحث الرابع

مسكن الروح في الجسد

الروح تسري في بدن الإنسان كله ، يقول ابن تيمية : « لا اختصاص للروح بشيء من الجسد ، بل هي سارية في الجسد كما تسري الحياة التي هي عرض في جميع الجسد ، فإن الحياة مشروطة بالروح ، فإذا كانت الروح في الجسد كان فيه حياة ، وإذا فارقته الروح فارقته الحياة . »[1] .

---

(١) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٢/٤٧) .

المَبحث الخامس
الرُّوح مخلوقة

ذهب فريق من الفلاسفة إلى أن الروح غير مخلوقة بل هي قديمة أزلية ، ولكنها ليست من ذات الرب ، ومقالتهم في الروح هي مقالتهم في العقول والنفوس الملكية ، ويزعم من دخل من أهل الملل فيهم أنها هي الملائكة .

وذهب صنف آخر من زنادقة هذه الأمّة وضلالها من المتكلمة والمتصوفة والمحدثة إلى أن الروح من ذات الله ، وهؤلاء ـ كما يقول ابن تيمية ـ أشرُّ قولا من أولئك ، وهؤلاء جعلوا الآدمي نصفين : نصف لاهوت ، وهو روحه ، ونصف ناسوت وهو جسده : نصفه رب ونصفه عبد[1] .

والحق الذي لا ينبغي أن يخالف فيه أن الروح مخلوقة مبتدعة ، ويدل على ذلك أمور :

١ ـ الإجماع :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « روح الآدمي مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماعَ العلماء على أنها مخلوقة غيرُ واحد من أئمة المسلمين ، مثل محمد بن نصر المروزي ، الإمام المشهور ، الذي هو أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف ، أو من أعلمهم .

وكذلك أبو محمد بن قتيبة ، قال في « كتاب اللقط » لما تكلم على خلق

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٢٢) .

الروح ، قال : النسم الأرواح ، قال : وأجمع الناس أن الله خالق الجثة وباريء النسمة ، أي الروح .

وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة : سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة أو غير مخلوقة ، قال : هذا مما لايشك فيه من وفق للصواب ، إلى أن قال : والروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ ، وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة .

وصنف الحافظ أبو عبدالله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً في (الروح والنفس) وذكر فيه من الأحاديث والآثار شيئاً كثيرا ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره ، والشيخ أبو يعقوب الخراز ، وأبو يعقوب النهرجوري ، والقاضي أبو يعلي ، وغيرهم ، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار ، واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في عيسى بن مريم ، لاسيما في روح غيره كما ذكره أحمد في كتابه في « الرد على الزنادقة والجهمية »[1] .

٢ ـ الكتاب والسنة :

الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على خلقها كثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] ، يقول شارح الطحاوية عقب استدلاله بهذه الآية : « فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما »[3] ومن ذلك قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[4] ، وقوله جلَّ وعلا لزكريا : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢١٦/٤) .
(٢) سورة الرعد : ١٦ ، وسورة الزمر : ٦٢ .
(٣) شرح الطحاوية : ص (٤٤٢) .
(٤) سورة الانسان : ١ .

قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[1] ، والإنسان اسم لروح الإنسان وبدنه ، وخطاب الله لزكريا لروحه وبدنه ، يقول ابن تيمية : « الإنسان عبارة عن البدن والروح معا ، بل هو بالروح أخص منه بالبدن ، وإنما البدن مطية للروح ، كما قال أبو الدرداء : إنما بدني مطيتي ، فإن رفقت بها بلغتني ، وإن لم أرفق بها لم تبلغني، وقد رواه ابن مندة وغيره عن ابن عباس ، قال لاتزال الخصومة يوم القيامة بين الخلق حتى تختصم الروح والبدن ، فتقول الروح للبدن : أنت عملت السيئات ، فيقول البدن للروح ، أنت أمرتني ، فيبعث الله ملكا يقضي بينهما ؛ فيقول : إنما مثلكما كمثل مقعد وأعمى دخلا بستانا ، فرأى المقعد فيه ثمرا معلقا ؛ فقال للأعمى : إني أرى ثمرا ولكن لا أستطيع النهوض إليه ، وقال الأعمى : لكني أستطيع النهوض إليه ، ولكني لا أراه ، فقال المقعد : تعال فاحملني حتى أقطفه ، فحمله وجعل يأمره فيسير به إلى حيث يشاء فقطع الثمرة ، قال الملك : فعلى أيهما العقوبة ؟ قالا : عليهما جميعا، قال : فكذلك أنتما »[2] .

٣ ـ ذكرنا في بحثنا هذا كثيرا من النصوص عن النبي ﷺ أن الأرواح تقبض ، وتوضع في كفن وحنوط تأتي بها الملائكة ، ويصعد بها ، وتنعم وتعذب ، وتمسك في النوم ، وترسل ، وكل هذا شأن المخلوق المحدث .

٤ ـ لو لم تكن مخلوقة مربوبة لما أقرت بالربوبية ، وقد قال الله للأرواح حين أخذ الميثاق على العباد وهم في عالم الذر ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، وذلك ما قرره الحق في قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ...﴾[3] ، وما دام هو ربهم فإنهم مربون مخلوقون .

---

(١) سورة مريم : ٩ .
(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٢٢/٤) .
(٣) سورة الأعراف : ١٧٢ .

٥ ــ لو لم تكن الأرواح مخلوقة فإن النصارى لا لوم عليهم في عبادتهم عيسى ، ولا في قولهم إنه ابن الله ، أو هو الله .

٦ ــ لو كانت الروح غير مخلوقة فإنها لاتدخل النار ولا تعذب ، ولا تحجب عن الله ، ولا تغيب في البدن ، ولا يملكها ملك الموت ، ولما كانت صورة توصف ، ولم تحاسب ولم تعذب ، ولم تتعبد ولم تخف ، ولم ترج ، ولأن أرواح المؤمنين تتلألأ ، وأرواح الكفار سود مثل الفحم[1] .

---

(١) الأدلة الثلاثة الأخيرة استدل بها أبو سعيد الخراز ، أحد أكابر المشايخ الأئمة من أقران الجنيد فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، انظر مجموع الفتاوي (٤/ ٢٢٠) .

المبحث السادس

شبهات الذين زعموا أن الروح غير مخلوقة

الذين قالوا إن الروح غير مخلوقة احتجوا بمثل قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾(١) ، والجواب عن هذا من وجوه :

الأول : أن الروح هنا ليست روح الآدمي ، وإنما هو اسم ملك ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾(٢) ، وقال : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾(٣) ، وقال : ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾(٤) ، وهذا قول معروف مشهور عند علماء السلف في تفسير الآية .

الثاني : وإذا قلنا إن المراد بالروح هنا روح الآدمي ـ كما هو قول جمع من علماء السلف في الآية ـ فليس فيها ما يدل على أن الروح غير مخلوقة ، وأنها جزء من ذات الله تعالى كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب ، بل المراد أنها تنسب إلى الله لأنها بأمره تكونت ، أو لأنها بكلمته كانت ، والأمر في القرآن يذكر ويراد به المصدر تارة ، ويراد به المفعول تارة أخرى وهو المأمور به ، كقوله تعالى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾(٥) ، أي المأمور به ، ويمكن أن يقال أيضا :أن لفظه (من) في قوله :

---

(١) سورة الإسراء : ٨٥ .

(٢) سورة النبأ : ٣٨

(٣) سورة المعارج : ٤

(٤) سورة القدر : ٤

(٥)سورة النحل : ١ .

(من أمر ربي) لإبتداء الغاية ، ومعلوم أن (من) تأتي لبيان الجنس ، كقولهم : باب من حديد ، وتأتي لإبتداء الغاية ، كقولهم : خرجت من مكة ، فقوله :(من أمر ربي) ليس نصا في أن الروح بعض الأمر ومن جنسه ، بل هي لابتداء الغاية إذ كونت بالأمر ، وصدرت عنه ، وهذا معنى جواب الإمام أحمد في قوله : وروح منه حيث قال : (وروح منه) يقول من أمره كان الروح ، كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[1]، ونظير هذا أيضا قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[2] .

فإذا كانت المسخرات والنعم من الله ، ولم تكن بعض ذاته ، بل منه صدرت ، لم يجب أن يكون معنى قوله في المسيح : روح منه ، أنها بعض ذاته[3] .

الشبهة الثانية : قوله تعالى في آدم ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[4] ، وقوله في عيسى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾[5] ، قالوا : فقد أضاف الله الروح إلى نفسه ، وقد أجاب عن هذه الشبهة شارح الطحاوية فقال : « ينبغي أن يعلم أن المضاف إليه الله تعالى نوعان : صفات لاتقوم بأنفسها ، كالعلم والقدرة ، والكلام والسمع والبصر ، فهذه إضافة صفة إلى موصوف بها ، فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له ، وكذا وجهه ويده سبحانه .

والثاني : إضافة أعيان منفصلة عنه ، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح كقوله : ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾[6] وقوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

(٢) سورة النحل : ٥٣ .

(٣) للتوسع في هذا المبحث راجع : مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٢٦ ـ ٢٣٥) .

(٤) سورة الحجر : ٢٩ .

(٥) سورة الأنبياء : ٩١ .

(٦) سورة الشمس : ١٣ .

عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾[1] وقوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ . . ﴾[2] فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ، لكن إضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا ، يتميز بها المضاف إلى غيره »[3] .

(١) سورة الفرقان : ١ .

(٢) سورة الحج : ٢٦ .

(٣) شرح الطحاوية : ص ٤٤٢ ، وراجع رسالة الروح ،، مجموعة الرسائل المنيرية : (٢/ ٣٨) .

المبحث السابع

أنواع النفوس

أخبرنا الحق أن النفوس ثلاثة أنواع : النفس الأمارة بالسوء ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[1] ، والنفس اللوامة ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[2] ، والنفس المطمئنة ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[3] ، وليس المراد أن لكل إنسان ثلاثة نفوس ، وإنما المراد أن هذه صفات وأحوال لذات واحدة ، فإذا غلب على النفس هواها بفعلها للذنوب والمعاصي فهي النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة هي التي تذنب وتتوب ، سميت لوامة ، لأنها تلوم صاحبها على الذنوب ، ولأنها تتلوم أي تتردد بين فعل الخير والشر ، والنفس المطمئنة هي التي تحب الخير والحسنات وتريدها ، وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك ، وقد صار ذلك لها خلقا وعادة وملكة[4] .

وقال شارح الطحاوية بعد أن ذكر أنواع النفوس : « والتحقيق : أنها نفس واحدة ، لها صفات ، فهي أمارة بالسوء ، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة ، تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها ، وتلوم بين الفعل والترك ، فإذا قوى الإيمان صارت مطمئنة »[5] .

---

(١) سورة يوسف : ٥٣ .

(٢) سورة القيامة : ٢ .

(٣) سورة الفجر : ٢٧ .

(٤) راجع رسالة العقل والروح لابن تيمية ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٤١/٢) .

(٥) شرح الطحاوية : ص ٤٤٥ .

المبحث الثامن
هل تموت النفوس

يقول ابن تيمية : « والأرواح مخلوقة بلاشك ، وهي لا تعدم ولا تفنى ، ولكن موتها بمفارقة الأبدان ، وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى الأبدان »[1] .

وقد تعرض شارح الطحاوية لهذه المسألة ، فقال : « واختلف الناس هل تموت الروح أم لا ؟ فقالت طائفة : تموت لأنها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت ، . . . وإذا كانت الملائكة تموت ، فالنفوس البشرية أولى بالموت ، وقال آخرون ، لاتموت الأرواح ، فإنها خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان ، قالوا : وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ، والصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها ، فإن أريد بموتها هذا القدر ، فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية فهي لاتموت بهذا الاعتبار ، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب ، . . . وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[2]، وتلك الموتة هي مفارقة الروح الجسد »[3] .

---

(١) مجموع الفتاوي : (٤/٢٧٩) .

(٢) سورة الدخان : ٥٦ .

(٣) شرح الطحاوية : ص (٤٤٦) .

المبحث التاسع

مستقر الأرواح في البرزخ

أرواح العباد في البرزخ متفاوتة في منازلها ، وقد استقرأنا النصوص الواردة في ذلك فأفادتنا التقسيم التالي :

أولا : **أرواح الأنبياء** ، وهذه تكون في خير المنازل في أعلى عليين ، في الرفيق الأعلى ، وقد سمعت السيدة عائشة الرسول ﷺ في آخر لحظات حياته يقول : « اللهمَّ الرفيق الأعلى »(١) .

الثاني : **أرواح الشهداء** ، وهؤلاء أحياء عند ربهم يرزقون ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(٢) ، وقد سأل مسروق عبدالله بن مسعود عن هذه الآية ، فقال : « إنا قد سألنا عن ذلك ، فقال : « أرواحهم في أجواف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنّة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل » رواه مسلم في صحيحه(٣) . وهذه أرواح بعض الشهداء لاكل الشهداء ، لأن منهم من تحبس روحه عن دخول الجنّة لدين عليه ، كما في المسند عن عبدالله بن جحش أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، مالي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال : « الجنّة » ، فلما وّلى ، قال : « إلا الدين ، سارني به جبريل آنفا »(٤) .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله ، فتح الباري : (٣٥٧/١١) .

(٢) سورة آل عمران : ١٦٩ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣٥١/٢) ، وللحديث تتمة .

(٤) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية : ص ٤٤٥ « صحيح » ، وقد سقنا من قبل أكثر من حديث في هذا المعنى .

الثالث : أرواح المؤمنين الصالحين : تكون طيورا تعلق شجر الجنّة ، ففي الحديث الذي يرويه عبدالرحمن بن كعب بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما نسمة المسلم طير يعلق في شجر الجنّة ، حتى يرجعها الله إلى جسده إلى يوم القيامة » رواه أحمد[1] .

والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء ، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنّة ، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش ، أما أرواح المؤمنين فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة ولا ينتقل في أرجائها . وكون أرواح المؤمنين طيرا يعلق شجر الجنّة لايشكل عليه الحديث الآخر الذي يرويه أبو هريرة عن الرسول ﷺ ، وفيه أن الملائكة تقبض روح العبد المؤمن، وترقى به إلى السماء ، فتقول الملائكة : « ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ، فيأتون به أرواح المؤمنين ، فلهم أشدُّ فرحا من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ ماذا فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه ، فإنه كان في غم الدنيا ، فيقول : قدمات ، أما أتاكم ؟ قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية »[2] ، فإن روح المؤمن تلتقي بأرواح المؤمنين في الجنّة .

الرابع : أرواح العصاة : سبق أن أوردت النصوص التي تبين ما يلاقيه العصاة من العذاب ، فمن ذلك أن الذي يكذب الكذبة تبلغ الآفاق يعذب بكلوب من حديد يدخل في شدقه حتى يبلغ قفاه ، والذي نام عن الصلاة المكتوبة يشدخ رأسه بصخرة ، والزناة والزواني يعذبون في ثقب مثل التنور ضيق أعلاه

---

(١) أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٧٣٠/٢) ، حديث رقم (٩٩٥) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ورواه ابن ماجه في سننه ، ومالك في موطئه، والنسائي بلفظ :«إن أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر ، تعلق بشجر الجنة» .

(٢) رواه النسائي ، كتاب الجنائز ، باب ما يلقى المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه : (٨/٤) .

وأسفله واسع ، توقد النار من تحته ، والمرابي يسبح في بحر من دم ، وعلى الشط من يلقمه حجارة[1] . وقد ذكرنا الأحاديث التي تتحدث عن عذاب الذي لم يكن يستنزه من بوله ، والذي يمشي بالنميمة بين الناس ، والذي غلّ من الغنمية ونحو ذلك .

الخامس : أرواح الكفار : في حديث أبي هريرة عند النسائي بعد وصف حال المؤمن إلى أن يبلغ مستقره في الجنة ، ذكر حال الكافر ، وما يلاقيه عند النزع ، وبعد أن تقبض روحه « تخرج منه كأنتن ريح ، حتى يأتون به باب الأرض ، فيقولون : ما أنتن هذه الريح ، حتى يأتون به أرواح الكفار »[2] .

---

(١) سبق أن سقنا هذا الحديث بطوله ، والحديث رواه البخاري في صحيحه .

(٢) رواه النسائي ، كتاب الجنائز ، باب ما يلقى المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه ، (٨/٤) .

المبحث العاشر

إشكال وجوابه

قد يقال : سقت من النصوص ما يدل على أن الأرواح تعاد إلى الإبدان ، ثم تُسأل ، وبعد ذلك ينعم المؤمن ، ويعذب الكافر ، فكيف تقول بعد ذلك إن نسم المؤمنين في الجنة ، ونسم الكفار في النار ؟

حاول ابن حزم أن يضعف الأحاديث التي تذكر إعادة الروح إلى البدن في القبر ، ولكن ليس الأمر كذلك ، فإن ما ضعفه ابن حزم وهو حديث زادان عن البراء حديث صحيح ، وهناك أحاديث كثيرة صحيحة متواترة تدل على عود الروح إلى البدن كما يقول ابن تيمية[1] ، وفي التوفيق بين النصوص يقول ابن تيمية : «وأرواح المؤمنين في الجنّة ، وإن كانت مع ذلك قد تعاد إلى البدن ، كما أنها قد تكون في البدن ، ويعرج بها إلى السماء كما في حال النوم ، أما كونها في الجنّة ففيه أحاديث عامّة ، وقد نص على ذلك أحمد وغيره من العلماء ، واحتجوا بالأحاديث المأثورة العامة وأحاديث خاصة في النوم وغيره »[2] ثم ذكر بعض هذه الأحاديث التي سقناها من قبل ، وأورد حديث أبي هريرة الذي رواه ابن حبان وغيره ، والذي يذكر فيه أن المؤمن يرى بعد السؤال مقعده من الجنة ، ومقعده من النار لو كان كافرا ، قال : « ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ، وينور له فيه ، ويعاد جسده كما بدىء ، وتجعل نسمته في نسم طيب ، وهي طير تعلق في شجر الجنّة » ، وفي لفظ « وهو طير يعلق في شجر الجنّة » ، وفي لفظ : « ثم يعاد جسده

---

(١) مجموع الفتاوي : (٤٤٦/٥) .

(٢) المرجع السابق : (٤٤٧/٥) .

إلى ما بديء منه »[1] فالروح ـ كما يدل عليه الحديث تعاد إلى الجسد بعد الرحلة إلى السماء ، ثم تسأل ، ثم تكون طيرا يعلق شجر الجنة إلى أن يبعث العباد ، ومع كونها في الجنّة فإنه يبقى لها تعلق بالجسد ، كحال الإنسان في النوم ، فإنها تجول في ملكوت السموات والأرض ، مع أن لها تعلق بالجسد ، وفقه هذا مبني على معرفة أن الروح مخالفة للأجساد وللمعهود من حال المخلوقات الدنيوية ، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أن مستقر أرواح المؤمنين الجنّة : « ومع ذلك تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى ، وهي في تلك[2] اللحظة بمنزلة نزول الملك ، وظهور الشعاع في الأرض وانتباه النائم »[3] .

(١) انظر مجموع الفتاوي : (٥/٤٤٨) .

(٢) في الأصل : وذلك في اللحظة .

(٣) مجموع الفتاوي : (٢٤/٣٦٥) .

المبحث الحادي عشر
هل العذاب في البرزخ على الروح أم على البدن أم على كليهما

الفرق الإسلامية في هذا الموضوع على أقوال :

الأول : مذهب أهل السنة والجماعة أنه للروح منفصلة عن الجسد ، ومتصلة به ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن ، وتعذب متصلة بالبدن ، والبدن متصل بها ، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين ، كما يكون للروح منفردة عن البدن » .

الثاني : قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين ينكرون النعيم والعذاب في البرزخ مطلقا ، والسر في ذلك أنهم ينكرون وجود روح مستقلة عن الجسد ، فالروح عندهم هي الحياة ، ولا تبقى الروح في نظرهم بعد الموت(١) ، فلا نعيم ولا عذاب حتى يبعث الله العباد ، قال بذلك بعض المعتزلة والأشاعرة كالقاضي أبي بكر ، وهذا قول باطل لاشك في بطلانه خالفه أبو المعالي الجويني ، وقد نقل غير واحد من أهل السنة الإجماع على أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة .

الثالث :قول الفلاسفة الذين يرون أنّ النعيم والعذاب على الروح وحدها ،

---

(١) هؤلاء وإن أنكروا عذاب القبر إلا أنهم يثبتون معاد الأبدان .

وأن البدن لاينعم ولا يعذب[1] ، وقد قال بهذا القول من أهل السنة ابن ميسرة ، وابن حزم .

الرابع : قول من قال من علماء الكلام أن الذي ينعم ويعذب في القبر البدن وحده ، وقال بذلك طائفة من أهل الحديث منهم ابن الزاعوني[2] .

---

(١) وهؤلاء وإن أثبتوا عذابا ونعيما للروح بعد فراقها للبدن إلا أنهم ينكرون المعاد .

(٢) راجع في هذه المسألة مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : (٤/٢٦٢ ، ٢٨٢) .

المبحث الثاني عشر

هل يعلم الإنسان شيئاً عن أحوال الدنيا بعد موته

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الميت يسمع قرع نعال أصحابه، بعد وضعه في قبره ، فعن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم . . »[1] ووقف الرسول ﷺ بعد ثلاثة أيام من معركة بدر على قتلى بدر من المشركين فنادى رجالاً منهم ، فقال : « يا أبا جهل بن هشام ، يا أميّة بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا » فقال عمر بن الخطاب : « يارسول الله ! كيف يسمعوا أني يجيبوا وقد جيفوا »[2] قال : « والذي نفسي بيده ! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا ثم أمر بهم فسحبوا ، فألقوا في قليب بدر »[3] .

وقد ساق ابن تيمية جملة من الأحاديث التي تدل على أن الموتى يسمعون ، ثم قال : « فهذه النصوص وأمثالها تُبين أن الميت يسمع في الجملة كلام الحي ، ولا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/٢٢٠٣) حديث رقم (٢٨٧٤) .

(٢) اي أنتنوا ، وصاروا جيفا .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، ورواه مسلم في كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/٢٢٠٠) . حديث رقم (٢٨٧٠) ورواه أبو داود والنسائي أيضا ، انظر جامع الأصول : (١١/١٨٠) .

يجب أن يكون السمع له دائما ، بل قد يسمع في حال دون حال ، كما قد يعرض للحي ، فإنه يسمع أحيانا خطاب من يخاطبه ، وقد لا يسمع لعارض يعرض له »[1] . وقد أجاب شيخ الإسلام على إشكال من يقول : إن الله نفى السماع عن الميت في قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[2] ، وكيف تزعمون أن الموتى يسمعون ؟ فقال : « وهذا السمع سمع إدراك ، ليس يترتب عليه جزاء ، ولا هو السمع المنفي بقوله : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[3] ، فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال ، فإن الله جعل الكافر كالميت الذي لا يستجيب لمن دعاه ، وكالبهائم التي تسمع الصوت ، ولا تفقه المعنى ، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى ، فإنه لا يمكنه إجابة الداعي ، ولا امتثال ما أمر به ، ونهى عنه ، فلا ينتفع بالأمر والنهي ، وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهي ، وإن سمع الخطاب ، وفهم المعنى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾[4][5] وقد جاءت النصوص دالة أيضا على أن الميت مع سماعه يتكلم ، فإن منكرا ونكيرا يسألونه ، فالمؤمن يوفق للجواب الحق ، والكافر والمنافق يضل عن الجواب ، ويتكلم أيضا في غير سؤال منكر ونكير ، وكل هذا مخالف لما عهده أهل الدنيا من كلام ، فإن الذي يسأل ويتكلم الروح ، وهي التي تجيب وتقعد وتعذب وتنعم ، وإن كان لها نوع اتصال بالجسد ، وقد سبق القول أن بعض الناس قد يسمعون الكلمة من الميت ، وأن الرسول ﷺ كان يسمع من هذا شيئا كثيرا .

---

(١) مجموع الفتاوي : ٥/٣٦٤ .

(٢) سورة النمل : ٨٠ .

(٣) سورة النمل : ٨٠

(٤) سورة الأنفال : ٢٣ .

(٥) مجموع الفتاوي : (٥/٣٦٤) .

البَابُ الثَانِي

أشراط الساعة

الفصل الأول

وقت الساعة

المبحث الأول

الساعة آتية لاريب فيها

الإيمان بيوم القيامة أصل من الأصول ، لايتم الإيمان إلا به ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[1] ، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2] .

وقد ساق القرآن ضروبا متنوعة من الأساليب البيانية الراقية كي يؤكد وقوعها في نفوس العباد : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[3] . ففي بعض المواضع يكون الحديث عنها خبرا مجردا ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[4] ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾[5] .

ومرة يؤكد وقوعها « بإن » كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾[6] ، ومرة

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .

(٢) سورة النساء : ١٦١ .

(٣) سورة الرعد : ٢ .

(٤) سورة الروم : ١١ .

(٥) سورة النور : ٦٤ .

(٦) سورة طه : ١٥ .

« بإن » واللام ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[1] . ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2] . وفي بعض المواضع ينفي الريب والشك عن وقوعها ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3] .

وفي بعضَ الآيات يقسم الحق على أنها آتية واقعة مرة بنفسه ، ومرة بمخلوقاته العظيمة ، فمن إقسامه بنفسه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[4] ، ومن إقسامة بالعظيم من مخلوقاته قوله : ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[5] ، وقوله : ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[6]. وفي بعض المواضع يأمر رسوله في مجال الحجاج والخصام بالإقسام بربه مؤكدا وقوعها ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[7] ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[8] وفي بعض الآيات يخبر بأنها حق ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[9] ومن تتبع طريقة القرآن في تأكيد الإخبار بها تحصل عنده أنواع كثيرة ، وقد ذكرنا طائفة منها[10].

---

(١) سورة الحجر : ٨٥ .

(٢) سورة العنكبوت : ٥ .

(٣) سورة غافر : ٥٩ .

(٤) سورة النساء : ٨٧ .

(٥) سورة الذاريات : ١ - ٦ .

(٦) سورة الطور : ١ - ٨ .

(٧) سورة يونس : ٥٣ .

(٨) سورة سبأ : ٣ .

(٩) سورة لقمان : ٣٣ .

(١٠) قد يجتمع في الآية أكثر من مؤكد ، وإذا تأملت النصوص التي سقناها ظهر لك هذا وتبين .

المبحث الثاني

الساعة قريبة

أعلن رب العزة لعباده في كتابه المنزل منذ أربعة عشر قرنا أن الساعة قد اقتربت ، وآن أوان وقوعها ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾(١) ، وانشقاق القمر إحدى الأمارات الدالة على قرب وقوعها ، ولما كانت الساعة قد اقتربت قربا عظيما فإن القرآن يصور أنها أتت وحضرت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾(٢) .

ولو كان البشر يوقنون بما أنزل الله بقلب مبصر ، وعقل حاضر مدرك لهالهم الأمر ، وملك عليهم نفوسهم ، ولذلك كان حالهم عجبا ، الخطر قريب قريب ، ومع ذلك فإنهم غافلون عن الهول الذي يكاد يطبق عليهم ، ويحيط بهم ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾(٣) ، ولذا فإنه قد كثر في القرآن تحذير العباد من الساعة ، والأمر بالاستعداد لها ، وعبر عنها بالغد ، وهو اليوم التالي لليوم الذي تعيش فيه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾(٤) .

قد يقال : كيف يكون قريبا ما مضى على الإخبار بقرب وقوعه ألف وأربعمائة عام ؟ والجواب أنه قريب في علم الله وتقديره ، وإن كانت المقاييس البشرية تراه بعيدا ، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾(٥) .

---

(١) سورة القمر : ١ .

(٢) سورة النحل : ١ .

(٣) سورة الأنبياء : ١ - ٣ .

(٤) سورة الحشر : ١٨ .

(٥) سورة المعارج : ٦ - ٧.

والأمر الذي ينبغي أن ينتبه إليه أن الباقي من الدنيا قليل بالنسبة لما مضى منها ، فإنك إذا وضعت لمن لك عليه دين أجلاطويلا ، كأن تؤجله خمسين عاما مثلا ، فإذا انقضى من الخمسين خمسة وأربعون ، فيكون موعد السداد قد اقترب بالنسبة لما مضى من الموعد المضروب . والأحاديث النبوية الشريفة تشير إلى هذه الحقيقة التي بيناها هنا ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس » وفي لفظ : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » .

إن الحديث يمثل الوجود الإنساني بيوم من أيام الدنيا ، إبتدأ وجود الأمة الإسلامية فيه عند العصر ، فيكون الماضي من عمر الوجود الإنساني بنسبة ما مضى من ذلك اليوم من الفجر إلى العصر ، ويكون الباقي من عمر الزمن حتى تقوم الساعة كما بين العصر والمغرب ، ذلك أن النصوص صريحة الدلالة على أننا آخر الأمم وجودا ، وأن نهاية وجود هذه الأمة يتحقق بقيام الساعة .

وجاء في حديث آخر يرويه البخاري ومسلم عن سهل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويشير بأصبعيه فيمدهما » ، ورواه مسلم عن سهل بلفظ : « سمعت رسول الله ﷺ يشير بإصبعه التي تلي الإبهام والوسطى وهو يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا »[1] .

والمعنى أننا لو قدرنا عمر الزمن بالأصبع الوسطى ، فإن ما بقي منه عند

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين » فتح الباري : (٣٤٧/١١) ، ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب قرب الساعة : (٢٢٦٨/٤) ورقمه : (٢٩٥٠) ، وقد رواه البخاري ومسلم أيضا عن أنس رضي الله عنه

مبعث الرسول ﷺ يكون بمقدار ما تزيد الوسطى عن السبابة ، وما مضى منه بمقدار السبابة من الأصبع الوسطى ، قد يكون الباقي في حس البشر طويلا ، لأن إدراكهم محدود ، ونظرتهم قاصرة ، ولكنه في ميزان الله قريب وقصير ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾[1] ، ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾[2] وروى الإمام أحمد عن عتبة بن غزوان قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، قال : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم ، وولت حذاء ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لازوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم . . . » انفرد به مسلم[3] .

---

(١) سورة النحل : ١ .

(٢) سورة النحل : ٧٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٦/٤٦٨) .

المبحث الثالث

لا يعلم أحد وقت الساعة المعين

سئل الرسول ﷺ عن الساعة ، فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » وكان السائل جبريل متمثلا في صورة بشر ، فإذا كان أعلى الملائكة منزلة ، وهو جبريل ، وأعلى البشر منزلة وهو محمد ﷺ لا يعلمان متى تكون - فأحْرِ بأن لا يعرف أحد غيرهما وقت وقوعها .

وقد صرح القرآن أن وقت وقوعها من خصائص علم الله ، ولذا فإنه لم يطلع أحدا على وقت وقوعها ، لا ملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا ، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(1) ، وقال في الآية الأخرى : ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾(2) ، وقال في سورة النازعات : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾(3) وهذه الآيات واضحة الدلالة على أن معرفة الوقت الذي تكون فيه الساعة لا يعرفه إلا رب العزة ، وأنها تأتي بغتة ، وأن الرسول ﷺ لا يدري متى هي والساعة إحدى مفاتح الغيب الخمسة التي هي من مكنونات علم

---

(1) سورة الأعراف : ١٨٧ .

(2) سورة الأحزاب : ٦٣ .

(3) سورة النازعات : ٤٢ ـ ٤٤ .

الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1] ، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾[2] الآية »[3] .

(١) سورة لقمان : ٣٤ .

(٢) سورة لقمان : ٣٤ .

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب : ٣٧ .

المبحث الرابع

الحكمة من وراء إخفاء وقت وقوعها

قد يتساءل البشر قائلين : ما الحكمة من وراء إخفاء الوقت الذي تحل فيه الساعة ، وتقوم فيه القيامة ؟ والجواب أن إخفاءها له تعلق بصلاح النفس الإنسانية ، فوقوعها غيب ، والأمر العظيم الذي يستيقن المرء وقوعه ، ولكنه لا يدري متى يفجؤه، ويحل فيه بساحه ـ يجعل المرء مترقبا له باستمرار ، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى : « والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر ، وفي تكوينهم النفسي ، فلا بدَّ من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه ، ولو كان كل شيء مكشوفا لهم وهم بهذه الفطرة ـ لوقف نشاطهم ، وأسنت حياتهم ، فوراء المجهول يجرون ، فيحذرون ، ويأملون ، ويجربون ، ويتعلمون . ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد يحفظهم من الشرود ، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم ، وعلى استعداد دائم ، ذلك لمن صحت فطرته واستقام ، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ، فيسقط ومصيره إلى الردى »[1] .

---

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن ، جمع واعداد أحمد فائز : ص ٩٨ .

المبحث الخامس
لا يجوز الاشتغال في تحديد وقتها

تساءل الناس عن وقت الساعة كثيرا ، ووجهوا أسئلتهم للرسول ﷺ ، وجاء الجواب من منزل الكتاب ، إن الساعة غيب ، ومعرفة الزمن الذي تقع فيه من خصائص علم الله ، ﴿يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾(١) . ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾(٢)

إن هذا العلم لم يطلع الله عليه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولذلك قال الرسول ﷺ لجبريل حينما سأله عن الساعة « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » .

فبالحث في هذا الأمر ، والزعم أن الساعة ستقع في عام بعينة تَقَوُّل على الله بغير علم ، والخائضون في ذلك مخالفون للمنهج القرآني النبوي الذي وجه الناس إلى ترك البحث في هذا الموضوع ، ودعاهم إلى الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح .

والذين يبحثون في هذا المجال يظنون أنه يمكنهم أن يعلموا مالم يعلمه الرسول ﷺ وجبريل عليه السلام ، وكفى بذلك واعظا ورادعا لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد ، ونحن نقول لهم : ينبغي أن يسعكم ما وسع الرسول

---

(١) سورة الأحزاب : ٦٣ .

(٢) سورة النازعات : ٤٢ ـ ٤٥ .

ﷺ وأصحابه وأئمة هذه الأمة على مدار التاريخ ، ولو كان في معرفة الوقت صلاح وخير للبشر ، لأخبر الله به البشر ، ولكنه حجب ذلك عنهم ، وفي ذلك صلاحهم .

وينبغي للاحقين أن يتعظوا بحال السابقين ، فبعض السابقين خاض في هذا الأمر ، وحدد للساعة أو بعض أشراطها القريبة من وقوعها أجلا ، وجاء الأجل الذي ضربه ، ولم يحدث شيء من ذلك ، لا الساعة ولا أشراطها المحددة ، فمن هؤلاء الطبري رحمه الله وغفر له ، فإنه استظهر من بعض النصوص أن فناء الدنيا يكون بعد خمسمائة عام من البعثة المحمدية[1] ، وها هو قد مرّ قرابة ألف عام على الأجل الذي ضربه ، ولم يصدق ظنه .

ومن هؤلاء العلامة السيوطي عفا الله عنه ، فإنه استظهر في جزء سماه « الكشف » أن الساعة ستقوم على رأس المائة الخامسة بعد الألف من البعثة النبوية[2] ، وها قد مضى على الموعد الذي حدده بضع سنين ، ولم تقع الساعة ، بل لم يقع كثير من أشراطها .

وجمع السهيلي الحروف المقطعة في أوائل السور ، وحذف المكرر منها ، وأخذ عددها بحساب الجمل ، وحدد بناء على ذلك أجلا لا يبلغ بضع مئات من السنين[3] .

وقد تَقَوَّل كثير من الناس في هذا وخبطوا خبطا لا دليل عليه ، وإنما هي ظنون وتخرصات ، وآخر ما أطلعت عليه في ذلك ما كتبه دكتور بهائي مدعيا أن

---

(١) المقدمة لابن خلدون : ص ٥٩٠ .

(٢) لوامع الأنوار البهية : (٢/٦٦) .

(٣) المقدمة لابن خلدون : ص ٥٩١ .

الساعة ستقع في عام (١٧١٠) ، وقد زعم أنه استقى ذلك من الأرقام العددية للحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن ، ونحن نقول : إن هذا النهج قد ثبت خطؤه ، وقد اعتمد بعض من سبق على هذا النهج ، وحددوا أجلا غير أجله ، فوافقوه في النهج ، وخالفوه في تحديد الأجل ، وثبت كذب ما ذهبوا إليه .

وقد تعرض الشيخ العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأجزل له المثوبة للذين بحثوا في هذا الأمر وخاضوا فيه ، وحددوا في ذلك أجلا ، فقال : « ومن تكلم في وقتها المعين مثل الذي صنف كتابا «سماه» « الدر المنظم في معرفة الأعظم » وذكر فيه عشر دلالات بين فيها وقتها ، والذين تكلموا على ذلك من حروف المعجم ، والذي تكلم في « عنقاء مُغْرب »[١] ، وأمثال هؤلاء ، فإنهم وإن كان لهم صورة عظيمة عند أتباعهم ، فغالبهم كاذبون مفترون[٢] ، وقد تبين لديهم من وجوه كثيرة أنهم يتكلمون بغير علم ، وإن ادعوا في ذلك الكشف ومعرفة الأسرار ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٣][٤] . ولا شك أن دعوى معرفة وقتها المحدد قول بلا علم .

(١) ابن عربي القائل بوحدة الوجود .
(٢) قال الشيخ : « غالبهم » لأن بعض الذي بحثوا في ذلك أخطؤوا ، ولم يقصدوا التضليل ، أمثال الطبري والسيوطي رحمهما الله .
(٣) سورة الأعراف : ٣٣ .
(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٤٢/٤) .

المبحث السادس
اشكالات تتعلق بتحديد وقت الساعة

بينا فيما سبق أن وقت القيامة غيب لا يعلمه إلا الله ، ولكن يشكل على هذا أحاديث ظن بعض الناس أنها تحدد موعدها ، وهذه الأحاديث بعضها غير صحيح فلا يلتفت إليها ، ولا يجوز أن تعارض بها النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة ، ومنها أحاديث صحيحة ، ولكن دلالتها على تحديد يوم القيامة غير صريحة .

فمن الأحاديث الباطلة المكذوبة المخالفة لصريح القرآن ـ كما يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى ـ حديث مقدار الدنيا « وأنها سبعة آلاف سنة ، ونحن في الألف السابعة » .

يقول ابن القيم : « وهذا من أبين الكذب ، لأنه لو كان صحيحا لكان كل أحد عالما أنه قد بقي من وقتنا هذا مئتان وواحد وخمسون سنة (أي في الوقت الذي كان يكتب فيه الشيخ ابن القيم مؤلفه) والله تعالى يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[1][2] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٧ .

(٢) المنار المنيف ، لابن القيم : ص ٨٠ .

أقول : ومما يدل على كذب هذا الحديث قطعا أن الألف السابعة هذه مضت وانقضت منذ أربعمائة سنة ، وكثير من أشراط الساعة لم يقع بعد .

ومن الأحاديث الصحيحة التي لا تدل على تحديد يوم القيامة ما رواه مسلم عن جابر بن عبدالله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قبل أن يموت بشهر : « تسألوني عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة وهي حيَّة يومئذ »(١) .

وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء في آخر حياته ، فلما سلَّم قال : « أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد »(٢) . إن التأمل في هذين الحديثين يدل دلالة واضحة على أن الرسول ﷺ لم يرد في أقواله هذه قيام الساعة ، وإنما أراد انقضاء القرن الذي هو فيه ، أي أنه بعد مائة عام يموت كل من كان حيًّا عندما قال الرسول ﷺ ما قال ، وقد فقه هذا المعنى ابن عمر رضي الله عنه ، وفقَّه الناس به عندما ذهبوا مذاهب شتى في فهم معنى قول الرسول ﷺ ، ففي سنن الترمذي وسنن أبي داود بعد سياق عبدالله بن عمر لحديث الرسول ﷺ السابق ، قال : « فوهل الناس(٣) في مقالة الرسول ﷺ تلك ، فيما يتحدثونه بهذه الأحاديث : نحو مائة سنة ، وإنما قال رسول الله ﷺ : « لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد ، يريد بذلك : أن ينخرم القرن »(٤) .

وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم عن عائشة ، قالت : « كان الأعراب

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٨٧) ، ورقم الحديث : (٧٨٩٠) ومعنى : نفس منفوسة : أي مولودة .
(٢) جامع الأصول : (١٠/٣٨٨) ، ورقم الحديث : (٧٨٩١) .
(٣) الوهل : الفزع ، أو ذهاب الفكر مذاهب بعيدة عن المراد .
(٤) صحيح الجامع : (١٠/٣٨٨) ، ورقم الحديث : (٧٨٩١) .

إذا قدموا على رسول الله ﷺ ، سألوه عن الساعة ، متى الساعة ؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم ، فيقول : إن يعش هذا ، إن يدركه الهرم ، حتى قامت عليكم الساعة » قال هشام : يعني موتهم(١) .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، « أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة ، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزدشنوأة ، فقال : إن عُمِّر هذا الغلام ، لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة ، قال أنس : وذلك الغلام من أترابي يومئذ »(٢) . ومراد الرسول ﷺ في هذين الحديثين ساعة المخاطبين، كما فسر ذلك هشام أحد رواة الحديث الأول : يعني موتهم ، فإنَّ ساعة كل إنسان موته ، وهذا الجواب من الرسول ﷺ يعرف بجواب الحكيم ، فإنه أرشدهم إلى الاستعداد للموت والتأهب له ، والموت قريب قريب .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٨٩) . ورقمه (٧٨٩٢) .
(٢) جامع الأصول : (١٠/٣٨٩) ورقمه (٧٨٩٣) .

المبحث السابع

تعريف الأشراط والآيات

إذا كان الله قد أخفى وقت وقوع الساعة عن عباده ، فإنه أعلمهم بأمارات وعلامات تدل على قرب وقوعها .

وقد سمي القرآن هذه الأمارات بأشراط الساعة ، قال تعالى : ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[1] .

و « الشَرَط » بفتحتين : العلامة ، وأشراطها : علاماتها[2] . وفي فتح الباري : « المراد بالأشراط : العلامات التي يعقبها قيام الساعة »[3] .

وقد أطلق بعض العلماء على هذه الأشراط اسم : « الآيات » .

و « الآيات » هي الأمارات الدالة على الشيء ، كالأمارات التي تنصب في الصحراء دالة على الطريق ، أو العلامات التي ترفع على شواطيء البحر ، تهدي السفن التي تمخض عباب الماء ، أو تلك التي توضع قريبا من المدن لتدل المسافر على قرب وصوله إلى الديار التي وضعت بقربها .

يقول الطيبي : « الآيات : إمارات للساعة ، إما على قربها ، وإما على حصولها . فمن الأول : الدجال ، ونزول عيسى ، ويأجوج ومأجوج ، والخسف . ومن الثاني : الدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والنار التي تحشر الناس »[4] .

---

(١) سورة محمد : ١٨ .

(٢) مختار الصحاح : ٣٢٤ .

(٣) فتح الباري : (٧٩/١٣) .

(٤) فتح الباري : (٣٥٢/١١) .

المبحث الثامن

فائدة البحث في الأشراط والمغيبات المستقبلة

قد يقول قائل : لقد أتعبتم أنفسكم في النظر في أمور فائدتها قليلة ، والأولى بكم أن تهتموا بأمور المسلمين ومشكلاتهم ، بدلا من قضاء الأوقات الطوال في البحث عما يجري في مقبل الأزمان من الوقائع والحادثات . وقالوا : إنكم تهربون من الواقع الذي تعيشون فيه إلى عالم آخر تأملون أن تعيشوا فيه ، أو تخشوا أن يأتي عليكم ، وهذا هروب من مواجهة الحقائق والصعاب ونحن نقول لهم : ليس لنا خيار في دراسة الغيوب المستقبلة أو إهمالها ، فالأمر ليس لنا ، فالإطلاع على هذه الغيوب والتصديق بها من صميم الدين الذي جاء به رسولنا ﷺ ، أخبر ببعض منها القرآن ، وبعضها جاءت به السنة النبوية ، وَعَلِمَ ذلك كله الصحابة ، وشغلوا به أنفسهم ، واهتموا به اهتماما كبيرا ، وكان الإيمان بالغيب أول صفة مدح الله بها المتقين المهتدين الفائزين ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾(1)
صحيح إن كثيرا من المسلمين شغلوا أنفسهم بالأخبار الغيبية التي لم يقم عليها دليل من الكتاب والسنة ، وأغرق في ذلك بعض الذين نسبوا إلى العلم ، ولكن الاشتغال بالنصوص الصحيحة هو جزء من هذا الدين الذي أنزله العليم الخبير .

ويمكننا أن نلوم الذين قعد بهم العمل من المسلمين انتظاراً لحدوث الواقعات التي أخبر بها الرسول ﷺ ؛ كالذين يتركون الجهاد انتظارا لخروج المهدي ، ولكن هذا

---

(1) سورة البقرة : ١ ـ ٣ .

خطأ يحتاج إلى تقويم ، ولا يوجب ترك النصوص الصحيحة ، فإن سلفنا الصالح مع إيمانهم بالغيب الصادق ، لم يقعدوا عن الجهاد ولم يتركوا العمل .

ويمكن أن يوجَّه لوم شديد للذين ينزلون ما أخبر به الرسول ﷺ من الغيوب على غير وقائعها ، فيحمِّلون النصوص مالا تحتمل ، ويدَّعون دعاوي يضلون بها العباد ، كالذين ادعوا المهدية على مدار التاريخ ، إلا أن هذا خطأ هؤلاء ، والخطأ يقوَّم ، ولا يدفعنا هذا الخطأ إلى انكار ما صحت به النصوص ، فالحق حق ، والباطل باطل ، ولا ندفع الباطل بإنكار الحق . والذين ينكرون علينا اشتغالنا بهذه النصوص الصحيحة في هذا الجانب نُوَجِّه أنظارهم إلى الجهود الهائلة التي يبذلها العلماء المعاصرون للكشف عن الغيب المجهول في الماضي البعيد ، والغيب المجهول في الحادثات المقبلة ، والغيب المجهول في الفضاء الذي يحيط بنا ، ولذلك نراهم يبحثون في آثار الماضيين ، وما أبقوه من كتابات وصنائع وخرائب ، ونراهم يهتمون بما يقوله المتنبئون والكهان والعرافون ، وما يقوله هؤلاء كذب لاتكاد تجد فيه للحقيقة مكان ، ونراهم يصنعون المناظر المكبرة ، والمراصد الهائلة ، بل ويرسلون الأقمار الصناعية لريادة الفضاء ، كي يعلموا ما لا يعلمون ، فإذا كان هذا هو حال البشر، يرغبون دائما في التعرف على ما لا يعرفون، ومعرفة الماضي والآتي ، ومعرفة الكون من حولهم ، أفلا يكون الاطلاع على حقائق الأمور من الجهة التي لا تكذب أبدا أولى وأحرى !! إن المعلومات التي جاءت بها النصوص في هذا المجال معلومات قيمة لا تقدر بثمن، ولكن البشرية تكابر كثيرا عندما ترفض الأخذ بخبر الوحي الصادق ، وتخسر كثيرا عندما تعرض عن هذه العلوم الطيبة ، ثم إن أقواما يريدوننا أن نبتعد عن دراسة هذا المجال من خلال نصوص الوحي ، بينما ـ هم ـ يلهثون وراء الأخبار التي يأتيهم بها علماء الغرب في هذا المجال ، وإن كان فيها خلط كثير ، وكذب كثير .

ويمكننا أن نوجز الفوائد التي نحصل عليها من وراء دراسة الأخبار التي تحدث بأشراط الساعة والمغيبات المستقبلة في الأمور التالية :

١ ـ الإيمان بهذه الأخبار ـ إذا تحققنا صدقها ـ هو من الإيمان بالله ، والإيمان برسوله ، إذ كيف نؤمن بالله ورسوله ثم لانصدق بخبرهما !! ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَارَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[1] .

٢ ـ وقوع تلك المغيبات على النحو الذي حدثت به الأخبار يثبت الإيمان ويقويه ، فالمسلمون في كل عصر يشاهدون وقوع أحداث مطابقة لما أخبرت به النصوص الصادقة ، فقد شاهد الصحابة انتصار الروم على الفرس، ثم انتصر المسلمون على الفرس والروم ، وظهر الإسلام على جميع الأديان ، وشاهدوا فرقة الأمة في العام الذي حدده الرسول ﷺ ، وشاهدوا كثيرا من الأحداث على النحو الذي أخبرت به النصوص ، وكذلك الحال في كل عصر ، يشاهد المسلمون وقائع وأحداثاً جاءت بها الأخبار ، ولاشك أن هذا له أثر كبير في تثبيت المؤمن على إيمانه ، وقد يكون ذلك مدخلا لدعوة الآخرين إلى هذا الحق الذي جاءنا من ربنا .

٣ ـ تثبيت الإيمان بيوم القيامة ، فالقيامة وأهوالها من الغيب الذي أخبرنا به الله ورسوله ، والإيمان بها إحدى دعائم الإيمان ، ووقوع الوقائع في الدنيا على النحو الذي جاءت به النصوص دليل واضح بَيِّنٌ على صدق كل الأخبار ومنها أخبار الساعة . فالكل من عند الله تبارك وتعالى .

٤ ـ بعث الله رسوله دالا على الخير محذرا من الشر ،وقد دل الرسول ﷺ أصحابه على المنهج الأمثل الذي ينبغي أن يسلكوه في الوقائع التي وقعت في عصره .

---

(١) سورة البقرة : ٢ ، ٣ .

وفي إخباره بالمغيبات المقبلة توجيه للذين جاؤوا من بعده من أمته كيف يتصرفون حيال الأحداث التي قد يخفى عليهم وجه الحق فيها ، فعن عبدالله ابن عمرو بن العاص ، قال : « كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلنا منزلا ، فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشرة ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجيء فتنة ، فيرقق بعضها بعضا ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ، ثم تنكشف ، وتجيء الفتنة ، فيقول المؤمن : هذه ، هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماما ، فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعه ما استطاع ، فإن جاء الآخر ينازعه ، فاضربوا عنق الآخر » رواه مسلم والسياق له والنسائي وابن ماجة وأحمد[1] .

ومن هذه التوجيهات التي كان لها أثر كبير في توجيه المسلمين إلى الحق تبشيره عثمان رضي الله عنه بالجنة على بلوى تصيبه ، وإخباره بأن عمارا تقتله الفئة الباغية ، وأمره أبا ذر بأن يعتزل الفتنة ، وأن لا يقاتل ولو قتل . ويمكن أن يستفاد هذا المعنى من حديث حذيفة حيث كان يسأل الرسول ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه ، بينما أصحابه كانوا يسألون الرسول ﷺ عن الخير ، ومن هذا نهى الرسول ﷺ المسلمين عن أخذ شيء من جبل الذهب الذي ينحسر عنه الفرات في آخر الزمان ، وإخبارهم عن حقيقة الدجال ، وبيان ما يأتي به

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : حديث رقم (٢٤١) .

من الشبهات ، وغير ذلك من الكائنات التي يبصر الرسول ﷺ أمته بالتصرف الأمثل حيالها .

٥ ــ قد تمر بالمسلمين وقائع في مقبل الأيام تحتاج إلى بيان الحكم الشرعي فيها ، ولو ترك المسلمون إلى اجتهادهم ـ فإنهم قد يختلفون ، وقد لا يهتدون إلى الصواب ، بل قد يكون بيان الحكم الشرعي في تلك الأحداث واجب لا بدَّ منه ، وعدم البيان يكون نقصا تنزه الشريعة عنه. فمن ذلك أن الرسول ﷺ أخبر أن الدجال يمكث في الأرض أربعين يوما ، يوم من أيامه كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كأسبوع ، وبقية أيامه كأيامنا ، وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن تلك الأيام الطويلة أتكفي في الواحد منها صلاة يوم ، قال الرسول ﷺ : لا ، اقدروا له قدره ، ولو وكل العباد إلى اجتهادهم لأقتصروا على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غير هذه الأيام . وأخبر الرسول ﷺ أن عيسى بعد نزوله لا يقبل الجزية من اليهود والنصارى ، ولا يقبل منهم إلا الإيمان ، وهذا البيان من الرسول ﷺ ضروري ، لأن عيسى يحكم بهذا الشرع ، وهذا الشرع فيه قبول الجزية ممن بذلها إلى حين نزول عيسى بن مريم وحين ذاك توضع الجزية ، ويقتل كل من رفض الإيمان ، ولو بذل الجزية .

٦ ــ التطلع إلى ما يحدث في المستقبل أمر فطري فالإنسان يجد في نفسه رغبة شديدة في معرفة الوقائع والكائنات التي قد تحدث للجنس الإنساني ، أو تحدث للأمة التي هو منها ، أو قد تحدث له ، ولذلك فإن الزعماء والرؤساء بل والأفراد يلجؤون في معرفة ذلك إلى السحرة والكهان والمنجمين ، فجاءهم الله بالحق الذي يغني ويكفي ويشفي في هذا الجانب ، وقد تعرض ابن خلدون لهذه الفائدة في مقدمة تاريخه ، فقال :

« اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوُّف إلى عواقب أمورهم . وعلم ما يحدث لهم من حياة وموتٍ وخيرٍ وشرٍ ، سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا ، ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها ، والتطلع إلى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها . ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام . والأخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة . ولقد نجد في المدن صنفا من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه ، فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه . فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها ، وكثير من ضعفاء العقول ، يستكشفون عواقب أمرهم ، في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك ، مابين خط في الرمل ويسمونه المنجم ، وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب ، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل وهو من المنكرات الفاشية في الأمصار ، لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك ، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده في نومٍ أو ولاية .

وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلع إليه الأمراء والملوك في آماد دولتهم ، ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه . وكل أمةٍ من الأمم يوجد لهم كلامٌ من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها ، وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ، ومدة بقاء الدولة ، وعدد الملوك فيها ، والتعرض لأسمائهم ، ويسمى مثل ذلك الحدثان .

وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون إليهم في ذلك وقد أخبروا بماسيكون للعرب من الملك والدولة ، كما وقع لشق ، وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة ابن‌نصر من ملوك اليمن ، أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ، ثم رجوعها إليهم ، ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك . وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبذان حين

بعث إليه كسرى بها مع عبدالمسيح ، وأخبرهم بظهور دولة العرب . وكذلك كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يِفْرَنْ ، ويقال من غمرة ، وله كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم وفيها حدثان كثير ، ومعظمه فيها يكون لزناته من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجبل ، وهم يزعمون تارة أنه ولي ، وتارة أنه كاهن ، وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبيا ، لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير . والله أعلم »[1] .

---

(١) المقدمة لابن خلدون : ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨ .

المَبحث التَاسِع

أقسام علامات السَاعة

وردت أحاديث كثيرة عدد فيها الرسول ﷺ جملة من أشراط الساعة ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ؛ ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال ، فيفيض حتى يُهِمَّ رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه ، فيقول الذي يعرضه عليه : لا أرب لي به ، وحتى يتطاول الناس في البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ، ورآها الناس آمنوا أجمعين ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً »[1].

وفي صحيح البخاري عن عوف بن مالك رضي الله عنه ، قال : « أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة أدم ، فقال : اعدد ستا بين يدي الساعة : موتى ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كقُعَاص الغنم[2] ، ثم

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن ، حديث رقم (٧١٢٠) ، فتح الباري : (٨١/١٣) ، وقد رواه مسلم في صحيحه مفرقاً ، وقد جمع رواياته ابن الأثير في جامع الأصول : (٤٠٤/١٠) ، ورقم الحديث : (٧٩٢٠) .

(٢) الموتان بضم الميم : موت يقع في الماشية فيهلكها ، و (القُعاص) داء يأخذ الغنم ، لا يلبثها أن تموت .

استفاضة المال ، حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر ، فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية[1] ، تحت كل غاية إثنا عشر ألفا »[2] .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أشراط السّاعة الفُحش ، والتَفَحُّش ، وقطيعة الرحم ، وتخوين الأمين ، وإئتمان الخائن » رواه البزار ، ورواه الطبراني في الأوسط عن أنس ، ورواه أحمد والبزار عن ابن عمرو[3] . وعن عبدالله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد ، لا يصلي فيه ركعتين ، وأن لا يسلم الرجل إلا على من يعرف »[4] رواه الطبراني .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد » رواه أبو داود ، وأحمد في مسنده ، والدارمي ، وابن خزيمة[5] .

وهذه الأشراط التي ذكرها الرسول ﷺ في هذه الأحاديث وفي أحاديث أخرى كثيرة قسمها أهل العلم إلى قسمين :

---

(١) الغاية : الراية .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، انظر جامع الأصول : (٤١١/١٠) ، رقم الحديث : (٧٩٢٧) .

(٣) صحيح الجامع الصغير : ٢١٣/٥ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

علامات صغرى ، وعلامات كبرى .

والعلامات الصغرى يمكن تقسيمها إلى قسمين : قسم وقع ، وقسم لم يقع بعد .

والذي وقع قد يكون مضى وانقضى ، وقد يكون ظهوره ليس مرة واحدة ، بل يبدو شيئا فشيئا ، وقد يتكرر وقوعه وحصوله ، وقد يقع منه في المستقبل أكثر مما وقع في الماضي .

ولذلك سنعقد لعلامات الساعة أربعة فصول :

الأول : العلامات الصغرى التي وقعت وانقضت .

الثاني : العلامات الصغرى التي وقعت ، ولاتزال مستمرة ، وقد يتكرر وقوعها .

الثالث : العلامات الصغرى التي لم تقع بعد .

الرابع : العلامات الكبرى .

الفصل الثاني
علامات الساعة التي وقعت

ونعني بها العلامات التي وقعت وانقضت ولن يتكرر وقوعها ، وهي كثيرة وسنذكر بعضا منها .

المبحث الأول
بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ووفاته

من أشراط الساعة بعثة الرسول ﷺ ووفاته ، ففي الحديث عند البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال : « رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا ، الوسطى والتي تلي الإبهام . وقال : بعثت أنا والساعة كهاتين » .

وفي رواية قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويشير بأصبعيه ، يمدهما »[1] وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، كفضل إحداهما على الأخرى ، وضم السبابة والوسطى »[2] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٨٤) .
(٢) جامع الأصول : (١٠/٣٨٤) .

وفي كتب السيرة أن اليهود كانوا يحدثون عن الرسول ﷺ أنه يبعث مع الساعة .

وقد مضى قريبا حديث عوف بن مالك عند البخاري الذي قال له الرسول ﷺ فيه : « اعدد ستا بين يدي الساعة : موتي » .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح عن أبي جبيرة عن رسول الله ﷺ قال : « بعثت في نسم الساعة »[1] .

« ونسم الساعة » كما يقول ابن الأثير : هو من النسيم أول هبوب الريح الضعيفة . أي بعثت في أول أشراط الساعة وضعف مجيئها .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٦٧/٢) . ورقم الحديث : ٨٠٨ .

المبحث الثاني

انشقاق القمر

اتفق العلماء على أن القمر قد انشق في عهد الرسول ﷺ ، وأن انشقاقه إحدى المعجزات الباهرات[1] ، وقد صرح القرآن بهذا في قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[2] .

قال النووي : « قال القاضي : انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا ﷺ ، وقد رواها عدة من الصحابة رضي الله عنهم ، مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها ، قال الزجاج : وقد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين المخالفي الملة ، وذلك لما أعمى الله قلبه ، ولا إنكار للعقل فيها ، لأن القمر مخلوق لله تعالى يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه ويكوّره في آخر أمره . . »[3] .

وقد ساق ابن كثير الأحاديث الواردة في انشقاق القمر في تفسير سورة القمر ، وهي أحاديث صحيحة كثيرة[4] ، وقد ساقها مسلم في صحيحه ، ومنها حديث أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر

---

(١) تفسير ابن كثير : (٦/٤٦٩) .

(٢) سورة القمر : ١ ، ٢ .

(٣) شرح النووي على مسلم : (١٧/١٤٣) .

(٤) تفسير ابن كثير : (٦/٤٦٩) .

مرتين[1] ، ومنها حديث عبدالله بن مسعود قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ بشقين ، فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا ، اشهدوا » وفي رواية أخرى عنه ، قال : « بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين ، فكانت فلقة وراء الجبل ، وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله ﷺ : اشهدوا »[2] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، باب انشقاق القمر ، (٢١٥٩/٤) ، حديث رقم (٢٨٠٢) .
(٢) رواه مسلم ، باب انشقاق القمر ، (٢١٥٨/٤) ، ورقم الحديث (٢٨٠٠) .

المبحث الثالث

نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة ، حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى »[1] .

وهذه الآية العظيمة التي أخبر الصادق المصدوق بوقوعها في مقبل الزمان وقعت على الصورة التي أخبر بها الرسول ﷺ ، وقد كان خروجها في سنة (٦٥٤) للهجرة النبوية .

وقد تحدث العلامة المؤرخ ابن كثير في أحداث سنة (٦٥٤) عن هذه النار فقال :

فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى ، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه ، وقد بسط القول في ذلك الشيخ الإمام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه « الذيل وشرحه » ، واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار

---

(١) الحديث رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب خروج النار ، فتح الباري :(١٣/ ٧٨)، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، حديث رقم (٢٩٠٢) (٤/ ٢٢٢٧) ، وبصرى كما يقول النووي (النووي على مسلم : (١٨/ ٣٠) : « مدينة معروفة بالشام ، وهي مدينة حوران ، بينها وبين دمشق ثلاث مراحل » وقد ذكر المؤرخون أن الأمر وقع كما أخبر الرسول ﷺ فقد أضاءت أعناق الإبل ببصرى ، وكان طلبة العلم يقرؤون على ضوئها في كثير من البلاد النائية عن المدينة .

التي شوهدت معاينة ، وكيفية خروجها وأمرها . وملخص ما أورده أبو شامة[1] أنه قال : وجاء إلى دمشق كتب من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخر من هذه السنة ، وكتبت الكتب في خامس رجب ، والنار بحالها ، ووصلت الكتب إلينا في عاشر شعبان ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ورد إلى مدينة دمشق في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله ﷺ ، فيها شرح أمر عظيم حدث بها تصديق لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة . قال قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى » فأخبرني من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب . قال وكنا في بيوتنا تلك الليالي ، وكأن في دار كل واحد منا سراج ، ولم يكن لها حر ولفح على عظمها ، إنما كانت آية من آيات الله عز وجل » .

قال أبو شامة : وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها :

« لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دوى عظيم ، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب ، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور ، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا ، وهي نار عظيمة إشعالها أكثر من ثلاث منارات ، وقد سالت أودية بالنار إلى وادي شظا مسيل الماء ، وقدسدت مسيل شظا وما عاد يسيل ، والله لقد طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسيل نيرانا ، وقد سدت الحرة

---

(١) كان أبو شامة معاصرا لخروجها .

طريق الحاج العراقي ، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة ، فوقفت بعدما أشفقنا أن تجيء إلينا ، ورجعت تسيل في الشرق ، فخرج من وسطها سهود وجبال نيران تأكل الحجارة ، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ (١) .

وقد أكلت الأرض ، وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار في زيادة ما تغيرت ، وقد عادت إلى الحرار في قريظة طريق عير الحاج العراقي إلى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج . وأما أم النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر ، والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من عند قريظة ، وقد زادت وما عاد الناس يدرون أي شيء يتم بعد ذلك ، والله يجعل العاقبة إلى خير ، فما أقدر أصف هذه النار » .

قال أبو شامة : « وفي كتاب آخر : ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ووقع في شرق المدينة المشرَّفة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم : انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد ، ثم وقفت وعادت إلى الساعة ، ولا ندري ماذا نفعل ، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم تعالى ، وهذه دلائل القيامة » .

قال « وفي كتاب آخر : لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة ، سنة أربع وخمسين وستمائة وقع بالمدينة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة ، أقام على هذه الحالة يومين ، فلما كانت ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذي كنا نسمعه زلازل ، فلما كان يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست

---

(١) سورة المرسلات : ٣٢ ـ ٣٣ .

الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول الله ﷺ ، وهي برأى العين من المدينة ، نشاهدها وهي ترمي بشرر كالقصر ، كما قال الله تعالى : وهي بموضع يقال له أجيلين . وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربع فراسخ ، وعرضه أربعة أميال ، وعمقه قامة ونصف ، وهي تجري على وجه الأرض ويخرج منها أمهاد وجبال صغار ، وتسير على وجه الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك . فإذا جمد صار أسود ، وقبل الجمود لونه أحمر ، وقد حصل بسبب هذه النار إقلاع عن المعاصي ، والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات ، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها » .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ، « ومن كتاب شمس الدين بن سنان بن عبدالوهاب بن نميلة الحسيني قاضي المدينة إلى بعض أصحابه : لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة بالثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها ، وباتت باقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات ، والله لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله ﷺ اضطرب لها المنبر إلى أن أوجسنا منه إذ سمعنا صوتا للحديد الذي فيه ، واضطربت قناديل الحرم الشريف ، وتمت الزلزلة إلى يوم الجمعة ضحى ، ولها دوى مثل دوى الرعد القاصف ، ثم طلع يوم الجمعة في طريق الحرة في رأس أجيلين نار عظيمة مثل المدينة العظيمة ، وما بانت لنا إلا ليلة السبت ، وأشفقنا منها وخفنا خوفا عظيما ، وطلعت إلى الأمير كلمته وقلت له : قد أحاط بنا العذاب ، ارجع إلى الله تعالى ، فأعتق كل مماليكه ، ورد على جماعة أموالهم ، فلما فعل ذلك قلت اهبط الساعة معنا إلى النبي ﷺ ، فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعهم والنسوان وأولادهم ، وما بقي أحد لا في النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي ﷺ ، ثم سال منها نهر من نار ، وأخذ في وادي أجيلين وسد الطريق ، ثم طلع إلى بحرة الحاج وهو بحر نار يجري ، وفوقه جمر يسير إلى أن

قطعت الوادي وادي الشظا ، وما عاد يجيء في الوادي سيل قط لأنها حصرته نحو قامتين وثلث علوها .

والله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدرة والمدينة قد تاب جميع أهلها ، ولا بقي يسمع فيها رباب ولا دف ولا شرب ، وتمت النار تسيل إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج ، وجاء في الوادي إلينا منها يسير ، وخفنا أنه يجيئنا فاجتمع الناس ودخلوا على النبي ﷺ وتابوا عنده جميعهم ليلة الجمعة ، وأما قتيرها الذي مما يلينا فقد طفيء بقدرة الله ، وأنها إلى الساعة وما نقصت إلا ترى مثل الجمال حجارة ، ولها دوى ، ما يدعنا نرقد ، ولا نأكل ، ولا نشرب ،وما أقدر أصف لك عظمها ولا مافيها من الأهوال .

وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها ، وما أصبح يقدر يصفها من عظمها ، وكتب الكتاب يوم خامس رجب ، وهي على حالها ، والناس منها خائفون ، والشمس والقمر من يوم ما طلعت ما يطلعان إلا كاسفين ، فنسأل الله العافية » .

قال أبو شامة : وبان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان ، وكنا حيارى من ذلك إيش هو ؟ إلى أن جاءنا هذا الخبر عن هذه النار .

قلت : وكان أبو شامة قد أرخ قبل مجيء الكتب بأمر هذه النار ، فقال : وفيها في ليلة الإثنين السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل ، وكان شديد الحمرة ثم انجلى ، وكسفت الشمس ، وفي غده احمرت وقت طلوعها وغروبها ، وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور ، والله على كل شيء قدير ، ثم قال : واتضح بذلك ما صوره الشافعي من اجتماع الكسوف والعيد ، واستبعده أهل النجامة .

ثم قال أبو شامة : « ومن كتاب آخر من بعض بني الفاشاني بالمدينة يقول فيه : وصل إلينا في جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم ، حتى طفح الماء من أعلى أسوار بغداد إليها ، وغرق كثير منها ، ودخل الماء دار الخلافة وسط البلد ، وانهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون داراً ، وانهدم مخزن الخليفة ، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير ، وأشرف الناس على الهلاك ، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلدة ، وتخترق أزقة بغداد .

قال وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم : لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة ومن قبلها بيومين ، عاد الناس يسمعون صوتا مثل صوت الرعد ، فانزعج لها الناس كلهم ، وانتبهوا من مراقدهم وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى، وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه ، وتمت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح ، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها وليلة الجمعة ، وصبح يوم الجمعة ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض ، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم ، وأشفق الناس من ذنوبهم ، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر .

ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض ، فارتاع لها الناس روعة عظيمة ، ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض ، فيصل إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة ، ثم ظهرت النار لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها القلعة ، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي وإلى الحجرة الشريفة ، واستجار الناس بها وأحاطوا بالحجرة ، وكشفوا رؤوسهم، وأقروا بذنوبهم ، وابتهلوا إلى الله تعالى ، واستجاروا بنبيه عليه الصلاة والسلام ، وأتى

الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل ، وخرج النساء من البيوت والصبيان ، واجتمعوا كلهم وأخلصوا إلى الله ، وغطت حمرة النار السماء كلها ، حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر ، وبقيت السماء كالعلقة ، وأيقن الناس بالهلاك أو العذاب ، وبات الناس تلك الليلة بين مصل وتال للقرآن وراكع وساجد ، وداع إلى الله عز وجل ، ومتنصل من ذنوبه ومستغفر وتائب ، ولزمت النار مكانها وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها .

وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه ، فطرح المكس وأعتق مماليكه كلهم وعبيده ، ورد علينا كل مالنا تحت يده ، وعلى غيرنا ، وبقيت تلك النار على حالها تلتهب التهابا ، وهي كالجبل العظيم ارتفاعا ، وكالمدينة عرضا ، يخرج منها حصى يصعد في السماء ، ويهوي فيها ، ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد . وبقيت كذلك أياما ثم سالت سيلاناً إلى وادي أجلين تنحدر مع الوادي إلى الشظا ، حتى لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج ، والحجارة معها تتحرك وتسير حتى كادت تقارب حرة العريض ، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عادت ترمي بحجارة خلفها وأمامها ، حتى بنت لها جبلين وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياما ، ثم إنها عظمت وسناءها إلى الآن ، وهي تتقد كأعظم ما يكون ، ولها كل يوم صوت عظيم في آخر الليل إلى ضحوة ، ولها عجائب ماأقدر أن أشرحها لك على الكمال ، وإنما هذا طرف يكفي والشمس والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن . وكتب هذا الكتاب ولهاشهر وهي في مكانها ما تتقدم ولا تتأخر » .

وقد قال فيها بعضهم أبياتاً :

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا * لقد أحاطت بنا يا ربُ بأساء
نشكو إليكَ خطوباً لا نطيقُ لها * حملاً ونحن بها حقاً أحقاءُ

زلازل تخشعُ الصُم الصلابُ لها * وكيف يقوى على الزلزالِ شماءُ
أقامَ سبعاً يرج الأرض فانصدعت * عن منظرٍ منه عينُ الشمسِ عشواءُ
بحرٌ من النارِ تجري فوقهُ سفنٌ * من الهضابِ لها في الأرضِ أرساءُ
كأنما فوقَه الأجبال طافيةٌ * موجٌ عليه لفرط البهج وعثاءُ
ترمى لها شرراً كالقصرِ طائشةٌ * كأنها ديمةٌ تنصب هطلاءُ
تنشقُ منها قلوبُ الصخرِ إن زفرت * رعباً وترعدُ مثلُ السعفِ أضواءُ
منها تكاثف في الجوِ الدخانَ إلى * أن عادت الشمسُ منه وهي دهماءُ
قد أثرت سفعةٌ في البدرِ لفحتها * فليلةُ التم بعدَ النورِ ليلاءُ
تحدث النيراتُ السبعُ ألسنها * بما يلاقي بها تحتَ الثرى الماءُ
وقد أحاطَ لظاها بالبروجِ إلى * أن كادَ يلحقها بالأرض إهواءُ
فيالها آيةٌ من معجزاتِ رسو * لِ الله يعقلها القومُ الألباءُ
فباسمكَ الأعظمِ المكنونِ إن عظمتْ * منا الذنوبُ وساءَ القلبُ أسواءُ
فاسمح وهب وتفضل وامحُ واعفُ وجدْ * واصفحْ فكل لفرطِ الجهلِ خطاءُ
فقومُ يونسَ لما آمنوا كشفَ الـ * ـعذابَ عنهم وعمَّ القَوم نعماءُ
ونحنُ أمةٌ هذا المصطفى ولنا * منهُ إلى عفوكَ المرجوِ دعاءُ
هذا الرسولُ الذي لولاهُ ما سلكت * محجةٌ في سبيلِ الله بيضاءُ
فارحم وصلِّ على المختارِ ما خطبت * على علا منبرِ الأوراقِ ورقاءُ

قلت : والحديث الوارد في أمر هذه النار مخرج في الصحيحين من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى » وهذا لفظ البخاري .

وقد وقع هذا في هذه السنة ـ أعني سنة أربع وخمسين وستمائة ـ كما ذكرنا ، وقد أخبرني قاضي القضاة صدر الدين علي بن أبي القاسم التميمي الحنفي الحاكم بدمشق في بعض الأيام في المذاكرة ، وجرى ذكر هذا الحديث وما كان من أمر هذه النار في هذه السنة فقال : سمعت رجلا من الأعراب يخبر والدي ببصرى في تلك الليالي أنهم رأوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت في أرض الحجاز .

قلت : وكان مولده في سنة ثنتين وأربعين وستمائة ، وكان والده مدرساً للحنفية ببصرى ، وكذلك كان جده ، وهو قد درس بها أيضاً ثم انتقل إلى دمشق فدرس بالصادرية وبالمعدمية ، ثم ولي قضاء القضاة الحنفية ، وكان مشكور السيرة في الأحكام ، وقد كان عمره حين وقعت هذه النار بالحجاز ثنتا عشرة سنة ، ومثله ممن يضبط ما يسمع من الخبر أن الأعرابي أخبر والده في تلك الليالي ، وصلوات الله وسلامه على نبيه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

ومما نظمه بعض الشعراء في هذه النار الحجازية وغرق بغداد قوله :

سبحان من أصبحت مشيئته * جاريةً في الورى بمقدارِ
أغرق بغدادَ بالمياهِ كما * أحرقَ أرضَ الحجازِ بالنارِ

قال أبو شامة : والصواب أن يقال :

في سنةٍ أغرق العراقَ وقد * أحرقَ أرضَ الحجازَ بالنارِ

وقال ابن الساعي في تاريخ سنة أربع وخمسين وستمائة : في يوم الجمعة ثامن عشر رجب ـ يعني من هذه السنة ـ كنت جالساً بين يدي الوزير فورد عليه كتاب من مدينة الرسول ﷺ ، صحبة قاصد يعرف بقيماز العلوي الحسني المدني ، فناوله الكتاب فقرأه وهو يتضمن أن مدينة الرسول ﷺ زلزلت يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة حتى ارتج القبر الشريف النبوي ، وسمع صرير الحديد ، وتحركت

السلاسل ، وظهرت نار على مسيرة أربع فراسخ من المدينة ، وكانت ترمي بزبد كأنهرؤوس الجبال ، ودامت خمسة عشر يوما .

قال القاصد : وجئتولم تنقطع بعد ، بل كانت على حالها ، وسأله إلى أي الجهات ترمي ؟ فقال : إلى جهة الشرق ، واجتزت عليها أنا ونجابة اليمن ورمينا فيها سعفة فلم تحرقها ، بل كانت تحرق الحجارة وتذيبها . وأخرج قيماز المذكور شيئا من الصخر المحترق وهو كالفحم لونا وخفة .

قال وذكر في الكتاب وكان بخط قاضي المدينة أنهم لما زلزلوا دخلوا الحرم وكشفوا رؤوسهم واستغفروا ،وأن نائب المدينة أعتق جميع مماليكه ، وخرج من جميع المظالم ، ولم يزالوا مستغفرين حتى سكنت الزلزلة ، إلا أن النار التي ظهرت لم تنقطع . وجاء القاصد المذكور ولها خمسة عشر يوما وإلى الآن .

قال ابن الساعي : وقرأت بخط العدل محمود بن يوسف الأمعاني شيخ حرم المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، يقول : إن هذه النار التي ظهرت بالحجاز آية عظيمة ، وإشارة صحيحة دالة على اقتراب الساعة ، فالسعيد من انتهز الفرصة قبل الموت ، وتدارك أمره بإصلاح حاله مع الله عز وجل قبل الموت . وهذه النار في أرض ذات حجر لاشجر فيها ولا نبت ، وهي تأكل بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله ، وهي تحرق الحجارة وتذيبها ، حتى تعود كالطين المبلول ، ثم يضربه الهواء حتى يعود كخبث الحديد الذي يخرج من الكير ، فالله يجعلها عبرة للمسلمين ورحمة للعالمين ، بمحمد وآله الطاهرين . انتهى ما ذكره ابن كثير[١] .

ومن العلماء الكبار الذين كانوا أحياء عند خروج هذه النار الإمام النووي

---

(١) البداية والنهاية : (١٣/١٨٧ ـ ١٩٢) .

رحمه الله تعالى ، وقد ذكرها في شرحه لصحيح مسلم فقال : « وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة ، وكانت نـاراً عظيمة جدًا من جنب المدينة الشرقي ، وراء الحرّة ، تواتر العلم بخروجها عند جميع الشام وسائر البلدان ، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة »[1] . وواضح من وصف المشاهدين لهذه النار أنها كانت بركانا هائلا ، صاحبه زلازل عظيمة ، والشاهد أن هذه النار خرجت على النحو الذي أخبرنا بـه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/٢٨) .

المبحث الرابع

توقف الجزية والخراج

كانت الجزية التي يدفعها أهل الذمة في الدولة الإسلامية ، والخراج الذي يدفعه من يستغل الأراضي التي فتحت في الدولة الإسلامية من أهم مصادر بيت مال المسلمين ، وقد أخبر الرسول ﷺ بأن ذلك سيتوقف ، وسيفقد المسلمون بسبب ذلك موردا إسلاميا هاما، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مدها ودينارها ، ومنعت مصر إردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم » ، شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه[1] .

والقفيز والمد والإردب مكاييل لأهل ذلك الزمان في تلك البلاد ، وبعضها لايزال معروفا إلى أيامنا ، والدرهم والدينار أسماء للعملات المعروفة في ذلك الوقت ، ومنع تلك البلاد للمذكورات في الحديث بسبب استيلاء الكفار على تلك الديار في بعض الأزمنة ، فقد استولى الروم ، ثم التتار على كثير من البلاد الإسلامية ، وفي عصرنا احتل الكفار ديار الإسلام ، وأذهبوا دولة الخلافة الإسلامية ، وأبعدوا الشريعة الإسلامية عن الحكم . قال النووي في تعليقه على الحديث :« الأشهر في معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان ، فيمنعون حصول ذلك للمسلمين ، وقد روى مسلم هذا بعد ذاك بورقات عن جابر

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، (٤/ ٢٢٢٠) ورقم الحديث (٢٨٩٦) .

قال : « يوشك أن لا يجيء إليهم قفيز ولا درهم ، قلنا من أين ذلك ؟ قال من قبل العجم ، يمنعون ذاك»، وذكر في منع الروم ذلك بالشام مثله ، وهذا قد وجد في زماننا في العراق ، وهو الآن موجود ، وقيل لأنهم يرتدون آخر الزمان ، فيمنعون مالديهم من الزكاة وغيرها ، وقيل معناه أن الكفار الذين عليهم الجزية تقوى شوكتهم في آخر الزمان ، فيمتنعون مما كانوا يؤدونه من الجزية والخراج ، وغير ذلك»[1]، وكل هذه التعليلات لسبب منع تلك الإيرادات لخزينة الدولة الإسلامية التي ذكرها النووي وجدت ، علاوة على انهيار الدولة الإسلامية التي كانت تقيم اقتصادها على الشريعة الإسلامية فإلى الله المشتكى .

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٢٠) .



الفصل الثالث

العلامات التي وقعت، وهي مستمرة، أو وقعت مرة ويمكن أن يتكرر وقوعها

المبحث الأول

الفتوحات والحروب

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وقد سار حملة هذا الدين مشرقين ومغربين يفتحون البلاد وينشرون الإسلام ، وقد هزموا الدول الكبرى في ذلك الزمان ، وأزالوها من الوجود ، ولم يزل هذا دأب المسلمين على مرّ العصور ، وسيبقى إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال .

وقد كان الرسول ﷺ يخبر الصحابة بما سيكون من الفتوحات والانتصارات التي سيجريها الله على أيديهم أو على أيدي من بعدهم ، قال لهم ذلك في الوقت الذي كانوا فيه مستضعفين في مكة ، أو محاصرين في المدينة يعيشون في خوف مستمر من اجتياح الأعداء ، فقد روى لنا البخاري عن خباب بن الأرت قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ ـ وهو متوسد بُردَة له في ظل الكعبة ، قلنا له : ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ، وما يصده ذلك عن

دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب[1] ، وما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[2] .

لقد كان الأمن منعدما في الجزيرة العربية ، وكان القانون السائد فيها شريعة الغاب ، وقد كثر في الأحاديث الإخبار باستتباب الأمن في الجزيرة بسبب ظهور الإسلام فيها ، كما أخبرنا الرسول ﷺ أن الإسلام سيتعدى حدود الجزيرة العربية ، وأنه سيعصف بالدول الكبرى في ذلك الوقت ، مثل ملك كسرى وقيصر ، ففي صحيح مسلم عن نافع بن عتبة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ، ثمَّ فارس فيفتحها الله ، ثمَّ تغزون الروم ، فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله »[3] وروى البخاري عن عدي بن حاتم ، قال : « بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثمَّ أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدي ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم رأها ، وقد أنبئت عنها ، قال : فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحدا إلا الله ، قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دعار طيء الذي قد سعّروا البلاد ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفّه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله

---

(١) هكذا ورد في النص ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وقد ورد الحديث في صحيح البخاري في موضع آخر بلفظ (مادون عظامه من لحم أو عصب) ، كتاب المناقب ، فتح الباري : (١٦٥/٧) ، وهو الصواب .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المناقب ، حديث رقم : (٣٦١٢) فتح الباري (٦١٩/٦) .

(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال ، (٢٢٢٥/٤) ، حديث رقم (٢٩٠٠) .

منه ، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه ترجمان ، يترجم له ، فيقولن : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى ، فيقول : ألم أعطك مالا وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ،وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم . قال عدي : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد شقّ تمرة فكلمة طيبة ، قال عدي : « فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ ، يخرج ملء كفه . . . »[1] .

وقد أخبر الرسول ﷺ في حديث آخر أن المسلمين سيزيلون ملك كسرى وقيصر ، وسينفقون كنوزهما في سبيل الله ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله »[2] .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض »[3] وقد وقع الأمر كما أخبر الرسول ﷺ ، فقد بلغ ملك هذه الأمة بمقدار ما جمع له من الأرض ، وكان معظم امتداد ملك هذه الأمة في جهتي الشرق والغرب ، وأما في جهة الشمال والجنوب فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المناقب ، حديث رقم (٣٥٩٥) فتح الباري : (٦/٦١٠) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، حديث رقم (٣٦١٨) ، فتح الباري : (٦/٦٢٥) .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، (٤/٢٢١٥) ، ورقمه (٢٨٨٩) .

وأخبرنا رسولنا ﷺ أننا سنغزو الهند ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه ثوبان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار : عصابة تغزو الهند ، وعصابة تكون مع عيسى بن مريم عليه السلام »[1] .

ويشرنا الرسول ﷺ بفتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، كما أخبرنا بفتح روما مقر الفاتيكان ، ففي الحديث الصحيح عن أبي قبيل قال : كنا عند عبدالله بن عمرو بن العاص ، وسئل أي المدينتين تفتح أولا : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبدالله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتابا ، قال : فقال عبدالله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله : أي المدينتين تفتح أولا أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : مدينة هرقل تفتح أولا ، يعني القسطنطينية »[2] .

وقد فتحت فارس والروم وزال ملك كسرى وقيصر ، وغزا المسلمون الهند ، وفتحوا القسطنطينية ، وسيكون للمسلمين في مقبل الزمان ملك عظيم ينتشر فيه الإسلام ويذل الشرك ، وتفتح روما مصداقا لحديث الرسول ﷺ القائل : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولايترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل به الكفر »[3] .

---

(١) الحديث أخرجه النسائي ، وأحمد وغيرهما ، وإسناده قوي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني : (٥٧٠/٤) حديث رقم (١٩٣٤) .

(٢) رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٨/١) حديث رقم : (٤) .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه ، وابن عروبة في المنتقى من الطبقات ، وأورده الشيخ ناصر الدين في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٧/١) ، حديث رقم : (٣) .

وقد أخبر الرسول ﷺ بأننا سنقاتل الترك ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما ينتعلون نعال الشعر ، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المُطْرقة » .

وفي رواية لهما عن أبي هريرة : « لاتقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك ، صغار الأعين حمر الوجوه ، ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر » واللفظ للبخاري[1] .

وقد وقع الأمر كما أخبر الرسول ﷺ فقد قاتل المسلمون الترك أكثر من مرة ، يقول النووي في التتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامي : « وقد وجدوا في زماننا أي الترك الذين تحدث عنهم الرسول ﷺ هكذا .... بجميع صفاتهم التي ذكرها ﷺ : صغار الأعين ، حمر الوجوه ، ذلف الأنوف ، عراض الوجوه ، كأن وجوههم المجان المطرقة ، ينتعلون الشعر ، فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا ، وقاتلهم المسلمون مرات ، وقتالهم الآن ، ونسأل الله الكريم إحسان العاقبة للمسلمين في أمرهم ، وأمر غيرهم ، وسائر أحوالهم ، وإدامة اللطف بهم والحماية ، وصلى الله وسلم على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى »[2] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد ، باب كتاب الترك ، وفتح الباري (١٠٣/٦) . ورواه مسلم في كتاب الفتن ، (٢٢٣٣/٤) حديث رقم (٢٩١٢) .

(والمجان) جمع مجن ، وهو الترس ، و (المطرقة) : هي التي ألبست العقب وأطرقت به طاقة فوق طاقة ، قالوا : ومعناه تشبيه وجوه الترك في عرضها وتلون وجناتها بالترسة المطرقة ، والمراد (بذلف الأنوف) : أي فطس الأنوف . قصارها مع الانبطاح ، وقيل : هو غلظ في أرنبة الأنف ، وقيل تطامن فيها ، وكله متقارب .

(٢) شرح النووي على مسلم : (٣٨/١٨) ، وواضح تأثر النووي بنبوأة الرسول ﷺ ، لأنه كان يشرح الحديث والمعركة مستعرة بين المسلمين وهؤلاء الذين تحدث الرسول عن قتال المسلمين لهم ، وقد رأى وصفهم بأم عيني رأسه .

المبحث الثاني

خروج الدجالين أدعياء النبوة

أخبر الرسول ﷺ أنه سيخرج في هذه الأمة دجالون يدعون النبوة ، وقد أخبر الرسول ﷺ أن عددهم قريب من ثلاثين ، وحددهم في بعض الأحاديث بسبعة وعشرين ، والمراد بأدعياء النبوة هؤلاء الذين يثيرون فتنة ويتبعهم الناس ، ويغترون بباطلهم ، أمّا الذين ادعوها ولم يأبه الناس لهم فكثير .

ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كل يزعم أنه رسول الله »[(١)] .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان ، قال : قال رسول الله ﷺ : « وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم الأنبياء ، لا نبي بعدي »[(٢)] .

وفي مسند أحمد ، ومشكل الآثار للطحاوي ، ومعجم الطبراني الكبير والأوسط بإسناد صحيح عن حذيفة عن النبي ﷺ ، قال : « في أمتي كذابون ، ودجالون سبعة وعشرون ، منهم أربعة نسوة ، وإني خاتم النبيين ، لا نبي بعدي »[(٣)]

وقد خرج من هؤلاء عدد كبير في الماضي ، ففي عهد الصحابة خرج مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسي ، وسجاح الكاهنة ، وفي عصر التابعين خرج المختار

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، فتح الباري : (١٣/ ٨١) .

(٢) ورواه مسلم في صحيحه ، انظر جامع الأصول : (١٠/ ٤٠٤) .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/ ٦٥٤) ، ورقمه (١٩٩٩) .

الثقفي مدعيا النبوة ، ومنذ أكثر من قرن قام حسين بن علي بن الميرزا عباس في إيران مدعيا النبوة[1] ، ولقب ببهاء الله وأتباعه البهائية ، وآخر من سمعنا عنه دعوى النبوة محمود محمد طه السوداني الذي أضل كثيرا من الناس بكتاباته ومقالاته ، وقد أعدم في طليعة هذا العام[2] ، أعدمته حكومة السودان بسبب ضلاله وكفره وردته ، فلعنة الله على الظالمين . إلا أن الدجال الكبير هو ذلك الذي يخرج آخر الزمان ، وينزل الله عيسى بن مريم للقضاء على فتنته .

---

(١) ولد بطهران في عام ١٢٣٣ هـ وتوفي في عكا بفلسطين عام ١٣٠٩ هـ .

(٢) عام ١٩٨٥م .

المبحث الثالث

الفتن

المطلب الأول
التحذير من الفتن

الإنسان الصالح هو المسلم المستقيم على الدين الذي أنزله تبارك وتعالى ، والأمة الصالحة هي الأمة التي تأخذ هذا الدين وتستقيم عليه ، ثمَّ إن الفرد المسلم ، والأمة المسلمة كلهم يبتلى بشتى أنواع البلاء ، وقد يثور البلاء من داخل الأمة بسبب الأهواء والفرقة والخصام ، وقد يتمثل في عدو حاقد على هذه الأمة يجتاحها ويستذلها ، وقد يصل البلاء النابع من الفرقة والخصام إلى حدّ أن يسل بعضها على بعض السيوف ، فتزهق الأرواح ، وتسيل الدماء ، وتنتهك الحرمات ، وتسلب الأموال ، وقد أطلع الله رسوله عليه السلام على كثير من البلايا والفتن التي ستبتلى بها الأمة الإسلامية في مقبل الزمان ، ولذلك فإن الرسول ﷺ أطال في تحديث الصحابة عن تلك الفتن ، وبيان المخرج منها ، يقول أبو زيد عمرو بن أخطب ، صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر ، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ، ثمَّ صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثمَّ صعد المنبر ، فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن ، فأعلمنا أحفظنا »(١) .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة ، (٤/٢٢١٧) ورقمه : (٢٨٩٢) .

ولعل هذا المقام هو الذي ذكره حذيفة بن اليمان ، فقد ثبت عنه أنه قال : « قام فينا رسول الله ﷺ مقاما ، ما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة ، إلّا حدّث به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابي هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل قد غاب عنه ، ثمَّ إذا رآه عرفه »[1] .

وبعض هذه الفتن شديدة مظلمة ومنها خفيف ، ففي حديث حذيفة في صحيح مسلم عن الفتن : « منهن (أي من الفتن) ثلاث لا يكدن يذرن شيئا ، ومنهن فتن كرياح الصيف ، منها صغار ، ومنها كبار »[2] .

ويبلغ من شدة هذه الفتن أن تخرج المسلم عن دينه ، ففي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح المرء مؤمنا ، ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع أحدكم دينه بعرض قليل من الدنيا » رواه أحمد ومسلم والترمذي[3] .

وفي حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ، ويصبح كافرا ، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا » أخرجه الترمذي في سننه ، وقال : حديث حسن صحيح[4] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة : (٤/٢٢١٦) ، ورقمه : (٢٨٩١) .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٣/٤) .

(٤) جامع الأصول : (١٠/٣٨٣) .

ويبلغ ثقل هذه الفتن وشدتها على المسلم أن يتمنى الموت ويرجوه كي يتخلص من البلاء ، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لاتقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني كنت مكانه » ، روه البخاري ومسلم[1] ، وفي رواية عندمسلم : « والذي نفسي بيده ، لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ، ويقول : يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدِّين إلا البلاء »[2] .

وإن من أعظم الأسباب التي توقع في الفتن والبلاء قلة العلم ، وكثرة الجهل ، وترك الإسلام ، وارتكاب الذنوب والمعاصي ، وانتهاك الحرمات ، فعن عبدالله بن مسعود وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة أياما ينزل فيها الجهل ، ويرفع العلم ، ويكثر الهرج ، والهرج :القتل » أخرجه البخاري ومسلم[3] .

وعن أنس ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويكثر الجهل ، ويكثر الزنا ، ويكثر شرب الخمر ، ويقل الرجال ، ويكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » وفي رواية : « يقل العلم ، ويظهر الجهل » متفق عليه[4] .

والسبب في قلة الرجال وكثرة النساء كما جاء ذلك مبينا في بعض الأحاديث - الحروب التي تقع في ذلك الزمان ، وقد كثر في الأحاديث إخبار الرسول ﷺ بكثرة

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور ، فتح الباري : (٧٥/١٣) ورواه مسلم كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل... (٢٢٣١/٤) .

(٢) صحيح مسلم ، في الكتاب والباب الذي سبق ذكره .

(٣) جامع الأصول : (٤٠٨/١١) ورقمه (٧٩٢٤) .

(٤) مشكاة المصابيح : ٢١/٣ .

القتل في آخر الزمان ، وليس المراد به قتل المسلمين للكفار ، وإنما هو قتل بعض المسلمين لبعض ، وفي كثير من الأحيان لا تعرف أسباب ذلك القتل ولا أهدافه ، ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال : « إن بين يدي الساعة الهرج ، قالوا : وما الهرج ؟ قال : القتل ، إنه ليس بقتلكم المشركين ، ولكن قتل بعضكم بعضا ، [حتى يقتل الرجل جاره ، ويقتل أخاه ، ويقتل عمّه ، ويقتل ابن عمّه] ، قالوا : ومعنا عقولنا يومئذ ؟ قال : إنه لتنزع عقول أهل ذلك الزمان ، ويخلف له هباء من الناس ؟ يحسب أكثرهم أنهم على شيء ، وليسوا على شيء »[1] .

وروى أبو هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده ، ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل ، ولا يدري المقتول على أي شيء قتل »[2] .

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة) للشيخ ناصر الدين الألباني : (٤/٢٤٨) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل . . . (٢/٢٢٣١) ، ورقمه : (٢٩٠٨) .

المطلب الثاني
نماذج من الفتن

أولا : مقتل الخليفة الراشد عثمان وافتراق الأمة

من أعظم الفتن التي أخبر بها الرسول ﷺ تلك الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان وفرقة الأمة الإسلامية ، ومن ثمَّ جعل بأسها بينها ، فقد سل بعضها السيوف على بعض ، وسالت الدماء الطاهرة الطيبة من الفريقين المسلمين المتخاصمين ، وأصدق وصف لتلك الفتنة أنها كانت تموج كموج البحر ، ففي حديث حذيفة أنه كان جالسا عند عمر بن الخطاب ، إذا قال : « أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة ؟ قال حذيفة : فتنة الرجل في أهله وماله وولده يكفرها الصلاة والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال ليس عن هذا اسألك ، ولكن التي تموج كموج البحر ، فقال : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها بابا مغلقا ، قال عمر : أيكسر أم يفتح ؟ قال : بل يكسر ، قال عمر : إذن لا يغلق أبدا ، قلت : أجل . قلنا لحذيفة : أكان عمر يعلم الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم أن دون غد ليلة ، وذلك أني حدثته حديثا ليس بالأغاليط ، فهبنا أن نسأله عن الباب ، فأمرنا مسروقا فسأله ، فقال : من الباب ؟ قال : عمر »[1] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، فتح الباري : (١٣/٤٨) .
ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، (٤/٢٢١٨) واللفظ للبخاري .

وقد حدد الرسول ﷺ العام الذي تقع فيه الفتنة ، ففي حديث عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « تدور رحى الإسلام بعد خمس وثلاثين ، فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يقم لهم دينهم - يقم لهم سبعين عاما ، قلت : (وفي رواية قال عمر : يا نبي الله) : مما بقي ، أومما مضى ؟ قال : مما مضى »(١) . وقد سماها رحى الإسلام تشبيها للحرب بالرحى ، لأنها تطحن المقاتلين ، كما يطحن الرحى الحب ، وأشار الرسول ﷺ في بقية الحديث إلى مدة حكم بني أمية ، فقد كانت مدته سبعين عاما .

وقد صرح في بعض الروايات بما يكون من حال الأمة في تلك الفتنة ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، وتكون بينهما مقتلة عظيمة ، ودعواهما واحدة »(٢) .

ثانيا : فتنة الخوارج

من آثار الفتن الفرقة والاختلاف ، وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن خروج أقوام في آخر الزمان ، لهم دور كبير في فرقة الأمة الإسلامية ، إذ يدعي هؤلاء العلم ، ويجهدون أنفسهم في العبادة ، ويدعون إلى كتاب الله ، ولكنهم جهلاء ، أحكامهم جائرة ، وآراؤهم قاصرة ، يسفكون دماء مخالفيهم من المسلمين ، ويجهّلون الصحابة والعلماء ، ففي الحديث المتفق عليه عن علي بن أبي طالب قال : قال

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود ، والطحاوي في مشكل الآثار ، والحاكم ، وأحمد وغيرهم ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني ، (٧٠٣/٢) ، حديث رقم (٩٧٦) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب المناقب ، حديث رقم (٣٦٠٨ ، ٣٦٠٩) فتح الباري (٥١٦/٦) ورواه مسلم ، كتاب الفتنه ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، (٢٢١٤/٤) واللفظ لمسلم .

رسول الله ﷺ : « سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من قول خير البرِيّة ، يقرؤون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة ، فإذا لقيتوهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »[١] .

وفي سنن أبي داود وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم ومسند أحمدعن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « سيكون في أمتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القيل ، ويسيئون الفعل ، يقرؤون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرميّة ، لا يرجعون حتى يرتد السهم إلى فُوقه ، هم شرار الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم وقتلوه ، يدعون إلى كتاب الله ، وليسوا منه في شيء ، من قاتلهم كان أولى بالله منهم ، سيماهم التحالق »[٢] .

وقد خرجت هذه الفرقة في عهد الصحابة ، وكفرت الصحابة ، واستباحت دماء المسلمين ، وأحدثت في الأمة بلاء كبيرا .

---

(١) صحيح الجامع : (٢١٣/٣) .
(٢) صحيح الجامع : (٢١٧/٣) .

المطلب الثالث
كيفية الخلاص من الفتن

اجتهد كثير من الصحابة في التعرف على الفتن التي ستعصف بالأمة وتبين طريق النجاة والخلاص منها ، من هؤلاء بل في مقدمتهم حذيفة بن اليمان فقد صح عنه أنه قال : « إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة ، فيما بيني وبين الساعة »[1] .

وقد كان حذيفة يكثر من سؤال الرسول ﷺ عن الفتن حتى لا يقع فيها ، ففي صحيح البخاري عن حذيفة قال : « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشرّ ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم . قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن ، قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم قذفوه فيها . قلت : يا رسول الله : صفهم لنا . قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك »[2] .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن ، باب إخبار الرسول ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة : (٤/٢٢١٦) ، ورقمه (٢٨٩١) .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن ، باب كيف يكون الأمر إذا لم تكن جماعة ، فتح الباري (٣٥/١٣) .

وفي حديث العرباض بن سارية أمر الرسول ﷺ بالتمسك بالإسلام ، وطاعة الإمام ، والتزام سنة الرسول ﷺ وسنة خلفائه الراشدين المهديين من بعده ، فقد روى عبدالرحمن بن عمرو السلمي أنه سمع العرباض بن سارية يقول : « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقلنا : يا رسول الله ، إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ قال : « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ، ومن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة خلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وعليكم بالطاعة ، وإن عبدا حبشيا ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف ، حيثما قيد ينقاد »[1] .

كيف يتصرف المسلم في الحروب التي تثور بين المسلمين

أرشد الرسول ﷺ أمته إلى كيفية التصرف في مثل هذه الفتن التي تثور بين المسلمين ، حيث يخفى الحق ، وتضطرب الأمور ، فقد دعا الرسول ﷺ إلى اجتناب الصراع والقتال في مثل هذه الحال ، والاعتزال في مكان ناء ، يرعى الرجل الغنم في قمم الجبال ، أو يجاهد الأعداء على حدود الدولة المسلمة ، فإن وصلت إليه سيوف المتحاربين ، فقد أمر بأن يمتنع عن الدفاع عن نفسه ، ولو كان في هذا هلاكه ، فقد روى لنا أبو بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستكون فتن ، ألا ثمَّ ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من الماشي فيها ، والماشي خير من الساعي إليها ، ألا فإذا نزلت أو وقعت ، فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كان

(١) حديث صحيح ، أخرجه ابن ماجة ، والترمذي ، وأحمد ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني (٢/٦٤٧) ، حديث رقم (٩٣٧) .

له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كان له أرض فليلحق بأرضه . قال : فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : يعمد إلى سيفه فيدق على حدّه بحجر ، ثم لينج إن استطاع النجاء ، اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت ؟ فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين ، أو إلى إحدى الفئتين ؟ فضربني رجل بسيفه ، أو يجيء سهم فيقتلني ؟ قال : يبوء بإثمه وإثمك ، ويكون من أصحاب النار[1] » .

وعن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن » رواه البخاري[2] .

وفي حديث أبي هريرة عن الحاكم أن رسول الله ﷺ قال : « أظلتكم فتن كقطع الليل المظلم ، أنجى الناس منها صاحب شاهقة ، يأكل من رسل غنمه ، أو رجل من وراء الدروب ، آخذ بعنان فرسه ، يأكل من فيء رمحه »[3] .

وقد بين الرسول ﷺ لأبي ذر كيف يتصرف في الفتنة ، فقال له : « أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء[4] ، كيف تصنع ؟ اقعد في بيتك ، وأغلق عليك بابك ، قال : فإن لم أترك ؟ قال : فأت من كنت معه ، فكن فيهم . قال : فآخذ سلاحي ؟ قال : إذا تشاركهم فيما هم فيه ، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق من طرف ردائك على وجهك ، كي يبوء

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب نزول الفتن : (٢٢١٢/٤) ، ورقمه (٢٨٨٧) .
(٢) رواه البخاري ، باب التعرب في الفتنة ، فتح الباري : (٤٠/١٣) .
(٣) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٦٦/٣) (٦٤٢/٤) .
(٤) حجارة الزيت : موضع في المدينة المنورة .

بإثمه وإثمك ، ويكون من أصحاب النار »[1] .

وقد احتج بالأحاديث التي سقناها وما أشبهها من لم ير القتال في الفتنة من الصحابة ، « وهم كل من ترك القتال مع علي بن أبي طالب في حروبه ، كسعد بن أبي وقاص ، وعبدالله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأبي بكرة ، وغيرهم ، وقالوا : يجب الكف حتى لو أراد أحد قتله لم يدفعه عن نفسه ، ومنهم من قال : لا يدخل في الفتنة ، فإن أراد أحد قتله دفع عن نفسه ، وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نصر الحق وقتال الباغين ، وحمل هؤلاء الأحاديث الواردة في ذلك على من ضعف على القتال ، أو قصر نظره عن معرفة صاحب الحق »[2] .

وقال الطبري : « الفتنة أصلها الابتلاء ، وإنكار المنكر واجب على من قدر عليه ، فمن أعان المحق أصاب ، ومن أعان المخطىء أخطأ ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها »[3] .

ولا شك أن تبين الحق والصواب في مثل هذه الظروف التي تقع فيها الفتن ، وتظهر فيها الأهواء صعب جدّاً ، والأقرب إلى السلامة هو البعد والاعتزال ، كيلا يصيب المسلم دما حراما ، ولا يؤذي مسلما ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) حديث صحيح ، رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم ، انظر صحيح الجامع الصغير : (٢٥٨/٦) .

(٢) فتح الباري : (٣٣/١٣) .

(٣) فتح الباري : (٣١/١٣) .

المطلب الرابع
بؤرة الفتن ومصدرها

أخبرنا الرسول ﷺ بالجهة التي تهب منها رياح الفتن على الديار الإسلامية ، ففي صحيحي البخاري ومسلم وموطأ مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رأس الكفر نحو المشرق ، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل ، الفدادين أهل الوبر ، والسكينة في أهل الغنم »[1].

وعن عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قام إلى جنب المنبر ، فقال : « الفتنة هاهنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان ، أو قال : قرن الشمس » . رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية لمسلم عن عائشة : « رأس الكفر ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان »[2] ، وفي حديث آخر عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهمَّ بارك لنا في شامنا ، اللهمَّ بارك لنا في يمننا ، قالوا يا رسول الله : وفي نجدنا ؟ فأظنه قال في الثالثة : هناك الزلازل والفتن ، وبها يطلع قرن الشيطان »[3] .

وأصل النجد ما ارتفع من الأرض ، وقال الخطابي : نجد من جهة المشرق ، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ، ونواحيها وهي مشرق أهل المدينة ،

(١) جامع الأصول : (٦١/١٠) ، ورقم الحديث : (٧٥٢٨) .
(٢) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ « الفتنة من قبل الشرق » فتح الباري : (٤٥/١٣) ومسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب الفتنة من المشرق (٢٢٢٩/٤) حديث رقم (٢٩٠٥) .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ : الفتنة من قبل المشرق ، فتح الباري : (٤٥/١٣) .

وأصل النجد ما ارتفع من الأرض ، وهو خلاف الغَوْر ، فإنه ما انخفض منها ، وتهامة كلها من الغور ، ومكة من تهامة[1] .

ولا شك أن العراق في جهة المشرق ، وأنها تعد بالنسبة للمدينة نجدا ، وهذا ما فقهه سالم بن عبدالله بن عمر ، فعندما كان أهل العراق يرتكبون العظائم ويسألون عن التوافه من الأمور ، قال لهم سالم : « يا أهل العراق ، ما أَسْأَلَكُمْ عن الصغيرة ، وأركبكم للكبيرة ، سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الفتنة تجيء من ههنا » وأومأ بيده نحو المشرق : « من حيث يطلع قرنا الشيطان » ، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض[2] .

ومن استقرأ التاريخ علم أنَّ الفتن كانت تهب على الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي من جهة الشرق ، فمنها ثارت الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد عثمان ، ومنها خرجت فرقة الحرورية المارقة : الخوارج ، وبقيت رياح الخوارج تعصف بالأمة في العهد الأموي ، وبها قامت ثورة الزنج في عام ٢٥٥ هـ بالبصرة ، وفي عام ٢٧٨ هـ انبعثت منها حركة القرامطة ؛ ومن اطلع على ما أحدثه الزنج والقرامطة في الأمة الإسلامية يذهل مما ارتكبوه من فظائع .

ومن الشرق هبت رياح التتار ، وسيبقى الأمر كذلك إلى أن تأتي رايات الدجال من خراسان كما أخبر الرسول ﷺ .

ولا تعارض هذه الأحاديث ـ التي تحدد البؤرة التي تنبعث منها الفتن على الأمّة الإسلامية ـ حديث الرسول ﷺ الذي يرويه عنه أسامة بن زيد رضي الله عنهما ،

---

(١) فتح الباري : (٤٧/١٣) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب الفتنة من المشرق ، (٢٢٢٩/٤) حديث رقم (٢٩٠٥) .

قال : « أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة ، فقال : هل ترون ما أرى ؟ قالوا: لا . قال : فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر »[1] رواه البخاري[2] .

يقول ابن حجر في شرح الحديث : « اختصت المدينة بذلك لأن قتل عثمان رضي الله عنه كان بها ، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك ، فالقتال بالجمل وبصفين كان بسبب مقتل عثمان ، والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفين ، وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولد عن شيء من ذلك ، أو عن شيء تولد عنه ، ثم إن قتل عثمان كان أشدَّ أسبابه الطعن على أمرائه ، ثم عليه بتوليه لهم ، وأول ما نشأ ذلك من العراق ، وهي من جهة المشرق ، فلامنافاة بين حديث الباب ، وبين الحديث الآتي أن الفتنة من جهة المشرق »[3] .

---

(١) أشار الرسول ﷺ في هذا الحديث إلى كثرة الفتن وعمومها للناس لا تختص بها طائفة دون أخرى ، كما يعم المطر النواحي التي ينزل فيها ، ومن قرأ التاريخ وما جرى بعد مقتل عثمان ومقتل الحسين علم صدق مقالة الرسول ﷺ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ « ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب» فتح الباري (١١/١٣) ، ورواه مسلم (٢٢١١/٤) واللفظ للبخاري .

(٣) فتح الباري : (١٣/١٣) .

المبحث الرابع

إسناد الأمر إلى غير أهله

وضع الرجل المناسب في المكان المناسب أحد القواعد الهامة التي لا تصلح حياة البشر بدونها ، ولذلك فإن الفترات التي تولًى فيها الحكم أصحاب الكفاءات العالية من أصحاب الصلاح والتقى فترات مضيئة مشرقة في تاريخ الأمة الإسلامية ، وأكبر مقتل يفسد نظام الحياة أن يتولى الحكم والولايات والمناصب أقوام غير أكفاء يقودون الحياة بأهوائهم ، ويترك الأخيار القادرون على تسيير الأمور على النحو الأمثل والأفضل .

وقد أخبر الرسول ﷺ أن من أشراط الساعة أن يوسد الأمر إلى من لا يستحقه ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « بينما رسول الله ﷺ في مجلس ـ يحدث القوم ، إذ جاءه أعرابي ، فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله ﷺ في حديثه ، فقال بعض القوم : سمع ما قاله ، فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه : قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال : ها أناذا يا رسول الله ، قال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[1] .

وروى الطحاوي في « مشكل الآثار » عن رسول الله ﷺ : « يوشك أن يغلب على الدنيا لكع ، ابن لكع ، وأفضل الناس مؤمن بين كريمين »[2] .

---

(١) جامع الأصول : (٣٩٦/١٠) ، حديث رقم (٧٩٠٤) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٩/٤) ورقم الحديث (١٥٠٥) وفي إسناد الحديث المرفوع ضعف . إلا أن له طريقا صحيحة موقوفة . والموقوف له حكم المرفوع في مثل هذا .

ومن نظر في تاريخ الأمة الإسلامية علم أن هذا المرض الذي أشار إليه الرسول ﷺ هو أحد البلايا الكبار التي أصابت المسلمين إصابات كبيرة ، لقد تولى أمر هذه الأمة رجال مستبدون ، لا يطيقون سماع رأي مخالف لما يرونه ، ففي الحديث عن معاوية أن الرسول ﷺ قال : « ستكون أئمة من بعدي ، يقولون فلا يرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما تقاحم القردة » رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وأبو يعلى[1] .

وبعض هؤلاء الحكام تشغلهم الشهوات والمتع عن رعاية أمور المسلمين ، وبعضهم لا يعرف الحق ، فإذا به يحمل الناس على مالا يعرفون ، وينتشر بينهم البدع والمنكرات ، كما في الحديث الذي يرويه عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ : « ستكون أمراء تشغلهم أشياء ، يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فاجعلوا صلاتكم معهم تطوعا »[2] رواه أبو داود وأحمد وابن ماجة بإسناد صحيح .

وفي حديث أم سلمة عند مسلم وأبي داود : « ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره برىء ، ومن أنكر سلم ، ولكن من رضي وتابع لم يبرأ »[3] .

وفي مسند أحمد ومعجم الطبراني وسنن ابن ماجة عن ابن مسعود عن الرسول ﷺ قال : « سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ، ويحدثون البدع ، قال ابن مسعود : فكيف أصنع ؟ قال : تسألني يابن أم عبد كيف تصنع ؟ لا طاعة لمن عصى الله »[4] .

ونلاحظ أن الرسول ﷺ لم يأذن بالخروج على عصاة الحكام ، لما يترتب على

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٩٨/٤) ، ورقمه : (١٧٩٠) .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢٠٥/٣) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق : (٢١٦/٣) .

الخروج عليهم من الفتن وسفك الدماء ، هذا إذا كانوا آخذين بشريعة الله على وجه العموم .

ففي سنن النسائي ومسند ابن حبان بإسناد صحيح عن عرفجه « ستكون بعدي هنات وهنات ، فمن رأيتموه فارق الجماعة ، أو يريد أن يفرق أمر أمّة محمد كائنا من كان فاقتلوه ، فإن يد الله مع الجماعة ، وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض »[1] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣/٢٠٦) .

المبحث الخامس

فساد المسلمين

إنما يتحقق للأمة الرقي والسؤدد بمقدار ما يكون فيها من أفراد صالحين يتمثلون في أنفسهم القيم الفاضلة، والأخلاق الحميدة، ساعين إلى إقامة العدل في عالم الواقع، وتقويم المعوج، وإصلاح الفاسد، وهؤلاء هم الذين حملوا الأمانة التي أبت السموات والأرض حملها، وأشفقت من ذلك ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾(1).

والأمانة ما أئتمن الله عليه العباد من الإيمان والتكاليف، ومن ذلك أداء ما للعباد من مال وحقوق، وقد أخبر الرسول ﷺ أن هذه الأمانة سترفع، وهذا الرفع تدريجي، ففي زمن حذيفة لاحظ شيئاً منه، ولكنه في زمننا هذا كثير، وسيأتي زمان يكون أكثر مما نحن فيه، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر «حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة، ثمّ حدثنا عن رفع الأمانة، قال: ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظلُّ أثرها مثل الوَكْت، ثم ينام النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المَجْل دحرجته على رجلك، فنفط، فتراه منتبرا، وليس فيه شيء، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله، فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلا

---

(1) سورة الأحزاب: ٧٢.

أمينا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، ومافي قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » يقول حذيفة : « ولقد أتى عليَّ زمان ، وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلما ليردنه عليَّ دينه ، ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه عليَّ ساعيه ، وأما اليوم فماكنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا »[١] .

ومراد الرسول ﷺ أنها نزلت في جذر قلوب الرجال أي في أصلها وأعماقها ، ثم إن الأمانة تنزع ويبقى أثرها فحسب ، والوَكْت : هو اللون الباهت الذي يخلف اللون الأصلي ، ومراده بالمَجْل : هو أثر التنقيط والنفط الذي تحدثه النار إذا دحرجته على رجل الإنسان كما في الحديث .

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة : (١/١٢٦) ، ورقمه : (١٤٣) .

المبحث السادس
ولادة الأمة ربتها، وتطاول الحفاة العراة رعاة الشاة في البنيان

روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجيء جبريل إلى الرسول ﷺ في صورة رجل يلبس الملابس البيضاء الناصعة ، له شعر شديد السواد ، وسأل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وأجابه الرسول ﷺ ، ثم سأله عن الساعة ، فقال الرسول ﷺ : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان »[1] .

وروى ابن عباس إجابة الرسول ﷺ عن السؤال بقوله : « إذا رأيت الأمة ولدت ربتها أو ربها ، ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون في البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس ، فذلك من معالم الساعة وأشراطها » .

قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة ؟ قال : العرب[2] .

قال ابن رجب في تعليقه على الحديث : « مضمون ما ذكر من أشراط الساعة في هذا الحديث يرجع إلى أن الأمور توسد إلى غير أهلها ، كما قال النبي ﷺ لمن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، انظر جامع العلوم والحكم : ص ٢١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣١٨ ـ ٣١٩) ، وقال الشيخ ناصر فيه بعد أن ذكر إسناده : وهذا إسناد لا بأس فيه في الشواهد ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، (٣/٣٣٢) ، حديث رقم : (١٣٤٥) .

سأله عن الساعة : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » ، فإذا صار الحفاة العراة رعاء الشاة وهم أهل الجهل والجفاء رؤوس الناس وأصحاب الثروة والأموال حتى يتطاولوا في البنيان فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا . . »[1] .

والمراد بقوله : « أن تلد الأَمَةُ ربتها»، أي سيدتها ومالكتها ، قال العلماء هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها ، لأن مال الإنسان صائر إلى ولده ، وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين ، إما بتصريح أبيه له بالإذن ، وإمّا بما يعلمه بقرينة الحال أو عرف الاستعمال ، وقيل معناه أن يلدن الملوك فتكون أمه من جملة رعيته وهو سيدها ، وسيد غيرها من رعيته[2] ، وكل هذا وقع ، فقد كثر تسري الأحرار من الإماء بملك اليمين ، ومن المعلوم شرعا أن الأبناء الذين يأتون من السراري يكونون أحرارا ، وبذلك ولدت الأمة ربتها ، وقد وصل بعض هؤلاء إلى الملك .

(١) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب : ص ٣٩ .
(٢) شرح النووي على مسلم : (١٥٨/١) .

المبحث السابع

تداعي الأمم على الأمة الإسلامية

من علامات الساعة تكالب أمم الكفر على هذه الأمة ، ففي الحديث عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ، فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »(١) .

وقد وقع هذا عبر التاريخ أكثر من مرة ، عندما تداعت الأمم الصليبية إلى غزو هذه الأمة ، ومرة أخرى عند اجتياح التتار العالم الإسلامي ، ولكنَّ هذه النبوءة تحققت في القرن الأخير بصورة أوضح فقد اتفق الصليبيون واليهود والملاحدة على هدم الخلافة الإسلامية ، ثم جزؤوا الديار التي كانت تحكمها ، وتقاسموا ديار المسلمين فيما بينهم ، وأعطوا فلسطين لليهود ، وأصبح المسلمون أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام ، ولا تزال قوى الشر إلى اليوم متداعية لتدمير هذه الأمة وامتصاص خيراتها ، ونهب ثرواتها ، وإذلال رجالها ، والأمة الإسلامية خانعة ذليلة ، لم تغن عنها كثرتها ، غثاء كغثاء السيل ، وعلتها كما أخبر الرسول ﷺ : الوهن حب الدنيا ، وكراهية الموت .

---

(١) الحديث بمجموع طرقه صحيح ، كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني ، وقد عزاه إلى أبي داود ، والروياني ، وابن عساكر ، وأحمد في مسنده ، وأبو نعيم في « الحلية » وغيرهم « سلسلة الأحاديث الصحيحة » :(٢ / ٦٨٤) ، حديث رقم (٩٥٨) .

السر في هذا التداعي

إن اعتصام هذه الأمة بدينها ووحدتها حاجز يقف دون مطامع أعدائها ، فمهما كان مكر الأعداء وقوتهم فإنهم لن ينالوا من هذه الأمة نيلا إذا كانت متحدة ، وفي الحديث الذي يرويه ثوبان أن الرسول ﷺ قال : « وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامّة ، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ، يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، أو قال من بين أقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبي بعضهم بعضا »[1] وواضح من الحديث أن وحدة الأمة عصمة لها من أعدائها ، فإذا أصبح بأسها بينها ، ووقعت الفرقة والاختصام فيما بينها سلط الله عليها أعداءها ، وتلك نتيجة حتمية لأن قوتها في هذه الحال لا تتجه إلى الأعداء ، بل إلى نفسها فتدمر نفسها بنفسها ، مما يطمع أعداءها فيها .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، (٢/٢٢١٥) حديث رقم ٢٢٨٩ والمراد بالبيضة : أي جماعتهم وأصلهم ، والبيضة أيضا : العز والملك . والمراد بقوله : (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي لا أهلكهم بقحط يعمهم ، بل إن وقع قحط يكون في ناحية يسيرة ، بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام .

المبحث الثامن

الخسف والقذف والمسخ الذي يعاقب الله به أقواماً من هذه الأمة

يقع في هذه الأمّة من أنواع البلاء الخسف والقذف والمسخ بسبب تعاطيها للذنوب والمعاصي واستعلان ذلك فيها ، كشرب الخمر ولبس الرجال الحرير ، وتعاطي الزنا ، وأكل الربا ، ونحو ذلك من الفساد الذي يصل درجة استحلال الحرام .

ففي معجم الطبراني الكبير بإسناد صحيح عن سهل بن سعد أن الرسول ﷺ قال : « سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ ، إذا ظهرت المعازف والقينات ، واستحلت الخمر »[1] .

ورواه ابن ماجة عن عبدالله بلفظ « بين يدي الساعة مسخ ؛ وخسف ، وقذف » ولهذا الحديث شواهد كثيرة تشهد بصحته ، منها حديث عائشة عند الترمذي : « يكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف ، قالت : قلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم : إذا ظهر الخبث » .

ومنها حديث عمران ، وهو قريب من حديث عائشة إلا أنه قال : « فقال رجل من المسلمين : يا رسول الله ومتى ذلك ؟ قال : إذا ظهرت القينات

---

(١) ورواه الطبراني أيضا في معجمه « الكبير والأوسط » عن أبي سعيد ، ورواه الترمذي عن عمران بن حصين ، انظر « صحيح الجامع الصغير » : (٣/٣١٦) حديث رقم (٣٥٥٩) .

والمعازف ، وشربت الخمور » أخرجه الترمذي[1] .

وروى أبو نعيم في أخبار أصبهان بإسناده إلى ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليبيتن أقوام من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو ، فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير »[2] .

وروى البخاري تعليقا عن أبي عامر أو أبي مالك أن النبي ﷺ ، قال : « ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ، ولينزلن أقوام إلى جنب علم ، يروح عليهم بسارحة لهم ، يأتيهم لحاجة ، فيقولون : ارجع إلينا غدا ، فيبيتهم الله ، ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة » وقد وصل الحديث الطبراني والبيهقي وابن عساكر وغيرهم ، وإسناده صحيح وقد أخطأ ابن حزم في تضعيفه للحديث[3] .

ومن الخسوف الكبيرة التي تكون قرب قيام الساعة ، الخسف بجيش كامل في آخر الزمان ، كما في الحديث الذي يرويه أحمد والحميدي عن بقيرة امرأة القعقاع بن أبي حدرد الأسلمي ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول : « يا هؤلاء ، إذا سمعتم بجيش قد خسف به قريبا ، فقد أظلت الساعة »[4] .

ولعل هذا الجيش الذي يخسف به قرب المدينة ، ويدل على هذا قوله : « قريبا » .

---

(١) انظر الكلام على روايات الحديث في : سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٩٣/٤) حديث رقم (١٧٨٧).

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١٣٥/٤) ، حديث رقم (١٦٠٤) .

(٣) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١٣٩/١) ، حديث رقم : (٩١) .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٤٠/٣) ورقم الحديث : ١٣٥٥ .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ ببعض المواضع التي يقع فيها الخسف والقذف والمسخ ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « يا أنس ، إن الناس يمصرون أمصارا . فإن مصرا يقال له : البصرة ، فإن أنت مررت بها أو دخلتها ، فإياك وسباخها وكلأها ونخيلها وسوقها وباب أمرائها ، وعليك بضواحيها ، فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف ، وقوم يبيتون ويصبحون قردة وخنازير »[1] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٣/١٩) . ورقم الحديث : ٥٤٣٣ .

المَبحث التَاسِع

استِفاضة المَال

من علامات الساعة كثرة المال ، حتى أن الرجل يعطى المائة دينار من الذهب فيراها قليلة ، ويبحث صاحب المال عن رجل فقير يقبل منه صدقة ماله فلا يجد ، فقد قال الرسول ﷺ لعوف بن مالك ، وكان آن ذاك في غزوة خيبر : « اعدد ستا بين يدي الساعة » فذكرها ، ومنها : « استفاضة المال ، حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا »[1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال ، فيفيض حتى يهمّ رب المال من يقبل منه صدقة ، ويدعى إليه الرجل ، فيقول : لا أرب لي فيه »[2] .

والمراد بقوله : « يهم رب المال » : أي يحزنه ، لأنه لا يجد المحتاج الذي يبذل له المال ، وقوله : « لا أرب لي فيه » أي لا حاجة لي به .

وروى حارثة بن وهب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تَصدّقوا ، فيوشك الرجل يمشي بصدقته، فيقول الذي أعطيها : لو جئتنا بالأمس قبلتها ، فأمّا الآن ، فلا حاجة لي بها ، فلا يجد من يقبلها[3] » .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد ، باب ما يحذر من الغدر ، انظر جامع الأصول : (٤١٢/١٠) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، حديث رقم (١٠١٢) (٧٠١/٢) .

(٣) المصدر السابق ، حديث رقم (١٠١١)(٧٠٠/٢)،ورواه البخاري : كتاب الفتن ، فتح الباري : (٨١/١١) ، واللفظ لمسلم .

ويبدو أن هذا يقع في أكثر من زمان ، فقد وقع في عصر عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، فقد أخرج يعقوب بن سفيان في تاريخه من طريق عمر بن أسيد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب ، قال : « لا والله ما مات عمر بن عبدالعزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر من يضعه فيهم ، فلا يجد فيرجع به ، قد أغنى عمر بن عبدالعزيز الناس »[1] ، وسيأتي عند ذكر المهدي إيراد الأحاديث التي تذكر أنه سيكون خليفة يحثو المال حثوا ، وسيأتي عند ذكر عيسى ذكر الأحاديث التي تذكر استفاضة المال في وقته ، حتى لا يقبله أحد .

---

(١) فتح الباري : (١٣/٨٣) .

المبحث العاشر

تسليم الخاصة، وفشو التجارة، وقطع الأرحام

روى أحمد في مسنده بإسناد صحيح ، عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة ، وفشو التجارة، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة ، وقطع الأرحام ، وشهادة الزور ، وكتمان شهادة الحق ، وظهور القلم »[1] .

ومراده بتسليم الخاصة أن لا يسلم المسلم إلا على من يعرفه ، كما في الحديث الآخر الذي يرويه أحمد في مسنده عن عبدالله بن مسعود أيضا ، عن النبي ﷺ قال : « إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية على المعرفة » وفي رواية : « أن يسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة »[2] . وهذا الذي أخبرنا به الرسول ﷺ قد وقع كله من قبل ، وهو ظاهر مشاهد في زماننا ، وهو في كثرة باطراد وازدياد ، والله المستعان .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٢٥٠) ، ورقم الحديث : ٦٤٧ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٢٥٢) ، ورقم الحديث : ٦٤٨ .

المبحث الحادي عشر
اختلال المقاييس

أخبرنا الرسول ﷺ أن المقاييس التي يُقَوِّم بها الرجال تختل قبل قيام الساعة ، فيقبل قول الكذبة ويصدق ، ويرد على الصادق خبره ، ويؤتمن الخونة على الأموال والأعراض ، ويخوّن الأمناء ويتهمون ، ويتكلم التافهون من الرجال في القضايا التي تهم عامة الناس ، فلا يقدمون إلا الآراء الفجة ، ولا يهدون إلا للأمور المعوجة ، فقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سيأتي على الناس سنوات خداعات ، يُصَدَّق فيها الكاذب ، ويكذَّب فيها الصادق ، ويؤتمن فيها الخائن ، ويخوَّن فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة » .

قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « الرجل التافة ، يتكلم في أمر العامة »[1] .

ومن تأمل في أحوال عالمنا اليوم وجد أننا نعيش هذا العصر الذي أخبر الرسول ﷺ عنه ، فالكذبة من الكفار والمشركين الذين يملكون وكالات الأنباء والإذاعات ومن على طريقهم يصدَّقون ، وأهل الصدق والعدل يكذَّبون ، والأمة الإسلامية تضع أموالها في أيدي الخونة الكفرة ، ويؤتمنون على ذلك ، ويخون المسلمون ولا يؤتمنون على شيء من ذلك ، وقد تكلم في شؤون العالم التافهون من الرجال ، وقادوه قيادة هوجاء توشك أن تدمر البشرية جمعاء .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٥٠٨/٤) . ورقم الحديث : ١٨٨٧ .

المبحث الثاني عشر

شرطة آخر الزمان الذين يجلدون الناس

يكثر الظلم في آخر الزمان ، حتى أن الرجال الذين يوكل إليهم القيام على الأمن وردع الظالمين يفسدون، فإذا بهم يتحولون إلى ظلمة يجلدون ظهور العباد بسياطهم ، وهذا كثير مشاهد في ديار الإسلام اليوم .

روى أحمد والحاكم والطبراني في « الكبير » بإسناد صحيح عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقر ، يغدون في سخط الله ، ويروحون في غضبه »[١] .

وخبر هؤلاء ومصيرهم مذكور في صحيح مسلم ، فقد روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . ونساء كاسيات عاريات ، مميلات ، مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة . ولا يجدن ريحها . وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا »[٢] .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٥١٧/٤) ورقم الحديث : ١٨٩٣ .

(٢) صحيح مسلم : (١٦٨٠/٤) . ورقم الحديث : (٢١٢٨) .

الفصل الرابع
العلامات التي لم تقع بعد

المبحث الأول
عودة جزيرة العرب جنات وأنهارا

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، حتى يخرج الرجل زكاة ماله ، فلا يجد أحداً يقبلها ، وحتى تعود أرض العرب جنات وأنهارا » رواه مسلم[1] .

وعودتها جنات وأنهارا إمّا بسبب ما يقوم أهلها به من حفر الآبار ، وزراعة الأرض ونحو ذلك مما هو حاصل في زماننا ، وإمّا بسبب تغير المناخ ، فيتحول مناخها الحار إلى جو لطيف جميل ، ويفجر خالقها فيها من الأنهار والعيون ما يحول جدبها خصبا ، ويحيل سهولها الجرداء إلى سهول مخضرة فيحاء ، وهذا هو الأظهر ، فإنه يحكي حالة ترجع فيها الجزيرة إلى ما كانت عليه من قبل .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢١/٣) حديث رقم : (٥٤٤٠) .

المبحث الثاني

انتفاخ الأهلة

من الأدلة على اقتراب الساعة أن يرى الهلال عند بدو ظهوره كبيرا حتى يقال ساعة خروجه إنه لليلتين أو ثلاثة ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة »[1] ، وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قَبَلا ، فيقال : لليلتين وأن تتخذ المساجد طرقا ، وأن يظهر موت الفجأة »[2] .

---

(١) أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥/٢١٣) ، حديث رقم (٥٧٧٤) ، وقال صحيح الإسناد ، وعزاه إلى الطبراني في معجمه الكبير ، وأخرجه غيره من كتب السنة عن أبي هريرة .

(٢) عزاه في صحيح الجامع (٥/٢١٤) حديث رقم (٥٧٧٥) إلى الطبراني في الأوسط ، وقال : إسناده حسن .

المبحث الثالث

تكليم السباع والجماد الإنس

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري ، قال : « عدا الذئب على شاة ، فأخذها ، فطلبه الراعي ، فانتزعها منه ، فأقعى على ذنبه ، قال : ألا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إليّ ، فقال : يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس ، فقال الذئب ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد ﷺ بيثرب ، يخبر الناس بأنباء ماقد سبق . قال : فأقبل الراعي يسوق غنمه ، حتى دخل المدينة ، فزواها إلى زاوية من زواياها ، ثم أتى رسول ﷺ ، فأخبره ، فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة ، ثم خرج ، فقال للراعي : أخبرهم ، فأخبرهم ، فقال رسول الله ﷺ : صدق ، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ، ويكلم الرجل عذبة سوطه ، وشراك نعله ، ويخبره فخذه بما حدّث أهله بعده »[1] .

وقد يكون هذا الذي يخبر عنه الرسول ﷺ شيئا خارقا للعادة خارجا عن المألوف ، كما تشهد على الإنسان أعضاؤه يوم القيامة ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2] ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ

---

(١) إسناده صحيح ، وأخرجه ابن حبان والحاكم مفرقا ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وأخرج الترمذي منه قوله : « والذي نفسي بيده . . » وقال : حديث حسن ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني ، حديث رقم (١٢٢) .

(٢) سورة يس : ٦٥ .

شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾(1) ، أو هو إخبار عمّا يصل إليه البشر من علوم ومخترعات ، يستطيعون بها فقه لغة الحيوان ، وينطقون بها الجماد كما هو الحال في المخترعات الجديدة (الراديو) ، و(التلفاز) .

---

(1) سورة فصلت : ٢١ .

المبحث الرابع

انحسار الفرات عن جبل من ذهب

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب ، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا » ، وفي رواية « يحسر عن جبل من ذهب » .

وفي رواية عند مسلم : « لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو »[١] .

ورواه مسلم عن أبي بن كعب بلفظ : « يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب فإذا سمع به الناس ساروا إليه ، فيقول من عنده : لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله ، قال : فيقتتلون عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون »[٢] .

ومعنى انحساره : انكشافه لذهاب مائة ، كما يقول النووي[٣] ، وقد يكون ذلك بسبب تحول مجراه ، فإن هذا الكنز أو هذا الجبل مطمور بالتراب وهو غير

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب خروج النار ، فتح الباري : (١٣/٧٨) ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب : ٢٢١٩/٤ ، حديث رقم : (٢٨٩٤) .

(٢) انظر صحيح مسلم : (٤/٢٢٢٠) حديث رقم : (٢٢٩٥) .

(٣) شرح النووي على مسلم : (١٨/٩) .

معروف ، فإذا ما تحول مجرى النهر لسبب من الأسباب ومرّ قريبا من هذا الجبل كشفه ، والله أعلم بالصواب .

والسبب في نهي الرسول ﷺ من حضره عن الأخذ منه لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والاقتتال وسفك الدماء .

المبحث الخامس

إخراج الأرض كنوزها المخبوأة

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل ، فيقول : في هذا قتلت ! ويجيء القاطع ، فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق ، فيقول : في هذا قطعت يدي ! ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً »[1] .

وهذه آية من آيات الله ، حيث يأمر الحقُّ الأرض أن تخرج كنوزها المخبوأة في جوفها ، وقد سمى الرسول ﷺ تلك الكنوز (بأفلاذ الكبد) ، وأصل الفلذ « القطعة من كبد البعير ، وقال غيره : هي القطعة من اللحم ، ومعنى الحديث : التشبيه ، أي تخرج مافي جوفها من القطع المدفونة فيها ، والأسطوان جمع أسطوانة ، وهي السارية والعمود ، وشبهه بالأسطوان لعظمته وكثرته[2] » .

وعندما يرى الناس كثرة الذهب والفضة يزهدون فيه ، ويألمون لأنهم ارتكبوا الذنوب والمعاصي في سبيل الحصول على هذا العرض التافه .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ، حديث رقم (١٠١٣) ٢/٧٠١ .

(٢) شرح النووي على مسلم : (٩٨/١٨) .

المبحث السادس

محاصرة المسلمين إلى المدينة

من أشراط الساعة أن يهزم المسلمون ، وينحسر ظلهم ، ويحيط بهم أعداؤهم ويحاصرونهم في المدينة المنورة .

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك المسلمون أن يحاصروا إلى المدينة ، حتى يكون أبعد مسالحهم سلاح »[1] .

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود والحاكم ، صحيح الجامع : (٦/٣٦٣) ورقم الحديث : (٨٠٣٣) .

المَبْحَث السَابِع

إحراز الجهجاه الملك

الجهجاه رجل من قحطان سيصير إليه الملك ، وهو شديد القوة والبطش ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية لمسلم : « لا تذهب الأيام والليالي ، حتى يملك رجل يقال له الجهجاه »[1] .

ويحتمل أن يكون هذا الذي في الرواية الأخيرة غير الأول ، فقد صح في سنن الترمذي عن أبي هريرة أن هذا الجهجاه من الموالي ، ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « لا يذهب الليل والنهار حتى يملك رجل من الموالي يقال له جهجاه »[2] .

والمراد بكونه يسوق الناس بعصاه أنه يغلب الناس فينقادون له ويطيعونه ، والتعبير بالسوق بالعصا للدلالة على غلظته وشدته ، وأصل الجهجاه الصيَّاح ، وهي صفة تناسب العصا كما يقول ابن حجر[3] ، وهل يسوق هذا الرجل الناس إلى الخير أم الشرّ ؟ ليس عندنا بيان من الرسول ﷺ بذلك .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب تغير الزمان ، فتح الباري : (١٣/٧٦) .
(٢) انظر صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٣٠) حديث رقم : (٧٥٦١) .
(٣) فتح الباري : (١٣/٧٨) .

المبحث الثامن

فتنة الأحلاس، وفتنة الدهماء، وفتنة الدهيماء

عن عبد الله بن عمر قال : كنا عند رسول الله ﷺ قعودا نذكر الفتن ، فأكثر من ذكرها ، حتى ذكر فتنة الأحلاس ، فقال قائل : وما فتنة الأحلاس ؟ قال : هي فتنة هرب وحَرَب ، ثمَّ فتنة السراء ، دخلها أو دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي ، يزعم أنه مني ، وليس مني ، وإنما وليي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كَوَرِكٍ على ضِلَع ، ثم فتنة الدهيماء ، لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته ، فإذا قيل انقطعت تمادت ، يصبح الرجل فيها مؤمنا ، ويمسي كافرا ، حتى يصير الناس إلى فسطاطين : فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، إذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من اليوم أو غد »[1] .

والأحلاس جمع حلس ، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب ، شبهت بـه الفتنة لملازمتها للناس حين تنزل بهم كما يلازم الحلس ظهر البعير ، وقد قال الخطابي : يحتمل أن تكون هذه الفتنة شبهت بالأحلاس لسواد لونها وظلمتها . والحـرب بفتح الراء : ذهاب المال والأهل ، يقال : حَرِب الرجل فهو حريب فلان إذا سلب ماله وأهله .

والسراء النعمة التي تسر الناس من وفرة المال والعافية ، وأضيفت الفتنة إليها لأن النعمة سببها ، إذ أن الإنسان يرتكب الآثام والمعاصي بسبب ما يتوفر له

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود والحاكم وأحمد ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني (٢/٧٠٢) ، حديث رقم (٩٧٤) .

من الخير .

وقوله : (كورك على ضلع) هذا مثل للأمر الذي لا يستقيم ولا يثبت ، لأن الورك لا يتركب على الضلع ولا يستقيم معه .

والدهيماء : الداهية التي تدهم الناس بشرها .

المَبحث التَاسِع

خروج المهدي

المطلب الأول

النصوص المعرّفة بالمهدي

ثبت في الأحاديث الصحيحة أنّ الله تبارك وتعالى يبعث في آخر الزمان خليفة يكون حكما عدلا ، يلي أمر هذه الأمة من آل بيت الرسول ﷺ من سلالة فاطمة ، يوافق اسمه اسم الرسول ﷺ ، واسم أبيه اسم أبي الرسول ﷺ ، وقد وصفته الأحاديث بأنه أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض عدلا ، بعد أن ملئت جورا وظلما ، ومن الأحاديث التي وردت في هذا :

١ ـ عن عبدالله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي » رواه الترمذي وأبو داود ، وفي روايه لأبي داود : قال : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم ، حتى يبعث الله فيه رجلا مني ـ أو من أهل بيتي ـ يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما »[١] .

٢ ـ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « المهدي من عترتي من ولد فاطمة » رواه أبو داود وابن ماجة والحاكم[٢] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢٤/٣) ، وقال محقق المشكاة : إسناده حسن ورمز لرواية أبي داود بالصحة في صحيح الجامع الصغير (٧٠/٦) حديث رقم (٥١٨٠) .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢٢/٦) وقال الشيخ ناصر فيه : صحيح .

٣ ــ عن عليّ رضي الله عنه ، قال : قال الرسول ﷺ : « المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة » رواه أحمد وابن ماجة (١) .

٤ ــ عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « لو لم يبق من الدهر إلا يوم ، لبعث الله رجلا من أهل بيتي ، يملؤها عدلاً ، كما ملئت جورا » رواه أحمد وأبو داود(٢).

٥ ــ عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « المهدي مني ، أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما ، يملك سبع سنين » رواه أبو داود(٣) .

٦ ــ عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لتملأن الأرض جورا وظلما ، فإذا ملئت جورا وظلما ، بعث الله رجلا مني ، اسمه اسمي ، فيملؤها قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلماً» أخرجه البزار وابن عدي في الكامل ، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ، والحاكم ، ورواه الإمام أحمد ، وابن حبان والحاكم ، وأبو نعيم في الحليةعن أبي سعيد يرفعه بلفظ: « لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلما وجورا وعدوانا ، ثم يخرج رجل من عترتي ، أو من أهل بيتي يملؤها قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما » ، وقد قال الحاكم في إسناد هذه الرواية : « صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبي ، وأشار أبو نعيم إلى تصحيحه .

وروى هذا الحديث الحاكم أيضا عن أبي سعيد مرفوعا بلفظ : « يخرج في

---

(١) صحيح الجامع : (٢٢/٦) ، وقال فيه الشيخ ناصر الدين الألباني : صحيح .
(٢) وهو حديث صحيح ، انظر صحيح الجامع الصغير : (٧١/٥) ، حديث رقم (٥١٨١) .
(٣) مشكاة المصابيح : (٢٤/٣) حديث رقم (٥٤٥٤) ، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة .

أمتي المهدي ، يسقيه الله الغيث ، وتخرج الأرض نباتها ، ويعطى المال صحاحا ، وتكثر الماشية ، وتعظم الأمة ، يعيش سبعا أو ثمانيا يعني حججا » ، وصححه الحاكم والذهبي وابن خلدون .

ورواه أصحاب السنن وكذا الطبراني في الأوسط الكبير ، وصححه الترمذي والحاكم وابن حبان ، ولفظه عند أبي داود : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا مني ، أو من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض عدلا . . . » الحديث[1] .

المطلب الثاني
مرتبة أحاديث المهدي من الصحة

قال فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله ما ملخصه : « أمر المهدي معلوم ، والأحاديث فيه مستفيضة ، بل متواترة متعاضدة ، وقد حكى غير واحد من أهل العلم تواترها ، وتواترها تواتر معنوي ، لكثرة طرقها ، واختلاف مخارجها وصحابتها ورواتها وألفاظها ، فهي بحق تدل على أن هذا الشخص الموعود به أمره ثابت وخروجه حق ، وهو محمد بن عبدالله العلوي الحسني من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وهذا الإمام من رحمة الله عز وجل بالأمة في آخر الزمان ، يخرج فيقيم العدل والحق ، ويمنع الظلم والجور ، وينشر الله به لواء الخير على الأمة عدلا وهداية وتوفيقا وإرشادا للناس .

---

(١) لخصت هذا التحقيق القيم من كلام الشيخ ناصر الدين الألباني حفظه الله ، وإن شئت أن تطلع على تمام كلامه فيه فارجع إلى سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٣٨) ، حديث رقم : (١٥٢٩) . وانظر أيضا سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٣٣٦) ، حديث رقم : (٧١١) .

وقد اطلعت على كثير من أحاديثه فرأيتها كما قال الشوكاني وغيره ، وكما قال ابن القيم وغيره : فيها الصحيح ، وفيها الحسن ، وفيها الضعيف المنجبر ، وفيها أخبار موضوعة ، ويكفينا من ذلك ما استقام سنده ، سواء كان صحيحا لذاته أو لغيره ، وسواء كان حسنا لذاته أو لغيره ، وهكذا الأحاديث الضعيفة إذا انجبرت وشدَّ بعضها بعضا ، فإنها حجة عند أهل العلم . . . ؛ والحق أن الجمهور من أهل العلم - بل هو كالاتفاق - على ثبوت أمر المهدي ، وأنه حق ، وأنه سيخرج في آخر الزمان ، أمّا من شذ عن أهل العلم في هذا الباب فلا يلتفت إلى كلامه في ذلك »[1] .

وقد أحصى فضيلة الشيخ عبدالمحسن بن حمد العباد عدد الصحابة الذين رووا أحاديث المهدي فبلغوا ستة وعشرين صحابيا ، وأحصى كتب السنة التي أخرجت هذه الأحاديث ، فبلغت ستة وثلاثين كتابا فقد أخرجه أصحاب السنن الأربعة ، وأحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه وغيرهم[2] .

وقد جمع هذه الأحاديث كثير من العلماء في مؤلفات خاصة ، وبينوا طرقها وتكلموا على أسانيدها ، منهم أبو بكر بن أبي خيثمة زهير بن حرب على ما ذكره ابن خلدون ، ومنهم الحافظ أبو نعيم ، ولخص الحافظ السيوطي ما أورده أبو نعيم في كتابه « العرف الوردي في أخبار المهدي » وزاد عليه ، وهو مطبوع في ضمن كتابه الحاوي للفتاوي ، ومنهم الحافظ ابن كثير أفرد في ذكر المهدي جزءا على حده كما

---

(١) كلام الشيخ مثبت في كتاب : الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لعبد المحسن بن حمد العباد ، ص ١٥٧ .

(٢) عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر لعبد المحسن بن حمد العباد وهو مطبوع مع الكتاب السابق ذكره : ص ١٦٦ - ١٦٨ .

نص عليه في كتابه الفتن والملاحم ، ومنهم ابن حجر المكي ألف كتابا سماه : « القول المختصر في علامات المهدي المنتظر » ، ومنهم المتقي الهندي صاحب كنز العمال ، وملا علي قاري ، وسمى مؤلفه « المشرب الوردي في مذهب المهدي » ، ومنهم مرعي بن يوسف الحنبلي ، والصنعاني وغيرهم[١] .

وقد نص على صحة أحاديث المهدي جمع كبير من نقاد الحديث وأئمته منهم : الحاكم ، والذهبي ، وأبو نعيم ، وابن العربي المالكي ، والقرطبي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، والحافظ ابن حجر العسقلاني ، والسيوطي ، وغيرهم[٢] ، ولذلك لا يلتفت لمن ضعف هذه الأحاديث أو كذب بها ، ممن ليس من فرسان هذا العلم .

المطلب الثالث
عقائد الفرق الإسلامية في المهدي

١ ـ أما عقيدة أهل السنة والجماعة فهي موافقة لما سقناه من الأحاديث الصحيحة ، وأن المهدي حاكم صالح راشد يبعثه الله مجددا لهذا الدين ، ويعلي الله هذا الدين على يديه .

يقول ابن خلدون : « اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار ، أنه لا بدَّ في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ، ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويستولي على الممالك الإسلامية ، ويسمى بالمهدي ، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط

(١) المصدر السابق : ص ١٦٨ .
(٢) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٤٠-٤١) .

الساعة الثابتة في الصحيح على أثره ، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال ، أو ينزل معه فيساعده على قتله ، ويأتم بالمهدي في صلاته »[1] .

٢ ـ عقيدة الشيعة الإمامية الذين يعتقدون أن المهدي هو آخر أئمتهم ، وهو الإمام الثاني عشر المدعو بمحمد بن الحسن العسكري وهو عندهم من ولد الحسين بن علي ، لا من ولد الحسن ، وهم يعتقدون أنه دخل سرداب سامراء منذ أكثر من ألف ومائة سنة وعمره خمس سنوات ، ويعتقدون أنه حاضر في الأمصار ، غائب عن الأبصار ، وهو المهدي الذي ينتظرون عودته ، وكلامهم هذا لم يقم عليه دليل ولا برهان من عقل أو نقل ، وهو مخالف لسنة الله في البشر ، ومخالف لمنطق العقول ، ثم ما الداعي للغيبة إذا كان حيًّا ، بل كان الواجب عليه أن يخرج ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

٣ ـ المكذبون بوجود المهدي ، وهؤلاء أفراد من الذين ينسبون لأهل السنة ، ليس لهم باع طويل في تحقيق النصوص ، والكشف عن الأسانيد ، وقد دحض شبهاتهم كثير من أهل العلم في مؤلفات مستقلة ، وآخرها فيما اطلعنا عليه ما كتبه فضيلة الشيخ العلامة عبدالمحسن العباد في كتابه : « الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي »[2] . وما كتبه فضيلة الشيخ حمود بن عبدالله بن حمد التويجري ، كتب مجلدا بعنوان « الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر »[3] .

---

(١) المقدمة ، لابن خلدون : ص ٥٥٥ ، ويحسن أن ننبه هنا أن ابن خلدون ضعف أكثر الأحاديث الدالة على وجوده ، ولم يصب فيما ذهب إليه ، ولكن لا يجوز أن يقال إن ابن خلدون لا يقول بوجود المهدي ، فإنه صحح بعض هذه الأحاديث ، فقد قال بعد سياقه للأحاديث ومناقشته لها ص ٥٧٤ « وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه » وهذا القليل كاف لإثبات القول به .

(٢) مطبوع ، طبعته مطابع الرشيد في المدينة المنورة .

(٣) مطبوع ، نشرته الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ السعودية .

٤ ــ رجال من الحكام الماضين ادعوا المهدية أو ادعاها لهم أقوام ، وبعض هؤلاء رجال صالحون لقب الواحد منهم بالمهدي ، لا على أنه ذلك المهدي الذي أخبر عنه الرسول ﷺ ، بل تفاؤلا بأن يكون من الأئمة المهديين ، الذين يقولون بالحق ، وبه يحكمون ، ومن هؤلاء المهدي الخليفة العباسي . وبعض الذين ادعوا المهدية من الحكام أو ادعيت لهم أقوام فجرة ، مثل الملحد عبيدالله بن ميمون القداح المولود عام ٢٥٩ هـ والمتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، وكان جده يهوديا ينسب إلى بيت مجوسي ، انتسب زورا وكذبا إلى بيت رسول الله ﷺ ، وادعى أنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ، وملك وتغلب ، واستفحل أمره ، واستولت ذريته على بلاد المغرب ، ومصر ، والحجاز ، والشام ، واشتدت غربة الإسلام ومحنته ومصيبته بهم ، وكانوا يدعون الألوهية ، ويدعون أن للشريعة باطنا وظاهرا .

وهم ملوك الرافضة القرامطة الباطنية أعداء الدين ، تستروا بالرفض والانتساب كذبا لأهل البيت ، ودانوا بدين الإلحاد وروجوه ، ولم يزل أمرهم ظاهرا إلى أن أنقذ الله الأمة منهم بصلاح الدين الأيوبي ، فاستنقذ الأمة منهم وأبادهم . ومن هؤلاء مهدي المغاربة محمد بن تومرت ولد سنة ٤٨٥ هـ وتوفي سنة ٥٢٤ هـ ، وهو رجل كذاب ظالم متغلب ، وكان قد ادعى أنه المهدي الموعود ، كان يودع طائفة من أصحابه القبور ، ويأمرهم بإخبار الناس أنه المهدي ، ثم يردم عليهم القبور في الليل ، وهم أحياء ، حتى لا يكشف أمره[1] .

٣ ــ مهدي الفرقة المدعوة بالكيسانية ، وهم يزعمون أن المهدي هو محمد بن الحنفية وأنه حي مقيم بجبل رضوى ، وأنه بين أسدين يحفظانه ، وعنده عينان

---

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم : ص ١٥٣ .

نضاختان تجريان بماء وعسل ، فزعموا أنه دخل إليه ومعه أربعون من أصحابه ، ولم يوقف لهم على خبر ، قالوا : وهم أحياء يرزقون ، ويقولون أنه يعود بعد الغيبة ، ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، قالوا : وإنما عوقب بهذا الحبس لخروجه إلى عبدالملك بن مروان ، وقيل إلى يزيد بن معاوية ، وإلى هذا الاعتقاد أشار كثير عزة بقوله :

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

وكان السيد الحميري على هذا المذهب ، وهو القائل :

ألا قل للإمام فدتك نفسي أطلت بذلك الجبل المقاما[1]

فما أصغر عقول هؤلاء ، وما أقل فهومهم ، يصدقون مالم يقم عليه دليل من عقل ولا نقل .

المطلب الرابع
وقت خروجه

يقول فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله : « قال ابن كثير في الفتن والملاحم : أظنه يكون عند نزول المسيح ، والحديث الذي رواه الحارث بن أبي أسامة يرشد إلى هذا[2] ، ويدل عليه ، لأنه قال أميرهم المهدي ، فهو يرشد إلى أنه يكون عند نزول عيسى بن مريم ، كما يرشد إليه بعض روايات مسلم ، وبعض

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني : (٢/٨٥) .

(٢) نص حديث جابر : «ينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم المهدي : تعال صل بنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة » ، قال ابن القيم بعد أن أورده في المنار المنيف : وهذا إسناد جيد .

الروايات الأخرى ، ولكن ليست بالصريحة ، فهذا هو الأقوم والأظهر ، ولكنه ليس بالأمر القطعي[1] » .

روى مسلم في صحيحه عن ثلاثة من أمهات المؤمنين : أم سلمة ، وحفصة ، وعائشة ، أن الرسول ﷺ أخبر أن جيشا يقصد عائذا يعوذ بالبيت فيخسف الله بذلك الجيش في بيداء من الأرض ، ففي رواية أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « يعوذ عائذ بالبيت ، فيبعث إليه بعث ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم ، فقلت : يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارها ، قال : يخسف به معهم ، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته »[2] .

وفي رواية حفصة قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : « ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه ، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأوسطهم ، وينادي أولهم آخرهم ، ثم يخسف بهم ، فلا يبقى إلا الشريد ، الذي يخبر عنهم » ، وفي رواية : « سيعوذ بهذا البيت قوم ليست لهم منعة ولا عدد ، ولا عدّة ، . . . » الحديث[3] .

وفي رواية عائشة أن النبي ﷺ عبث في منامه ، قالت : فقلنا : يا رسول الله : صنعت في منامك شيئا لم تكن تفعله ، فقال : العجب أن ناسا من أمتي يؤمون البيت برجل من قريش ، قد لجأ بالبيت ، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم ، فقلنا : يا رسول الله ، إن الطريق قد يجمع الناس ، قال : نعم ، فيهم

---

(١) الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي : ص ١٦٠ .
(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٠٨) حديث رقم (٢٨٨٢) .
(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٠٩) حديث رقم (٢٨٨٣) ,

المستبصر والمجبور وابن السبيل ، يهلكون مهلكا واحدا ، ويصدرون مصادر شتى »[1] .

فهل هذا الخارج العائذ بالبيت الذي يؤيده الله بنصره، والذي يهلك الله من يقصده بالأذى هو المهدي الذي سبق ذكره في الأحاديث ؟ ليس عندنا ما يدل على ذلك صراحة ، حسب ما نعلم ، والله أعلم بالصواب .

المطلب الخامس
هل المهدي هو الخليفة الذي يحثو المال حثوا

وقد ورد في الأحاديث ذكر خليفة يكثر الخير في زمانه حتى إنه يحثو المال حثوا ، ولا يعده عدّاً ، فهل هو المهدي أو غيره ؟ الله أعلم بحقيقة ذلك .

روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثوا »[2] .

ورواه عن أبي سعيد أيضا ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من خلفائكم خليفة يحثو المال حثيا ، لا يعده عدّاً »[3] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢١٠) حديث رقم (٢٨٨٤) .

وقد ورد الحديث السابق الذي روته أمهات المؤمنين بألفاظ متقاربة في كثير من كتب السنة كمسند أحمد ، ومسند أبي يعلى ، ومستدرك الحاكم . وابن ماجة والترمذي ، والطبراني في الأوسط وغيرهم .

(٢) رواه مسلم في صحيحه : (٤/ ٢٢٣٤) ، حديث رقم (٢٩١٣) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه : (٤/ ٢٢٣٥) ، حديث رقم : (٢٩١٤) .

الفصل الخامس
العلامات الكبرى

تمهيد : ترتيب العلامات الكبرى حسب وقوعها :

هناك علامات كبرى تدل على قرب قيام الساعة ، فإذا ظهرت كانت الساعة على إثرها ، ففي صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر[1] ، فقال : « ماتذاكرون » ؟ قالوا : نذكر الساعة . قال : « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات » .

فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »[2] .

والآيات الكبرى متتابعة في وقوعها ، لا يكاد يفصل بينها فاصل زمني ، وهي تشبه في تتابعها إذا وقعت العقد إذا انقطع سلكه الذي ينتظم حباته ، فإن الحبة

---

(١) اطلاعه عليهم لأنه كان في غرفة فوقهم ، جاء ذلك مبينا في رواية أخرى في صحيح مسلم .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، (٤/٢٢٢٥) ، حديث رقم : (٢٩٠١) ، وعزاه في جامع الأصول إلى أبي داود والترمذي أيضا .

الأولى تسقط فتتبعها بقية الحبات بلا تأخير ، روى الحاكم بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الأمارات خرزات منظومات في سلك ، فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضا »[1] .

وقد أخبر الرسول ﷺ أن وقوع الحرب الكبرى بين المسلمين والروم وهي التي سماها الملحمة ستكون أولا ، ثم يفتح المسلمون القسطنطينية، ثم يخرج الدجال ، روى معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال » رواه أبو داود[2] .

ومراد الرسول ﷺ أن هذه الأحداث تقع متتابعة متوالية ، وسيظهر للقارىء وهو يتابع كتابنا هذا كيف أن المسلمين في ذلك الزمان يشتبكون مع الروم في معركة كبرى ، هي التي سماها الرسول ﷺ بالملحمة ، وبعد انتصارهم عليهم يفتحون القسطنطينية ، ثم يخرج الدجال .

وبعد خروج الدجال ينزل عيسى ويقتل الدجال ، ثم يخرج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى ، ويهلكهم الله في زمنه ، والترتيب إلى هنا واضح ظاهر .

أما بقية الآيات فإن ترتيبها ليس واضحا تماما ، نعم ، خروج الشمس من مغربها ،وخروج دابة الأرض ، وخروج النار التي تحشر الناس ، تكون بالتأكيد بعد خروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج ، ولكن أيها يسبق الآخر ،أعني طلوع الشمس من المغرب ، وخروج الدابة ، وحشر النار للناس .

---

(١) وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي وقال الألباني : وهو كما قالا . سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٦١/٤) ، ورقم الحديث : (١٧٦٢) .

(٢) مشكاة المصابيح : (١٧/٣) ، ورقم الحديث : (٥٤٢٥) ، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة .

إن الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة صريح في أن خروج النار التي تحشر الناس من اليمن هي آخر الآيات ، فقد ذكر الرسول ﷺ الآيات العشر الكبرى ، وقال في الآية العاشرة وهي النار : « وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »[1] .

وتبقى ست آيات : طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة ، والدخان ، والخسوف الثلاثة : الخسف الذي بالمشرق ، والآخر الذي بالمغرب ، والثالث الذي بجزيرة العرب ، أما طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، فتكونان بعد نزول عيسى وقتله الدجال ، وإهلاك يأجوج ومأجوج في عهده ، وبعد فساد الناس ودروس الإسلام وقبل خروج النار التي تحشر الناس ، ولكن أيهما أسبق : خروج الشمس ، أم خروج الدابة ؟ ذلك مالا نستطيع الجزم به بسبب عدم جزم الرسول ﷺ بذلك ، ففي حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على إثرها قريبا »[2] .

ولا يجوز الاستدلال بهذا الحديث على أن طلوع الشمس يكون قبل خروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج ، لقوله : أول الآيات خروجا طلوع الشمس . . . » فالذي يترجح من الأخبار أنَّ خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض ، وينتهي ذلك بموت عيسى بن مريم ، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، (٤/٢٢٢٥) ، ورقمه : (٢٩٠١) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب في خروج الدجال ، (٤/٢٢٦٠) ، ورقم الحديث (٢٩٤١) .

بتغير أحوال العالم العلوي ، وينتهي ذلك بقيام الساعة ، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب »[1] .

« قال الحاكم أبو عبدالله : الذي يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة ، ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذي يقرب منه »[2] .

أما بقية الآيات ، وهي الخسوف الثلاثة، والدخان ـ فإننا لا ندري ما ترتيبها في الآيات العظام ، فلم نر من النصوص الصحيحة ما يحدد ذلك ، فالله أعلم بحقيقته

---

(١) فتح الباري : (١١/ ٣٥٣) .
(٢) فتح الباري : (١١/٣٥٣) .

المبحث الأول

الدخان

من الآيات الكبرى التي تقع قبيل الساعة الدخان ، قال تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]، ومما يدل دلالة صريحة على أن الدخان من العلامات الكبرى ما رواه مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري ، قال : اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قلنا : نذكر الساعة ، قال : « إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم »[2] .

وابن مسعود رضي الله عنه يرى أن هذه الآية مضت وانقضت ، فقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق ، قال : كنا عند عبدالله جلوسا ، وهو مضطجع بيننا ، فأتاه رجل فقال : يا أبا عبدالرحمن إن قاصًا يقص عند أبواب كنده ، ويزعم أن آية الدخان تجيء ، فتأخذ بأنفاس الكفار . ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام ، فقال عبدالله ، وجلس وهو غضبان : يا أيها الناس ، اتقوا الله ، من علم منكم شيئا ، فليقل بما يعلم ، ومن لم يعلم ، فليقل : الله أعلم ، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله قال لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ

---

(١) سورة الدخان : ٩ ، ١٠ .

(٢) رواه مسلم : (٤/٢٢٢٥) حديث رقم : (٢٩٠١) .

﴿ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[1] .

إن رسول الله لما رأى من الناس إدبارا ، فقال : « اللهمّ سبع كسبع يوسف » قال :فأخذتهم سنة حصّت[2] كل شيء ، حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع ، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان ، فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد ، إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم ،قال الله عز وجلّ: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3] إلى قوله : ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[4] قال : أفيكشف عذاب الآخرة ؟ ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾[5] فالبطشة الكبرى يوم بدر ، وقد مضت آية الدخان ، والبطشة ، واللزام ، وآية الروم[6][7] . فابن مسعود يرى أنها قد مضت وانقضت ، واستدل على ذلك بأن العذاب الذي يقع بالكافرين في الآخرة لا يكشف عنهم ، والآية تنص أن الله رافع عنهم العذاب قليلا ، وذهب مذهب ابن مسعود جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، وعطية العوفي ، وهو اختيار ابن جرير[8] .

وقد رجح ابن كثير أن آية الدخان لم تأت بعد ، وأورد في ذلك حديث أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم أنذركم ثلاثا : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة،ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه».

(١) سورة ص : ٨٦ .

(٢) السنة القحط ، وحصّت : استأصلت .

(٣) سورة الدخان : ١٠ ـ ١١ ـ

(٤) سورة الدخان : ١٥ .

(٥) سورة الدخان : ١٦ .

(٦) آية اللزام يشير بها إلى قوله تعالى : ﴿ فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ .

وآية الروم يريد بها قوله تعالى : ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ .

(٧) رواه مسلم : (٤/٢١٥٧) ، حديث رقم (٢٧٩٨) ، وقال ابن كثير في تفسيره (٦/٢٤٦) هذا الحديث مخرج في الصحيحين ، ورواه أحمد وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيريهما .

(٨) تفسير ابن كثير : (٦/٢٤٧) .

والثانية : الدابة . والثالثة : الدجال » رواه ابن جرير . ورواه الطبراني وإسناده جيد ، وذكر ابن كثير أن القول بأن آية الدخان لم تأت بعد هو قول علي بن أبي طالب ، وأبي سعيد الخدري ، وابن عباس والحسن البصري [1] ، واستدل ابن كثير على ما ذهب إليه بأمور :

١ ـ الأحاديث الصحيحة والحسنة الواردة في الموضوع الدالة على أن الآية لم تأت بعد .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ [2] أي بين واضح يراه كل أحد ، وليس خيالا كما ذهب إليه ابن مسعود .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ يغشى الناس ﴾ ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين ، لما قيل فيه ﴿ يغشى الناس ﴾ [3] .

وقال النووي في شرحه على مسلم عند قوله ﷺ : « لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان . . » : « هذا الحديث يؤيد قول من قال : إن الدخان يأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام ، وأنه لم يأت بعد ، وإنما يكون قريبا من قيام الساعة ، وقد سبق في كتاب بدء الخلق قول من قال هذا ، وإنكار ابن مسعود عليه ، وأنه إنما هو عبارة عما نال قريشا من القحط ، حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان ، وقد وافق ابن مسعود جماعة ، وقال بالقول الآخر حذيفة وابن عمر والحسن ، ورواه حذيفة عن النبي ﷺ ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوما ، ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار » [4] .

---

(١) تفسير ابن كثير : (٦/٢٤٨) .

(٢) سورة الدخان : ١٠ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٦/٢٤٧) .

(٤) شرح النووي على مسلم : (١٨/٢٧) .

المبحث الثاني

فتنة الدجال

المطلب الأول

فتنته أعظم فتنة في تاريخ البشر

فتنة الدجال تقع في آخر الزمان ، وهي إحدى أشراط الساعة الكبرى ، وفتنته من أعظم الفتن التي تمر على البشرية عبر تاريخها ، ففي صحيح مسلم عن أبي الدهماء وأبي قتادة ، قالوا : كنا نمرّ على هشام بن عامر ، نأتي عمران بن حصين ، فقال ذات يوم : إنكم لتجاوزوني إلى رجال ، ما كانوا بأحضر إلى رسول الله ﷺ مني ، ولا أعلم بحديثه مني ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال » ، وفي رواية : « أمر أكبر من الدجال »[1] . من أجل ذلك فإن جميع الأنبياء حذروا أقوامهم من فتنته ، ولكن رسولنا ﷺ كان أكثر تحذيرا لأمته منه .

ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : قام رسول الله ﷺ في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثمّ ذكر الدجال ، فقال :

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب في بقية من أحاديث الدجال ، (٢٢٦٦/٤) ، حديث رقم : (٢٩٤٦) .

« إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا أنذره قومه ،ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه ، إنه أعور وإن الله ليس بأعور »[1] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، وإن بين عينيه مكتوب كافر »[2] .

وفي سنن الترمذي وسنن أبي داود عن عبدالله بن عمر ، أن الرسول ﷺ ، قال في الدجال : « إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا أنذره قومه ، ولقد أنذره نوح قومه ، ولكني سأقول فيه قولا لم يقله نبي لقومه : تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور »[3] .

وفي سنن ابن ماجة وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ ، قال : « يا أيها الناس ، إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض ، منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم فتنة من الدجال ، وإن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا حذر أمته من الدجال ، وأنا آخر الأنبياء ، وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة »[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (٩٠/١٣) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (٩١/١٣) ، ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال وصفة ما معه : (٢٢٤٨/٤) ، حديث رقم : (٢٩٣٣) .
(٣) أنظر جامع الأصول : (٣٥٦/١٠) ، حديث رقم : (٧٨٤٨) ، والسياق للترمذي .
(٤) صحيح الجامع الصغير (٢٧٣/٦) ، ورقمه (٧٧٥٢) وإسناده صحيح .

المطلب الثاني

السر في تسميته بالمسيح الدجال

يقول ابن الأثير : « سمي الدجال مسيحا ، لأن عينه الواحدة ممسوحة ، والمسيح : الذي أحد شقي وجهه ممسوح، لاعين له ولا حاجب ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، بخلاف المسيح عيسى بن مريم ، فإنه فعيل بمعنى فاعل ، سمي به ، لأنه كان يمسح المريض فيبرأ بإذن الله ، والدجال الكذاب »[1] وسمي دجالا - كما يقول ابن حجر - « لأنه يغطي الحق بباطله ، ويقال : دجل البعير بالقطران إذا غطاه ، والإناء بالذهب إذا طلاه . . ، وقال ابن دريد : سمي الدجال ، لأنه يغطي الحق بالكذب ، وقيل لضربه نواحي الأرض ، . . . وقيل : بل قيل ذلك ، لأنه يغطي الأرض »[2] .

المطلب الثالث

حال المسلمين في العصر الذي يخرج فيه الدجال

قبيل خروج الدجال يكون للمسلمين شأن كبير ، وقوة عظيمة ، ويبدو أن خروجه إنما هو للقضاء على تلك القوة ، ففي ذلك الوقت يصالح المسلمون الروم ، ويغزون جميعا عدوا مشتركا فينصرون عليه ، ثمّ تثور الحرب بين المسلمين والصليبيين ، ففي سنن أبي داود عن ذي مخبر ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستصالحون الروم صلحا آمنا ، فتغزون أنتم وهم عدوا من ورائكم ، فتنصرون وتغنمون وتسلمون ، ثم ترجعون ، حتى تنزلوا بمرج ذي تلول ، فيرفع

---

(١) جامع الأصول ، لابن الأثير : (٢٠٤/٤) ، وانظر « لسان العرب » مادة : مسح .

(٢) فتح الباري : (٩١/١١) .

رجل من أهل النصرانية الصليب ، فيقول : غلب الصليب ، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه ، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة ، وزاد بعضهم : « فيثور المسلمون إلى أسلحتهم ، فيقتتلون فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة »[1] .

فأنت ترى قوة المسلمين في ذلك الوقت ، حيث أنهم يغزون وينصرون ويغنمون ويرجعون سالمين وترى إلى أي مدى هم متمسكون بدينهم ، فإن ذلك الصليبي عندما يرفع الصليب زاعما أن الانتصار الذي شارك المسلمون في تحقيقه كان للصليب ، يقوم مسلم غيور على دينه فيدق ذلك الصليب ويكسره ، وتثور العصابة التي تكون في ذلك الموقع من المسلمين إلى سلاحهم ، ويقاتلون الروم - على الرغم من قلتهم في ذلك الموقع ، ويشهد الرسول ﷺ لهم بأنهم شهداء ، وأن الله أكرمهم بذلك ، ويكون غدر الروم ذلك ، وما جرى بعده سببا في وقوع الملحمة .

الملحمة وفتح القسطنطينية

والملحمة معركة كبيرة هائلة تقع بين المسلمين والصليبيين[2] ، وسببها هو السبب الذي أشار إليه الحديث السابق ، وقد جاء أكثر من حديث يصف هذه المعركة وهولها ، وكيف يكون صبر المسلمين فيها ، ثم يكون النصر لهم على

(١) مشكاة المصابيح : (١٨/٣) ، حديث رقم : (٥٤٢٨) ، وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني : إسناده صحيح .

(٢) تدل الأحاديث النبوية أن الروم يكونون في آخر الزمان أكثر الناس عددا ، ففي مسند أحمد وصحيح مسلم عن المستورد أن الرسول ﷺ قال : « تقوم الساعة والروم أكثر عددا » صحيح الجامع الصغير : (٥١/٣) .

أعدائهم ، ويلاحظ أنه يكون في صفوف المسلمين أعداد كبيرة من النصارى الذين أسلموا وحسن إسلامهم ، ففي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق ، أو بدابق[١] ، فيخرج لهم جيش من المدينة ، من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا ، والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم ، فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا ، ويقتل ثلث أفضل الشهداء عند الله ، ويفتتح الثلث ، لا يفتنون أبدا ، فيفتتحون قسطنطينية[٢] ، فبينما هم يقتسمون الغنائم ، قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح قد خلفكم في أهليكم ، فيخرجون وذلك باطل ، فإذا جاؤوا الشأم خرج ، فبينما هم يعدُّون للقتال ، يسوون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم ﷺ فأَمَّهم ، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه في حربته »[٣] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ في حديث آخر عن هول تلك المعركة ،وعن الفدائية التي تكون في صفوف المسلمين ، حتى أن مجموعات من المسلمين يتبايعون على القتال حتى النصر أو الموت ثلاثة أيام متوالية ، ويبدو أن أعداد المسلمين في تلك الأيام قليلة ، بدليل أن المسلمين ينتصرون عندما يصلهم المدد من بقية أهل الإسلام ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود ، قال : « إن الساعة لاتقوم ، حتى لا يقسم ميراث ، ولا يفرح بغنيمة ، ثـمَّ قال بيده هكذا (ونحاها

---

(١) موضعان بالشام قرب حلب .

(٢) هذا فتح آخر غير الذي تمَّ على يد محمد الفاتح .

(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية ، (٤/٢٢٢١) رقم الحديث : (٢٨٩٧) .

نحو الشام) ، فقال : عدو يجمعون لأهل الإسلام ، ويجمع لهم أهل الإسلام[1] ، قلت : الروم تعني[2] ؟ قال : نعم ، وتكون عند ذاكم القتال رَدَّةٌ شديدة ، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفنى الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت ، لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون ، حتى يحجز بينهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفني الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت ، لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون حتى يمسوا ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفنى الشرطة ، فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام ، فيجعل الله الدبرة عليهم ، فيقتتلون مقتله ـ إما قال : لا يرى مثلها ، وإما قال : لم ير مثلها ـ حتى إن الطائر ليمر ، بجنباتهم ، فما يخلفهم حتى يخرّ ميتا ، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة ، فلا يجد منه بقي إلا الرجل الواحد ، فبأي غنيمة يفرح ؟ أو أي ميراث يقاسم ؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك ، فجاءهم الصريخ ، إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم ، فيرفضون مافي أيديهم ، ويقبلون ، فيبعثون عشرة فوارس طليعة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف أسماءهم ، وأسماء آبائهم ، وألوان خيولهم ، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ »[3] .

وفتح القسطنطينية المذكور في حديث الملحمة الذي سقناه أولا جاء عنه شيء من التفصيل في حديث مسلم الذي يرويه أبو هريرة أيضا ، قال : قال النبي ﷺ :

---

(١) أي للحرب والقتال ، وهذا إنما يكون بعد غدر الروم المشار إليه في الحديث السابق .

(٢) القائل هو راوي الحديث عن عبدالله بن مسعود ، وهو يُسير بن جابر .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب إقبال الروم في كثرة القتل ، (٢٢٢٣/٤) ورقمه : (٢٨٩٩) .

« سمعتم بمدينة جانب منها في البر ، وجانب منها في البحر[1] قالوا : نعم ، يا رسول الله ، قال : لاتقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا من بني إسحاق[2] فإذا جاؤوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح ، ولم يرموا بسهم ، قالوا : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، فيسقط أحد جانبيها » .

قال ثور[3] : لا أعلمه إلا قال : « الذي في البحر ، ثم يقولون الثانية : لا إله إلا الله والله أكبر ، فيسقط جانبها الآخر ، ثم يقولون الثالثة : لا إله إلا الله والله أكبر ، فيفرج لهم ، فيدخلوها ، فيغنموا ، فبينما هم يقتسمون الغنائم ، إذ جاءهم الصريخ ، فقال : إن الدجال قد خرج ، فيتركون كل شيء ويرجعون »[4] .

---

(١) ذهب العلماء إلى أن هذه المدينة هي القسطنطينية ، وإن لم يسمها الرسول ﷺ ، وقد خطر ببالي أن هذه المدينة قد تكون البندقية في إيطاليا ، فإن جزءا كبيرا من بيوتها مبني في داخل البحر ، وجزء في البر ، وقد نظرت إلى المدينتين خلال زيارتي لكل واحدة منها فرأيت البندقية أقرب إلى المراد بالحديث والله أعلم .

(٢) يقول النووي في شرحه على مسلم (١٨/٤٤) : قال القاضي : كذا هو في جميع أصول صحيح مسلم من بني إسحاق ، قال : قال بعضهم المعروف المحفوظ من بني إسماعيل وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه لأنه إنما أراد العرب . . » ، أقول وليس في هذا اشكال إن شاء الله تعالى ، فإن هذا الدين للناس جميعا ، والله يعطي ملكه من يشاء ، فقد غزا محمد الفاتح القسطنطينية بعد النووي بأكثر من ثلاثمائة سنة ، وكان جنوده أكثرهم من غير العرب ، فلا يستبعد أن يحصل مثل هذا مرة أخرى ، وفي حديث الملحمة السابق ما يدل عليه ، فإن الروم يقولون للمسلمين : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا .

(٣) هو ثور بن زيد الدِّيلي ، أحد رواة الحديث .

(٤) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، (٤/٢٢٣٨) ، ورقمه : (٢٩٢٠) .

المطلب الرابع
القحط والمجاعة قبل خروج الدجال

يبتلي الناس قبيل خروج الدجال بلاءً شديدا ، فتمنع السماء القطر ، وتحبس الأرض النبات ، ففي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة أن الرسول ﷺ قال : « إن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد ، يصيب الناس فيها جوع شديد ، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها ، ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها ، ثمَّ يأمر السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها ، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها ، ثمَّ يأمر السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله ، فلا تقطر قطرة ، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله ، فلا تنبت خضراء ، فلا يبقى ذات ظلف ، إلا هلكت إلا ما شاء الله قيل : فما يُعيش الناس في ذلك الزمان ؟ قال : التهليل ، والتكبير ، والتحميد ، ويجزيء ذلك عليهم مجزأة الطعام »[1] .

المطلب الخامس
صفات الدجال وعلاماته

يدعي الدجال الربوبية ، ويأتي من الأعمال الخارقة ما يروّج به باطله ، حتى أن الرجل يأتيه ظانّا أن أمره لن يخفى عليه ، وأن باطله لن يروج عليه ، فعندما يرى ما عنده من مخاريق يتبعه ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فوالله إن الرجل

---

(١) صحيح الجامع : (٢٧٧/٦) ورقمه : (٧٧٥٢) .

ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه ، مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات »[1] .

ومن نظر في أمر الدجال نظر معتبر علم يقينا أنه مبطل ، وأن صفات الربوبية غير متحققة فيه ، فهو بشر مسكين عاجز على الرغم مما يجري على يديه ، يأكل ويشرب وينام ، ويتبول ويتغوط ، ومن كان هذا حاله كيف يكون إلها معبودا ، وربا للكائنات وهو محتاج إليها !!

ومع وضوح ذلك فإن رسول الله ﷺ أخبرنا شيئا كثيرا عن صفاته وأحواله كي يعرفه المؤمنون الذين يخرج في عصرهم ، وكي يستطيعوا مواجهته ولا يغتروا بباطله .

صفات عامة

وصفه الرسول ﷺ وصفا يبرز شخصيته ويحدد معالم جسمه ، ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر أن الرسول ﷺ رأى الدجال في الرؤيا ، وجاء في وصفه له : « رجل جسيم ، أحمر ، جعد الرأس ، أعور العين ، كأن عينه عنبة طافية ، . . . أقرب الناس به شبها ابن قطن من خزاعة »[2] .

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إني حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا ، إن المسيح الدجال رجل قصير ، أفحج ، جعد ، أعور ، مطموس العين ، ليست

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٣٥٤) ، ورقم الحديث : (٧٨٤٦) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/٩٠) .

بناتئة ولا حجراء ، فإن ألبس عليكم ، فاعلموا أن ربكم ليس بأعور ، وأنكم لن تروا ربكم »[1] .

وفي صحيح ابن حبان ، ومسند أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الدجال أعور ، هجان أزهر (وفي رواية : أقمر) ، كأن رأسه أصلة ، أشبه الناس بعبد العزي بن قطن ، فإمّا هَلَكَ الهُلَّك ، فإن ربكم ليس بأعور »[2] .

عور الدجال

ركز الرسول ﷺ على وصف عيني الدجال ، لأن الدجال مهما تخلص من شيء من صفاته ، فإنه لايستطيع أن يتخلص من عينيه ، والعينان ظاهرتان بارزتان يراهما كل أحد ، وبهما صفات واضحة لا تخفى ، فقد أشارت الأحاديث السابقة إلى عيوب في عينيه ، أوضحها أنه أعور ، وقد جاء في بعض الأحاديث أن العين العوراء هي اليمنى ، وجاء في أحاديث أخرى أنها اليسرى ، وكونها اليمنى أرجح ، فأحاديثها مما اتفق على إخراجه البخاري ومسلم ، وشبه الرسول ﷺ تلك العين بالعنبة الطافئة ، وفي حديث آخر وصف عينه اليمنى بكونها عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخاعة في حائط مجصص » .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٢/٣١٨) ، ورقمه (٢٤٥٥) ، والأفحج الذي به فحج وهي طريقة في المشي معروفة ، سببها عيب في الخلقة ، إما إعوجاج في الساقين ، أو تباعدفي الفخذين ، أو غير ذلك ، وقوله (مطموس العين) ممسوحها كما جاء مبينا في أحاديث أخرى ، و(الحجراء) : الغائرة .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/١٩٠) ورقم الحديث : (١١٩٣) ، وقال الشيخ ناصر فيه : « صحيح على شرط مسلم » ، و(الهجان) : الأبيض ، بمعناه الأزهر ، وهذا لا ينافي كونه أحمر ، فإن الأبيض يشرب بالحمرة ، فيوصف بهذا وهذا ، و (الأقمر) الذي لونه لون الحمار الأقمر أي الأبيض ، و(أصله) هي الحية العظيمة الضخمة . و(الهلك) جمع هالك أي فإن هلك بسببه كثير من الجهلة الضالون . . . فإن ربكم ليس بأعور .

ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ قال عن الدجال: «أعور العين اليمنى، كأنها عنبة طافية»[1].

وفي حديث أبي سعيد عند أحمد: «وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى، كأنها نخاعة في حائط مجصص، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري»[2].

وهي مع ذلك ممسوحة كما سبق بيانه، ففي صحيح مسلم: «الدجال ممسوح العين»[3].

وقد وجه النووي الروايات توجيها آخر، فهو يرى أن جميع الروايات التي وصفت عينيه كلتاهما بالعور روايات صحيحة، فالعور معناه في اللغة: العيب، وعينا الدجال معيبتان كلتاهما، فقد ورد أن العوراء هي اليمنى، وورد أن العوراء هي اليسرى، وورد أن إحداهما طافئة بالهمز أي لا ضوء فيها، وورد أن الأخرى طافية بلا همزة، أي ظاهرة ناتئة، فعيناه على ما حققه النووي إحداهما لا يرى بها لذهاب نورها وهذه ممسوحة غير ناتئة ولا غائرة، والأخرى لم يذهب نورها ولكنها معيبة بعيب آخر وهو ظهورها وبروزها[4]، وقد جاء في إحدى الروايات عند مسلم أن العين التي ذهب ضوؤها وهي الممسوحة عليها ظفرة غليظة، «إن الدجال ممسوح العين، عليها ظفرة غليظة»[5]، والظفرة الغليظة جلدة تغشى البصر، وقال الأصمعي: لحمة تنبت عند المآقي.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، فتح الباري: (٩٠/١٣)، ورواه مسلم في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٢٢٤٧/٤).

(٢) فتح الباري: (٩٨/١٣).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال: (٢٢٤٨/٤)، ورقمه (٢٩٣٣).

(٤) راجع شرح النووي على مسلم: (٦١/١٨).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الفتن: (٢٢٤٩/٤)، ورقم الحديث: (٢٩٣٤).

وقد وصف لنا الرسول ﷺ عينه التي يرى بها ، فقال : « الدجال عينه خضراء كالزجاجة » رواه أحمد وأبو نعيم بإسناد صحيح[1] .

مكتوب بين عينيه كافر

وهناك علامة أعلم الله بها الدجال يعرفها فيه المؤمنون دون غيرهم ممن طمس الله بصائرهم ، وهذه العلامة كتابة بين عينيه نصها « ك ف ر » أو « كافر » ففي صحيح البخاري عن أنس عن النبي ﷺ ، قال : « ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، وإن بين عينيه مكتوب كافر »[2] .

وفي صحيح مسلم مثل رواية البخاري ، إلا أنه قال : « مكتوب بين عينيه » : « ك ف ر »[3] وفي صحيح ابن خزيمة وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي أمامة : « وأنه مكتوب بين عينيه : كافر ، يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب »[4] وفي صحيح مسلم : « إنه مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه من كره عمله ، أو يقرؤه كل مؤمن »[5] .

« والصحيح الذي عليه المحققون ـ كما يقول النووي رحمه الله تعالى ـ أن هذه الكتابة على ظاهرها ، وأنها كتابة حقيقة جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله ، ويظهرها الله تعالى لكل مسلم كاتب

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٤٧٧) ورقم الحديث (١٨٦٣) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/٩٠) .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، (٤/٢٢٤٨) ، ورقم الحديث (٢٩٣٣) .

(٤) صحيح الجامع : (٦/٢٧٤) ورقمه : (٧٧٥٢) .

(٥) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر ابن صياد ، (٤/٢٢٤٥) .

وغير كاتب ، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته ، ولا امتناع في ذلك ، وذكر القاضي عياض فيه خلافا ، منهم من قال هي كتابة حقيقة كما ذكرنا ،ومنهم من قال : هي مجاز ، وإشارة إلى سمات الحدوث عليه ، واحتج بقوله يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب وهذا مذهب ضعيف »[١] .

ليس له عقب

أخبر الرسول ﷺ أن الدجال « عقيم لا يولد له » رواه مسلم في صحيحه[٢] .

المطلب السادس
بطلان دعواه الربوبية

إذا كانت تلك صفات الدجال ، وهي صفات بها نقص كبير ، فكيف يصح لهذا المخلوق الضعيف دعوى الربوبية ، إنه يدعي أنه رب ا لناس ، ورب الناس لا يرى في الدنيا ، يقول ﷺ : « تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت »[٣] ، ثم هو غير سويّ الخلقة ، فيه عيوب لا تخفى ، منها عوره ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : « إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور ، وأشار بيده إلى عينيه ـ وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية »[٤] .

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/٦٠) .
(٢) صحيح مسلم : (٤/٢٢٤٢ ـ ٢٢٤٣) .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، (٤/٢٢٤٥) .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ فتح الباري : (١٣/٣٨٩) .

ومن صفاته المعيبة في الأحاديث أنه أفحج ، والفحج « تباعد مابين الساقين » ، أو الفخذين ، وقيل تداني صدور القدمين ، مع تباعد العقبين ، وقيل هو الذي في رجله اعوجاج »[1] .

وصدق ابن العربي في قوله : «في اختلاف صفات الدجال بما ذكر من النقص بيان أنه لا يدفع النقص عن نفسه كيف كان ، وأنه محكوم عليه في نفسه »[2] . ومراده أنه لو كان ربا لأزال النقص الذي في نفسه ، فعدم إزالته دليل على أنه مربوب مقهور لايستطيع أن يتخلص من عيوبه .

وتركيز الرسول ﷺ على كونه أعور « لكون العور أثر محسوس يدركه العالم والعامي ، ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية »[3] ، وإلا فإن أصحاب العلم يمكن أن يدركوا أمره ، ويصلوا إلى حقيقة دعواه .

المطلب السابع
إمكانات الدجال التي تسبب الفتنة

يدعي الدجال الألوهية ، ويعطى من الإمكانات أمورا مذهلة تفتن الناس فتنة عظيمة ، ومن ذلك .

ـ سرعة انتقاله في الأرض :

ففي حديث النواس بن سمعان في صحيح مسلم أن النبي ﷺ سئل عن

---

(١) فتح الباري : (١٣/٩٧) .
(٢) فتح الباري : (١٣/٩٨) .
(٣) فتح الباري : (١٣/٩٦) .

إسراع الدجال في الأرض ، فقال : « كالغيث استدبرته الريح . . »[1] وقد أخبر الرسول ﷺ أنه سيجول في أقطار الأرض ولا يترك بلدا إلا دخله إلا مكة والمدينة ، ففي حديث أنس في الصحيحين « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة »[2] .

وفي حديث أبي أمامة عند ابن ماجة وابن خزيمة والحاكم : « وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه ، وظهر عليه ، إلا مكة والمدينة ، لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلته »[3] .

٢ ـ جنته وناره :

ومما يفتن الدجال به الخلق أن معه ما يشبه الجنة والنار ، أو معه ما يشبه نهرا من ماء ، ونهرا من نار ، وواقع الأمر ليس كما يبدو للناس ، فإن الذي يرونه ناراً إنما هو ماء بارد ، وحقيقة الذي يرونه ماء بارداً نار .

ففي صحيح مسلم عن حذيفة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « معه (أي الدجال) جنّة ونار ، فناره جنةٌ ، وجنته نار »[4] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن حذيفة أيضا عن النبي ﷺ قال في الدجال : « إن معه ماءً ونارا ، فناره ماء بارد ، وماؤه نار » زاد في رواية مسلم : « فلا تهلكوا »[5] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٢٢٥٢/٤) ، ورقمه (٢٩٣٧) .
(٢) صحيح الجامع الصغير ، (٩٩/٥) ، ورقم الحديث (٥٣٠٩) .
(٣) صحيح الجامع الصغير ، (٢٧٥/٦) ، ورقمه : (٧٧٥٢) .
(٤) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، (٢٢٤٨/٤) ورقم الحديث (٢٩٣٤) .
(٥) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (٩٠/١٣) ، ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، (٢٢٤٩/٤) ورقم الحديث (٢٩٣٤) .

وفي رواية عند مسلم في صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « لأنا أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران يجريان ، أحدهما : رأى العين ماء أبيض ، والآخر : رأى العين نار تأجج ، فإمّا أدركنّ أحد ، فليأت الذي يراه نارا وليغمض ، ثم ليطأطيء رأسه فيشرب منه ، فإنّه ماء بارد »[1] .

وفي رواية أخرى في صحيح مسلم عن حذيفة أيضا : « إن الدجال يخرج ، وإن معه ماءً ونارا ، فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق ، وأمّا الذي يراه الناس نارا ، فماء بارد عذب ، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه نارا ، فإنه ماء عذب طيب »[2] .

وواضح من النصوص أن الناس لا يدركون مامع الدجال حقيقة ، وأن ما يرونه لايمثل الحقيقة بل يخالفها ، ولذلك فقد جاء في بعض الأحاديث في صحيح مسلم : « وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار ، فالتي يقول : إنها الجنة هي النار »[3].

٣ ـ استعانته بالشياطين :

لاشك أن للدجال استعانة بالشياطين ، ومن المعلوم أن الشياطين لاتخدم إلا من يكون في غاية الإفك والضلال ، والعبودية لغير الله ، ففي سنن ابن ماجة وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « وإن من فتنته أن يقول للأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك ،

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الفتن ؛ باب ذكر الدجال ، (٤/٢٢٤٩) ، ورقم الحديث : (٢٩٣٤) .
(٢) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، (٤/٢٢٥٠) (٢٩٣٥) .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، حديث رقم : (٢٩٣٦) .

أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطان في صورة أبيه وأمّه ، فيقولان : يا بني اتبعه ، فإنه ربك »[1] .

٤ ــ استجابة الجماد والحيوان لأمره :

ومن فتنته التي يمتحن الله بها عباده أنه يأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، ويدعو البهائم فتتبعه ، ويأمر الخرائب أن تخرج كنوزها المدفونة فتستجيب ، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان ، أن النبي ﷺ ، قال : « فيأتي على القوم فيدعوهم ، فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم ، أطول ما كانت ذرا ، وأسبغه ضروعا ، وأمده خواصر ، ثمّ يأتي القوم ، فيدعوهم ، فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ، ليس بأمرهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل »[2] .

٥ ــ قتله ذلك الشاب ثم إحياؤه إياه :

ومن فتنته أنه يقتل ذلك المؤمن فيما يظهر للناس ثم يدعي أنه أحياه ، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثا طويلا عن الدجال ، فكان فيما يحدثنا أنه قال : « يأتي الدجال ـ وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة ـ فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة ، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ، أو من خيار الناس ، فيقول : أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه ، فيقول الدجال ، أرأيتم إن قتلت هذا ثمّ أحييته ، هل تشكون في

---

(١) صحيح الجامع الصغير ، (٦/٢٧٤) ، ورقمه (٧٧٥٢) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/٢٢٥٢) ، ورقمه (٢٩٣٧) ويعاسيب النحل ، هي ذكور النحل ، وقيل جماعة النحل .

الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ، ثم يحييه ، فيقول : والله ما كنت فيك أشدَّ بصيرة مني اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله ، فلا يسلط عليه »[1] .

ورواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أيضا بلفظ « يخرج الدجال ، فيتوجه قبله رجل من المؤمنين ، فتلقاه المسالح[2] : مسالح الدجال ، فيقولون له : أين تعمد ؟ فيقول : أعمد إلى هذا الذي خرج . قال : فيقول له : أوما تؤمن بربنا ؟ فيقول : ما بربنا خفاء ، فيقولون : اقتلوه ، فيقول بعضهم لبعض : أليس قدنهاكم أن تقتلوا أحدا دونه ؟ قال : فينطلقون به إلى الدجال ، فإذا رآه المؤمن ، قال : يا أيها الناس ، هذا المسيح الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ . قال : فيأمر به الدجال فيشبح[3] ، فيقول : خذوه وشجوه ، فيوسع ظهره وبطنه ضربا ، قال : فيقول : أوما تؤمن بي ؟ قال : فيقول : أنت المسيح الكذاب ، قال : فيؤمر به فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه . قال : ثم يمشي الدجال بين القطعتين ، ثم يقول له : قم ، فيستوي قائما ، قال : ثم يقول له : أتؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة . قال : ثم يقول : يا أيها الناس ، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس . قال : فيأخذه الدجال ليذبحه ، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً ، فلا يستطيع إليه سبيلا . قال: فيأخذ بيديه ورجليه ، فيقذف به ، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار ، وإنما ألقى في الجنة . قال : فقال رسول الله ﷺ : « هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين »[4] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب : لا يدخل الدجال المدينة ، فتح الباري : (١٣/١٠١) .ورواه مسلم في كتاب الفتن ، باب صفة الدجال ، (٤/٢٢٥٦) ورقم الحديث : (٢٩٣٨) ولفظ الحديث للبخاري .

(٢) هم المراقبون والخفراء الذين يحملون السلاح في مراكز المراقبة .

(٣) يمد على بطنه .

(٤) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب في صفة الدجال ، (٤/٢٢٥٦) ، ورقم الحديث : (٢٩٣٨) .

المطلب الثامن
مكان خروجه

يخرج الدجال من المشرق ، من بلاد فارسية يقال لها : خراسان ، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي وابن ماجة والحاكم وأحمد والضياء في المختارة ، عن أبي بكر الصديق قال : حدثنا رسول الله ﷺ : « إن الدجال يخرج من أرض بالشرق ، يقال لها : خراسان ، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرَّقة »[١] .

ولكن ظهور أمره للمسلمين يكون عندما يصل إلى مكان بين العراق والشام ، ففي حديث في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان يرفعه : « إنه خارج خلة بين الشام والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالا ، يا عباد الله فاثبتوا »[٢] والخلة مابين البلدين ، كما يقول النووي .

المطلب التاسع
مدة مكثه في الأرض

سأل الصحابة الرسول ﷺ عن المدة التي يمكثها الدجال في الأرض ، فقالوا : « وما لبثه في الأرض » قال : أربعون يوما ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم . قلنا : يا رسول الله : فذاك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره » أخرجه مسلم في

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٢٢/٤) ورقم الحديث (١٥٩١) ، وقال الشيخ ناصر : وقال الحاكم صحيح الأسناد ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٢٢٥٢/٤) حديث رقم (٢٩٣٧) .

صحيحه وأبو داود في سننه ، عن النواس بن سمعان[1] .

وأجابة الرسول ﷺ عن سؤال الصحابة : هل تكفيهم خمس صلوات في الأيام التي هي كسنة أو كشهر أو أسبوع تدل على أن اليوم يطول حقيقة حتى يصبح سنة ، أو شهرا أو أسبوعا ، وليس مجازا .

المطلب العاشر
أتباع الدجال

المسيح الدجال الأعور الكذاب هو الملك الذي ينتظر اليهود خروجه ، ليحكموا العالم في عهده ، ففي مسند أحمد عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه ، أن الرسول ﷺ قال : « أكثر اتباع الدجال اليهود والنساء »[2] . وفي حديث أنس بن مالك الذي رواه مسلم في صحيحه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا ، عليهم الطيالسة »[3] .

ويذكر أبو نعيم أن إحدى القرى التابعة لمدينة أصبهان كانت تدعى : (اليهودية) ، لأنها كانت تختص بسكنى اليهود ، ولم تزل كذلك إلى زمن أيوب بن زياد أمير مصر في زمن المهدي بن المنصور العباسي ، فسكنها المسلمون ، وبقيت لليهود منها قطعة[4] .

---

(١) جامع الأصول : ٣٤٥/١٠ ، رقم الحديث : (٧٨٣٩) ، وهو في مسلم في كتاب الفتن : (٢٢٥٢/٤) ورقم الحديث (٢١٣٧) .

(٢) مسند أحمد : (٢١٦/٤ ـ ٢١٧) .

(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب في بقية من أحاديث الدجال ، (٢٢٦٦/٤) ورقم الحديث (٢٩٤٤) ، والطيالسة جمع طيلسان ، والطيلسان أعجمي معرب ، وهو ثوب يلبس على الكتف ، يحيط بالبدن ، ينسج للبس ، خال من التفصيل والخياطة .

(٤) لوامع الأنوار البهية : (١٠٧/٢) .

واسم الدجال عند اليهود المسيح بن داود ، وهم يزعمون أنه يخرج آخر الزمان ، فيبلغ سلطانه البر والبحر ، وتسير معه الأنهار ، وهم يزعمون أنَّه آية من آيات الله ، يرد إليهم الملك[1] ، وقد كذبوا في زعمهم ، بل هو مسيح الضلالة الكذاب ، وأمّا مسيح الهدى عيسى بن مريم فإنه يقتل الدجال مسيح الضلالة كما يقتل أتباعه من اليهود .

المطلب الحادي عشر
حماية المدينة ومكة من الدجال

يقصد الدجال المدينة المنورة فلا يستطيع دخولها ، ذلك أن الله حمى مكة والمدينة من الدجال والطاعون ، ووكل حفظها إلى ملائكته ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة يرفعه : « على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال »[2] ، وروى البخاري أيضا عن أنس يرفعه : « لا يدخل المدينة رعب المسيح ، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان »[3] .

وفي سنن الترمذي ، ومسند أحمد عن أبي هريرة « يأتي المسيح من قبل المشرق ، وهمته المدينة ، حتى إذا جاء دُبُر أحد تلقته الملائكة ، فضربت وجهه قبل الشام ، هنالك يهلك ، هنالك يهلك » وقال الترمذي : حديث صحيح[4] .

---

(١) لوامع الأنوار البهية : (١١٢/٢) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لايدخل الدجال المدينة . فتح الباري : (١٠١/١٣) .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : فتح الباري : (٩٠/١٣) .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٧٢/٤) ، ورقمه (١٧٧١) ، وقال المحقق : وإسناده على شرط مسلم ، وقد أخرجه مسلم مفرقا في موضعين .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة ، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة حافين ، تحرسها ، فينزل بالسبخة[1] ، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق »[2] .

وفي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ : « وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه ، إلا مكة والمدينة ، لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف ، صلته ، حتى ينزل عند الضريب الأحمر ، عند منقطع السبخة ، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، فلا يبقى فيها منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، فتنفي الخبيث منها ، كما ينفي الكير خبث الحديد ، ويدعى ذلك اليوم الخلاص ، قيل فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم يومئذ قليل . . . »[3] .

المطلب الثاني عشر
طريق النجاة منه

سبق أن بينا أن المسلمين قبيل خروج الدجال تكون لهم قوة كبيرة ، ويخوضون حروبا هائلة ، يخرجون منها منتصرين ، فيأتي الدجال للقضاء على القوة الإسلامية التي تكون قد هزمت أقوى دولة في ذلك الوقت وهم الروم ، ويكون المسلمون قد استعادوا القسطنطينية ، وفتحوها ، ويصرخ الشيطان بهم أن الدجال

---

(١) السبخة:الأرض الرملية التي لا تنبت لملوحتها ، وبعض أراضي المدينة كذلك .
(٢) صحيح الجامع : (٥/٩٩) ، ورقمه (٥٣٠٦) .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٧٥) ورقمه : (٧٧٥٢) .

قد خلفهم في ذراريهم ، فيتركون الغنائم ، ويعودون إلى ديارهم ، ثم يخرج الدجال ، فلا يضع المسلمون سلاحهم ، ولذلك فإن عيسى عندما ينزل يجد المسلمين « يعدون العدة للقتال ، ويسوون الصفوف »[1] . ولاشك أنَّ على كل مسلم في ذلك الحين أن ينضم إلى القوة الإسلامية الحاملة لراية الجهاد في سبيل الله ، وأن يثبت على الحق مهما اشتد البلاء ، وهذا ما أوصانا به رسولنا ﷺ ، وهو يحدثنا عن خروج الدجال ، حيث يقول : « إنه خارج خَلَّة بين الشام والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالا ، يا عباد الله اثبتوا »[2] .

ولا يجوز للمسلم أن يأتيه وإن كان واثقا من نفسه ، فإن معه من الشبهات ما يزلزل الإيمان ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه ، مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات »[3] .

ولابأس على الذين لا يطيقون مقاومته أن يفروا من طريقه ، وهذا ما يفعله كثير من الناس في ذلك الزمان ، ففي صحيح مسلم عن أم شريك ، قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : « ليفرَّن الناس من الدجال في الجبال »[4] . فإن اضطر المؤمن إلى مواجهته ، فعليه أن يقوم بالأمر ، ويصدع بالحق ، ويحسن الحجاج ، ففي الحديث : « إن يخرج وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم » وقد ترك رسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم ، (٢٢٢١/٤) ورقم الحديث : (٢٨٩٧) .

(٢) رواه مسلم ، (٢٢٥٢/٢) رقم الحديث : (٢٩٣٧) .

(٣) جامع الأصول : (٣٥٤/١٠) ورقم الحديث : (٧٨٤٦) .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب في بقية أحاديث الدجال ، (٢٢٦٦/٤) ، ورقم الحديث : (٢٩٤٤) .

من العلم ما يشكف عن بصيرتنا فيه ، فهو جسم مرئي ، يأكل ويشرب ، والله لا يرى في الدنيا ، والله منزه عن الطعام والشراب ، وهو معيب العين ، كما في الحديث « إنه شاب قطط ، عينه طافئة ، كأني مشبهه بعبد العزي بن قطن »[1] ، ومن كان كذلك فإن دعواه الألوهية والربوبية كذب وافتراء ولاشك ، وقد أمر الرسول ﷺ من أدركه أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف « فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف »[2] ، وفي حديث أبي أمامة : « وإن من فتنته أن معه جنّة ونارا ، فناره جنّة ، وجنته نار ، فمن ابتلى بناره فليستغث بالله ، وليقرأ فواتح الكهف . . . »[3] وقد جاء في الأحاديث الصحيحة « من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال »[4] وجاء في بعضها من أول سورة الكهف ، وفي بعضها من آخر سورة الكهف .

وقد يقال : لم كانت قراءة فواتح سورة الكهف ، وخواتمها أمانا من الدجال ؟

قال بعضهم : لأن الله أخبر في طليعة هذه السورة أن الله أمّن أولئك الفتية من الجبار الطاغية الذي يريد إهلاكهم ، فناسب أن من قرأ هذه الآيات وحاله كحالهم أن ينجيه كما أنجاهم .

وقيل : لأن في أولها من العجائب والآيات التي تثبت قلب من قرأها بحيث لا يفتن بالدجال ، ولا يستغرب ما جاء به الدجال ، ولم يلهه ذلك ، ولم يؤثر فيه .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٢٢٥٢/٤) ورقم الحديث (٢٩٣٧) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) رواه ابن ماجة والترمذي والحاكم بإسناد صحيح ، صحيح الجامع : (٦٧٤/٦) ، ورقمه (٧٧٥٢) .
(٤) النهاية لابن كثير : (١٥٤/١) وبعض هذه في السنن ، وبعضها في الصحاح .

وبما يعصم المسلم من الدجال أن يلجأ إلى أحد الحرمين الشريفين مكة أو المدينة ، فإن الدجال محرم عليه دخولهما .

وقد ذكر لنا الرسول ﷺ كيف واجه ذلك الرجل الصالح الدجال ، وصدع في وجهه بالحق ، وكيف أنه لم يلن له بالقول ، كما سبق ذكر الأحاديث التي تكشف حقيقة ما معه مما يشبه الجنة والنار .

ومما ينجي العبد من الدجال الالتجاء إلى الله والاحتماء به منه ومن فتنته ، وقد جاءت النصوص النبوية آمرة المسلم بالاستعاذة بالله من فتنته ، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : « سمعت رسول الله ﷺ يستعيذ في صلاته من فتنة الدجال »[1] .

وكان الرسول ﷺ يتعوذ دائماً بعد التشهد من فتنة الدجال ، فيقول : « اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال »[2] .

المطلب الثالث عشر
هلاكه والقضاء على فتنته
وإهلاك أتباعه من اليهود

سبق أن سقنا الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة بتمامه ، وفيه في آخره أن هلاك الدجال يكون على يد عيسى بن مريم عليه السلام « فبينما

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، فتح الباري : (١٣/ ٩٠) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب التعوذ بالله من عذاب القبر ، ورواه مسلم في صحيحه ، في باب ما يستعاذ منه في الصلاة .

هم (أي الجيوش الإسلامية) يعدُّون للقتال ، يسوّون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم ﷺ فأمهم ، فإذا رآه عدوّ الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه »[1] .

وفي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة بإسناد صحيح عن النبي ﷺ قال : « وإمامهم (أي إمام المسلمين الذين يعدون العدة لقتال الدجال) رجل صالح ، فبينا إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح ، فرجع ذلك الإمام ينكص ، يمشي القهقرى ليتقدم عيسى ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدم فصَلِّ ، فإنها لك أقيمت ، فيصلي بهم إمامهم ، فإذا انصرف[2] ، قال عيسى : افتحوا الباب ، فيفتحون ووراءه الدجال ، معه سبعون ألف يهودي ، كلهم ذو سيف محلى وساج ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فينطلق هاربا ، . . فيدركه عند باب لد[3] الشرقي ، فيقتله ، فيهزم الله اليهود ، فلا يبقى شيء مما خلق الله عز وجل يتواقى به اليهودي ، إلا أنطق الله ذلك الشيء ، لا حجر ، ولا شجر ، ولا حائط ، ولا دابة - إلا الغرقدة ، فإنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال : يا عبدالله المسلم ، هذا يهودي ، فتعال فاقتله »[4] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبيء اليهودي من وراء الحجر

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية ، (٢٢٢١/٤) ورقم الحديث (٢٨٩٧) .
(٢) قال الشيخ ناصر في تعليقه على (صحيح الجامع : (٢٧٥/٦) : « فيه اختصار ، تقديره : فإذا انصرف إلى بيت المقدس ، والمسلمون فيه محصورون قال . . . كما يدل عليه بعض الأحاديث الأخرى . . . » .
(٣) (اللد) مدينة معروفة بفلسطين ، قرب مدينة الرملة .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٢٧٦/٦) ورقمه : (٧٧٥٢) .

والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبدالله ، هذا يهودي خلفي ، فتعال فاقتله ، إلاّ الغرقد[1] ، فإنّه من شجر اليهود »[2] .

المطلب الرابع عشر
عقيدة أهل السنة في الدجال

قال النووي في شرحه لمسلم : « قال القاضي : هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده ، وأنه شخص ابتلى الله به عباده ، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله ،ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه ، وجنته وناره ، ونهريه ، وإتباع كنوز الأرض له ، وأمره السماء أن تمطر ، فتمطر ، والأرض أن تنبت فتنبت ، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك ، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ، ولا غيره ، ويبطل أمره ، ويقتله عيسى ﷺ ، ويثبت الله الذين آمنوا . هذا مذهب أهل السنة ، وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافا لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة ، وخلافا للبخاري المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود ، ولكن الذي يدعى مخارف وخيالات ، لا حقائق لها ، وزعموا أنه لو كان حقا لم يوثق

---

(١) قال النووي في شرحه على مسلم (٤٥/١٨) : الغرقد : نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس ، وهناك يكون قتل اليهود ، وقال أبو حنيفة الدينوري : إذا عظمت العوسجة صارت غرقدة .

(٢) حديث قتال المسلمين اليهود رواه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب قتال اليهود فتح الباري : (١٠٣/٦) ومسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم (٢٩٢٢) ٤/٢٢٣٩ ، وقد روياه عن أبي هريرة وابن عمر من أكثر من طريق ، واللفظ الذي أثبتناه لفظ مسلم .

بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة ، فيكون ما معه كالتصديق له ، وإنما يدعي الإلهية ، وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ، ووجود دلائل الحدوث فيه ، ونقص صورته ، وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه ، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه ، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفا من أذاه لأن فتنته عظيمة تدهش العقول ، وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأرض ،فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ، ودلائل الحدوث فيه والنقص ، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة[1] » .

المطلب الخامس عشر
ابن صياد والدجال

ابن صياد رجل من يهود المدينة ، اسمه صاف ، كان شبيها بالدجال في كثير من صفاته ، وكان الرسول ﷺ مشككا في أمره ، وقد حاول الرسول ﷺ أكثر من مرة كشف أمره ومعرفة حقيقته ، وهذا يدلنا على أنه لم يوح في أمره شيء ، فقد روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قِبَلَ ابن صياد حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أطم[2] بني مغالة ، وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم ، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده . ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد : « أتشهد أني رسول الله ؟» فنظر إليه ابن صياد ، فقال : أشهد أنك رسول الأميين . فقال ابن

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٥٨) .
(٢) الأطم : الحصن .

صياد لرسول الله ﷺ : « أتشهد أني رسول الله ؟ فرفضه رسول الله ﷺ ، وقال : « آمنت بالله وبرسله »[١] .

ثم قال له رسول الله ﷺ : « ماذا ترى ؟ » قال ابن صياد : يأتيني صادق وكاذب ، فقال له رسول الله ﷺ : « خلط عليك الأمر » .

ثم قال له رسول الله ﷺ : « إني قد خبأت لك خبيئا » ، فقال ابن صياد : هو الدخ ، فقال له رسول الله ﷺ : « اخسأ فلن تعدو قدرك » ، فقال عمر بن الخطاب : ذرني يا رسول الله ، أضرب عنقه ، فقال له رسول الله ﷺ : « إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإن لا يكنه فلا خير لك في قتله »[٢] . وقد خرج إليه الرسول ﷺ مرة أخرى ، كما روى مسلم في صحيحه عقب الحديث السابق عن سالم بن عبدالله قال : سمعت عبدالله بن عمر يقول : انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ ، وأبي بن كعب الأنصاري إلى النخل التي فيها ابن صائد ، حتى إذا دخل رسول الله ﷺ النخل ، طفق يتقي بجذوع النخل ، وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئا[٣] ، قبل أن يراه ابن صياد ، فرآه رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراش في قطيفة ، له فيها زمزمة[٤] ، فرأت أم صائد رسول الله ﷺ ، وهو يتقي بجذوع النخل ، فقالت لابن صائد : يا صاف (وهو اسم ابن صياد) هذا محمد ، فثار ابن صياد ، فقال رسول الله ﷺ : « لو تركته لبيَّن »[٥]

(١) قد يقال : كيف يدعي النبوة ، ويتركه الرسول ﷺ : فيجاب : لأنه قد كان بين الرسول ﷺ وبين اليهود عهد في تلك الأيام .
(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٤٤) ورقمه (٢٩٣٠) .
(٣) أي يستغفله ليسمع منه شيئا يعرف به حقيقته .
(٤) القطيفة : كساء مخمل ، والزمزمة : صوت خفي لايكاد يفهم .
أي نهض من مضجعه .
(٥) رواه مسلم في صحيحه : (٤/٢٢٤٤) ورقمه (٢٩٣١) .

قال النووي في شرحه على مسلم في ابن صياد : « قال العلماء : وقصته مشكلة ، وأمره مشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره ، ولاشك في أنه دجال من الدجاجلة ، قال العلماء : وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ، ولا غيره ، وإنما أوحي إليه بصفات الدجال ، وكان في ابن صياد قرائن محتملة ، فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره ، ولهذا قال لعمر : « إن يكن هو فلن تستطيع قتله »[١] ، وقدكان عمر بن الخطاب يجزم بأن ابن صائد هو الدجال ، وكذلك عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، فقد روى أبو داود بإسنادصحيحعن ابن عمر أنه كان يقول : والله ما أشك أن ابن صائد هو المسيح الدجال[٢] .

وقد نقل النووي عن البيهقي قوله : « ليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبي ﷺ لقول عمر ، فيحتمل أنه ﷺ كان كالمتوقف في أمره ، ثم جاءه البيان أنه غيره كما صرح به في حديث تميم »[٣] .

وقد مكث ابن صائد بعد الرسول مدة من الزمان ، وادعى أنه أسلم ، ولكن الناس لم يثقوا بإسلامه ، وبقوا يتشككون في أمره ، هذا ابن عمر ـ كما يروي مسلم في صحيحه ـ يلقى ابن صائد مرتين ، فيقول لبعض من معه : هل تحدثون أنه هو؟ قال : لا ، والله . قال : قلت : كذبتني ، والله ، لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالا وولدا ، فكذلك هو زعموا اليوم ، قال ابن عمر : فتحدثنا ، ثم فارقته ، ثم لقيه ابن عمر لقية أخرى ، وقد نفرت عينه[٤] ،

---

(١) شرح النووي على مسلم : (٤٦/١٨) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) شرح النووي على مسلم : (٤٨/١٨) .

(٤) نفرت ، ورمت ، ونتأت .

قال : فقلت : متى فعلت عينك ما أرى ؟ قال : لا أدري . قال : قلت : لا تدري وهي في رأسك ؟ قال : إن شاء الله خلقها في عصاك هذه ، قال فنخر كأشد نخير حمار[1] سمعت ، قال : فزعم أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت ، وأما أنا ، فوالله ما شعرت . وفي رواية أخرى في مسلم أن ابن عمر قال له قولا أغضبه ، فانتفخ حتى ملأ السِّكة[2] ، فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها ، فقالت له : رحمك الله ، ما أردت من ابن صائد ؟ أما علمت أن رسول الله ﷺ قال : « إنما يخرج من غضبة يغضبها »[3] .

ويروي مسلم أيضا عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا حجّاجا أو عمارا ومعنا ابن صائد ، قال فنزلنا منزلا ، فتفرق الناس ، وبقيت أنا وهو ، فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه ، قال : وجاء بمتاعه فوضعه مع متاعي ، فقلت : إن الحرّ شديد ، فلو وضعته تحت تلك الشجرة ، قال : ففعل ، قال : فرفعت لنا غنم ، فانطلق فجاء بعسّ[4] ، فقال : اشرب أبا سعيد . فقلت : إن الحر شديد ، واللبن حار . مابي إلاَّ أني أكره أن أشرب عن يده ـ أو قال آخذ عن يده ـ فقال[5] : أبا سعيد ، لقد هممت أن آخذ حبلا فأعلقه بشجرة ، ثم أختنق مما يقول لي الناس ، يا أبا سعيد ، من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار ، ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ : « هو كافر » وأنا مسلم ؟ أوليس قد قال رسول الله ﷺ : « هو

---

(١) النخير : صوت الأنف .

(٢) أي : الطريق .

(٣) صحيح مسلم : (٢٢٤٧/٤) ورقمه : (٢٩٣٢) .

(٤) القدح الكبير .

(٥) اي ابن صياد .

عقيم لا يولد له » وقد تركت ولدي بالمدينة ؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل المدينة ولا مكة » ، وقد أقبلت من المدينة ، وأنا أريد مكة ؟ »[1] .

ولكن هذه الأدلة التي ساقها ابن صياد اهتزت وفقدت تأثيرها في نفس أبي سعيد بعد أن تابع ابن صياد كلامه قائلا : « أما والله إني لأعلم الآن حيث هو ، وأعرف أباه وأمه» .قال : « وقيل له : أيسرك أنك ذاك الرجل ؟ فقال : لو عرض علي لما كرهت »[2] .

المطلب السادس عشر
الدجال في خبر تميم الداري

روى مسلم في صحيحه عن فاطمة بنت قيس ، أخت الضحاك بن قيس أنها سمعت منادي رسول الله ﷺ ينادي : الصلاة جامعة ، فخرجت إلى المسجد ، قالت : فصليت مع رسول الله ، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته ، جلس على المنبر وهو يضحك ، فقال : « ليلزم كل إنسان مصلاه » ، ثم قال : « أتدرون لم جمعتكم ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « إني ، والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ، ولكن جمعتكم ، لأن تميما الداري ، كان رجلا نصرانيا ، فجاء ، فبايع وأسلم . وحدثني حديثا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال » .

« حدثني ؛ أنه ركب في سفينة بحرية ، مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام ،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه : (٢٢٤٢/٤) ، ورقمه : (٢٤٢٧) .
(٢) المصدر السابق .

فلعب بهم الموج شهرا في البحر ، ثم أرفؤوا[1] إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس ، فجلسوا في أقرب السفينة[2] ، فدخلوا الجزيرة ، فلقيتهم دابة أهلب[3] كثير الشعر ، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر . فقالوا : ويلك ، ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة ، قالوا : وما الجساسة . قالت : أيها القوم ، انظروا إلى هذا الرجل في الدير ، فإنه إلى خبركم بالأشواق ، قال : لماسمت لنا رجلا فرقنا منها أن تكون شيطانة، قال : فانطلقنا سراعا ، حتى دخلنا الدير ، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقا ، وأشده وثاقا ، مجموعة يداه إلى عنقه ، مابين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد ، قلنا : ويلك ما أنت ؟ قال : قد قدرتم على خبري ، فأخبروني ما أنتم ؟ قالوا : نحن أناس من العرب ، ركبنا في سفينة بحرية ، فصادفنا البحر حين اغتلم[4] ، فلعب بنا الموج شهرا ، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه ، فجلسنا في أقربها ، فدخلنا الجزيرة ، فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر ، لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا : ويلك ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة ، قلنا : وما الجساسة ؟ قالت : اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير ، فإنه إلى خبركم بالأشواق ، فأقبلنا إليك سراعا ، وفزعنا منها ، ولم نأمن أن تكون شيطانة .

قال : فأخبروني عن نخل بيسان[5] ، قلنا عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : أسألكم عن نخلها ، هل يثمر ؟ قلنا : نعم . قال : أما إنه يوشك أن لايثمر .قال: أخبروني عن بحيرة طبرية[6] . قلنا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل فيها ماء ؟ قالوا : هي كثيرة الماء . قال : أما إن ماءها يوشك أن يذهب .

---

(١) التجؤوا إليه .

(٢) أقْرُب : جمع قارب .

(٣) أهلب : كثير الشعر غليظه .

(٤) اغتلم : هاج وجاوز حده المعتاد .

(٥) بيسان :إحدى مدن فلسطين .

(٦) بحيرة عذبة الماء في فلسطين .

قال : أخبروني عن عين زغر[1] . قالوا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل في العين ماء ؟ وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له : نعم ، هي كثيرة الماء ، وأهلها يزرعون من مائها . قال أخبروني عن نبي الأميين ما فعل ؟ قالوا : قد خرج من مكة ونزل يثرب . قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : كيف صنع بهم ؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه ، قال لهم : قد كان ذلك ؟ قلنا : نعم . قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه ، وإني مخبركم عني . إني أنا المسيح ، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج ، فأخرج فأسير في الأرض ، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة ، إلا مكة وطيبة[2] ، فهما محرمتان على كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدا منهما ، استقبلني ملك بيده السيف صلتا[3] ، يصدني عنها ، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها .

قالت : قال رسول الله ﷺ ، وطعن بمخصرته في المنبر : « هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة » يعني المدينة ، « ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟» فقال الناس نعم ، « فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت حدثتكم عنه وعن المدينة ومكة ، ألا أنه في بحر الشام أو بحر اليمن ، لابل من قبل المشرق ، ما هو[4] من قبل المشرق ، ما هو من قبل المشرق ما هو » . ، وأومأ بيده إلى المشرق ، قالت : فحفظت هذا من رسول الله ﷺ[5] .

---

(١) بلدة في الجانب القبلي من الشام .

(٢) المدينة .

(٣) أي : مسلولا .

(٤) قال النووي : قال القاضي : لفظة : (ماهو) زائدة ، صلة للكلام ، ليست بنافية ، والمراد إثبات أنه في جهة المشرق .

(٥) رواه مسلم في صحيحه : (٢٢٦١/٤) ورقم الحديث : ٢٩٤٢ .

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن ابن صياد لم يكن الدجال الأكبر ، وأن الدجال الأكبر محبوس في بعض جزائر البحور ، ولعله ـ كما يقول بعض أهل العلم ـ شيطان من الشياطين الذين حبسهم نبي الله سليمان ، إذ يبعد وجود بشر على قيد الحياة هذه الفترة الطويلة ، والله أعلم بالصواب .

المبحث الثالث

نزول عيسى بن مريم

أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن اليهود لم يقتلوا رسوله عيسى بن مريم ، وإن ادعوا هذه الدعوى ، وصدقها النصارى ، والحقيقة أن عيسى لم يقتل ، ولكن الله ألقى شبهه على غيره ، أمّا هو فقد رفعه الله إلى السماء ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾(١) .

وأشار الحق في كتابه إلى أن عيسى سينزل في آخر الزمان ، وأن نزوله سيكون علامة دالة على قرب وقوع الساعة ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾(٢) ، كما أخبر أن أهل الكتاب في ذلك الزمان سيؤمنون به ، ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾(٣) .

وقد جاء تفصيل هذه النصوص في السنة النبوية ، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه عندما تشتد فتنة الدجال ، ويضيق الأمر بالمؤمنين في ذلك الزمان ، ينزل الله عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، وينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، فقد روى الطبراني في معجمه الكبير عن أوس بن أوس ، قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة النساء : ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٢) سورة الزخرف : ٦١ .

(٣) سورة النساء : ١٥٩ .

« ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق »[1] . وقد وصف لنا الرسول ﷺ حاله عند نزوله ،ففي‌سنن أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس بيني وبين عيسى نبي ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، ينزل بين ممصرتين ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل »[2] .

المطلب الأول
وقت نزوله

ويكون نزوله في وقت اصطف فيه المقاتلون المسلمون لصلاة الفجر ، وتقدم إمامهم للصلاة ، فيرجع ذلك الإمام طالبا من عيسى أن يتقدم فيؤمهم ، فيأبى ، ففي الحديث « وإمامهم (أي إمام الجيش الإسلامي) رجل صالح ، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح ، فرجع ذلك الإمام ينكص ، يمشي القهقري ليتقدم عيسى ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدم فصلِّ ، فإنها لك أقيمت ، فيصل بهم إمامهم »[3] .

ويكون هذا في حال إعداد المسلمين لحرب الدجال ، ففي حديث أبي هريرة عند مسلم : « فبينما هم يعدون للقتال ، يسوّون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ،

(١) صحيح الجامع الصغير : (٦/٣٦١) ورقمه : (٨٠٢٥) ، وإسناده صحيح كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٥/٩٠) ورقم الحديث : (٥٢٦٥) .

(٣) رواه ابن ماجة ، وابن خزيمة ، والحاكم ، وإسناده صحيح ، انظر صحيح الجامع الصغير : (٦ / ٢٧٧) .

فينزل عيسى بن مريم ، فأمهم » ، ولفظه في كتاب الإيمان : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وأمكم »[1] . وليس المراد هنا في هذا الحديث أن عيسى أمهم في الصلاة ، فالحديث الأول يدل على رفض عيسى للتقدم ، وأنه قدم الإمام الذي أقيمت له الصلاة ، ومثله حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذا نزل بن مريم فيكم وإمامكم منكم »[2] وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم ، تعال صلِّ لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة »[3] .

المطلب الثاني
بم يحكم عيسى بعد نزوله ؟

النصوص السابقة صريحة في أن الإمام هو واحد من هذه الأمة ، أمّا رواية « فأمّكم » أو « أمهم » أي عيسى فليس المراد بها أنه أمهم في الصلاة ، بل المراد أنه حكَّم فيهم كتاب الله تبارك وتعالى ، أي أمهم بكتاب الله عز وجل ، ففي حديث

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية : (٤/٢٢٢١) ، حديث رقم : (٢٨٩٧) ، ورواه في كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى بن مريم : (١/١٣٦) ورقمه (١٥٥) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى بن مريم ، فتح الباري : (٦/٤٩١) ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان : (١٥/١٣٦) ، ورقم الحديث : (١٥٥) .

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ، (٤/١٣٧) ورقمه : (١٥٦) .

أبي هريرة عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمّكم منكم » وقد قال أحد رواة الحديث وهو ابن أبي ذئب للوليد بن مسلم[١] : « تدري ما أمّكم منكم » ؟ قال : تخبرني ، قال : فأمّكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنّة نبيكم ﷺ[٢] .

والسبب في عدم تقدم عيسى بن مريم للإمامة هو الدلالة على أنه جاء تابعا لهذا النبي ﷺ ، حاكما بالقرآن لا بالإنجيل ، فإن شريعة القرآن ناسخة للشرائع قبلها ، وقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنو بمحمد ﷺ ويتابعوه إذا بعث وهم أحياء : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٣] ، فعيسى ينزل تابعا لرسولنا ﷺ محكما لشريعة القران ، ولذلك فإنه يصلي خلف ذلك الرجل الصالح ، وهذا فخر لهذه الأمة وأي فخر ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه أبو سعيد عن النبي ﷺ ، قال : « منا الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه » رواه أبو نعيم في كتاب المهدي[٤] .

يقول النووي في رده على المكذبين بنزول عيسى الزاعمين أن نزوله لو كان حقا فإنه يكون مناقضا لقوله عليه السلام « لا نبي بعدي » ، وأنه يكون بذلك ناسخا لشرع الرسول ﷺ : « هذا استدلال فاسد ، لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أنه ينزل نبيا بشرع ينسخ شرعنا ، ولا في هذه الأحاديث ، ولا في

---

(١) هو رواي الحديث عن ابن أبي ذئب .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى : (١٣٧/٤) ، ورقمه : (١٥٦) .

(٣) سورة آل عمران : ٨١ ـ ٨٢ .

(٤) صحيح الجامع الصغير : (٢١٩/٥) ، حديث رقم : (٥٧٩٦) .

غيرها شيء من هذا ، . . . بل صح أنه ينزل حكما مقسطا . . . يحكّم شرعنا ، ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس »[1] .

المطلب الثالث
قضاء عيسى على الدجال

وأول عمل يقوم به عيسى هو مواجهة الدجال ، فبعد نزول عيسى يتوجه إلى بيت المقدس حيث يكون الدجال محاصرا عصابة المسلمين ، فيأمرهم عيسى بفتح الباب ، ففي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن خزيمة ، ومستدرك الحاكم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « فإذا انصرف ، قال عيسى : افتحوا الباب ، فيفتحون ووراءه الدجال ، معه سبعون ألف يهودي ، كلهم ذو سيف محلى وساج ، فإذا نظر إليه الدجّال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هاربا . . . ، فيدركه عند باب لد الشرقي ، فيقتله ، فيهزم الله اليهود . . »[2]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ أخبر عن نزول عيسى وصلاته بالمؤمنين ثم قال : « فإذا رآه عدو الله ، ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه في حربته »[3] .

والسر في ذوبان الدجّال أن الله أعطى لِنَفَسِ عيسى رائحة خاصة إذا وجدها الكافر مات منها ، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ في حديث طويل ومما قاله فيه : « فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم ، فينزل

---

(1) شرح النووي على مسلم : (١٨/ ٧٦) .

(2) صحيح الجامع الصغير : (٦/ ٢٧٥) ورقمه : (٧٧٥٢) .

(3) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية : (٤/ ٢٢٢١) ، ورقمه : (٢٨٩٧) .

عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين(١) ، واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان(٢) كاللؤلؤ . فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة »(٣) ، والسرّ في عدم ترك عيسى الدجال حتى يموت بنفسه - هو إنهاء أسطورة هذا المخلوق وفتنته ، فإن الناس إذا شاهدوا قتله وموته استيقنوا أنه عبد ضعيف مغلوب على أمره ، وأن دعواه كانت زوراً وكذباً .

المطلب الرابع
مهمة عيسى بعد القضاء على الدجال وإهلاك يأجوج ومأجوج

يقضي عيسى على الدجال وفتنته ، ويخرج يأجوج ومأجوج في زمانه - كما سيأتي بيانه - فيفسدون في الأرض إفسادا عظيما ، فيدعو عيسى ربه ، فيستجيب له ، ويصبحون موتى ، لا يبقى منهم أحد ، وعند ذلك يتفرغ عيسى للمهمة الكبرى التي أنزل من أجلها ، وهي تحكيم شريعة الإسلام ، والقضاء على المبادىء الضالة ، والأديان المحرفة ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل

---

(١) أي ثوبان مصبوغان بورس ثم زعفران .
(٢) الجمان حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار ، والمراد يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٢٢٥٣/٤) ، ورقمه : (٢٩٣٧) .

فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها »[1][2] .

وفي رواية عند مسلم عن أبي هريرة : « والله لينزلن ابن مريم حكما عدلا ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص ، فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليَدْعُوَنَّ إلى المال فلا يقبله أحد »[3] وفي صحيح مسلم في كتاب الفتن عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل الذي فيه ذكر الدجال ونزول عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وفي ختامه ذكر الرسول ﷺ دعاء عيسى ربه عندما يشتد عليهم الأمر ، فيستجيب الله ، ويهلك يأجوج ومأجوج ، ثم يقول : « ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[4] ، ونتنهم ،فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله عليهم طيرا كأعناق البخت[5] ، فتحملهم ، فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل مطرا ، لا يُكَنُّ منه بيت مدر[6] ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة[7]، ثم يقال للأرض : أنبتي

---

(١) إنما تكون السجدة أحب إلى أحدهم من الدنيا لكثرة رغبتهم في الخير بسبب اليقين الذي يحل في قلوبهم لرؤيتهم عيسى ، وما قبله من الآيات ، وإيقانهم بقرب الساعة .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى بن مريم ، فتح الباري : (٦/ ٤٦٠) ورواه البخاري في موضعين آخرين : الأول في كتاب المظالم ، باب كسر الصليب ، فتح الباري : (٥/ ١٢١) والثاني : في كتاب البيوع ، باب قتل الخنزير ، فتح الباري : (٤/ ٤١٤) . ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ، (٤/ ١٣٥) ، ورقمه (١٥٥) .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ، (٤/ ٣٥) ، ورقمه (١٥٥) .

(٤) أي دسمهم .

(٥) البخت : الجمال الخراسانية ، أعناقها طويلة .

(٦) بيت المدر : الطين الصلب .

(٧) الزلقة : المرآة ، أي تكون الأرض في صفائها ونقائها كالمرآة .

ثمرتك ، وردي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة[1] من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك في الرِّسْل[2] ، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس[3] ، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ[4] من الناس »[5] .

المطلب الخامس
ما يستخلص من النصوص الواردة في شأن عيسى

١ ـ أن عيسى عليه السلام نازل لا محالة في آخر الزمان والنصوص في ذلك متواترة عن الرسول ﷺ[6] ، فالتكذيب بنزوله تكذيب للرسول ﷺ في خبره ، وخبر الرسول ﷺ صدق لا كذب فيه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى نزول عيسى ابن مريم في أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾[7] .

ولذلك فإن أبا هريرة لما أورد حديث نزول عيسى حكما عدلا . . .[8]

---

(١) العصابة : الجماعة .

(٢) الرسل : اللبن .

(٣) اللقحة : القريبة العهد بولادة وقيل : الناقة الحلوب . والفئام : الجماعة الكثيرة .

(٤) الفخذ : الجماعة من الأقارب ، وهم دون البطن ، والبطن دون القبيلة .

(٥) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/٢٢٥٤) ، ورقمة : (٢٩٣٧) .

(٦) وقد حمّل الرسول ﷺ الذين يدركون عيسى أن يبلغوه عنه السلام ، ففي سنن النسائي بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من أدرك منكم عيسى بن مريم ، فليقرئه مني السلام » .

(٧) سورة النساء : ١٥٩ .

(٨) والحديث في صحيح البخاري وصحيح مسلم كما سبق بيانه .

قال في آخره : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وإن من أهل الكتاب . . ﴾ الآية[1] .

٢ ـ أن عيسى يأتي ليحكِّم شريعة القرآن :

وقد سبق أن بينا هذه المسألة ، والأدلة عليها .

٣ ـ أنه يقضي على جميع الأديان ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام :

ولذلك فإنه يكسر الصليب ، وهو رمز النصرانية المحرفة، ويقتل الخنزير الذي حرمه الإسلام ، ويضع الجزية ، فلا يقبل من اليهود والنصارى الجزية ، ولا يقبل منهم إلا الإسلام ، ففي حديث أبي هريرة عند أبي داود بإسناد صحيح يرفعه : « فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام »[2] .

وعدم قبول الجزية لا يعد نسخا ، فإن الرسول ﷺ أخبر أن الجزية تقبل إلى أن ينزل عيسى ، وبعد ذلك لا تقبل ، يقول النووي : « (ويضع الجزية) : الصواب أنه لا يقبلها ، ولا يقبل من الكفار إلا الإسلام ، ومن بذل منهم الجزية لم يكف عنه بها ، بل لا يقبل إلا الإسلام ، أو القتل ، هكذا قال الإمام أبو سليمان الخطابي وغيره من العلماء . . . فعلى هذا قد يقال : هذا خلاف حكم الشرع اليوم ، فإن الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها ، ولم يجز قتله ، ولا إكراهه على الإسلام ، وجوابه : أن هذا الحكم ليس بمستمر إلى يوم القيامة ، بل هو مقيد بما قبل عيسى ، عليه السلام ، وقد أخبرنا

(١) صحيح الجامع الصغير : (٥/٢٢٦) ، ورقمه : (٥٨٧٧) .

(٢) صحيح الجامع : (٥/٩٠) ، ورقمه : (٥٢٦٥) .

النبي ﷺ في هذه الأحاديث الصحيحة بنسخه ، وليس عيسى هو الناسخ ، بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ ، فإن عيسى يحكم بشرعنا »[1] .

٤ ـ عموم الرخاء ، وسيادة السلام والأمن في ذلك الزمان :

أخبرت النصوص التي سقناها عن تلك البركة العظيمة التي توجد في ذلك الوقت ، والأمن العظيم الذي يكرم الله به العباد في تلك الأيام ، وكيف ترفع الشحناء والتباغض بين الناس ، ويجتمع البشر على كلمة الله تبارك وتعالى ، ومن النصوص التي تحدثت عن هذا حديث أبي أمامة عند ابن ماجة ، وابن خزيمة ، والحاكم بإسناد صحيح ، قال : قال رسول الله ﷺ : « فيكون عيسى بن مريم في أمتي حكما عدلا ، وإماما مقسطا ، يدق الصليب ، ويذبح الخنزير ، ويضع الجزية ، ويترك الصدقة ، فلا يسعى على شاة ولا بعير[2] ، وترفع الشحناء والتباغض ، وتنزع حُمَةُ كلِّ ذات حمة[3] ، حتى يدخل الوليد يده في الحيّة ، فلا تضره ، وتضرُّ الوليدة الأسد ، فلا يضرها ، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها ، وتملأ الأرض من السلم ، كما يملأ الإناء من الماء ، وتكون الكلمة واحدة ، فلا يعبد إلا الله ، وتضع الحرب أوزارها ، وتسلب قريش ملكها ، وتكون الأرض كفاثور الفضة ، تنبت نباتها بعهد آدم ، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب ، فيشبعهم ، ويجتمع النفر على الرمانة ، فتشبعهم ، ويكون الثور بكذا وكذا من المال ، ويكون الفرس بدريهمات . . »[4] .

---

(١) شرح النووي على مسلم : (٢/١٩٠) .
(٢) أي لعدم الحاجة إلى السعي ، وطلب الرزق .
(٣) مثل سم الأفعى ، والعقرب .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٦/٢٧٦) ورقمه : (٧٧٥٢) .

المطلب السادس
طيب العيش بعد المسيح

إن الحالة التي وصفتها النصوص عن الحياة في تلك الفترة حالة فذة في تاريخ الإنسانية ، حيث يعيش الناس في خير وأمن وسلام ، وفي بحبوحة من العيش ، ولذلك فإنهم يغبطـون على ما يكونون فيه من نعيم ، وفي الحديث : « طوبى لعيش بعد المسيح ، يؤذن للسماء في القطر ، ويؤذن للأرض في النبات ، حتى لو بذرت حبك على الصفا لنبت ، وحتى يمر الرجل على الأسد فلا يضره ، ويطأ على الحيّة فلا تضره ، ولا تشاحَّ ، ولا تحاسدَ ، ولا تباغض »[1] .

المطلب السابع
بقاء عيسى في الأرض

مدة بقاء عيسى في الأرض أربعون عاما ، كما ثبت ذلك في حديث صحيح في سنن أبي داود عن أبي هريرة : « فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثمَّ يتوفى ، ويصلي عليه المسلمون »[2] .

وهو في ذلك مقيم لحكم الإسلام ، مصـلٍ إلى قبلة المسلمين ، وقد ذكرنا الأحاديث المفصحة عن صلاته وراء ذلك الرجل الصالح عند نزوله ، كما ثبت أنه يحج البيت العتيق ، ففي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي هريرة ، قال : قال

---

(١) حديث صحيح ، رواه أبو بكر الأنباري ، والديلمي ، والضياء عن أبي هريرة ، سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٥٥٩/٤) ، ورقمه : (١٩٢٦) .
(٢) صحيح الجامع : (٩٠/٥) ، ورقمه : (٥٢٦٥) .

رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليهلنّ ابن مريم بفج الروحاء ،حاجاً ومعتمرا ، أو ليثنينهما »[1] .

والروحاء مكان بين المدينة ووادي الصفراء في طريق مكة على نحو أربعين ميلا من المدينة أو ستة وثلاثين أو ثلاثين[2] .

المطلب الثامن
فضل الذين يصحبون عيسى عليه السلام

في مسند أحمد وسنن النسائي عن ثوبان ، عن النبي ﷺ ، قال : « عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار ، عصابة تغزو الهند ، وعصابة تكون مع عيسى بن مريم »[3] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٦/١٠٠) ، ورقمه (٦٩٥٥) .
(٢) لوامع الأنوار البهية : (٢/١١٣) .
(٣) صحيح الجامع : (٤/٣٥) ، ورقمه : (٣٩٠٠) .

المبحث الرابع

خروج يأجوج ومأجوج

ذكر الحق تبارك وتعالى في سورة الكهف أن ذا القرنين في تطوافه في الأرض بلغ بين السدين، فوجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا، فاشتكوا له من الضرر الذي يلحق بهم من يأجوج ومأجوج، وطلبوا منه أن يقيم بينهم وبينهم سدّا يمنع عنهم فسادهم، فاستجاب لطلبهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [1]

ويأجوج ومأجوج أمتان كثيرتا العدد، وهما من ذرية آدم عليه السلام ثبت في الصحيحين « أن الله تعالى يقول[2] : ياآدم ، فيقول لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار ؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنّة، فحينئذ يشيب الصغير،

---

(١) سورة الكهف : ٩٣ ـ ٩٩ .

(٢) في يوم القيامة .

وتضع كل ذات حمل حملها ، فقال : إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه ، يأجوج ومأجوج » ، قال ابن كثير بعد سياقه لهذا الحديث : « وقد حكى النووي في شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج قد خلقوا من منى خرج من آدم ، فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء » وقد رد ابن كثير هذا القول وأنكره قائلا : « وهذا قول غريب جدا ، ثم لا دليل عليه لا من عقل ، ولا من نقل ، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المفتعلة »[1] .

وقد أخبر الحق تبارك وتعالى أن السدّ الذي أقامه ذو القرنين مانعهم من الخروج ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾[2] ، وأخبر أن ذلك مستمر إلى آخر الزمان عندما يأتي وعد الله ، ويأذن لهم بالخروج ، وعند ذلك يدك السد ، ويخرجون على الناس ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾[3]، وعندذلك يخرجون أفواجا أفواجا كموج البحر، ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾[4] وذلك قرب قيام القيامة والنفخ في الصور ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ۝٩٩ ﴾[5] . وقد أخبر الحق في موضع آخر عن نقبهم السد وخروجهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا . . ﴾[6] ، وهذا كائن في آخر الزمان ، وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[7] ، أي يسرعون في الإفساد في الأرض ، والحدب هو المرتفع في الأرض ، وهذه صفتهم حال خروجهم .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/٤٢٣ .
(٢) سورة الكهف : ٩٧ .
(٣) سورة الكهف : ٩٨ .
(٤) سورة الكهف : ٩٩ .
(٥) سورة الكهف : ٩٩ .
(٦) سورة الأنبياء : ٩٦-٩٧ .
(٧) سورة الأنبياء : ٩٦ .

وقد أخبر الرسول ﷺ أنه فتح من ردم يأجوج ومأجوج في عصره فتحة صغيرة كالحلقة التي تكون من الإبهام والتي تليها ، ففي صحيح البخاري عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعا ، يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرّ قد اقترب ، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بأصبعيه : الإبهام والتي تليها ، قالت زينب : فقلت يا رسول الله ، أنهلك ، وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث »[1] .

وخروجهم يقع بعد نزول عيسى بن مريم وهزيمته للدجال ، ففي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه (أي من الدجال) ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنّة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى ، إني قد أخرجت عبادا لي ، لا يدان لأحد بقتالهم[2] ، فحرز عبادي إلى الطور[3] ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية[4] ، فيشربون مافيها ، ويمر آخرهم ، فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم[5] ، فيصبحون فرسى[6] كموت نُفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب يأجوج ومأجوج ، فتح الباري : (١٣/١٠٦) .
(٢) أي لا قدرة ولا طاقة .
(٣) أي أصعد بهم إلى الجبل ، كي يكونوا في حرز ومأمن .
(٤) هي بحيرة كبيرة في فلسطين ، ماؤها عذب .
(٥) دود يكون في أنوف الأبل والغنم ، وفي الأحاديث الأخرى دود كأمثال النغف .
(٦) جمع فريس ، كقتيل وقتلى وزنا ومعنى .

موضع شبر إلا ملأه زهمهم[1] ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل طيرا كأعناق البخت[2] ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرا ، لايكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة »[3][4] .

وقال مسلم أيضا بعد سياقه للحديث السابق : حدثنا على بن حُجْر السعدي ، حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر ، والوليد بن مسلم ، قال ابنُ حُجر : دخل حديث أحدهما في حديث الآخر عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر ، بهذا الإسناد (إسناد الحديث السابق) نحو ما ذكرنا ، وزاد بعد قوله : « لقد كان بهذه مرة ماء »، « ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر[5] ، وهو جبل بيت المقدس ، فيقولون : لقد قتلنا من في الأرض ، هلمَّ فلنقتل من في السماء ، فيرمون بنشابهم[6] إلى السماء ، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دما » .

وفي رواية ابن حجر : « فإني قد أنزلت عبادا لي ، لا يدي لأحد بقتالهم »[7] والسبب في أنه لايستطيع أحد الوقوف في وجههم لكثرتهم، يدلك على كثرتهم أن المسلمين يوقدون من أسلحتهم بعد هلاكهم سبع سنين ، ففي سنن الترمذي بإسناد مسلم في الرواية السابقة : « سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ونشابهم

---

(١) دسمهم .
(٢) هي جمال طوال الأعناق .
(٣) المدر : الطين الصلب . والزلقة : المرآة .
(٤) صحيح مسلم ، كتاب الفتن : باب ذكر الدجال ، (٤/٢٢٥٤) ، ورقمة : (٢٩٣٧) .
(٥) الخمر : هو الشجر الكثير الملتف الذي يخمر من تحته ، أي يستره ، وقد فسر في الحديث أنه بيت المقدس لكثرة شجره .
(٦) النشاب : هي السهام .
(٧) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال : (٤/٢٢٥٥) ، ورقمه (٢٩٣٧) .

وأسلحتهم وأترستهم سبع سنين » ، ورواه ابن ماجة في سننه[1] .

وهذه الأحاديث وأحاديث مشابهة كثيرة تدل على أن هذه الحضارة الهائلة التي اخترعت هذه القوة الهائلة من القنابل والصواريخ ستتلاشى وتزول ، وأغلب الظن أنها ستدمر نفسها بنفسها ، وأن البشرية ستعود مرة اخرى إلى القتال على الخيول واستعمال الرماح والقسي ونحو ذلك ، والله أعلم .

وفي السنن للترمذي وابن ماجة ، وصحيح ابن حبان ، ومستدرك الحاكم ، ومسند أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فسنحفره غدا ، فيعيده الله أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فسنحفره غدا إن شاء الله تعالى ، واستثنوا ، فيعودون إليه ، وهو كهيئته يوم تركوه ، فيحفرونه ، ويخرجون على الناس ، فينشفون الماء ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع عليها الدم الذي اجفظ[2] ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض ، وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفا في أقفائهم[3] ، فيقتلون بها ، قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن ، وتشكر شكرا من لحومهم »[4] .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٥٧٩) ، ورقمه : (١٩٤٠) .

(٢) اجفظّ : أي امتلأ ، أي ترجع ممتلئة دما .

(٣) المراد بأقفائهم أي في مؤخر رقابهم كما صرح به في الحديث الآخر الذي مرّ قبله .

(٤) وإسناده صحيح ، قال فيه الحاكم « صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبي ، وقال الألباني : وهو كما قالا ، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/٣١٣) ورقمه (١٧٣٥) .

وفي سنن ابن ماجة ، وصحيح ابن حبان ، ومستدرك الحاكم ، ومسند أحمد عن أبي سعيد الخدري ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يفتح يأجوج ومأجوج ، يخرجون على الناس كما قال الله عز وجل : ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[1] ، فيغشون الأرض ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض ، حتى أن بعضهم ليمر بالنهر ، فيشربون مافيه حتى يتركوه يبسا ، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر ، فيقول : قد كان هنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد في حصن أو مدينة ، قال قائلهم ، هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ، بقي أهل السماء . قال : ثم يهز أحدهم حربته ، ثم يرمي بها إلى السماء ، فترجع مخضبة دما للبلاء والفتنة ، فبينما هم على ذلك ، إذ بعث الله دوداً في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقهم ، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري نفسه ، فينظر ما فعل هذا العدو ، قال : فيتجرد منهم محتسبا لنفسه ، قد أظنها على أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتى ، بعضهم على بعض ، فينادي : يا معشر المسلمين : ألا أبشروا ، فإن الله قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويسرحون مواشيهم ، فما يكون لها رعى إلا لحومهم ، فتشكر عنه كأحسن ما تشكر عن شيء من النبات أصابته قط »[2] وهذه النصوص دالة على كثرة يأجوج ومأجوج بحيث لا يستطيع أحد أن يقف في وجوههم .

---

(١) سورة الأنبياء : ٩٦ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٠٢/٤) ، ورقم الحديث : (١٧٩٣) ، وقد ذكر الشيخ ناصر الدين أن الحاكم قال فيه : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، إلا أن الشيخ لم يرتض هذا ، لأن ابن إسحاق أحد رواة الحديث ، لم يخرج له مسلم إلا في المتابعات ، فالحديث حسن .

المبحث الخامس

دروس الإسلام ورفع القرآن وفناء الأخيار

بعد ذلك الانتشار العظيم للإسلام الذي يعم المشارق والمغارب ، يضعف الإسلام مرة أخرى ، ويترعرع الشرّ ، ويرفع هذا الدين العظيم ، ويرفع القرآن ، ويذهب العلم ، ويقبض الله من كان في نفسه بقية من إيمان ، فلا يبقى بعد ذلك إلّا شرار الخلق ، وعليهم تقوم الساعة .

أخرج ابن ماجة والحاكم عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب ، حتى لا يدرى ما صيام ، ولا صلاة ، ولانسك ، ولا صدقة ، وليسرى على كتاب الله في ليلة ، فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس : الشيخ الكبير والعجوز ، يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة « لا إله إلا الله » فنحن نقولها »(١) .

وهذه البقية الباقية التي لا تعرف من الإسلام إلا كلمة التوحيد تفنى وتبيد ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتقوم الساعة إلا على شرار الخلق »(٢) .

وفي حديث آخر بين لنا الرسول ﷺ كيف تذهب بقية الصالحين في آخر

---

(١) قال الحاكم فيه : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وقال البوصيري ، إسناده صحيح ، رجاله ثقات . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، حديث رقم (٨٧) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب قرب الساعة ، (٢٢٦٨/٤) ، حديث رقم (٢٩٤٩) .

الزمان ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إن الله يبعث ريحا من اليمن ، ألين من الحرير ، فلا تدع أحدا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته » .

وفي رواية « مثقال ذرة »[1].

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى لايقال في الأرض : الله الله »[2] .

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان يرفعه : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن ، وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة »[3] .

وروى البخاري بإسناده إلى مرداس الأسلمي رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « يذهب الصالحون الأول فالأول ، وتبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر ، لا يباليهم الله بالة »[4] .

ومن دروس الإسلام في تلك الأيام أن تنقطع عبادة الحج ، فلا حج ولا عمرة ، ففي مسند أبي يعلي ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن أبي سعيد رضي

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، حديث رقم (٧٩١٥) ، وانظر جامع الأصول : (١٠/٤١٠) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، مشكاة المصابيح (٣/٥٠) حديث رقم (٥٥١٦) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال ، ورقم الحديث : (٢٩٣٧) . والمراد بتهارج الحمر ، أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير ، ولا يكترثون لذلك ، والمرج بإسكان الراء الجماع ، يقال هرج زوجته أي جامعها ، شرح النووي على مسلم (١٨/٧٠) ، أقول . وهذا حال الناس اليوم في كثير من المجتمعات الغربية ، يتهارجون تهارج الحمر في نواديهم التي تسمى نوادي العراة ، وعلى شواطيء البحار ، وفي الغابات والحدائق .

(٤) رواه البخاري ، انظر النهاية لابن كثير : (١/١٨٦) .

الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت »[1] ولا شك أن هذا إنما يكون بعد انبعاث الريح الطيبة وقبضها الصالحين ، أمّا قبل ذلك فإن عبادة البيت مستمرة ، ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج »[2] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٦/١٧٤) ، ورقمه : (٧٢٩٦) .

(٢) رواه البخاري ، انظر النهاية لابن كثير : (١/١٨٦) .

المبحث السادس

عودة البشرية إلى الجاهلية وعبادة الأوثان

فإذا درس الإسلام ، ورفع القرآن ، وقبضت الريح كل من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ـ عادت البشرية إلى جاهليتها الأولى أو أشدّ ، فتطيع الشيطان ، وتعبد الأوثان .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عما يكون بعد موت المسيح عليه السلام في آخر الزمان ، ففي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم : « ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو كان أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه ، حتى تقبضه ، قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس في خفة الطير ، وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : ما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارة أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور . . . » الحديث[1] .

ومن الأوثان التي تعبد (ذو الخلصة) طاغية دوس واللات والعزىٰ ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لاتقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة » وذو الخلصة : الصنم الذي كانت

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب خروج الدجال ، (٢٢٥٨/٤) ، ورقمه (٢٩٤٠) .

تعبده دوس في الجاهلية[1] .

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، إنْ كنت لأظنّ حين أنزل الله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[2] أن ذلك تامًا ، قال:إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحا طيبة ، فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، فيبقى من لاخير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم »[3] .

وفي هذا الزمن يتدنى المستوى الأخلاقي تدنياً هائلا ، فقد أخرج البزار في مسنده ، وابن حبان في صحيحه عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتقوم الساعة حتى يتسافدوا في الطريق تسافد الحمير ، قلت : إن ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، ليكونن » وللحديث شاهد عند الحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعا : « والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق ، فيكون خيارهم يومئذٍ من يقول : هلَّا واريتها وراء هذا الحائط »[4] .

---

(1) رواه البخاري ، في كتاب الفتن ، باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان ، فتح الباري : (١٣/ ٧٦) . ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة ، (٤/ ٢٢٣٠) ، ورقم الحديث : (٢٩٠٦) ، والسياق للبخاري ، والتعريف بذي الخلصة مثبت في الصحيحين .

(2) سورة التوبة : ٣٣ .

(3) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب لاتقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة ، (٤/ ٢٢٣٠) . ورقمه (٢٩٠٦) .

(4) سلسلة الأحاديث الصحيحة : ١/ ٢٤٥ .

وله شاهد آخر من حديث النواس بن سمعان في حديثه الطويل في الدجال ويأجوج ومأجوج ، وفي آخره : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن ، وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون تهارج الحمر[1] ، فعليهم تقوم الساعة » رواه مسلم وأحمد والحاكم .

(١) أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما تفعل الحمير ، وبمعناه : (يتسافدون) .

المبحث السابع
هدم الكعبة على يد ذي السويقتين

ولعل هذا الزمان هو الذي يهدم فيه ذو السويقتين الكعبة ، ففي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده من طرق عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يبايع لرجل مابين الركن والمقام ، ولن يستحل البيت إلا أهله ، فإذا استحلوه فلا يسأل عن هلكة العرب ، ثم تأتي الحبشة فيخربونه خرابا لا يعمر بعده أبدا ، وهم الذين يستخرجون كنزه »[1] .

وروى الإمام أحمد في المسند أيضا عن عبدالله بن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « يخرب الكعبة ذو السويقتين في الحبشة ، ويسلبها حليها ، ويجردها من كسوتها ، ولكأني أنظر إليه أصيلعا أفيدعا ، يضرب بمسحاته ومعوله »[2] .

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « كأني أنظر إليه أسود أفحج ، ينقضها حجرا حجرا ، يعني الكعبة »[3] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة »[4] . وإنما سمي ذوالسويقتين لصغر ساقيه ، فالسويقتان تصغير ساقي الإنسان لرقتهما وهي صفة سوق السودان غالبا .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/٢٤٥) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/١١٩) . ورقم الحديث : ٥٧٩ .

(٣) قال ابن كثير في النهاية : (١/١٨٧) إسناده قوي .

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن : (٤/٢٢٣٢) ، حديث رقم (٢٩٠٩) : شرح النووي على مسلم : (١٨/٣٥) .

وقد يقال كيف يهدمها وقد جعل الله مكة حرما آمنا ؟ الجواب : أن معناه آمنا إلى قرب يوم القيامة وخراب الدنيا . هكذا قال النووي . وهذا صحيح إذا كان الهدم في هذا الوقت ، وإلا فإن الأمر حكم شرعي ألزم الله به عباده ، فإذا تمرد متمرد وانتهك حرمة الحرم فقد يمنعه الله كما فعل بأبرهة ، وقد لا يمنعه لحكمة يعلمها كما فعل القرامطة الذين اجتاحوا الحرم وفعلوا عنده الأفاعيل ، وكما سيفعل هذا الخبيث ذو السويقتين .

---

(١) المصدر السابق .

المبحث الثامن

طلوع الشمس من مغربها

من الآيات البينات الدالة على وقوع الساعة طلوع الشمس من مغربها ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعين ، فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا »[1] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، فتح الباري : (١١/٣٥٢) ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان : (١/٣٧) ، ورقم الحديث : (١٥٧) .

المبحث التاسع

خروج الدابة

وهذه الدابة آية من آيات الله تخرج في آخر الزمان ، عندما يكثر الشر ، ويعم الفساد ، ويكون الخير قلة في ذلك الزمان ، وهذه الدابة هي التي ذكرها الحق في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[1] .

ولا شك أن هذه الدابة مخالفة لمعهود البشر من الدواب ، ومن ذلك أنها تخاطب الناس وتكلمهم ، وقد ذكرنا جملة من الأحاديث التي عدَّ فيها الرسول ﷺ من أشراط الساعة العظام ـ خروج الدابّة .

وروى الإمام أحمد في مسنده ، والبخاري في الكبير ، والبغوي في «حديث علي بن الجعد » ، وأبو نعيم في أخبار أصبهان بإسناد صحيح عن أبي أمامة يرفعه إلى النبي ﷺ ، قال : « تخرج الدابة ، فتسم الناس على خراطيمهم ، ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير ، فيقول : ممن اشتريته ؟ فيقول : اشتريته من أحد المخطمين »[2] .

---

(١) سورة النمل : ٨٢ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣١/١) ، ورقمه : (٣٢٢) .

المبحث العاشر

النار التي تحشر الناس

وآخر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة نار تخرج من قعر عدن ، تحشر الناس إلى محشرهم . وقد سبق أن ذكرنا الأحاديث التي عدد فيها الرسول ﷺ أشراط الساعة ، وذكر أنها عشر ، قال : « وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »(١) .

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أن عبدالله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة (أي مهاجرا) فأتاه يسأله عن أشياء ، فقال : إني سائلك عن ثلاث : ما أول أشراط الساعة ؟ فقال الرسول ﷺ : « أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب »(٢) . وفي سنن الترمذي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ستخرج نار من حضرموت قبل القيامة تحشر الناس ، قالوا : يارسول الله فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام » ، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح(٣) .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن كيفية حشر النار للناس ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب الآيات التي تكون قبل الساعة ، (٤/٢٢٢٥) ورقمه (٢٩٠١) .

(٢) إن شئت أن تتطلع على بقية المسائل وإجابة الرسول ﷺ عليها فارجع إلى صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، فتح الباري : (٧/٢٧٢) .

(٣) جامع الأصول : (١٠/٣٦٨) ورقم الحديث (٧٨٨٨) ، وانظر صحيح الجامع الصغير (٣/٢٠٣) ورقم الحديث : (٣٦٠٣) .

راهبين ، وإثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، ويحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا »[1] وروى أحمد في مسنده ، والترمذي في سننه ، والحاكم في مستدركه بإسناد صحيح عن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تحشرون رجالا وركبانا ، وتجرون على وجوهكم ها هنا ، وأومأ بيده نحو الشام »[2] .

وآخر من تحشرهم النار راعيان من مزينة ، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يتركون المدينة على خير ما كانت ، لا يغشاها إلا العوافي (يريد عوافي السباع والطير)، وآخر من يحشر راعيان من مزينة ، ينعقان بغنمها ، فيجدانها وحشا ، حتى إذا بلغاثنية الوداع خرّا على وجههما »[3] . والأرض التي تحشر النار الناس إليها هي بلاد الشام ، ففي كتاب فضائل الشام للربعي عن أبي ذر بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال : « الشام أرض المحشر والمنشر » ورواه أحمد في مسنده وابن ماجة في سننه والربعي في فضائل الشام عن ميمونة بنت سعد[4] .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا الحشر يكون في الآخرة ، وعزا القرطبي القول بذلك إلى الحليمي وأبي حامد الغزالي[5] .

وذهب الخطابي والطيبي والقاضي عياض والقرطبي وابن كثير وابن حجر إلى

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب الحشر ، فتح الباري : (٣٧٧/٣) .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢٧٢/٢) ورقمه : ٢٢٩٨ .
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٠٢/٢) ، ورقمه : ٦٨٣ .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٢٣٢/٣) ، ورقمه : ٣٦٢٠ .
(٥) التذكرة للقرطبي : ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ، فتح الباري : (٣٧٩/١١) .

أن هذا الحشر يكون في آخر عمر الدنيا ، حين تخرج النار من قعر عدن ، وتحشر الناس إلى بلاد الشام[1] .

يقول ابن كثير في هذه الأحاديث « فهذه السياقات تدل على أن هذا الحشر ، هو حشر الموجودين في آخر الدنيا ، من أقطار محلة الحشر ، وهي أرض الشام ، وأنهم يكونون على أصناف ثلاثة :

فقسم يحشرون طاعمين كاسين راكبين ، وقسم يمشون تارة ويركبون أخرى ، وهم يعتقبون على البعير الواحد ، كما تقدم في الصحيحين: « اثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وعشرة على بعير » ، يعني يعتقبونه من قلة الظهر ، كما تقدم ، كما جاء مفسرا في الحديث الآخر ، وتحشر بقيتهم النار ، وهي التي تخرج من قعر عدن ، فتحيط بالناس من ورائهم ، وتسوقهم من كل جانب ، إلى أرض المحشر ، ومن تخلف منهم أكلته .

وهذا كله مما يدل على أن هذا في آخر الدنيا ، حيث الأكل والشرب ، والركوب على الظهر المستوي وغيره ، وحيث يهلك المتخلفون منهم بالنار .

ولو كان هذا بعد نفخة البعث ، لم يبق موت ولا ظهر يسرى ، ولا أكل ولا شرب ، ولا لبس في العرصات . والعجب كل العجب أن الحافظ أبا بكر البيهقي بعد روايته لأكثر هذه الأحاديث ، حمل هذا الركوب على أنه يوم القيامة ، وصحح ذلك ، وضعف ما قلناه ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦ ﴾[2] .

---

(١) فتح الباري : (١١/٣٨٩ـ ٣٨٠) ، التذكرة : ص ٢٠٠ .

(٢) سورة مريم : ٨٥ .

وكيف يصحح ما ادعاه في تفسير الآية بالحديث ، وفيه : « إن منهم اثنين على بعير ، وعشرة على بعير » ، وقد جاء التصريح فيه بقلة الظهر ؟ هذا لا يلتئم مع هذا ، والله أعلم . تلك نجائب من الجنة يركبها المؤمنون من العرصات إلى الجنات ، على غير هذه الصفة ، كما سيأتي تقرير ذلك في موضعه »[1] .

---

(١) النهاية لابن كثير : (١/٢٥٩) .

المراجـــع
مرتبة حسب حروف المعجـــم

١ ـ أحكام الجنائز وبدعها ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشره المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م .

٢ ـ إرواء الغليل ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشره المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

٣ ـ البداية والنهاية ، لابن كثير . طبعة مكتبة المعارف ـ بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٧ .

٤ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، للقرطبي . طبعة المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة .

٥ ـ تفسير ابن كثير . طبعة دار الأندلس ـ بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦ م .

٦ ـ تلخيص الحبير ، لابن حجر . طبعة شركة الطباعة الفنية المتحدة . القاهرة .

٧ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ، لابن الأثير . تحقيق عبد القادر الأرناؤوط . نشر مكتبة الحلواني ومكتبة الملاح . الطبعة الأولى. ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .

٨ ـ جامع العلوم والحكم ، لابن رجب . طبعة دار المعرفة ـ بيروت .

٩ ـ الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدى ـ لعبد المحسن ابن حمد العباد . الطبعة الأولى . مطابع دار الرشيد المدينة المنورة .

١٠ ـ الروح ، لابن القيم . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .

١١ ـ الزهد والرقائق ، لابن المبارك . طبع مؤسسة الرسالة . بيروت .

١٢ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشر المكتب الإسلامي ـ بيروت . الطبعة الأولى .

١٣ ـ سنن الترمذي . طبعة مصطفى البابي الحلبي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر . الطبعة الأولى .

١٤ ـ سنن النسائي . طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة . الطبعة الأولى : ١٣٧٢ هـ ١٩٥٢ م .

١٥ ـ شرح العقيدة الطحاوية ، لمحمد بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي . نشر المكتب الإسلامي ـ بيروت . الطبعة الرابعة ـ ١٣٩١ هـ .

١٦ ـ شرح النووي على مسلم ، للنووي . طبعة المكتبة العصرية ـ القاهرة .

١٧ ـ صحيح البخاري . اعتمدنا على متن فتح الباري . الطبعة السلفية . القاهرة . الطبعة الأولى .

١٨ ـ صحيح الجامع الصغير ، للسيوطي . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نشره المكتب الإسلامي ـ بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م .

١٩ ـ صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي . طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ بيروت . الطبعة الثانية ـ ١٩٧٢ .

٢٠ ـ العقل والروح ، لابن تيمية . رسالة مطبوعة ضمن « مجموعة الرسائل المنيرية » .

٢١ ــ عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، لعبد المحسن بن حمد العباد . الطبعة الأولى . مطابع الرشيد ـ المدينة المنورة .

٢٢ ــ فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني . طبعة المكتبة السلفية ـ القاهرة . الطبعة الأولى .

٢٣ ــ الكبائر ، للذهبي . طبعة المكتبة الثقافية ـ بيروت .

٢٤ ــ لسان العرب ، لابن منظور . ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي . دار لسان العرب .

٢٥ ــ لوامع الأنوار البهية ، للسفاريني . طبعة دولة قطر . الطبعة الأولى .

٢٦ ــ مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع ابن قاسم . طبعة دولة المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى .

٢٧ ــ مختار الصحاح . طبعة دار المعارف ـ مصر .

٢٨ ــ مسند الإمام أحمد . طبعة المكتب الإسلامي ـ بيروت .

٢٩ ــ مشكاة المصابيح ، للخطيب التبريزي . طبعة المكتب الإسلامي ـ بدمشق . الطبعة الأولى : ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م .

٣٠ ــ المقدمة ، لابن خلدون . الطبعة الثانية . طبعة مكتبة المدرسة ، ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت : ١٩٧٩ .

٣١ ــ المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، لابن القيم . طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية ـ حلب . الطبعة الأولى : ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .

٣٢ ــ نهاية البداية والنهاية ، لابن كثير . نشر مكتبة النصر الحديثة ـ الرياض . الطبعة الأولى : ١٩٦٨ .

٣٣ ــ يقظة أولى الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار ، لصديق حسن خان . طبعة دار الأنصار ـ القاهرة . الطبعة الأولى : ١٣٩٨ هـ ١٩٧٩ م .

٣٤ ـ اليوم الآخر في ظلال القرآن ، جمع وإعداد أحمد فائز ـ طبعة مؤسسة الرسالة ـ دمشق ـ الطبعة السابعة : ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م .

الفهرس

الباب الأول القيامة الصغرى

الفصل الأول : تعريف وبيان

الفصل الثاني : الاحتضار

الباب الثاني أشراط الساعة

الفصل الأول : وقت الساعة

الفصل الثاني علامات الساعة التي وقعت

الفصل الثالث

العلامات التي وقعت، وهي مستمرة، أو وقعت مرة ويمكن أن يتكرر وقوعها

الفصل الخامس : العلامات الكبرى

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ـ العقيدة في الله	الطبعة الخامسة
٢ ـ عالم الملائكة الأبرار	الطبعة الرابعة
٣ ـ عالم الجن والشياطين	الطبعة الرابعة
٤ ـ معالم الشخصية الإسلامية	الطبعة الرابعة
٥ ـ الرسل والرسالات	الطبعة الرابعة
٦ ـ المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم	الطبعة الثالثة
٧ ـ الصوم في ضوء الكتاب والسنة	الطبعة الثالثة
٨ ـ أصل الاعتقاد	الطبعة الثالثة
٩ ـ مواقف ذات عبر	الطبعة الثانية
١٠ ـ مقاصد المكلفين « النيات في العبادات »	الطبعة الأولى
١١ ـ القياس بين مؤيديه ومعارضيه	الطبعة الأولى
١٢ ـ ثلاث شعائر	الطبعة الثالثة
١٣ ـ جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة	الطبعة الثانية
١٤ ـ خصائص الشريعة الاسلامية	الطبعة الأولى
١٥ ـ تاريخ الفقه الإسلامي	الطبعة الأولى
١٦ ـ الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية	الطبعة الثانية
١٧ ـ نحو ثقافة إسلامية أصيلة	الطبعة الأولى
١٨ ـ سلسلة محاضرات إسلامية	الطبعة الأولى
١٩ ـ القيامة الصغرى وأشراط القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢٠ ـ القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢١ ـ الجنة والنار	الطبعة الأولى

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية ـ عمان
١٩٩٠/١٠/٧٢٦

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة | ٥

اليوم الآخر

٢

القيامة الكبرى

الدكتور عمر سليمان الأشقر





دار النفائس

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة (٥)

اليوم الآخر



القيامة الكبرى

تأليف

الدكتور عمر سليمان الأشقر



دار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

٢٥٣ و ٢١٤
عمر

عمر سليمان الأشقر

اليوم الآخر . القيامة الكبرى . عمر سليمان الأشقر

ط ٤ . عمان : (د . ن) ١٩٩٠

(٢٨٧) ص

ر . أ . ١٩٩٠/١٠/٧٠٢

١ ـ الإيمان باليوم الآخر .   أ ـ العنوان

تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية ـ عمان

الطبعة السادسة
١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م



دار النفائس
للنشـــــر والتوزيـــــع

الاردن ـ عمان ـ العبدلي ـ مقابل جوهرة القدس

هاتف : ٤٠ ٣٩ ٦٩ ـ فاكس : ٤١ ٣٩ ٦٩ ـ ص .ب : ٢١١٥١١

الفهرس

الفصل الأول

أسماء يوم القيامة

الفصل الثاني

إفناء الأحياء

الفصل الثالث

البعث والنشور

الفصل الرابع

أرض المحشر

الفصل الخامس

المكذبون بالبعث والأدلة على أنه كائن

الفصل السادس

القيامة عند الأنبياء وفي كتب أهل الكتاب

الفصل السابع

أهوال يوم القيامة:

الفصل الثامن

أحوال الناس في يوم القيامة

الفصل التاسع

الشفاعة

الفصل العاشر

الحساب والجزاء

الفصل الحادي عشر

اقتصاص المظالم بين الخلق

الفصل الثاني عشر

الميزان

الفصل الثالث عشر
الحوض

الفصل الرابع عشر
الحشر إلى دار القرار : الجنة أو النار

مقدمة

الحمد لله الذي لا يعجزه شيء ، فهو القادر على كل شيء ، أحاط بمخلوقاته علما ، وقهرهم عزة وحكما ، أنشأ عباده من عدم ، وإلى العدم يصيِّرهم ، ثم يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى إذا شاء بعثهم وإعادتهم .

وأصلي وأسلم على عبده المصطفى ، ورسوله المجتبى ، صاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

فهذا هو الكتاب الثاني الذي نتحدث فيه عن اليوم الآخر ، وموضوعه القيامة الكبرى .

وهو يشتمل على أربعة عشر فصلاً ، يسبقها تمهيد .

أما التمهيد فللتعريف بالقيامة .

والفصل الأول ذكرت فيه أسماء يوم القيامة وعرفت أشهر هذه الأسماء ، وبينت السر في كثرة أسماء ذلك اليوم .

والفصل الثاني مخصص للتعريف بالدّمار الذي يحل بالجنس البشري عندما ينفخ في الصور فيفني الله الأحياء ، وقد أَوْردت فيه النصوص التي تعرف بالصور ، وبالملك النافخ فيه ، واليوم الذي يكون فيه النفخ ، وعدد المرات التي ينفخ فيها في الصور ، والذين لا يصعقون عندما يصعق الخلائق .

والفصل الثالث في صفة البعث والنشور وحال العباد فيه .

والفصل الرابع مخصص لبيان صفة الأرض التي يكون الحشر عليها .

والفصل الخامس سقت فيه الأدلة الدالة على البعث ، ورددت فيه على المكذِّبين به .

أما الفصل السادس فإنَّه حديث عن القيامة عند الأنبياء ، وبيان أنهم جميعا ذكروها وتحدثوا عنها . وفي هذا الفصل مبحث عن القيامة في كتب أهل الكتاب اليوم .

والفصل السابع مخصص للحديث عن أهوال يوم القيامة ، واستعراض النصوص المتحدثة عن دكِّ الأرض ، ونسف الجبال ، وتفجير البحار وتسجيرها ، وموران السماء وانفطارها ، وتكوير الشمس ، وانخساف القمر ، وتناثر النجوم .

والفصل الثامن معقود لبيان أحوال الناس في ذلك اليوم والناس فيه ثلاثة أصناف :

الكفار المشركون ، والعصاة المذنبون ، والأتقياء الصالحون .

فالكفار بينت ذلتهم وتخاصمهم ، وإحباط أعمالهم .

والعصاة ذكرت بعض الذنوب التي يعاقبون عليها في الموقف العظيم .

والأتقياء ذكرت أمنهم في يوم الفزع الأكبر ، كما ذكرت بعضا من الأعمال التي يستحق أصحابها بها الأمن والنجاة .

والفصل التاسع حديث عن الشفاعة العظمى والمقام المحمود الذين ينفرد به الرسول ﷺ من بين البشر ، حيث يشفع عند ربه ليخلص العباد مما هم فيه من أهوال المحشر ، فيفصل الله بين العباد ، ثم يساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

والفصل العاشر في الحساب والجزاء ، وهو فصل طويل ، تحدثت فيه عن معنى الحساب ، ومشهده، والذين يسألون في ذلك اليوم ، والقواعد التي يكون الحساب على أساسها ، والأمور التي يكون عنها السؤال ، وأول ما يحاسب عليه العبد من أعماله .

وبينت في هذا الفصل أنواع الحساب الثلاثة : المناقشة ، والعرض ، والمعاتبة .

والفصل الحادي عشر عرضت فيه ما يكون من اقتصاص المظالم بين الخلق ، وكيف يتحقق هذا الاقتصاص .

وعقدت الفصل الثاني عشر للتعريف بالميزان ، وبيان عقيدة أهل السنة فيه ، وذكر الأمور التي توزن فيه ، والأعمال التي تثقل في الوزن .

وأوردت في الفصل الثالث عشر الأحاديث التي تتحدث عن حوض المصطفى ﷺ ، وسعته ، وحلاوة مائه وصفائه ، والذين يشربون منه ، والذين يطردون عنه .

والفصل الرابع عشر حديث عن مشهد الحشر إلى الجنة والنار ، وفيه مبحث للحديث عن الصراط ، وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة فيه .

أسأل الله تعالى أن يجعلنا في ذلك اليوم من الفائزين الناجين ، وأن يتجاوز عن زلاتنا ، ويغفر لنا ذنوبنا ، ويعلي درجاتنا ، ويظلنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إنه سميع قريب مجيب ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

الدكتور عمر سليمان الأشقر

الكويت

١٨ / من رمضان / ١٤٠٦

١٩٨٦/٥/٢٦

تمهيد
التعريف بالقيامة الكبرى

سيأتي يوم يبيد الحيّ القيوم فيه الحياة والأحياء ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(١) ، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(٢)، ثم يأتي وقت يعيد الله العباد ويبعثهم ، فيوقفهم بين يديه ويحاسبهم على ما قدموه من أعمال ، وسيلاقي العباد في هذا اليوم شيئا عظيما من الأهوال ، ولا ينجو من تلك الأهوال إلا من أَعدَّ لذلك اليوم عدَّته من الإيمان والعمل الصالح ، ويساق العباد في ختام ذلك اليوم إلى دار القرار : الجنة أو النار .

هذا اليوم هو يوم القيامـــة .

---

(١) سورة الرحمن : ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) سورة القصص : ٨٨ .

الفَصْل الأول

أسماء يوم القيامة

سمى الله ذلك اليوم الذي يحل فيه الدمار بهذا العالم ، ثم يعقبه فيه البعث والنشور للجزاء والحساب بأسماء كثيرة ، وقد اعتنى جمع من أهل العلم بذكر هذه الأسماء ، وقد عدَّها الغزالي والقرطبي فبلغت خمسين اسما كما يقول ابن حجر العسقلاني[1] .

وقد ساق القرطبي هذه الأسماء مفسِّرا لها ، ولكنه أخذ تفسيرها من كتاب « سراج المريدين » لابن العربي ، وربما زاد عليه شيئا ما في الشرح والتفسير[2] .

وقد عدَّها بعضهم من غير تفسير ، منهم ابن نجاح في كتابه « سبل الخيرات » ، وأبو حامد الغزالي في « الإحياء » ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار »[3] .

وسنقتصر في هذا البحث على ذكر أشهر هذه الأسماء ، مع تعريف كل اسم تعريفا مختصرا .

---

(١) فتح الباري : (٣٩٦/١١) .

(٢) التذكرة للقرطبي : ٢٣٣ .

(٣) التذكرة : ٢٣٢ .

أشهر أسماء ذلك اليوم

١ ــ يوم القيامة : ورد هذا الاسم في سبعين آية من آيات الكتاب ، كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[١] ، وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[٣] .

والقيامة في اللغة مصدر قام يقوم ، ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب وسميت بذلك لما يقوم فيها من الأمور العظام التي بينتها النصوص . ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين .

٢ ــ اليوم الآخر : كقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[٤] وقال : ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾[٥] وقال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾[٦] .

وأحيانا يسميه بالآخرة أو الدار الآخرة ، كقوله : ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٧] . وقوله : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾[٨] . وقوله : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا

---

(١) سورة النساء : ٨٧ .
(٢) سورة الإسراء : ٩٧ .
(٣) سورة الشورى : ٤٥ .
(٤) سورة البقرة : ١٧٧ .
(٥) سورة البقرة : ٢٣٢ .
(٦) سورة التوبة : ١٨ .
(٧) سورة البقرة : ١٣٠ .
(٨) سورة النساء : ٧٤ .

لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

وسمى ذلك اليوم باليوم الآخر ، لأنه اليوم الذي لا يوم بعده .

٣ ـ الساعة : قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾[3] وقال : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾[4] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[5] .

قال القرطبي : « والساعة كلمة يعبر بها في العربية عن جزء من الزمان غير محدود ، وفي العرف على جزء من أربعة وعشرين جزءاً من يوم وليلة ، اللذين هما أصل الأزمنة . . . وحقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه ، وهو المسمى بالآن ، وسميت به القيامة إما لقربها ، فإن كل آت قريب . وإما أن تكون سميت بها تنبيها على مافيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود . وقيل : إنما سميت بالساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة . . . »[6] .

٤ ـ يوم البعث : قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ . . ﴾[7] ، وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾[8] .

---

(١) سورة القصص : ٨٣ .

(٢) سورة العنكبوت : ٦٤ .

(٣) سورة الحجر : ٨٥ .

(٤) سورة طه : ١٥ .

(٥) سورة الحج : ١ .

(٦) التذكرة للقرطبي : ٢١٦ .

(٧) سورة الحج : ٥ .

(٨) سورة الروم : ٥٦ .

قال ابن منظور : « البعث : الإحياء من الله تعالى للموتى . وبعث الموتى نشرهم ليوم البعث »[1] .

٥ ـ يوم الخروج : قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾[2] وقال : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾[3] . وقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[4] .

سمي بذلك لأن العباد يخرجون فيه من قبورهم عندما ينفخ في الصور .

٦ ـ القارعة : قال تعالى : ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾[5] ، وقال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾[6] .

قال القرطبي : « سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها . يقال : قد أصابتهم قوارع الدهر ، أي أهواله وشدائده ، قالت الخنساء :

تعرفني الدهر نهشا وحزا وأوجعني الدهر قرعا وغمزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها »[7] .

٧ ـ يوم الفصل : قال تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[8] . وقال : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾[9] . وقال : ﴿ إِنَّ يَوْمَ

---

(١) لسان العرب : مادة : (ب ع ث) (١/ ٢٣٠) .
(٢) سورة ق : ٤٢ .
(٣) سورة المعارج : ٤٣ .
(٤) سورة الروم : ٢٥ .
(٥) سورة القارعة : ١ـ٣ .
(٦) سورة الحاقة : ٨ .
(٧) التذكرة للقرطبي : ٢٠٩ .
(٨) سورة الصافات : ٢١ .
(٩) سورة المرسلات : ٣٨ .

ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾[1] .

سمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين عباده فيماكانوا فيه يختلفون ، وفيما كانوا فيه يختصمون ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[2] .

٨ ـ **يوم الدين** : قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾[3]. وقال : ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾[4] .

والدين في لغة العرب : الجزاء والحساب . قال الشاعر :

حصادك يوما ما زرعت وإنما يدان الفتى يوما كما هو دائن

سمي بذلك لأن الله يجزي العباد ويحاسبهم في ذلك اليوم .

٩ ـ **الصاخة** : قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾[5] .

قال القرطبي : « قال عكرمة : الصاخَّة النفخة الأولى » والطامّة النفخة الثانية . قال الطبري : أحسبه من صخَّ فلان فلانا إذا أصمَّه . قال ابن العربي : الصاخَّة التي تورث الصمم ، وإنها المسمعة ، وهذا من بديع الفصاحة حتى لقد قال بعض أحداث الأسنان حديثي الأزمان :

أصمَّ بك الناعي وإن كنت أسمعا

---

(١) سورة النبأ : ١٧ .

(٢) سورة السجدة : ٢٥ .

(٣) سورة الانفطار : ١٤ ـ ١٩ .

(٤) سورة الصافات : ٢٠ .

(٥) سورة عبس : ٣٣ .

وقال آخر :

أصمّني سيرهم أيام فرقتهم   فهل سمعتم بسير يورث الصمما

ولعمر الله إن صيحة القيامة مسمعة ، تصم عن الدنيا ، وتسمع أمور الآخرة »[1] . وقال ابن كثير : « قال البغوي : الصاخّة يعني صيحة يوم القيامة ، سميت بذلك لأنها تصخُّ الأسماع ، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها »[2] .

١٠ ـ الطامة الكبرى : قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[3] .

سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[4] .

قال القرطبي « الطامّة الغالبة . من قولك طمَّ الشيء إذا علا وغلب . ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء . قال الحسن : الطامّة : النفخة الثانية . وقيل : حين يسار أهل النار إلى النار »[5] .

١١ ـ يوم الحسرة : قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[6] .

سمي بذلك لشدة تحسر العباد في ذلك اليوم وتندمهم . أما الكفار فلعدم إيمانهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا

---

(١) تذكرة القرطبي : ٢٢٧ .
(٢) تفسير ابن كثير (٢١٧/٧) .
(٣) سورة النازعات : ٣٤ .
(٤) سورة القمر : ٤٦ .
(٥) تذكرة القرطبي : ٢٢٧ .
(٦) سورة مريم : ٣٩ .

فيها ﴾[1] ، واستمع إلى تحسر الكفار عندما يحل بهم العذاب : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

وتبلغ الحسرة ذروتها بأهل الكفر عندما يتبرأ السادة والأتباع من متبوعيهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[3] .

ويتحسر المؤمنون في ذلك اليوم بسبب عدم استزادتهم من أعمال البر والتقوى .

١٢ ـ الغاشية : قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾[4] ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بأفزاعها وتغمّهم . ومن معانيها أن الكفار تغشاهم النار وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾[5] . وقال ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[6] .

١٣ ـ يوم الخلود : قال تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾[7] . سمي ذلك اليوم بيوم الخلود لأن الناس يصيرون إلى دار الخلد ، فالكفار

(١) سورة الأنعام : ٣١ .
(٢) سورة الزمر : ٥٦ ـ ٥٨ .
(٣) سورة البقرة : ١٦٧ .
(٤) سورة الغاشية : ١ .
(٥) سورة العنكبوت : ٥٥ .
(٦) سورة الأعراف : ٤١ .
(٧) سورة ق : ٣٤ .

مخلدون في النار ، والمؤمنون مخلدون في الجنان ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[1] وقال : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[2] .

١٤ ـ يوم الحساب : قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[3] . وقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[4] .

سمى ذلك اليوم بيوم الحساب ، لأن الله يحاسب فيه عباده ، قال القرطبي :

« معنى الحساب أن الله يعدِّد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة ، ويعدِّد عليهم نعمه ، ثم يقابل البعض بالبعض ، فما يشفُّ منها على الآخر حكم للمشفوف بحكمه الذي عينه للخير بالخير ، وللشرِّ بالشرِّ ، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « ما منكم أحد إلا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان » .

١٥ ـ الواقعة : قال تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾[5] ، قال ابن كثير : « سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها »[6] . وأصل وقع في لغة العرب كان ووجد .

---

(١) سورة البقرة : ٣٩ .
(٢) سورة آل عمران : ١٠٧ .
(٣) سورة ص : ٢٦ .
(٤) سورة غافر : ٢٧ .
(٥) سورة الواقعة : ١ .
(٦) تفسير ابن كثير : ٥٠٧/٦ .

١٦ ـ يوم الوعيد : قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾(١) ، لأنه اليوم الذي أوعد به عباده . وحقيقة الوعيد هو الخبر عن العقوبة عند المخالفة .

١٧ ـ يوم الآزفة : قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾(٢) سميت بذلك لاقترابها ، كما قال تعالى : ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾(٣) . والساعة قريبة جدا . وكل آت فهو قريب وإن بعد مداه . والساعة بعد ظهور علاماتها أكثر قربا .

١٨ ـ يوم الجمع : قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾(٤) سميت بذلك، لأن الله يجمع فيه الناس جميعا ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾(٥) .

١٩ ـ الحاقة : قال تعالى : ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾(٦) سميت بذلك ـ كما يقول ابن كثير ـ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد(٧) .

قال البخاري في صحيحه : « هي الحاقة لأن فيها الثواب وحواق الأمور . الحقة والحاقة واحد » . وقال ابن حجر في شرحه لكلام البخاري : « هذا أخذه من كلام الفراء . قال في معاني القرآن : الحاقّة : القيامة . سميت بذلك لأن فيها الثواب وحواقّ الأمور . ثم قال : الحقّة والحاقة

---

(١) سورة ق : ٢٠ .
(٢) سورة المؤمن : ١٨ .
(٣) سورة النجم : ٥٧ ـ ٥٨ .
(٤) سورة الشورى : ٧ .
(٥) سورة هود : ١٠٣ .
(٦) سورة الحاقة : ١ ـ ٢ .
(٧) تفسير ابن كثير : (٩٩/٧) .

كلاهما بمعنى واحد . قال الطبري : سميت الحاقة لأن تَحِقّ فيها . وهي كقولهم : ليلُ قائم . وقال غيره : سميت الحاقة لأنها أحقت لقوم الجنة ولقوم النار . وقيل لأنها تحاقق الكفار الذين خالفوا الأنبياء . يقال : حاققته فحققته : أي خاصمته فخصمته . وقيل : لأنها حق لا شك فيه »[1] .

٢٠ ـ يوم التلاق : قال تعالى : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾[2] .

قال ابن كثير : « قال ابن عباس : يلتقي فيه آدم وآخر ولده . وقال ابن زيد : يلتقي فيه العباد . وقال قتادة والسدى وبلال بن سعد وسفيان بن عيينه : يلتقي فيه أهل الأرض والسماء ، والخالق والخلق ، وقال ميمون بن مهران : يلتقي فيه الظالم والمظلوم . وقد يقال إن يوم التلاق يشمل هذا كله ، ويشمل أن كل عامل سيلقى ماعمله من خير وشر كما قاله آخرون »[3] .

٢١ ـ يوم التناد : قال تعالى حاكيا نصيحة مؤمن آل فرعون قومه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾[4] سمي بذلك لكثرة مايحصل من نداء في ذلك اليوم ، فكل إنسان يدعى باسمه للحساب والجزاء ، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار ، وأصحاب النار ينادون أصحاب الجنة ، وأهل الأعراف ينادون هؤلاء وهؤلاء .

٢٢ ـ يوم التغابن : قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾[5] .

---

(١) فتح الباري : (٣٩٥/١١) .

(٢) سورة المؤمن : ١٥ .

(٣) تفسير ابن كثير : ١٣٠/٦ .

(٤) سورة المؤمن : ٣٢ .

(٥) سورة التغابن : ٩ .

سمي بذلك لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار ، إذ يدخل هؤلاء الجنة ، فيأخذون ما أعد الله لهم ، ويرثون نصيب الكفار من الجنة .

هذه هي أشهر أسماء يوم القيامة ، وقد أورد بعض العلماء أسماءَ أخرى غير ما ذكرناه ، وهذه الأسماء أخذوها بطريق الاشتقاق بما ورد منصوصاً ، فقد سموه يوم الصدر أخذا من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾(١) ، ويوم الجدال أخذا من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾(٢) .

وسموه بأسماء الأوصاف التي وصف الله بها ذلك اليوم ، فقالوا من أسمائه : يوم عسير ، ويوم عظيم ، ويوم مشهود ، ويوم عبوس قمطرير ، ويوم عقيم .

ومن الأسماء التي ذكروها غير ما تقدم : يوم المآب ، يوم العرض ، يوم الخافضة الرافعة ، يوم القصاص ، يوم الجزاء ، يوم النفخة ، يوم الزلزلة ، يوم الراجفة ، يوم الناقور ، يوم التفرق ، يوم الصدع ، يوم البعثرة ، يوم الندامة ، يوم الفرار .

ومنها أيضا : يوم تبلى السرائر ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعا ، يوم تشخص فيه الأبصار ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، يوم لا ينطقون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يوم لا يكتمون الله حديثا ، يوم لا مردّ له من الله ، يوم لا بيع فيه ولا خلال ، يوم لا ريب فيه .

وقد يضيف إليها بعض أهل العلم أسماء أخرى ، وقد يسمى الاسم بما يقاربه ويماثله ، قال القرطبي : « ولا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكر بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام والتضايق واختلاف الأقدام ، والخزي ،

(١) سورة الزلزلة : ٦ .

(٢) سورة النحل : ١١١ .

والهوان ، والذل ، والافتقار ، والصغار ، والانكسار ، ويوم الميقات ، والمرصاد ، إلى غير ذلك من الأسماء »[1] .

السر في كثرة أسمائه

يقول القرطبي : « وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته ، وكثرت أسماؤه ، وهذا مهيع كلام العرب ، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه ، وتأكد نفعه لديهم وموقعه ، جمعوا له خمسمائة اسم ، وله نظائر .

فالقيامة لما عظم أمرها ، وكثرت أهوالها ، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ، ووصفها بأوصاف كثيرة[2] .

---

(١) التذكرة : ٢٣٣ .

(٢) التذكرة : ٢١٤ .

الفصل الثاني
إفناء الأحياء

المبحث الأول
النفخ في الصور

هذا الكون العجيب الغريب الذي نعيش فيه ، يعجٌ بالحياة والأحياء الذين نشاهدهم والذين لا نشاهدهم ، وهم فيه في حركة دائبة لا تهدأ ولا تتوقف ، وسيبقى حاله كذلك إلى أن يأتي اليوم الذي يهلك الله فيه جميع الأحياء إلا من يشاء ، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾(١) ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾(٢) .

وعندما يأتي ذلك اليوم ينفخ في الصور ، فتُنْهي هذه النفخة الحياة في الأرض والسماء ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾(٣) .

وهي نفخةهائلة مدمرة يسمعها المرء فلا يستطيع أن يوصي بشيء ، ولا يقدر على العودة إلى أهله وخلانه ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٤) .

---

(١) سورة الرحمن : ٢٦ .

(٢) سورة القصص : ٨٨ .

(٣) سورة الزمر : ٦٨ .

(٤) سورة يس : ٤٨ .

وفي الحديث : « ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلّا أصغى ليتا ، ورفع ليتا[1] ، قال : وأوّل من يسمعه رجل يلوط حوض إبله . قال : فيصعق ويصعق الناس »[2] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن سرعة هلاك العباد حين تقوم الساعة ، فقال : « ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومنّ الساعة وهو يليط حوضه ، فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها »[3] .

(١) أصغى : أمال: والليت : صفحة العنق .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب خروج الدجال : (٢٢٥٩/٤) ورقمه : ٢٩٤٠ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب . . . تصدقوا ، فتح الباري : (٨٢/١٣) عن أبي هريرة . ورواه في كتاب الرقاق ، فتح الباري (٣٥٢/١١) .

المبحث الثاني
الصور الذي ينفخ فيه

الصور في لغة العرب القَرْن ، وقد سئل الرسول ﷺ عن الصور ، ففسره بماتعرفه العرب من كلامها ، ففي سنن الترمذي وسنن أبي داود ، وسنن ابن حبان ، ومسند أحمد ، ومستدرك الحاكم ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : « ما الصور ؟ قال : الصور قرن ينفخ فيه »[1] قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، وقال الترمذي فيه : حديث حسن صحيح .

وذكر عن الحسن البصري أنه قرأ (الصُورَ) ، جمع صورة ، وتأوله على أن المراد النفخ في الأجساد لتعاد إليها الأرواح .

ونقل عن أبي عبيدة والكلبي أن (الصُوْر) بسكون الواو جمع صورة ، كما يقال : سور المدينة جمع سورة ، والصوف جمع صوفه ، وبسر جمع بسرة .
وقالوا : المراد النفخ في الصور وهي الأجساد ، لتعاد فيها الأرواح وما ذكروه خطأ من وجوه :

الأول : أن القراءة التي نسبت إلى الحسن البصري لا تصح نسبتها إلى الأئمة الذين يحتج بقراءتهم .

الثاني : أن (صورة) تجمع على (صُوَر) ، ولا تجمع على (صُوْر) كما ادعى

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/٦٨) ، ورقمه : ١٠٨٠ .

أبو عبيدة والكلبي ، قال تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[1] ، ولم يعرف عن أحد من القراء أنه قرأها : فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ

الثالث : أن الكلمات التي ذكروها ليست بجموع وإنما هي أسماء جموع يفرق بينها وبين واحدتها بالتاء .

الرابع : أن هذا القول خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة ، فالذي عليه أهل السنة والجماعة أن الصور بوق ينفخ فيه .

الخامس : أن هذا القول مخالف لتفسير الرسول ﷺ ، حيث فسره بالبوق ، ومخالف للأحاديث الكثيرة الدالة على هذا المعنى .

السادس : أن الله تعالى قال : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[2] ، فقد أخبر الحق أنه ينفخ في الصور مرتين ، ولو كان المراد بالصور النفخ في الصُوَر التي هي الأبدان لما صح أن يقال : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾[2]، لأن الأجساد تنفخ فيها الأرواح عند البعث مرةواحدة[3] .

وما ذكره بعض أهل العلم من أن الصور من ياقوته أو من نور فلا نعلم في ذلك حديثا صحيحا ، والله أعلم .

---

(١) سورة غافر : ٦٤ .

(٢) سورة الزمر : ٦٨ .

(٣) راجع في هذه المسألة : تذكرة القرطبي : ١٨٢ ، ١٨٥ . فتح الباري (٣٦٧/١١) . لسان العرب : (٤٩٣/٢) .

المبحث الثالث

النفخ في الصور

قال ابن حجر العسقلاني : « اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عليه السلام ، ونقل فيه الحليمي الإجماع ، ووقع التصريح به في حدث وهب بن منبه ، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي ، وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه ، وكذا في حديث الصور الطويل »[1] .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن صاحب الصور مستعد دائماً للنفخ فيه منذ أن خلقه الله تعالى ، ففي مستدرك الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن طَرْف صاحب الصور منذ وُكِّل به مستعد ينظر نحو العرش ، مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طَرْفه ، كأن عينيه كوكبان دُرّيان » قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي[2] .

وفي هذا الزمان الذي اقتربت فيه الساعة ، أصبح إسرافيل أكثر استعدادا وتهيؤا للنفخ في الصور ، فقد روى ابن المبارك في الزهد ، والترمذي في سننه ، وأبو نعيم في الحلية ، وأبو يعلى في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرك ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم ، وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر أن

---

(١) فتح الباري (١١/٣٦٨) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/٦٥) ، ورقمه (١٠٧٨) .

ينفخ ، فينفخ . قال المسلمون : فكيف نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : حسبناالله ونعم الوكيل ، توكلنا على الله ربنا » وقال الترمذي : حديث حسن ، وقد ذكر الشيخ ناصر رواته من الصحابة وطرقه ومتابعاته وشواهده في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » بما يدلُّ على صحته[1] .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/٦٦) ، ورقمه : (١٠٧٩) .

المبحث الرابع
اليوم الذي يكون فيه النفخة

تقوم الساعة في يوم الجمعة ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنّة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة »[1] .

وفي حديث آخر أخبر الرسول ﷺ أن الساعة تقوم في يوم الجمعة ، وفيها يبعث العباد أيضا ، فعن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصَّعْقَة ، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليّ » رواه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة ، والدارمي ، والبيهقي في « الدعوات الكبير »[2] . وفي « مسند الطبراني الأوسط » ، و« الحلية » لأبي نعيم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عرضت عليّ الأيام ، فعرض عليّ فيها يوم الجمعة ، فإذا هي كمرآة بيضاء في وسطها نكتة سوداء ، فقلت : ماهذه ؟ قيل : الساعة »[3] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (١/٤٢٧) ، ورقمه : (١٣٥٦) .

(٢) مشكاة المصابيح : (١/٤٣٠) ، ورقمه : (١٣٦١) ، وقال ـ محقق المشكاة في إسناده عند أبي داود : صحيح ، وصححه جماعة .

(٣) رمز الشيخ ناصر للحديث بالصحة في صحيح الجامع : (٤/٣١) ، ورقمه (٣٨٩٥) وأورد طرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/٥٦٨) ، ورقمه (١٩٣٠) .

ولما كانت الساعة تقع في هذا اليوم فإن المخلوقات في كل يوم جمعةٍ تكون مشفقة خائفة إلا الإنس والجنّ ، ففي موطأ الإمام مالك ، وسنن أبي داود ، وسنن الترمذي والنسائي ، ومسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه هبط ، وفيه تيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، ومامن دابة إلا وهي مصيخة[1] ، يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس ، شفقا من الساعة ، إلا الجن والإنس »[2] .

(١) منتظرة قيام الساعة .

(٢) مشكاة المصابيح : (١/٤٢٨) ورقية (١٣٥٩) وعزاه محقق المشكاة إلى الموطأ والترمذي . وقال الترمذي فيه : حسن صحيح .

المبحث الخامس
كم مرة ينفخ الصور ؟

الذي يظهر أن إسرافيل ينفخ في الصور مرتين ، الأولى يحصل بها الصعق ، والثانية يحصل بها البعث ، قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(١) .

وقد سمى القرآن النفخة الأولى بالراجفة ، والنفخة الثانية بالرادفة ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾(٢) .

وفي موضع آخر سمى الأولى بالصيحة ، وصَرَّح بالنفخ بالصور في الثانية ، قال تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾(٣) .

وقد جاءت الأحاديث النبوية مصرحة بالنفختين ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما بين النفختين أربعون » . قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوما ؟ قال : أبيت . قال : أربعون شهرا ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ؟ قال أبيت »(٤) .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ

(١) سورة الزمر : ٦٨ .
(٢) سورة النازعات : ٦ ـ ٧ .
(٣) سورة يس : ٤٩ ـ ٥١ .
(٤) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الزمر ، فتح الباري : (٥٥١/١١) . ورواه مسلم في صحيحه (٢٢٧٠/٤) ، ورقمه : ٢٩٥٥ .

يقول : « ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ، ورفع ليتا[1] ، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال : فيصعق ، ويصعق الناس ، ثم يرسل الله ـ أو قال : ينزل الله مطرا ، كأنه الطلّ ، أو الظلُّ ، (نعمان[2] الشاك) فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »[3] .

وأخرج البيهقي بسند قويّ عن ابن مسعود موقوفا : « ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض ، فينفخ فيه ، والصور قرن ، فلا يبقى خلق في السموات ولا في الأرض إلا مات إلا من شاء ربك ، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون »[4] .

وروى أوس بن أوس الثقفي عن الرسول ﷺ قال : « إن أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه الصعقة وفيه النفخة »[5] ، وقد أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم[6] .

وقد رجح هذا الذي دلت عليه هذه الآيات والأحاديث التي سقناها جمع من أهل العلم ، منهم القرطبي[7] ، وابن حجر العسقلاني[8] .

وذهب جمع من أهل العلم إلى أنها ثلاث نفخات ، وهي نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث .

---

(١) الليت : صفحة العنق ، وإصغاؤه : إمالته .
(٢) هو نعمان بن سالم أحد رواة هذا الحديث .
(٣) رواه مسلم : (٤/٢٢٥٨) ، ورقمه : ٢٩٤٠ .
(٤) فتح الباري : (١١/٣٧٠) .
(٥) فتح الباري : (١١/٣٧٠) .
(٦) فتح الباري : (١١/٣٧٠) .
(٧) التذكرة للقرطبي : ١٨٣ ، ١٨٤ .
(٨) فتح الباري : (١١/٣٦٩) .

ومن ذهب هذا المذهب ابن العربي[١] ، وابن تيمية[٢] ، وابن كثير[٣] ، والسفاريني[٤] . وحجة من ذهب هذا المذهب أن الله ذكر نفخة الفزع في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[٥] .

كما احتجوا ببعض الأحاديث التي نصت على أن النفخات ثلاث ، كحديث الصور ، وهو حديث طويل ، أخرجه الطبري ، وفيه : « ثم ينفخ في الصور ثلاث نفخات ، نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام لرب العالمين »[٦] .

أما استدلالهم بالآية التي تذكر نفخة الفزع فليست الآية صريحة على أن هذه نفخة ثالثة ، إذ لا يلزم من ذكر الحقِّ تبارك وتعالى للفزع الذي يصيب من في السموات والأرض عند النفخ في الصور أن تجعل هذه نفخة مستقلة ، فالنفخة الأولى تفزع الأحياء قبل صعقهم ، والنفخة الثانية تفزع الناس عند بعثهم .

يقول ابن حجر رحمه الله تعالى : « ولا يلزم من مغايرة الصعق الفزع أن لا يحصلا معا من النفخة الأولى »[٧] ، وجاء في تذكرة القرطبي : « ونفخة الفزع هي نفخة الصعق ، لأن الأمرين لازمين لها ، أي فزعوا فزعا ماتوا منه »[٨] .

أما حديث الصور فهو حديث ضعيف مضطرب كما يقول الحجة في علم

---

(١) فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٦٠) .
(٢) فتح الباري (١١/٣٦٩) ، تذكرة القرطبي : ص ١٨٤ .
(٣) النهاية لابن كثير : (١/٢٥٣) .
(٤) لوامع الأنوار البهية : (٢/١٦١) .
(٥) سورة النمل : (٨٧) .
(٦) فتح الباري : (١١/٣٦٩) .
(٧) فتح الباري : (١١/٣٦٩) .
(٨) تذكرة القرطبي : ١٨٤ .

الحديث ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى ، ونقل تضعيفه عن البيهقي[1] .

وذهب ابن حزم رحمه الله تعالى إلى « أن نفخات يوم القيامة أربع : الأولى نفخة إماتة ، والثانية نفخة إحياء ، يقوم بها كل ميت ، وينشرون من القبور ، ويجمعون للحساب .

والثالثة : نفخة فزع وصعق ، يفيقون منها كالمغشى عليه ، لا يموت منها أحد . والرابعة : نفخة إفاقة من ذلك الغشى »[2] .

قال ابن حجر بعد أن حكى مقالة ابن حزم : « هذا الذي ذكره من كون الثنتين أربعا ليس بواضح ، بل هما نفختان فقط ، ووقع التغاير في كل واحد منهما باعتبار من يستمعهما ، فالأولى يموت فيها كل من كان حيا ، ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله . والثانية : يعيش بها من مات ، ويفيق بها من غشي عليه ، والله أعلم »[3] .

---

(١) فتح الباري : (٣٦٩/١١) .
(٢) فتح الباري : (٤٤٦/٦) .
(٣) فتح الباري : (٤٤٦/٦) .

المبحث السادس
الذين لا يُصعقون عند النفخ في الصور

أخبرنا الباري جلّ وعلا أن بعض من في السموات ومن في الأرض لا يصعقون عندما يصعق من في السموات ومن في الأرض ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1] .

وقد اختلف العلماء في تعيين الذين عناهم الحق بالاستثناء في قوله : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ .

١ ـ فذهب ابن حزم إلى أنهم جميع الملائكة ، لأن الملائكة في اعتقاده أرواح لا أرواح فيها ، فلا يموتون أصلاً[2] .

وهذا الذي ذهب إليه من أن الملائكة لا يموتون لا يُسَلَّم له ، فالملائكة خلق من خلق الله تبارك وتعالى ، وهم عبيد مربوبون مقهورون ، خلقهم ، وهو قادر على إماتتهم وإحيائهم ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه ، وعن غير واحد من الصحابة أنه قال : « إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة منه مثل الغشى » ، وفي رواية : « إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا » فأخبر في هذا الحديث أنهم يصعقون صعق الغشي ، فإذا جاز عليهم صعق الغشي ، جاز عليهم صعق الموت »[3] .

---

(١) سورة الزمر : ٦٨ .

(٢) فتح الباري : (٣٧١/٦) .

(٣) راجع مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٦٠/٤) .

٢ ـ وذهب مقاتل وغيره إلى أنهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت[١] .
وأضاف إليه بعض أهل العلم جملة العرش[٢] .
وصحة هذا متوقف على أحاديث رووها ، وأهل العلم بالحديث لا يصححون مثلها[٣] .

٣ ـ وذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أن المراد بهم الذين في الجنة من الحور العين والولدان ، وأضاف إليهم أبو إسحق بن شاقلا من الحنابلة ، والضحاك بن مزاحم خزان الجنة والنار ومافيها من الحيات والعقارب[٤] .

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : « وأما الاستثناء فهو متناول لما في الجنة من الحور العين ، فإن الجنة ليس فيها موت »[٥] .

٤ ـ وقد جنح أبو العباس القرطبي صاحب « المفهم إلى شرح مسلم » إلى أن المراد بهم الأموات كلهم ، لكونهم لا إحساس لهم ، فلا يصعقون[٦] .

وما ذهب إليه أبو العباس صحيح إذا فسرنا الصعق بالموت ، فإن الإنسان يموت مرة واحدة ، قال تعالى : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[٧] .

وقد عقد ابن القيم في كتابه : « الروح » فصلا بيَّن فيه أن أهل العلم قد اختلفوا في موت الأرواح عند النفخ في الصور .

---

(١) الروح لابن القيم : ص ٥٠ ، وفتح الباري : (٣٧١/٦) .
(٢) فتح الباري : (٣٧١/٦) .
(٣) راجع فتح الباري : (٣٧١/٦) .
(٤) الروح لابن القيم : ص ٥٠ ، وفتح الباري : (٣٧١/٦) .
(٥) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٦١/٤) .
(٦) فتح الباري : (٣٧٠/٦) .
(٧) سورة الدخان : ٥٦ .

والذي رجحه ابن القيم أن موت الأرواح هو مفارقتها للأجساد ، وخروجها منها ، وردُّ قول الذين قالوا بفناء الأرواح وزوالها ، لأن النصوص دلت على أن الأرواح تبقى في البرزخ معذَّبة أو منعمة [1] .

أما إذا فسرنا الصعق بالغشى ، فإن الأرواح تصعق بهذا المعنى ولا تكون داخلة فيمن استثنى الله تبارك وتعالى ، فإن الإنسان قد يسمع أو يرى ما يفزعه ، فيصعق ، كما وقع لموسى عندما رأى الجبل قد زال من مكانه ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[2] .

وقد جاء هذا المعنى صريحا في بعض النصوص ، ففي حديث أبي هريرة ، عن البخاري قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله »[3] .

ورواه البخاري أيضا عن أبي هريرة بلفظ « إني أَول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش ، فلا أدري ، أكذلك كان ، أم بعد النفخة »[4] .

ورواه في موضع ثالث بلفظ : « فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن أفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله »[5] .

---

(١) الروح ، لابن القيم : ص ٤٩ .
(٢) سورة الأعراف : ١٤٣ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب وفاة موسى ، فتح الباري : (٤٤١/٦) .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الزمر ، فتح الباري : (٥٥١/٨) .
(٥) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب النفخ في الصور ، فتح الباري : (٣٦٧/١١) .

وهذا الحديث صريح في أن الموتى يصعقون ، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو سيد المرسلين يصعق ، فغيره أولى بالصعق .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يصعق صعق غشى هم الشهداء دون غيرهم من الأموات ، وأضاف إليهم آخرون من الأنبياء .

والسر في قصر هذا على الشهداء والأنبياء - كما يقول شيخ القرطبي : أحمد ابن عمر - « أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء في الدنيا ، وإذاكان هذا حال الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأن النبي ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس ، وفي السماء ، وخصوصا بموسى ، وقد أخبرنا النبي ﷺ أن الله تبارك وتعالى يردُّ عليه روحه ، حتى يرد السلام على كل من يسلم عليه ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم ، وإن كانوا موجودين أحياء . . . وإذا تقرر أنهم أحياء ، فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق ، صعق كل من في السموات ومن في الأرض ، إلا من شاء الله »(١) .

وذهب إلى أن الشهداء والأنبياء يصعقون صعق غشى البيهقي فقال في صعق الأنبياء : « ووجهه عندي أنهم أحياء عند ربهم كالشهداء ، فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى صعقوا ، ثم لا يكون ذلك موتا في جميع معانيه ، إلا في ذهاب الاستشعار ، وقد جوز النبي ﷺ أن يكون موسى ممن استثنى الله ، فإن كان منهم فإنه لا يذهب استشعاره في تلك الحالة بسبب ما وقع في صعقة الطور »(٢) .

---

(١) تذكرة القرطبي : ١٦٩ .

(٢) فتح الباري : (١١/٣٧١) .

وبناء على هذا الفقه يكون الأنبياء والشهداء من الذين يصعقون ، ولا يكونون داخلين في الاستثناء ، وقد نقل عن ابن عباس وأبي هريرة وسعيد بن جبير أن الأنبياء والشهداء من الذين استثناهم الله[1] ، وعزاه ابن حجر إلى البيهقي[2] ، فإن كان المراد استثناؤهم من الموت فإن هذا حق ، وإن كان المراد استثناؤهم من الصعق الذي يصيب الأموات كما دل عليه حديث موسى فالأمر ليس كذلك .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأولى بالمسلم التوقف في تعيين الذين استثناهم الله ، لأنه لم يصح في ذلك نص يدل على المراد .

قال القرطبي صاحب التذكرة : « قال شيخنا أبو العباس : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح ، والكل محتمل »[3]

وقال ابن تيمية : « وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين ، فإن الجنة ليس فيها موت ، ومتناول لغيرهم ، ولا يمكن الجزم بكل ما استثناه الله ، فإن الله أطلق في كتابه . . . والنبي ﷺ قد توقف في موسى ، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا ؟

فإذا كان النبي ﷺ لم يُخْبَر بكل من استثنى الله ، لم يمكننا نحن أن نجزم بذلك ، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء ، وأمثال ذلك مما لم يخبر الله به ، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر ، والله أعلم »[4] .

---

(١) الروح لابن القيم : ٥٠ .
(٢) فتح الباري : (١١/٣٧١) .
(٣) التذكرة : ص ١٦٧ .
(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٦١) .

ونقل القرطبي عن الحليمي أنه أبى أن يكون المستثنون هم حملة العرش أو جبرائيل وميكائيل وملك الموت ، أو الولدان والحور العين في الجنة ، أو موسى ، ثم بيّنَ سرّ إنكاره لهذا فقال : « أما الأول ، فإن حملة العرش ليسوا من سكان السموات ولا الأرض ، لأن العرش فوق السموات كلها ، فكيف يكون حملته في السموات .

وأما جبرائيل وميكائيل وملك الموت فمن الصافين المسبحين حول العرش ، وإذاكان العرش فوق السموات ، لم يكن الاصطفاف حوله في السموات . وكذلك القول الثاني لأن الولدان والحور العين في الجنان ، والجنان وإن كان بعضها أرفع من بعض ، فإن جميعها فوق السموات ودون العرش ، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء ، فلا شك أنها بمعزل عما خلق الله تعالى للفناء ، وصَرْفَه إلى موسى لا وجه له ، لأنه قد مات بالحقيقة ، فلا يموت عند نفخ الصور ثانية »[1] .

ورد قول الذين قالوا المستثنون هم الأموات « لأن الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله في الجملة ، فأما من لا يمكن دخوله في الجملة فيها ، فلا معنى لاستثنائه منها ، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليسوا بفرض أن يصعقوا فلا وجه لاستثنائهم »[2] .

والذي اختاره أن الغشية التي تصيب موسى ليست هي الصعقة التي تهلك الناس وتميتهم ، وإنما هي صعقة تصيب الناس في الموقف بعد البعث ، على أحد الاحتمالين عنده .

ونقل القرطبي عن شيخه أحمد بن عمر أنه ذهب هذا المذهب ، قال

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ١٦٨ .
(٢) التذكرة : ص ١٦٨ .

القرطبي : « قال شيخنا أحمد بن عمر : وظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية نفخة البعث ، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ، ولما كان هذا قال بعض العلماء ، يحتمل أن يكون موسى عليه السلام ممن لم يمت من الأنبياء ، وهذا باطل ، بما تقدم من ذكر موته .

وقال القاضي عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشر ، حين تنشق السموات والأرض فتستقل الأحاديث والآيات والله أعلم »[1] .

وقد جزم ابن القيم رحمه الله تعالى بأن الصعقة التي تحدَّث عنها الرسول ﷺ ، هي صعقة تكون بعد البعث ، وهي المرادة بقوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾[2] [3] والله أعلم بالصواب .

(١) التذكرة : ص ١٦٨ .

(٢) سورة الطور : ٤٥ .

(٣) الروح : ص ٥٢ .

الفصل الثالث
البعث والنشور

المبحث الأول
التعريف بالبعث والنشور

المراد بالبعث المعاد الجسماني ، وإحياء العباد في يومي المعاد ، والنشور مرادف للبعث في المعنى ، يقال : نشر الميت نشورا إذا عاش بعد الموت ، وأنشره الله أحياه . فإذا شاء الحق تبارك وتعالى إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد ، ويقوم الناس لرب العالمين ، ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[1] .

وقد حدثنا الحق - تبارك وتعالى - عن مشهد البعث العجيب الغريب فقال : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[2] .

وقد جاءت الأحاديث مخبرة بأنه يسبق النفخة الثانية في الصور نزول ماء من

---

(١) سورة الزمر : ٦٨ .

(٢) سورة يس : ٥١ .

السماء ، فتنبت منه أجساد العباد ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا .

قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال : فيصعق ، ويصعق الناس . ثم يرسل الله ـ أو قال : ينزل الله ـ مطرا كأنه الطَّلُّ أو الظِّلُّ ، (نعمان أحد رواة الحديث هو الشاك) فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »(١) .

وإنبات الأجساد من التراب بعد إنزال الله ذلك الماء الذي ينبتها يماثل إنبات النبات من الأرض إذا نزل عليها الماء من السماء في الدنيا ، ولذا فإن الله قد أكثر في كتابه من ضرب المثل للبعث والنشور بإحياء الأرض بالنبات غبّ نزول الغيث ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٢) . وقال في موضع آخر : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾(٣) .

ولاحظ في كلا الموضعين قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ، ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ ، فإنهما يدلان على المماثلة والمشابهة بين إعادة الأجسام بإنباتها من التراب بعد إنزال الماء قبيل النفخ في الصور ، وبين إنبات النبات بعد نزول الماء من السماء . ونحن نعلم أن النبات يتكون من بذور صغيرة ، تكون في الأرض ساكنة

---

(١) صحيح مسلم : (٤/٢٢٥٩) ، ورقمه : ٢٩٤٠ .
(٢) سورة الأعراف : ٥٦ .
(٣) سورة فاطر : ٩ .

هامدة ، فإذا نزل عليها الماء تحركت الحياة فيها ، وضربت بجذورها في الأرض ، وبسقت بسوقها إلى السماء ، فإذا هي نبتة مكتملة خضراء .

والإنسان يتكون في اليوم الآخر من عظم صغير ، عندما يصيبه الماء ينمو نمو البقل ، هذا العظم هو عجب الذنب ، وهو عظم الصلب المستدير الذي في أصل العجز ، وأصل الذنب . ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون ، ثم ينزل من السماء ماء ، فينبتون كما ينبت البقل ، وليس في الإنسان شيء إلا بَلِي ، إلا عظم واحد ، وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة » .

ولمسلم طرف في عجب الذنب ، قال : « إن في الإنسان عَظْما لا تأكله الأرض أبدا ، فيه يركب يوم القيامة ، قالوا : أي عَظْم هو يارسول الله ؟ قال : عجب الذنب » .

وفي رواية له وللموطأ وأبي داود والنسائي قال : قال رسول الله ﷺ : « كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ، منه خلق ، وفيه يركب »[1] .

وقد دلت النصوص الصحيحة أن أجساد الأنبياء لا يصيبها البلى والفناء الذي يصيب أجساد العباد ، ففي الحديث الذي يرويه أبو داود ، وصححه ابن خزيمة وغيره : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »[2] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٤٢١) ، ورقمه : ٧٩٤١ .

(٢) انظر فتح الباري : (٦/٤٨٨) .

المبحث الثاني
البعث خلق جديد

يعيد الله العباد أنفسهم ، ولكنهم يخلقون خلقا مختلفا شيئا ما عما كانوا عليه في الحياة الدنيا ، فمن ذلك أنهم لا يموتون مهما أصابهم البلاء ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[1] ، وفي الحديث الذي يرويه الحاكم بإسناد صحيح عن عمرو بن ميمون الأودي قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : « يابني أود، إني رسول رسول الله ﷺ تعلمون المعاد إلى الله ، ثم إلى الجنة أو النار ، وإقامة لا ظعن فيه ، وخلود لا موت ، في أجساد لا تموت » ورواه الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » بنحوه[2] .

ومن ذلك إبصار العباد مالم يكونوا يبصرون ، فإنهم يبصرون في ذلك اليوم الملائكة والجن ، وماالله به عليم ، ومن ذلك أن أهل الجنة لا يبصقون ولا يتغوطون ولا يتبولون .

وهذا لا يعني أن الذين يبعثون في يوم الدين خلق آخر غير الخلق الذي كانوا في الدنيا ، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : « النشأتان نوعان تحت جنس : يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه ، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر ، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ ، وجعله مثله أيضا .

فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو ، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله ، وهكذا كل ما أعيد ، فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ والمعاد . . »[3] .

---

(١) سورة ابراهيم : ١٧ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٣١/٤) ورقم الحديث : ١٦٦٨ .

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٥٣/١٧) وقد أطال الشيخ رحمه الله تعالى في بيان المعنى الذي نقلناه عنه . فارجع إليه إن شئت المزيد من الإيضاح والبيان .

المبحث الثالث

أول من تنشق عنه الأرض

أول من يبعث وتنشق عنه الأرض هو نبينا محمد ﷺ ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع . . وأول مشفع »[(١)] .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « استب رجل من المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمد على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم عند ذلك يده ، فلطم اليهودي ، فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم ، فقال : لا تُخَيِّروني على موسى ، فإنَّ الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق ، أو كان ممن استثنى الله عز وجل » .

وفي رواية لهما « . . . فإنه ينفخ في الصور ، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يبعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فلا أدري : أحوسب بصعقة الطور ، أم بعث قبلي ؟ »[(٢)] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ (١٧٨٢/٤) ورقمه : ٢٢٧٨ .

(٢) جامع الأصول : (٥١٣/٨) ، ورقمه (٦٣٠٨) .

المبحث الرابع
حشر الخلائق جميعاً إلى الموقف العظيم

سمى الله يوم الدين بيوم الجمع ، لأن الله يجمع العباد فيه جميعا ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾(١) ، ويستوي في هذا الجمع الأولون والآخرون، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾(٢).

وقدرة الله تحيط بالعباد ، فالله لا يعجزه شيء ، وحيثما هلك العباد فإن الله قادر على الإتيان بهم ، إن هلكوا في أجواز الفضاء ، أو غاروا في أعماق الأرض ، وإن أكلتهم الطيور الجارحة أوالحيوانات المفترسة ، أو أسماك البحار ، أو غيبوا في قبورهم في الأرض ، كل ذلك عند الله سواء ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣) .

وكما أن قدرة الله محيطة بعباده تأتي بهم حيثما كانوا ، فكذلك علمه محيط بهم ، فلا ينسى منهم أحد ، ولا يضلُّ منهم أحد ، ولا يشذُّ منهم أحد ، لقَد أحصاهم خالقهم تبارك وتعالى ، وعدَّهم عدّا ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾(٤) ، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾(٥) .

---

(١) سورة هود : ١٠٣ .

(٢) سورة الواقعة : ٥٠ .

(٣) سورة البقرة : ١٤٨ .

(٤) سورة مريم : ٩٣ - ٩٥ .

(٥) سورة الكهف : ٤٨ .

وهذه النصوص بعمومها تدل على حشر الخلق جميعا الإنس والجن والملائكة ، ولا حرج على من فقه منها أن الحشر يتناول البهائم أيضا .

وقد اختلف أهل العلم في حشر البهائم ، فذهب ابن تيمية رحمه الله ـ إلى أن ذلك كائن .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « وأما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه ، كما دلَّ عليه الكتاب والسنة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾[3] ، وحرف « إذا » إنما يكون لما يأتي لا محالة[4] .

وحكى القرطبي خلاف أهل العلم في حشر البهائم ورجح أن ذلك كائن للأخبار الصحيحة في ذلك ، قال القرطبي : « واختلف الناس في حشر البهائم ، وفي قصاص بعضها من بعض ، فروي عن ابن عباس أن حشر البهائم موتها ، وقاله الضحاك . وروي عن ابن عباس في رواية أخرى أن البهائم تحشر وتبعث ، وقاله أبو ذر وأبو هريرة وعمرو بن العاص ، والحسن البصري وغيرهم ، وهو

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٢) سورة التكوير : ٥ .

(٣) سورة الشورى : ٢٩ .

(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٤٨) .

الصحيح ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[1] .

قال أبو هريرة : يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة : البهائم ، والطير ، والدواب ، وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كوني ترابا ، فذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾[2] ونحوه »[3] .

(١) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٢) سورة النبأ : ٤٠ .

(٣) تذكرة القرطبي : ٢٧٣ .

المبحث الخامس
صفة حشر العباد

يحشر العباد حفاة عراة غرلا أي غير مختونين ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ : قال : « إنكم محشورون حفاة عراة غرلا » ثم قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[1][2] .

وعندما سمعت عائشة الرسول ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا » قالت : يا رسول الله ، الرجال والنساء جميعا ، ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض »متفق عليه[3] .

وقد جاء في بعض النصوص أن كل إنسان يبعث في ثيابه التي مات فيها ، فقد روى أبو داود وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد ، فلبسها ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها » وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وقال الشيخ ناصر الدين فيه : وهوكما قالا[4] .

وقد وفّق البيهقي بين هذا الحديث وسابقه بثلاثة أوجه :

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

(٢) مشكاة المصابيح : (٣/٧٥) ، ورقم الحديث : ٥٥٣٥ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣/٥٧) ، ورقم الحديث : ٥٥٣٦ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٢٣٤) ، ورقم الحديث : ١٦٧١ .

الأول : أنها تبلى بعد قيامهم من قبورهم ، فإذا وافَوْا الموقف يكونون عراة ، ثم يلبسون من ثياب الجنة .

الثاني : أنه إذا كسي الأنبياء ثم الصديقون ، ثم من بعدهم على مراتبهم فتكون كسوة كل إنسان من جنس ما يموت فيه ، ثم إذا دخلوا الجنة لبسوا من ثياب الجنة .

الثالث : أن المراد بالثياب هاهنا الأعمال ، أي يبعث في أعماله التي مات فيها من خير أو شر ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾(1) ، وقال : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾(2) .

واستشهد البيهقي على هذا الجواب الأخير بحديث الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث كل عبد على ما مات عليه »(3) .

وحديث جابر هذا رواه مسلم في صحيحه(4) ، ولا يفقه منه أن العبد يبعث في ثيابه التي كُفِّنِ فيها أو مات فيها ، وإنما يبعث على الحال التي مات عليها من الإيمان والكفر ، واليقين والشك ، كما يبعث على العمل الذي كان يعمله عند موته يدلُّ على هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله بقوم عذابا ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم »(5) .

---

(1) سورة الأعراف : ٢٦ .

(2) سورة المدثر : ٤ .

(3) النهاية لابن كثير : (١/٢٨٨) .

(4) رواه مسلم : (٤/٢٢٠٦) . وقم الحديث : ٢٨٧٨ .

(5) صحيح مسلم (٢/٢٢٠٦) ورقم الحديث : ٢٨٧٩ .

فالذي يموت وهو محرم يبعث يوم القيامة ملبيا ، ففي صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد عن عبدالله بن عباس قال : إن رجلا كان مع النبي ﷺ فوقصته[1] ناقته وهو محرم فمات ، فقال رسول الله ﷺ : « اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه في ثوبيه ، ولاتُمِسُّوه بطيب ، ولا تخمروا رأسه[2] ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا »[3] .

والشهيد يبعث يوم القيامةوجرحه يثعب اللون لون الدم والريح ريح المسك .

ومن هنا استحب تلقين الميت لا إله إلأ الله ، لعله يموت على التوحيد ، ثم يبعث يوم القيامةناطقا بهذه الكلمة الطيبة .

---

(١) أي أسقطته فكسرت عنقه .

(٢) أي لا تغطّوا رأسه .

(٣) مشكاة المصابيح : (١/ ٥٢٠) ، ورقم الحديث : ١٦٣٧ .

المبحث السادس
كسوة العباد في يوم المعاد

ذكرنا فيما سبق أن الله يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، كما صحت بذلك الأحاديث ، ثم يكسى العباد ، فالصالحون يكسون الثياب الكريمة ، والطالحون يسربلون بسرابيل القطران ، ودروع الجرب ، ونحوها من الملابس المنكرة الفظيعة .

وأول من يكسى من عباد الله نبيّ الله إبراهيم خليل الرحمن ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل »[1] .

قال ابن حجر : « وأخرج البيهقي من طريق ابن عباس نحو حديث الباب وزاد : « وأول من يكسى من الجنة إبراهيم ، يكسى حلة من الجنة ، ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش ، ثم يؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر »[2] .

وذكر العلماء أن تقديم إبراهيم على غيره بالكسوة في يوم القيامة ، لأنه لم يكن في الأولين والآخرين أخوف لله منه ، فتعجل له الكسوة أمانا له ليطمئن قلبه ،

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب الحشر ، فتح الباري : (١١/٣٧٧) ، ورواه أيضا في كتاب الأنبياء ، انظر فتح الباري : (٦/٣٨٧) .
(٢) فتح الباري : (١١/٣٨٤) .

ويحتمل لأنه ـ كما جاء في الحديث ـ أول من لبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر وحفظا لفرجه من أن يماسَّ مصلاه ، ففعل ما أمر به ، فجزى بذلك أن يكون أول من يستر يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا ثيابه على أعين الناس ، كمن يفعل بمن يراد قتله ، فجزي بكسوته في يوم القيامة أول الناس على رؤوس الأشهاد ، وهذا أحسنها »[1] .

---

(١) تذكرة القرطبي : ٢٠٩ .

الفصل الرابع

أرض المحشر

الأرض التي يحشر العباد عليها في يوم القيامة أرض أخرى غير هذه الأرض ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1] . وقد حدثنا الرسول ﷺ عن صفة هذه الأرض الجديدة التي يكون عليها الحشر ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي » قال سهل أو غيره : « ليس فيها معلم لأحد »[2] .

قال الخطابي : العفر : بياض ليس بناصع . وقال عياض : العفر بياض يضرب إلى حمرة قليلا . وقال ابن فارس : معنى عفراء خالصة البياض[3] .

والنَقِيّ : بفتح النون وكسر القاف ، أي الدقيق النَقِيّ من الغش والنخال[4] .

والمعْلم : العلامة التي يهتدى بها إلى الطريق ، كالجبل والصخرة ، أو ما

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٨ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب يقبض الله الأرض ، فتح الباري : (٣٧٢/١١) . ومسلم في كتاب صفات المنافقين ، باب البعث والنشور . (٢١٥/٤) ورقم الحديث : ٢٧٩٠ والسياق للبخاري .

(٣) فتح الباري : (٣٧٥/١١) .

(٤) المصدر السابق .

يضعه الناس دالا على الطرقات ، أو على قسمة الأراضي .

وقد جاءت نصوص كثيرة عن عدة من الصحابة تفيد معنى الحديث الذي سقناه هنا ورواه صاحبا الصحيح ، فقد أخرج عبد بن حميد والطبري في تفاسيرهم والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عمرو بن ميمون عن عبدالله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[1] الآية . قال : تبدل الأرض أرضا كأنها الفضة لم يسفك عليها دم حرام ، ولم يعمل عليها خطيئة ، ورجاله رجال الصحيح ، وهو موقوف ، وأخرجه البيهقي من وجه آخر مرفوع . وقال : الموقوف أصح[2] .

وأخرجه الطبري والحاكم من طريق عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود بلفظ « أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة » ورجاله موثقون أيضا[3] .

وعند عبد بن حميد من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة قال : بلغنا أن هذه الأرض يعني أرض الدنيا تطوى ، وإلى جنبها أخرى يحشر الناس منها إليها . وفي حديث الصور الطويل : « تبدَّل الأرض غير الأرض والسموات ، فيبسطها ويسطحها ، ويمدّها مدَّ الأديم العكاظي ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة ، فإذا هم في هذه الأرض المبدَّلة ، في مثل مواضعهم من الأولى ، ما كان في بطنها كان في بطنها ، وما كان على ظهرها كان على ظهرها[4] .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يبدَّل من الأرض إنما هو صفاتها فحسب ، فمن ذلك حديث عبدالله بن عمرو الموقوف عليه ، قال : « إذا كان يوم

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٨ .

(٢) فتح الباري : (١١/٣٧٥) .

(٣) فتح الباري : (١١/٣٧٥) .

(٤) فتح الباري : (١١/٣٧٥) .

القيامة مُدَّت الأرض مدّ الأديم ، وحشر الخلائق » . ومن ذلك حديث جابر رفعه : « تمدُّ الأرض مدّ الأديم ، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه ». ورجاله ثقات ، إلا أنه اختلف على الزهري في صحابيه[1] .

ومنها حديث ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[2] ، قال : « يزاد فيها ، وينقص منها ، ويذهب آكامها وجبالها ، وأوديتها ، وشجرها ، وتمدّ مدَّ الأديم العكاظى[3] » .

الوقت الذي تبدّل فيه الأرض غير الأرض والسموات

أفادنا الرسول ﷺ أن الوقت الذي يتم فيه هذا التبديل هو وقت مرور الناس على الصراط أو قبل ذلك بقليل ، ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾[4] ، فأين يكون الناس يا رسول الله ؟ فقال : على الصراط »[5] .

وفي صحيح مسلم أيضا عن ثوبان أن حَبْرَاً من أحبار اليهود سأل الرسول ﷺ فقال : أين يكون الناس يوم تبَدَّل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هم في الظلمة دون الجسر »[6] ، والمراد بالجسر الصراط .

---

(١) فتح الباري : (١١/٣٧٦) .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٨ .

(٣) فتح الباري (١١/٣٧٦) .

(٤) سورة ابراهيم : ٨٤ .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين ، باب البعث والنشور ، (٤/٢١٥٠) ورقمه (٢٧٩١) .

(٦) صحيح مسلم ، كتاب الحيض ، باب بيان صفة منى الرجل والمرأة ، (١/٢٥٢) ، ورقمه (٣١٥) .

الفصل الخامس
المكذبون بالبعث والأدلة على أنه كائن

المبحث الأول
المكذبون بالبعث والنشور

كذَّب كثير من الناس قديما وحديثا بالبعث والنشور ، وبعض الذين قالوا بإثباته صَوَّروُه على غير الصورة التي أخبرت بها الرسل .

وقد ذكر القرآن قول المكذبين وذمهم وكفرهم وتهدُّدهم وتوعدهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[2] .

وقال : ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[3] . والنصوص في ذلك كثيرة .

---

(١) سورة الرعد : ٥ .

(٢) سورة الأنعام : ٢٩ .

(٣) سورة الإسراء : ٤٩ ـ ٥١ .

وقد تعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لبيان أنواع المكذبين بالبعث والنشور من اليهود والنصارى والصابئة والفلاسفة ومنافقي هذه الأمة فقال :

« الذين كفروا من اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح في الجنة ، ويزعمون أن أهل الجنَّة إنَّما يتمتعون بالأصوات المطربة والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح ، وهم يقرُّون مع ذلك بِحشر الأجساد مع الأرواح ونعيمها وعذابها .

وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرون بحشر الأرواح فقط ، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط ، وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية ، فلا يقرّون لا بمعاد الأرواح ، ولا الأجساد ، وقد بيَّن الله تعالى في كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد ، ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك ، بيانا تاما غاية التمام والكمال .

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرُّون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرِّفون الكلام عن مواضعه ، ويقولون هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحاني ، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة ، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام ، وطائفة ممن ضاهوهم : من كاتب ، أو متطبب ، أو متكلم ، أو متصوف ، كأصحاب رسائل « إخوان الصفا » وغيرهم ، أو منافق ، وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان »[1] .

وذكر رحمه الله تعالى في موضع آخر « أن باطنية الفلاسفة يفسرون ما وعد

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٣١٣/٤ بتصرف يسير .

الناس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم ، لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها ، ويتألم بها[1] » .

وحقيقة قول هؤلاء أن الله لم يكن صادقا في إخباره عن حقائق مافي المعاد ، وكذلك رسوله ﷺ ، ولذلك سمى شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الصنف من المتفلسفة المخالف لما عليه المسلمون في أمر المعاد (بأهل التخييل) ، وقال فيهم : « فأهل التخييل » هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم ، من متكلم ومتصوف ومتفقه ، فإنهم يقولن : إن ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور ، لا أنه بينّ به الحق ، ولا هدى الخلق ، ولا أوضح الحقائق »[2]

ويمكننا أن نصنف المكذبين بالبعث والنشور إلى ثلاثة أصناف :

الأول : الملاحدة الذين أنكروا وجود الخالق ، ومن هؤلاء كثير من الفلاسفة الدهرية الطبائعية ، ومنهم الشيوعيون في عصرنا . وهؤلاء ينكرون صدور الخلق عن خالق ، فهم منكرون للنشأة الأولى والثانية ، ومنكرون لوجود الخالق أصلا .

ولا يحسن مناقشة هؤلاء في أمر المعاد ، بل يناقشون في وجود الخالق ووحدانيته أولا ثم يأتي إثبات المعاد بعد ذلك ، لأن الإيمان بالمعاد فرع الإيمان بالله .

الثاني : الذين يعترفون بوجودالخالق ، ولكنهم يكذبون بالبعث والنشور ، ومن هؤلاء العرب الذين قال الله فيهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(1) مجموع الفتاوي : ١٣/ ٢٣٨ .
(2) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٥/ ٣١ .

وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[1] وهم القائلون فيما حكاه الله عنهم : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2] .

وهؤلاء يدّعون أنهم يؤمنون بالله ، ولكنّهم يَدَّعون أن قدرة الله عاجزة عن إحيائهم بعد إماتتهم ، وهؤلاء هم الذين ضرب الله لهم الأمثال ، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور ، وأنه لا يعجزه شيء . ومن هؤلاء طائفة من اليهود يُسَمَّوْن بالصادوقيين ، يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بتوراة موسى ، وهم يُكَذِّبون بالبعث والنشور والجنة والنار .

الثالث : الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاءت بها الشرائع السماوية .

---

(١) سورة لقمان : ٢٥ .

(٢) سورة النمل : ٦٧ ـ ٦٨ .

المبحث الثاني
أدلة البعث والنشور

الإيمان بالمعاد دلَّ عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والقرآن كله من فاتحته إلى خاتمته مملوء بذكر أحوال اليوم الآخر ، وتفاصيل مافيه ، وتقرير ذلك بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد ، وكما ذكر القرآن الأدلة عليه ، رد على منكريه ، وبيّن كذبهم وافتراءهم .

والفطرة السليمة تدلُّ عليه وتهدي إليه ، ولا صحة لما يزعمه الضالون من أن العقول تنفي وقوع البعث والنشور ، فإنَّ العقول لا تمنع وقوعه ، والأنبياء لا يأتون بما تحيل العقول وقوعه ، وإن جاؤوا بما يحيِّر العقول ، ولذلك قال علماؤنا : الشرائع تأتي بمحارات العقول ، لا بمحالات العقول .

وسنذكر الأدلة المثبتة للبعث والنشور التي استخلصناها من الكتاب الكريم .

أولاً : إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة :

أعظم الأدلة الدالة على وقوع المعاد إخبار الحق تبارك وتعالى بذلك ، فمن آمن بالله ، وصدَّق برسوله الذي أرسل ، وكتابه الذي أنزل فلا مناص له من الإيمان بماأخبرنا به من البعث والنشور ، والجزاء والحساب ، والجنّة والنار .

وقد نوَّع الحقُّ تبارك وتعالى أساليب الإخبار ليكون أوقع في النفوس وآكد في القلوب .

١ ـ ففي بعض المواضع يخبرنا بوقوع ذلك اليوم إخباراً مؤكدا « بإن » ، أو « بإنَّ واللام » كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[1]. وقوله :﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[2] . وقوله : ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾[3] . وقوله : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾[4] .

٢ ـ وفي مواضع أخرى يقسم الله تعالى على وقوعه ومجيئه كقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[5] . ويقسم على تحقق ذلك بما شاء من مخلوقاته كقوله : ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[6]، وقوله:﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[7] .

٣ ـ وفي بعض المواضع يأمر رسوله بالإقسام على وقوع البعث وتحققه ، وذلك في معرض الردّ على المكذبين به المنكرين له ، كقوله : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[8]. وقوله : ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾[9] . وقوله:﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾[10].

٤ ـ وفي مواضع أخرى يذمُّ المكذبين بالمعاد ، كقوله : ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

---

(١) سورة طه : ١٥ .
(٢) سورة الحجر : ٨٥ .
(٣) سورة الأنعام : ١٣٤ .
(٤) سورة المرسلات : ٧ .
(٥) سورة النساء : ٨٦ .
(٦) سورة الذاريات : ١ ـ ٦ .
(٧) سورة الطور : ١ ـ ٨ .
(٨) سورة سبأ : ٣ .
(٩) سورة يونس : ٥٣ .
(١٠) سورة التغابن : ٧ .

بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾(1) . وقوله : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾(2) . وقوله : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾(3) .

٥ ـ وأحيانا يمدح المؤمنين بالمعاد ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾(4) . وقوله: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(5) . وقوله : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾(6) .

٦ ـ وأحيانا يخبر أنه وعد صادق ، وخبر لازم ، وأجل لا شك فيه ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾(7) . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾(8) ، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾(9) . ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾(10) .

---

(1) سورة يونس : ٤٥ .
(2) سورة الشورى : ١٨ .
(3) سورة النمل : ٦٦ .
(4) سورة آل عمران : ٧ ـ ٩ .
(5) سورة البقرة : ١ ـ ٥ .
(6) سورة البقرة : ١٧٧ .
(7) سورةهود : ١٠٣ .
(8) سورة لقمان : ٣١ .
(9) سورة سبأ ٢٩ ـ ٣٠ .
(10) سورة الزخرف : ٨٣ .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾[1] .

٧ ـ وفي بعض الأحيان يخبر عن مجيئه واقترابه كقوله ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾[2] وقوله ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[3] ، وقوله ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[4] .

٨ ـ وفي مواضع أخرى يمدح نفسه تبارك وتعالى بإعادة الخلق بعد موتهم ، ويذم الآلهة التي يعبدها المشركون بعدم قدرتها على الخلق وإعادته كقوله : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[5] . وقوله : ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[6] .

٩ ـ وبيّن في مواضع أخرى أن هذا الخلق وذاك البعث الذي يعجز العباد ويذهلهم سهل يسير عليه ، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[7] وقال : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[8] .

ثانياً : الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى :

استدلَّ القرآن على الخلق الثاني بالخلق الأول ، فنحن نشاهد في كلِّ يوم حياة جديدة تخلق : أطفال يولدون ، وطيور تخرج من بيضها ، وحيوانات تلدها

---

(١) سورة الذاريات : ٥ .
(٢) سورة المعارج : ٦ ـ ٧ .
(٣) سورة النحل : ١ .
(٤) سورةالقمر : ١ .
(٥) سورة الفرقان : ٣ .
(٦) سورة النمل : ٦٤ .
(٧) سورة لقمان : ٢٨ .
(٨) سورة القيامة : ٣ ـ ٤ .

أمهاتها ، وأسماك تملأ البحر والنهر ، يرى الإنسان ذلك كله بأم عينيه ، ثم ينكر أن يقع مثل ذلك مرةأخرى بعد أن يبيد الله هذه الحياة .

إن الذين يطلبون دليلا على البعث بعد الموت يغفلون عن أن خلقهم على هذا النحو أعظم دليل ، فالقادر على خلقهم ، قادر على إعادة خلقهم ، وقد أكثر القرآن من الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى ، وتذكير العباد المستبعدين لذلك بهذه الحقيقة ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾[١] .

ويذكرنا القرآن في موضع آخر بالخلق الأول للإنسان ، فأبونا آدم خلقه الله من تراب ، فالقادر على جعل التراب بشراً سويّاً ، لا يعجزه أن يعيده بشراً سويّا مرة أخرى بعد موته ، ويُذَكِّرُ أيضا بخلقنا نحن ـ ذرية آدم ـ فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين ، تحوّل هذا الماء فأصبح نطفة ، ثم صارت النطفة علقة ، ثم تحولت إلى مضغة . . . إلى أن نفخ فيها الروح ، وجعلها إنسانا سويّا . فالقادر على هذا الخلق المشاهد المعلوم ، قادر على إعادة الخلق ، وإحياء الموتى . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[٢] .

---

(١) سورة مريم : ٦٦ ـ ٦٧ .

(٢) سورة الحج : ٥ ـ ٧ .

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض ، والنظر في كيفية بدأ الخلق ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) .

وقال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢) .

ثالثا : القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه :

قبيح في نظر البشر أن يُرْمى بالعجز عن حمل الشيء الحقير مَنْ يستطيع حمل العظيم ، ومِثْله إذا غلب إنسان رجلا شديد البأس قويا لا يقال له : إنك لا تستطيع أن تصرع هذا الهزيل الضعيف ، ومن استطاع أن يبني قصرا لا يعجزه بناء بيت صغير .

ولله المثل الأعلى ، فإن من جملة خلقه ماهو أعظم من خلق الناس ، فكيف يقال للذي خلق السموات والأرض أنت لا تستطيع أن تخلق مادونها قال تعالى : ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾(٣) .

وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ

---

(١) سورة العنكبوت : ١٩ .

(٢) سورة الروم : ٢٧ .

(٣) سورة الإسراء : ٩٨ ـ ٩٩ .

مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1] . وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] . وقال : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[3] .

قال ابن تيمية بعد أن ساق هذه النصوص : « فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم ، والقدرة عليه أبلغ ـ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك »[4] .

وقال شارح الطحاوية : « أخبر تعالى أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما ، يحيى عظاما قد صارت رميا ، فيردها إلى حالتها الأولى »[5] .

رابعا : قدرته تبارك وتعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال :

الذين يكذبون بالبعث يرون هلاك العباد ، ثم فناءَهم في التراب ، فيظنون أن إعادتهم بعد ذلك مستحيلة ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[6] . والمراد بالضلال في الأرض تحلل أجسادهم ، ثم اختلاطها بتراب الأرض ، تقول : ضلَّ السمن في الطعام إذا ذاب وانماع فيه .

(١) سورة يس : ٨١ .
(٢) سورة الأحقاف : ٣٣ .
(٣) سورة غافر : ٥٧ .
(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٣/٢٩٩ .
(٥) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٤٦١ .
(٦) سورة السجدة : ١٠ .

وقد بين الحق تبارك و تعالىٰ في أكثر من موضع أن من تمام ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال ، ولذا فإنه يميت ويحيي ، ويخلق ويفني ، ويخرج الحي من الميت ، والميت من الحي ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾(١) . من الحبة الجامدة الصماء يُخْرِج نبتة غضّة خضراء تزهر وتثمر ، ثم تعطي هذه النبتة الحيّة حبوبا جامدة ميتة ، ومن الطيور الحيّة يخرج البيض الميت ، ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المغردة التي تنطلق في أجواز الفضاء .

إن تقليب العباد : موت فحياة ، ثم موت فحياة ، دليل عظيم على قدرة الله تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٢) .

الأدلة الثلاثة الأخيرة في موضع واحد في كتاب الله :

وقد ذكر الحق تبارك وتعالى الأدلة الثلاثة السابقة في موضع واحد في كتابه في معرض الرد على مكذبي البعث فقال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الأنعام : ٩٥ ـ ٩٦ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨ .

(٣) سورة يس : ٧٨ ـ ٨٣ .

والذي ضرب المثل أحد ملاحدة العرب ، وكتب السنة تذكر أن هذا الكافر الملحد جاء بعظم بالي ، ثم فتّه ، ثم نفخه ، ثم قال للرسول ﷺ : « يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ » . فأنزل الحق تبارك وتعالى هذه الآيات معيِّراهذا الكافر بجهله وضلاله ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾(1) ، فإنه لو كان لبيبا عاقلا لم يسأل هذا السؤال ، لأن وجوده وخلقه في هذه الحياة يجيب على السؤال ، وقد وضّح النص هذا المعنى الذي أجمله في البداية فقال : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾(2) .

١ ـ « فاحتج بالإبداء على الإعادة ، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى ، إذ كل عاقل يعلم ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه . وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز .
ولما كان الخلق يَستَلزم قدرةالخالق على المخلوق ، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾(3) . فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ، ومواده وصورته ، فكذلك الثاني ، فإذا كان تام العلم ، كامل القدرة ، كيف يتعذر عليه أن يحيي العَظْم وهي رميم ؟ »(4) .

٢ ـ « ثمَّ أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر ، يتضمن جوابا عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة ، والحياة لابدَّ أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث ، ففيه الدليل والجواب معا ، فقال : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا

---

(1) سورة يس : ٧٨ .
(2) سورة يس : ٧٩ .
(3) سورة يس : ٧٩ .
(4) شرح العقيدة الطحاوية : ص :٤٦ .

﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[1] فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر ، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة ، فالذي يخرج الشيء من ضدّه ، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا يستعصي عليه ، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه ، من إحياء العظام وهي رميم .

٣ ــ ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم ، على الأيسر الأصغر ، فإن كل عاقل يعلم أنَّ من قدر على العظيم الجليل فهو قادر على ما دونه بكثير أقدرُ وأقدرُ ، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل وقية أشدُّ اقتدارا ، فقال : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾[2] فأخبر أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتها ، وعظم شأنها ، وكبر أجسامها ، وسعتها ، وعجيب خلقها ، أقدر عليه أن يحيي عظاما قد صارت رميا ، فيردّها إلى حالتها الأولى »[3] .

٤ ــ ثم أكدَّ تبارك وتعالى ذلك وبينه ببيان آخر ، وهو أن فعله ليس بمنزلة غيره ، الذي يفعل بالآلات والكلفة ، والنصب والمشقة ، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل ، بل لابدَّ معه من آلة ومعين ، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكوِّنه نفس إرادته ، وقوله للمكوَّن : (كُنْ) ، فإذا هو كائن كما شاءَه وأراده ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[4]. ثم ختم هذه الحجّة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده ، فيتصرف فيه بفعله وقوله ، ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[5][6] .

---

(١) سورة يس : ٨٠ .
(٢) سورة يس : ٨١ .
(٣) شرح العقيدة الطحاوية : ٤٦٠ .
(٤) سورة يس : ٨٢ .
(٥) سورة يس : ٨٣ .
(٦) راجع شرح العقيدة الطحاوية : ص ٤٦١ .

خامسا : إحياء بعض الأموات في هذه الحياة :

شاهد بعض البشر في فترات مختلفة من التاريخ عودة الحياة إلى الجثث الهامدة ، والعظام البالية ، بل شاهدوا الحياة تدب في بعض الجماد ، وقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن شيء من هذه المعجزات الباهرة ، فمن ذلك أن قوم موسى قالوا له : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾(١) فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، ثم بعثهم بعد موتهم ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢) .

وقتل بنو إسرائيل قتيلا واتهم كل قبيل القبيل الآخر بقتله ، فأمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة ، فذبحوها بعد أن تعنتوا في طلب صفاتها ، ثم أمرهم نبيهم بعد ذبحها أن يضربوا القتيل بجزء منها ، فأحياه الله وهم ينظرون ، فأخبر عمن قتله ، ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٣) .

وأخبرنا عن الذين فرُّوا من ديارهم وهم ألوف خشية الموت ، فأماتهم الله ثم أحياهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾(٤)

وحدثنا عن الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، فتعجب من إحياء الله لها بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، فلما سئل كم لبثت ظنَّ أنه لم يلبث إلا يوما أو بعض يوم ، وبعد إحيائه أحيا الله له حماره وهو ينظر إلى قدرة الله كيف

---

(١) سورة البقرة : ٥٥ .

(٢) سورة البقرة : ٥٥ ـ ٥٦ .

(٣) سورة البقرة : ٧٣ .

(٤) سورة البقرة : ٢٤٣ .

تعيد الخلق : العظام تتشكل وتتكون أولا ثم تكسى باللحم ، ثم تنفخ الروح ، أما طعامه الذي كان معه قبل أن يموت فقد بقي تلك الأزمان الطويلة سليما ، لم يفسد ، ولم يتعفن ، وتلك آية أخرى تدل على قدرة الله الباهرة : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(1) .

وإبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، فكان هذا المشهد الذي حدثنا الحق تبارك وتعالى عنه ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(2) .

أمره الله أن يأخذ أربعة من الطيور فيذبحها ، ثم يفرق أجزاءها على عدة جبال ، ثم ناداها آمرا إياها بالاجتماع ، فكان كل عضو يأتي ويقع في مكانه ، فلما تكامل اجتماعها نفخ الله فيها الروح ، وانطلقت محلقة في الفضاء .

وعيسى عليه السلام كان يصنع من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وكان يحيي الموتى بإذن الله ، فقد قال لقومه : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾(3)

(1) سورة البقرة : ٢٥٩ .

(2) سورة البقرة : ٢٦٠ .

(3) سورة آل عمران : ٤٩ .

وأصحاب الكهف ضرب الله على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة ، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾[1] ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾[2] . ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾[3] .

وكانت آية موسى الكبرى عصا جامدة يلقيها على الأرض فتتحول ـ بقدرة الله ـ إلى ثعبان مبين ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[4] ، وعندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ألقى موسى عصاه فإذا هي تبتلع تلك العصي والحبال على كثرتها ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾[5] .

سادسا : ضربه المثل بإحياء الأرض بالنبات

وقد ضرب الله المثل لإعادة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية بإحيائه الأرض بعد موتها بالنبات ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[6]. وقال : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾[7] وقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[8]. وقال : ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[9] .

---

(١) سورة الكهف : ١٢ .
(٢) سورة الكهف : ١٩ .
(٣) سورة الكهف : ٢٥ .
(٤) سورة الشعراء : ٣٢ .
(٥) سورة الشعراء : ٤٥ .
(٦) سورة الروم : ٥٠ .
(٧) سورة فاطر : ٩ .
(٨) سورة فصلت : ٣٩ .
(٩) سورة الزخرف : ١١ .

سابعاً : حكمة الله تقتضي بعث العباد للجزاء والحساب :

تقتضي حكمة الله وعدله أن يبعث الله عباده ليجزيهم بما قدموا ، فالله خلق الخلق لعبادته ، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الطريق الذي يعبدونه به ، فمن العباد من استقام على طاعة الله ، وبذل نفسه وماله في سبيل ذلك . ومنهم من رفض الاستقامة على طاعة الله ، وطغى وبغى ، أفيليق بعد ذلك أن يموت الصالح والطالح ولا يجزي الله المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾[١] .

إن الكفرة الضالين هم الذين يظنون أن الكون خلق عبثا وباطلا لا لحكمة ، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح والكافر المفسد ، ولا بين مصير التقي والفاجر . ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[٢] .

---

(١) سورة نون : ٣٥ ـ ٣٨ .

(٢) سورة ص ٢٧ ـ ٢٨ .

الفصل السادس

القيامة عند الأنبياء وفي كتب أهل الكتاب

المبحث الأول

اتفاق جميع الأنبياء على الإخبار بالمعاد

الإيمان بالقيامة والجنةوالنار من أصول الإيمان التي يشترك الأنبياء جميعا وأتباعُهم الصادقون في معرفتها والإيمان بها ، والقرآن وهو كتاب الله المحفوظ الذي لم يغيَّر ولم يبدَّل يدلُّ دلالة قاطعة على أن الأنبياء جميعا عرَّفوا أممهم بالقيامة ، وبَشرُّوهم بالجنة ، وأنذروهم النار ، ويدلُّ على ذلك أمور :

١ ـ أخبر القرآن عن جميع الأشقياء الكفار أهل النار أنهم يقرُّون بأن رسلهم أنذرتهم باليوم الآخر . ﴿ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(١) . وقال : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾(٢) .

فالكفار جميعا عندما يسألون عند ورودهم النار يقرون بأن رسلهم خوفتهم لقاء ذلك اليوم ، ولكنهم كفروا وكذبوا .

---

(١) سورة الملك : ٨ ـ ١٠ .

(٢) سورة الزمر : ٧١ .

وهذا الذي قررته الآيات السابقة بينه الله في غير موضع من كتابه ، فقد أخبر الحق تبارك وتعالى أن مقتضى عدله وحكمته أن لا يعذب أحدا لم تبلغه الرسالة ولم تقم عليه الحجة ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾(١) . ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾(٢) . من أجل ذلك عمت الرسالة كل البشر ، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(٣) .

٢ ـ عندما أهبط الله آدم إلى الأرض عرفه بالبعث والمعاد ، ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾(٤) .

وعندما غضب الله على إبليس وطرده من رحمته طلب الإمهال إلى يوم البعث فأجاب الحق طلبه ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾(٥) .

٣ ـ وأول الرسل نوح عليه السلام حذر قومه يوم القيامة ، وضرب لهم الأمثال الدالة على وقوعه وحدوثه ، فقد قال لقومه : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾(٦) .

٤ ـ وأبو الأنبياء خليل الرحمن ذكر اليوم الآخر كثيرا ، ففي دعائه ربه لمكة وأهلها قال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم

(١) سورة الإسراء : ١٥ .
(٢) سورة النساء : ١٦٥ .
(٣) سورة فاطر : ٢٤ .
(٤) سورة الأعراف : ٢٤ ـ ٢٥ .
(٥) سورة ص : ٧٩ ـ ٨١ .
(٦) سورة نوح : ١٧ ـ ١٨ .

﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1] .

وفي دعائه لنفسه وأبيه والمؤمنين قال : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[2] .

وفي محاجته قومه فيما يعبدون بين أحقية ربه بالعبادة ، لأنه يطعم ويسقي ، ويميت ويحيي ، ويشفي المرضى ، ويغفر الذنوب في يوم الدين ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[3]، ثم دعا ربه سائلا إياه دخول الجنة ، وأن لا يخزيه في يوم الدين ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[4] .

٥ ـ وجاء في مناجاة الله لموسى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾[5] .

وجاء في محاورة موسى لفرعون ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[6] .

٦ ـ وهود أنذر قومه وخوفهم لقاء ربهم فكذبوا ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) سورة البقرة : ١٢٦ .
(٢) سورة إبراهيم : ٥١ .
(٣) سورة الشعراء : ٧٩ ـ ٨٢ .
(٤) سورة الشعراء : ٨٥ ـ ٨٩ .
(٥) سورة طه : ١٤ ـ ١٦ .
(٦) سورة طه : ٥٥ .

﴿ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[1] .

٧ ـ وشعيب قال لقومه : ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[2] .

٨ ـ وجاء في دعاء يوسف ربّه : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[3] .

٩ ـ وبعض أتباع الرسل الذين حكى الله مقالتهم في كتابه يعرفون البعث والنشور ، ويبشرون بالجنة ، ويحذرون من النار ، فذو القرنين عندما بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ، ووجد عندها قوما ، فقال الله له : ﴿ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾[4] .

ومؤمن آل فرعون كان موقنا بالبعث عارفاً به ، ولا تختلف معرفته به عن معرفتنا ، وقد حذر قومه من ذلك اليوم تحذيرا فيه تفصيل وبيان ، ومما قاله

---

(١) سورة المؤمنون : ٣٣ ـ ٣٧ .

(٢) سورة العنكبوت : ٣٦ .

(٣) سورة يوسف : ١٠١ .

(٤) سورة الكهف : ٨٦ ـ ٨٨ .

لهم : ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾(١) .

وقال أيضا : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾(٢) .

وقال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾(٣) .

وسحرة فرعون عندما رأوا الآية الباهرة التي جاء بها موسى خرّوا ساجدين ، وسبحوا مؤمنين ، فتهددهم فرعون بالعذاب الأليم ، فاعتصموا بالله ربهم ، ولم يلتفتوا إلى تهديد أو وعيد ، وأجابوا قائلين : ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾(٤) .

---

(١) سورة المؤمن : ٣٢ ـ ٣٣ .

(٢) سورة المؤمن : ٣٩ ـ ٤١ .

(٣) سورة المؤمن : ٤٣ .

(٤) سورة طه : ٧٣ ـ ٧٦ .

المبحث الثاني
نظرة في نصوص اليوم الآخر في كتب أهل الكتاب

لا شك أن الكتب السماوية التي أنزلها الحق تبارك وتعالى كانت تزخر نصوصها بذكر اليوم الآخر ، والتخويف منه ، والتبشير بما أعده الله للمؤمنين به في جنات النعيم ، والتحذير من النار وأهوال القيامة ، إلا أن هذه الكتب طرأ عليها تحريف كثير ، وذهب كثير من نصوصها التي تتعرض لليوم الآخر .

١ ــ ففي التوراة التي تنسب إلى موسى لا نجد إلا نصا واحدا يصرح بيوم القيامة ، وهو في التوراة السامرية صريح للغاية ، ولكنه في التوراة العبرية يحتمل معنيين ، ففي سفر تثنية الاشتراع ، الإصحاح الثاني والثلاثون ؛ (٣٤ ـ ٣٥) من التوراة السامرية : « أليس هو مجموعا عندي مختوما في خزائني ، إلى يوم الانتقام والمكافأة ، وقت تزل أقدامهم » .

وجاء النص في التوراة العبرانية هكذا : « أليس ذلك مكنوزا عندي مختوما عليه في خزائني ، لي النقمةوالجزاء في وقت تزل أقدامهم » .

فنص السامرية يدل على أن الفصل إنما يكون في يوم القيامة الذي سماه يوم الانتقام والمكافأة . أما نص العبرانية فإنه يجيز أن يكون الانتقام في الدنيا ، ويجيز أن يكون في الآخرة ، ولذلك فإن الصادوقيين من اليهود الذين لا يؤمنون إلا بتوراة موسى العبرية لا يؤمنون بالبعث والنشور ، لعدم وجود دلالة تدل على البعث والنشور .

أما أسفار الأنبياء الأخرى في التوراة ففيها بعض النصوص التي تصرح بالبعث والنشور ، وكذلك الأناجيل .

٢ ـ ففي سفر دانيال : « كثيرون من الراقدين تحت التراب يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، والازدراء الأبدي »[١] .

٣ ـ وفي سفر المزامير يذكر الحشر إلى النار فيقول : « مثل الغنم إلى النار يساقون ، الموت يرعاهم ، ويسودهم المستقيمون غداة ، وصورتهم تبلى ، والهاوية مسكن لهم »[٢] .

٤ ـ وفي إنجيل لوقا إشارة إلى عذاب القبر ، فقد جاء فيه : « ومات الغني ودفن ، فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب »[٣] . فالمقبور من أهل الفجور يكون في العذاب ويرى مقعده من النار ، والهاوية هي النار .

٥ ـ وفي إنجيل متى « فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان »[٤] .

ومن أكثر الكتب التي تحدثت عن الجنة والنار إنجيل برنابا ، فقد تحدث عن أهل الجنة ، وأنهم يأكلون ويشربون ، ولكنهم لا يتبولون ولا يتغوطون ، لأن

---

(١) الاصحاح ١٢ من سفر دانيال .
(٢) الفقرة ٥ من المزمور الخامس والخمسين .
(٣) الفقرة ٢٢ من الاصحاح السادس من انجيل لوقا .
(٤) الفقرة ٨ من الاصحاح الثامن عشر من إنجيل متى .

طعامهم وشرابهم ليس فيه خبث ولا فساد ، ولكن النصارى يكذبون بهذا الإنجيل الذي ظهر أخيرا في عصرنا هذا .

وبعض اليهود يؤمنون بالبعث والنشور وهؤلاء يسمون بحزب الكتبة ، والحزب ا لآخر وهم « الصادوقيون » لا يؤمنون بالبعث والخلود في الجنة أو النار . وقد ذكر إنجيل « مَتَّى » أن الطائفة المكذِّبة بالقيامة جاؤوا إلى عيسى وجادلوه في القيامة : « في ذلك اليوم جاء إليه صادوقيون ، الذين يقولون لا قيامة »[1] وأجاب عيسى عن سؤال أحد تلامذته القائل : « أيذهب جسدنا الذي لنا إلى الجنة ؟ » فقال له عيسى عليه السلام : « احذر يا بطرس من أن تصير صدوقيا ، فإن الصدوقيين يقولون : أن الجسد لا يقوم أيضا ، وأنه لا توجد ملائكة ، لذلك حرم على جسدهم وروحهم الدخول في الجنة » .

والنصارى يعتقدون أن الذي ينعم أو يعذب في القيامة هو الروح فحسب ، وقال بقولهم بعض الذين ينتسبون إلى الإسلام من الفلاسفة والفرق الباطنية الضالة .

---

(١) فقرة ٢٣ من الاصحاح ٢٢ من إنجيل متى .

الفصل السابع
أهوال يوم القيامة

المبحث الأول
الدلائل على عظم أهوال ذلك اليوم

يوم القيامة يوم عظيم أمره ، شديد هوله ، لا يلاقي العباد مثله ، ويدل على عظم هوله أمور :

الأول : وصف الله لذلك اليوم بالعظم ، وحسبنا أن ربنا وصفه بذلك ، ليكون أعظم مما نتصور، وأكبر مما نتخيل ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] ، ووصفه في موضع آخر بالثقل ، وفي موضع ثالث بالعسر ، ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾[2] ، ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[3] .

الثاني : الرعب والفزع الذي يصيب العباد في ذلك اليوم ، فالمرضع التي تفدي وليدها بنفسها تذهل عنه في ذلك اليوم والحامل تسقط حملها ، والناس يكون حالهم كحال السكارى الذين فقدوا عقولهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ

(١) سورة المطففين : ٤ ـ ٦ .

(٢) سورة الدهر : ٢٧ .

(٣) سورة الإنسان : ٢٧ . .

شَدِيدٌ ﴾[1] . ولشدة الهول تشخص أبصار الظلمة في ذلك اليوم ، فلا تطرف لشدة الرعب ، ولا يلتفتون يمينا ولا شمالا ، ولشدَّة الخوف تصبح أفئدتهم خالية لا تعي شيئا ولا تعقل شيئا ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[2] .

وترتفع قلوب الظالمين لشدة الهول إلى حناجرهم ، فلا تخرج ، ولا تستقر في مكانها ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾[3] . ومعنى كاظمين : أي ساكتين لا يتكلمون .

ووصف في موضع آخر ما يصيب القلوب والأبصار في ذلك اليوم فقال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[4]، وقال :﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾[5] .

وحسبك أن تعلم أن الوليد الذي لم يرتكب جرما يشيب شعر رأسه لشدة ما يرى من أهوال : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾[6] .

الثالث : انقطاع علائق الأنساب في يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[7] ، فكل إنسان في ذلك

---

(١) سورة الحج : ١ ـ ٢ .
(٢) سورة إبراهيم : ٤٢ ـ ٤٣ .
(٣) سورة غافر : ١٨ .
(٤) سورة النور : ٣٧ .
(٥) سورة النازعات : ٨ .
(٦) سورة المزمل : ١٧ ـ ١٨ .
(٧) سورة المؤمنون : ١٠١ .

اليوم يهتم بنفسه ، ولا يلتفت إلى غيره ، بل إن الإنسان يفر من أحب الناس إليه ، يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾(١) .

وقال في موضع آخر : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾(٢) . وقال : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(٣) .

الرابع : استعداد الكفار في يوم الدين لبذل كل شيء في سبيل الخلاص من العذاب ، فلو كانوا يملكون مافي الأرض لافتدوا به ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾(٤) ، بل لو كان للكافر ضعف مافي الأرض لافتدى به ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾(٥) ، بل هو على استعداد أن يبذل ما عنده ولو كان ملء الأرض ذهبا ، وعلى احتمال أن كان الأمر كذلك ، فإن الله لا يقبل منه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾(٦) .

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كان

---

(١) سورة عبس : ٣٣ .
(٢) سورة لقمان : ٣٣ .
(٣) سورة البقرة : ٤٨ .
(٤) سورة يونس : ٥٤ .
(٥) سورة الرعد : ١٧ .
(٦) سورة آل عمران : ٩١ .

يقول : « يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم . فيقال له : قد كنت سألتك ماهو أيسر من ذلك »[1] .

ويصل الحال بالكافر في ذلك اليوم أن يتمنى لو دفع بأعز الناس عنده في النار لينجو هو من العذاب ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾[2] .

الخامس : ويدلك على هول ذلك اليوم وشدته : طوله ، قال تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾[3] .

وسياق الآيات يدل دلالة واضحة على أن المراد به يوم القيامة ، وقد ثبت بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه يوم القيامة ، وبذلك قال الحسن ، والضحاك ، وابن زيد[4] . ولطول ذلك اليوم يظن الناس في يوم المعاد أنهم لم يلبثوا في الحياة الدنيا إلا ساعة من نهار، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾[5] ، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : « يقول تعالى مذكرا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ .. ﴾

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب ، فتح الباري : (١١/٤٠٠) .
(٢) سورة المعارج : ١١ ـ ١٥ .
(٣) سورة المعارج : ٤ ـ ٧ .
(٤) النهاية لابن كثير : (١/٣٢٣) .
(٥) سورة يونس : ٤٥ .

كقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾[(١)] ! وقال تعالى : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾[(٢)] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[(٣)] ، وهذا دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة ، كقوله : ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[(٤)(٥)] » .

---

(١) سورة النازعات : ٤٦ .

(٢) سورة طه : ١٠٤ .

(٣) سورة الروم : ٥٥ .

(٤) سورة المؤمنون : ١١٢ .

(٥) تفسير ابن كثير (٣/٥٠٥) .

المبحث الثاني
بعض معالم أهوال القيامة

يحدثنا القرآن عن أهوال ذلك اليوم التي تَشْدَه الناس ، وتشدُّ أبصارهم ، وتملك عليهم نفوسهم ، وتزلزل قلوبهم .

ومن أعظم تلك الأهوال ذلك الدمار الكوني الشامل الرهيب الذي يصيب الأرض وجبالها ، والسماء ونجومها وشمسها وقمرها .

يحدثنا ربنا أن الأرض تزلزل وتدكُّ ، وأن الجبال تُسَيَّر وتنسف ، والبحار تُفَجَّر وتُسجَّر ، والسماء تتشقق وتمور ، والشمس تُكوّر وتذهب ، والقمر يخسف ، والنجوم تنكدر ويذهب ضوؤها ، وينفرط عقدها .

وسأذكر بعض النصوص التي تصور وقائع تلك الأهوال ثم أذكر ما يحدث لكل واحد من العوالم العظيمة في ذلك اليوم .

المطلب الأول
قبض الأرض وطي السماء

يقبض الحق تبارك وتعالى الأرض بيده في يوم القيامة ، ويطوي السموات بيمينه ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

وقد أخبرنا في موضع آخر عن كيفية طيه للسموات فقال : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾[2] .

قال ابن كثير : « والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة ، قاله علي بن أبي طلحة ، والعوفي عنه ، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، واختاره ، ابن جرير ، لأنه المعروف في اللغة ، فعلى هذا فيكون معنى الكلام يوم تطوى السماء كطي السجل للكتاب ، أي على الكتاب ، بمعنى المكتوب »[3] .

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة دالة على مثل ما دلت عليه النصوص القرآنية ، ومبينة فائدة أخرى ، وهي ما يقوله الحق تبارك وتعالى بعد قبضه الأرض وطيه السماء ، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض »[4] .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوي الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرض بشماله ـ وفي رواية : يأخذهن بيده الأخرى ـ ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ »[5] .

---

(١) سورة الزمر : ٦٧ .
(٢) سورة الأنبياء : ١٠٤ .
(٣) تفسير ابن كثير : ٦٠٢/٤ .
(٤) مشكاة المصابيح : (٥٣/٣) ، ورقمه : ٥٥٢٢ .
(٥) مشكاة المصابيح (٥٣/٣) ورقمه : ٥٥٢٣ .

وروى البخاري عن عبدالله بن مسعود أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والخلائق على إصبع ثم يقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ ، حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1][2] » .

وهذا القبض للأرض والطي للسموات يقع بعد أن يفني الله خلقه ، وقيل إن المنادي ينادي بعد حشر الخلق على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله عليها ، واختاره أبو جعفر النحاس ، قال : والقول صحيح عن ابن مسعود ، وليس هو مما يؤخذ بالقياس ، ولا بتأويل .

وقال القرطبي : « والقول الأول أظهر ، لأن المقصود إظهار انفراده بالملك ، عند انقطاع دعوى المدعين ، وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ، وكل جبار ومتكبر وملكه ، وانقطعت نسبهم ودعاويهم ، وهذا أظهر »[3] .

المطلب الثاني
دك الأرض ونسف الجبال

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن أرضنا الثابتة ، وما عليها من جبال صم راسية تحمل في يوم القيامة عندما ينفخ في الصور فتدك دكة واحدة ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ

(١) سورة الزمر : ٦٧ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ، فتح الباري : (٣٩٣/١٣) .

(٣) تذكرة القرطبي : ١٧٢ .

نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾(١) ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾(٢) ، وعند ذلك تتحول هذه الجبال الصلبة القاسية إلى رمل ناعم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾(٣) ، أي تصبح ككثبان الرمل بعد أن كانت حجارة صماء ، والرمل المهيل : هو الذي إذا أخذت منه شيئا تبعك ما بعده ، يقال : أهلت الرمل أهيله هيلا ، إذا حركت أسفله حتى انهال من أعلاه .

وأخبر في موضع آخر أن الجبال تصبح كالعهن ، والعهن هو الصوف ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾(٤) ، وفي نص آخر مثّلها بالصوف المنفوش ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾(٥) .

ثم إن الحق تبارك وتعالى يزيل هذه الجبال عن مواضعها ، ويسوي الأرض حتى لا يكون فيها موضع مرتفع ، ولا منخفض ، وعبر القرآن عن إزالة الجبال بتسييرها مرة، وبنسفها أخرى ، ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾(٦) ، ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾(٧) . وقال في نسفه لها : ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾(٨) . ثم بين الحق حال الأرض بعد تسيير الجبال ونسفها ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾(٩) أي ظاهرة لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾(١٠) .

---

(١) سورة الحاقة : ١٣ ـ ١٦ .
(٢) سورة الفجر : ٢١ .
(٣) سورة المزمل : ١٤ .
(٤) سورة المعارج : ٨ .
(٥) سورة القارعة : ٥ .
(٦) سورة التكوير : ٣ .
(٧) سورة النبأ : ٢٠ .
(٨) سورة المرسلات : ١٠ .
(٩) سورة الكهف : ٤٨ .
(١٠) سورة طه : ١٠٥ ـ ١٠٧ .

المطلب الثالث
تفجير البحار وتسجيرها

أما هذه البحار التي تغطي الجزء الأعظم من أرضنا ، وتعيش في باطنها عوالم هائلة من الأحياء ، وتتهادى فوقها السفن ذاهبة آيبة ، فإنها تفجّر في ذلك اليوم ، وقد علمنا في هذا العصر الهول العظيم الذي يحدثه انفجار الذرات الصغيرة التي هي أصغر من ذرات الماء فكيف إذا فجرت ذرات المياه في هذه البحار العظيمة ، عند ذلك تسجر البحار ، وتشتعل نارا ، ولك أن تتصور هذه البحار العظيمة الهائلة وقد أصبحت مادة قابلة للاشتعال ، كيف يكون منظرها ، واللهب يرتفع منها إلى أجواز الفضاء ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾[١] ، وقال : ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[٢] .

وقد ذهب المفسرون قديما إلى أن المراد بتفجير البحار ، تشقق جوانبها وزوال ما بينها من الحواجز ، واختلاط الماء العذب بالماء المالح ، حتى تصير بحرا واحدا[٣] ، وما ذكرناه أوضح وأقرب ، فإن التفجير بالمعنى الذي ذكرناه مناسب للتسجير ، والله أعلم بالصواب .

المطلب الرابع
موران السماء وانفطارها

أما سماؤنا الجميلة الزرقاء التي ننظر إليها فتنشرح صدورنا ، وتسر قلوبنا ، فإنها تمور مورانا ، وتضطرب اضطرابا عظيما ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾[٤] .

---

(١) سورة الانفطار : ٣ .
(٢) سورة التكوير : ٧ .
(٣) تفسير الألوسي : (٣٠/٦٣) .
(٤) سورة الطور : ٩ .

ثم إنها تنفطر ، وتتشقق ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾[1] ، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[2] .

وعند ذلك تصبح ضعيفة واهية ، كالقصر العظيم ، المتين البنيان ، الراسخ الأركان ، عندما تصيبه الزلازل ، تراه بعد القوة أصبح واهيا ضعيفا متشققا ، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[3] .

أمّا لون السماء الأزرق الجميل فإنه يزول ويذهب ، وتأخذ السماء في التلون في ذلك اليوم كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء ، وتارة صفراء ، وأخرى خضراء ، ورابعة زرقاء ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾[4] ، وقد نقل عن ابن عباس أن السماء تكون في ذلك اليوم كالْفَرَسِ الْوَرْدِ ، والفرس الورد - كما يقول البغوي - تكون في الربيع صفراء ، وفي الشتاء حمراء ، فإذا اشتد البرد تغير لونها ، وقال الحسن البصري في قوله : (وردة كالدهان) أي تكون ألوانا[5] .

المطلب الخامس
تكوير الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم

أماهذه الشمس التي نراها تشرق كل صباح ، فتغمر أرضنا بالضياء ، وتمدنا بالنور والطاقة التي لا غنى عنها لأبصارنا وأبداننا ، وما يدب على الأرض من

---

(١) سورة الانفطار : ١ .
(٢) سورة الانشقاق : ١ - ٢ .
(٣) سورة الحاقة : ١٦ .
(٤) سورة الرحمن : ٣٧ .
(٥) تفسير ابن كثير (٦/٤٩٤)

أحياء ، وما ينمو فيها من نبات ، فإنها تجمع وتكوَّر ، ويذهب ضوؤها ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[1] ، والتكوير عند العرب : جمع الشيء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة ، وجمع الثياب بعضها على بعض ، وإذا جمع بعض الشمس على بعض ، ذهب ضوؤها ورمى بها .

أما القمر الذي نراه في أول كل شهر هلالا ،ثم يتكامل ويتنامى ،حتى يصبح بدرا جميلا بديعا ، يتغنى بجماله الشعراء ، ويؤنس المسافرين حين يسيرون في الليل، فإنه يخسف ويذهب ضوؤه، ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾[2] .

أما تلك النجوم المتناثرة في القبة السماوية الزرقاء ، فإن عقدها ينفرط ، فتتناثر وتنكدر ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾[3] ، ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾[4] ، والانكدار : الانتثار ، وأصله في لغة العرب : الانصباب[5] .

المطلب السادس
تفسير القرطبي للنصوص الواصفة لأهوال يوم القيامة

قال القرطبي : « روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[6] ، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾[7]، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[8] » .

---

(١) سورة التكوير : ١ .
(٢) سورة القيامة : ٧ ـ ٨ .
(٣) سورة الانفطار : ٢ .
(٤) سورة التكوير : ٢ .
(٥) تفسير ابن كثير : (٧/٢٢١) .
(٦) سورة التكوير : ١ .
(٧) سورة الانفطار : ١ .
(٨) سورة الانشقاق : ١ .

قال : هذا حديث حسن (١) .

وإنما كانت هذ السور الثلاث أخص بالقيامة ، لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها ، وتكور شمسها وانكدار نجومها ، وتناثر كواكبها ، إلى غير ذلك من أفزاعها وأهوالها ، وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم ، بعد نشر صحفهم ، وقراءة كتبهم ، وأخذها بأيمانهم وشمائلهم ، أو من وراء ظهورهم في موقفهم على ما يأتي بيانه .

قال الله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾(٢). وقال : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾(٣) . وقال : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ ﴾(٤) ، فتراها واهية منفطرة متشققة ، كقوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾(٥) ، ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض ، وقيل إن الباء بمعنى عن ، أي تشقق عن سحاب أبيض . ويقال : انشقاقها لما يخلص إليها من حر جهنم ، وذلك إذا بطلت المياه ، وبرزت النيران ، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن ، وتتشقق لما يريد الله من نقض هذا العالم ، ورفعه . وقد قيل : إن السماء تتلون ، فتصفر ، ثم تحمر ، أو تحمر ، ثم تصفر ، كالمهرة تميل في الربيع إلى الصفرة ، فإذا اشتد الحر مالت إلى الحمرة ، ثم إلى الغبرة . قاله الحليمي .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾(٦) قال ابن عباس رضي الله عنه

---

(١) حديث صحيح رواه الترمذي والحاكم وأحمد ، انظر صحيح الجامع : (٣٠١/٣) ورقم الحديث : ٦١٩١ .

(٢) سورة الانشقاق : ١ .

(٣) سورة الانفطار : ١ .

(٤) سورة الفرقان : ٢٥ .

(٥) سورة النبأ : ١٩ .

(٦) سور التكوير : ١ .

تكويرها إدخالها في العرش . وقيل : ذهاب صفوها ، قاله الحسن وقتادة ، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد . وقال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة ، تلف فتمحى . وقال الربيع بن خيثم : كورت رمي بها ، ومنه : كورته ، فتكور . أي سقط . قلت : وأصل التكوير الجمع ، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها ، أي لاثها ، وجمعها ، فهي تكور ، ثم يمحو ضوءها ثم يرمى بها والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾(١) أي انتشرت ، قيل : تتناثر من أيدي الملائكة ، لأنهم يموتون ، وفي الخبر أنها معلقة بين السماء والأرض بسلاسل بأيدي الملائكة . وقال ابن عباس رضي الله عنه : انكدرت تغيرت ، وأصل الانكدار الانصباب ، فتسقط في البحار ، فتصير معها نيرانا ، إذا ذهبت المياه .

وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾(٢) هو مثل قوله ﴿يَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾(٣) أي تحول عن منزلة الحجارة ، فتكون كثيبا مهيلا ، أي رملا سائلا ، وتكون كالعهن ، وتكون هباء منبثا ، وتكون سرابا ، مثل السراب الذي ليس بشيء . وقيل : إن الجبال بعد اندكاكها أنها تصير كالعهن من حر جهنم ، كما تصير السماء من حرها كالمهل قال الحليمي : وهذا والله أعلم لأن مياه الأرض كانت حاجزة بين السماء والأرض ، فإذا ارتفعت ، وزيد مع ذلك في إحماء جهنم أثر في كل واحد من السماء والأرض ما ذكر .

وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾(٤) أي عطلها أهلها ، فلم تحلب من

---

(١) سورة التكوير : ٢ .

(٢) سورة التكوير : ٣ .

(٣) سورة الكهف : ٤٧

(٤) سورة التكوير : ٤ .

الشغل بأنفسهم . والعشار : الإبل الحوامل ، وأحدها عشـر ، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، وبعدما تضع ، وإنما خص العشار بالذكر ، لأنها أعز ما يكون على العرب ، فأخبر أنها تعطل يوم القيامة . ومعناه أنهم إذا قاموا من قبورهم ، وشاهد بعضهم بعضا ورأوا الوحوش والدواب محشورة ، وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم ، لم يعبؤوا بها ، ولم يهمهم أمرها ، ويحتمل تعطل العشار إبطال الله تعالى أملاك الناس عما كان ملكهم إياها في الدنيا ، وأهل العشار يرونها ، فلا يجدون إليها سبيلا . وقيل : العشار : السحاب ، يعطل مما يكون فيه ، وهو الماء ، فلا يمطر . وقيل : العشار الديار ، تعطل فلا تسكن . وقيل : الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع ، والقول الأول أشهر وعليه من الناس الأكثر .

وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[1] أي جمعت ، والحشر الجمع ، وقد تقدم .

وقوله ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[2] . أي أوقدت ، وصارت نارا . رواه الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه . وقال قتادة : غار ماؤها ، فذهب . وقال الحسن والضحاك : فاضت . قال ابن أبي زمنين : سجرت حقيقته ملئت ، فيفضي بعضها إلى بعض ، فتصير شيئاً واحداً . وهو معنى قول الحسن . ويقال : أن الشمس تلف ، ثم تلقى في البحار ، فمنها تحمى ، وتنقلب نارا . قال الحليمي : ويحتمل إن كان هذا هكذا أن البحار في قول من فسر التسجير بالامتلاء هو أن النار حينئذ تكون أكثرها ، لأن الشمس أعظم من الأرض مرات كثيرة ، فإذا كورت ، وألقيت في البحر ، فصارت نارا ، ازدادت امتلاءا .

---

(١) سورة التكوير : ٥ .

(٢) سورة التكوير : ٦ .

وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾[1] تفسير الحسن أن تلحق كل شيعة شيعتها : اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد من دون الله شيئا يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين ، والمؤمنون بالمؤمنين . وقال عكرمة : المعنى تقرن بأجسادها ، أي ترد إليها ، وقيل : يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان . وقيل : يقرن المؤمنون بالحور العين ، والكافرون بالشياطين .

وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾[2] يعني بنات الجاهلية ، كانوا يدفنوهن أحياء ، لخصلتين : إحداهما : كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به . الثانية : مخافة الحاجة والإملاق ، وسؤال الموؤدة على وجه التوبيخ لقاتلها ، كما يقال للطفل إذا ضرب : لم ضربت ؟ وما ذنبك ؟ وقال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها ، لأنها قتلت بغير ذنب . وبعضهم يقرأ : وإذا الموؤدة سَأَلَت ، تعلق الجارية بأبيها ، فتقول : بأي ذنب قتلتني ؟ وقيل : معنى سئلت ، يسأل عنها كما قال : ﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[3] .

وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[4] أي للحساب وسيأتي .

وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾[5] قيل : معناه طويت ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾[6] ، أي كطي الصحيفة على مافيها ، فاللام بمعنى « على » ، يقال : كشطت السقف ، أي قلعته ، فكان

---

(١) سورة التكوير : ٧ .
(٢) سورة التكوير : ٨ .
(٣) سورة الإسراء : ٣٤ .
(٤) سورة التكوير : ١٠ .
(٥) سورة التكوير : ١١ .
(٦) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

المعنى : قلعت ، فطويت والله أعلم ، والكشط والقشط سواء ، وهو القلع ، وقيل : السجل كاتب للنبي ﷺ ، ولا يعرف في الصحابة من اسمه سجل .

وقوله ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾[1] أي أوقدت . وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾[2] أي قربت لأهلها ، وأدنيت .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾[3] أي من عملها ، وهو مثل قوله ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾[4] .

ومما قيل في وصف أهوال ذلك اليوم شعرا[5] :

مثل لنفسك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إذ كورت شمس النهار وأدنيت ... حتى على رأس العباد تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا البحار تفجرت من خوفها ... ورأيتها مثل الجحيم تفور
وإذا الجبال تقلعت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا العشار تعطلت وتخربت ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لذى القيامة احشرت ... وتقول . للأملاك أين تسير
وإذا تقاة المسلمين تزوجت ... من حور عين زانهن شعور
وإذا الموؤدة سئلت عن شأنها ... وبأي ذنب قتلها ميسور
وإذا الجليل طوى السماء بيمينه ... طي السجلِّ كتابه المنشور

---

(١) سورة التكوير ١٢ .

(٢) سورة التكوير : ١٣ .

(٣) سورة التكوير : ١٤ .

(٤) سورة الانفطار : ٥ .

(٥) التذكرة للقرطبي : ٢١٤ .

وإذا الصحائف نشرت فتطايرت وتهتكت للمؤمنين ستور
وإذا السماء تكشطت عن أهلها ورأيت أفلاك السماء تدور
وإذا الجحيم تسعرت نيرانها فلها على أهل الذنوب زفير
وإذا الجنان تزخرفت وتطيبت لفتى على طول البلاء صبور
وإذا الجنين بأمه متعلق يخشى القصاص وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف جنينه كيف المصر على الذنوب دهور

المطلب السابع
المحاسبي يصور أهوال ذلك اليوم

يقول الحارث المحاسبي رحمه الله واصفا ما يقع في ذلك اليوم من أهوال :

« حتى إذا تكاملت عدة الموتى ، وخلت من سكانها الأرض والسماء ، فصاروا خامدين بعد حركاتهم ، فلا حسّ يسمع ، ولا شخص يُرى ، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله ، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم . فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك بأنك تدعى إلى العرض على الملك الأعلى ، فطار فؤادك ، وشاب رأسك للنداء ، لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء ـ فبينما أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض على رأسك ، فوثبت مغبراً من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك قائم على قدميك ، شاخص ببصرك نحو النداء ، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورةواحدةوهم مغبّرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم .

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم ، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق ، عراة

حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة ، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدّة المنادي ، والخلائق مقبلون نحوه ، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت ، ساعٍ بالخشوع والذلة ، حتى إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة ، قد نزع المُلْك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصَغار ، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوّهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه .

ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها لذلّ يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بليّة نابتها ولا خطيئة أصابتها ، فتوهم إقبالها بذلّها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور .

وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار ، وأقبلت الشياطين بعد عتّوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور .

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامّها ، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها . فبينما أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم ، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم ، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك ، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام ، فيا هَوْل صوت انشقاقها في سمعك ، ثم تمزقت

وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافّات ما يتشقق ويتفطر ، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها ، فأذابها ربّها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة كما قال الجليل الكبير : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[1] ، ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾[2] .

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب ، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه .

فتوهم تحدرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عز وجل . فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم ، ومسألتهم إياهم : أفيكم ربنا ؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم تنزيلاً لما توهمه أهل الأرض : سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آتٍ ، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم . فتوهمهم ، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم ، ثم كل شيء على ذلك وكذلك إلى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد ، وعظم الأجساد ، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفا .

حتى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين ، ولا

---

(١) سورة الرحمن : ٣٧ .

(٢) سورة المعارج : ٨ ـ ٩ .

ظل لأحد إلا ظلُّ عرش رب العالمين ، فمن بين مستظل بظل العرش ، وبين مضحو بحر الشمس ، قد صهرته بحرها واشتد كربه وقلقه من وهجها ، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت ، فدفع بعضهم بعضاً وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء ، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمه أذنيه ، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل (وقال مرة إن الكافر) ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام » .

وعن عبدالله رفعه إلى النبي ﷺ « إن الكافر يلجم بعرقة يوم القيامة من طول ذلك اليوم ، (وقال علي : من طول القيام . قالا جميعاً) حتى يقول : رب أرحني ولو إلى النار . وأنت لامحالة أحدهم ، فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد علاك العرق ، وأطبق عليك الغم ، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب ، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء ، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه ، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم .

عن قتادة أو كعب ، قال:يوم يقوم الناس لرب العالمين.قال : « يقومون مقدار ثلاثمائة عام ، قال سمعت الحسن يقول : ما ظنك بأقوام قاموا لله عز وجل على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة ،

حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش ، واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار ، فسقوا من عين آنية قد آن حرها ، واشتد نفحها ، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم ، وموسى وعيسى من بعد ابراهيم ، كلهم يقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادي بالشغل بنفسه فيقول : نفسي نفسي ، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لإهتمامه بنفسه وخلاصها ، وكذلك يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾[1] .

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم ، منفرد كل واحد منهم بنفسه ، ينادي نفسي نفسي ، فلا تسمع إلا قول نفسي نفسي . فياهول ذلك وأنت تنادي معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه ، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم ، والخليل إبراهيم ، والكليم موسى ، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله ـ عز وجل ـ وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل ، كل ينادي : نفسي نفسي ، شفقاً من شدة غضب ربه ، فأين أنت منهم في اشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك بذلك اليوم ، وبحزنك وبخوفك ؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم أتوا النبي محمداً ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها ، ثم قام إلى ربه عز وجل واستأذن عليه فأذن له ثم خرَّ لربه

---

(١) سورة النحل : ١١١ .

ساجداً ، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله ، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق ، حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم[1] .

---

(١) كتاب التوهم والأهوال: ص ٥ .

الفصل الثامن
أحوال الناس في يوم القيامة

تختلف أحوال الناس في ذلك اليوم اختلافا بينا ، وسنعرض هنا لثلاثة : الكفار ، وعصاة الموحدين ، والأتقياء الصالحين .

المبحث الأول
حال الكفار

المطلب الأول
ذلتهم وهوانهم وحسرتهم ويأسهم

الذي يتأمل في نصوص الكتاب والسنة التي تحدثنا عن مشاهد القيامة يرى الأهوال العظام والمصائب الكبار التي تنزل بالكفرة المجرمين في ذلك اليوم العظيم .

وسنعرض في هذا المبحث بعض المشاهد التي يصفها القرآن الكريم .

١ ـ قال تعالى مبينا حال الكفار عند خروجهم من القبور ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾[1] .

---

(١) سورة المعارج : ٤٣ .

الأجداث هي القبور ، والنص يصور سرعة خروجهم من القبور في ذلك اليوم منطلقين إلى مصدر الصوت كأنهم يسرعون إلى الأنصاب التي كانوا يعبدونها في الدنيا ، ولكنهم اليوم لا ينطلقون فرحين أشرين بطرين كما كان حالهم عندما كانوا يقصدون الأنصاب ، بل هم أذلاء ، أبصارهم خاشعة ، والصغار يعلوهم ، على النعت الذي كان يعدهم الله به في الدنيا .

٢ ـ وقال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[1] .

وهذه الآية تنص على ما نصت عليه الآيات السابقة من خروجهم خاشعي الأبصار أذلاء ، مسرعين إلى مصدر الصوت الذي يناديهم ويدعوهم ، وتزيدنا بيانا باعطائنا صورة حيّة لمشهد البعث والنشور ، فحالهم في ذلك اليوم في حركتهم وانطلاقتهم وهم يخرجون مسرعين كحال الجراد المنتشر ، ويفيدنا النص أيضا اعتراف الكفار في ذلك اليوم بصعوبة موقفهم ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[2] .

٣ ـ ويفيدنا نص ثالث أن الكفار ينادون بالويل والثبور عندما ينفخ في الصور متسائلين عمن أقامهم من رقدتهم .

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾[3] .

(١) سورة القمر : ٦ـ٨ .
(٢) سورة القمر : ٨ .
(٣) سورة يس : ٥١ .

وقد كان أبو محكم الجسري يجتمع إليه إخوانه ، وكان حكيما ، فإذا تلي الآية السابقة بكى ، ثم قال :

« إن القيامة ذهبت فظاعتها بأوهام العقول ، أما والله لئن كان القوم في رقدة مثل ظاهر قولهم ، لما دعوا بالويل عند أول وهلة من بعثهم ، ولم يوقفوا بعد موقف عرض ولا مسألة إلا وقد عاينوا خطراً عظيماً ، وحقت عليهم القيامة بالجلائل من أمرها ، ولكن كانوا في طول الإقامة في البرزخ يألمون ويعذبون في قبورهم ، وما دعوا بالويل عند انقطاع ذلك عنهم ، إلا وقد نقلوا إلى طامة هي أعظم منه ، ولولا أن الأمر على ذلك ما استصغر القوم ما كانوا منه ، فسموه رقادا ، وإن في القرآن لدليلا على ذلك : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[1]، ثم يبكي حتى يبل لحيته »[2] .

٤ ــ ويضيف نص آخر ملامح جديدة إلى صورتهم حال بعثهم ، فأبصارهم لشدة الهول شاخصة جاحظة ، وأفئدتهم خالية إلا من الهول الذي يحيط بهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[3] .

يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله وأجزل له المثوبة ـ في تفسير هذه الآيات : « والرسول ﷺ ـ لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعا بهم في الحياة الدنيا ، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل

---

(١) سورة النازعات : ٣٤ .

(٢) النهاية لابن كثير : (١/ ٢٧٤) .

(٣) سورة إبراهيم : ٤٢ ـ ٤٣ .

المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة ، التي لا إمهال بعدها ، ولا فكاك منها ، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مبهوته مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك .

ثم يرسم مشهدا للقوم في زحمة الهول . . مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء ، ولا يلتفتون إلى شيء ، رافعين رؤوسهم ، لاعن إرادة ، ولكنها مشدودة ، لايملكون لها حراكا . يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب ، فلا يطرف ولا يرتد إليهم ، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية ، لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه ، أو يتذكرونه ، فهي هواء خاوية . هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه ، حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هذا الرعب ، الذي يرتسم من خلال هذه المقاطع الأربعة ، مذهلاً آخذا بهم كالطائر الصغير في مخالب الباشق الرعيب :

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(١) .

فالسرعة المهرولة المدفوعة ، في الهيئة الشاخصة المكروهة المشدودة ، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي من الإدراك . . كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار »(٢) .

٥ ـ ويصور القرآن الفزع الذي يسيطر على نفوس الكفار في يوم الموقف العظيم فيقول : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾(٣) .

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٢ .

(٢) في ظلال القرآن : (٤/٢١١١) .

(٣) سورة غافر : ١٨ .

« والآزفة . . . القريبة العاجلة . . . هي القيامة ، واللفظ يصورها كأنها زاحفة والأنفاس من ثَمَّ مكروبة لاهثة ، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر ، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم ، والكظم يكربهم ، ويثقل على صدورهم ، وهم لا يجدون حميا يعطف عليهم ، ولا شفيعا ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب »[1] .

٦ ــ وما كان هؤلاء في حكم الله مجرمين متمردين على خالقهم وإلههم ، مستكبرين عن عبادته وطاعته ـ فإنه يؤتى بهم إلى ربهم وخالقهم مقرنين في الأصفاد ، مسربلين بالقطران تغشى وجوههم النار ، ويا لفظاعة حالهم ، وعظم ما يلقون ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾[2] .

يقول الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآيات : « وتعاين الذين كفروا بالله ، فاجترموا في الدنيا الشرك يومئذ ، يعني يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾[3] ، يقول : مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد ، وهي الوثاق من غلٍّ وسلسلة ، واحدها صفد »[4] .

والسرابيل : هي القُمُصُ التي يلبسونها ، والقطران : المادة التي تطلى بها الإبل إذا أصابها الجرب ، وقيل : القطران النحاس .

٧ ــ وتدنو الشمس من رؤوس العباد في ذلك اليوم حتى لايكون بينها وبينهم إلا

---

(١) في ظلال القرآن : ٦/٣٠٧٤ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٨ ـ ٥٠ .

(٣) سورة إبراهيم : ٤٩ .

(٤) تفسير ابن جرير الطبري : (١٣/٢٥٤) .

إلا مقدار ميل واحد ، ولولا أنهم مخلوقون خلقاً غير قابل للفناء لانصهروا وذابوا وتبخروا ، ولكنهم بعد الموت لا يموتون .

ويذهب عرقهم في الأرض حتى يرويها ، ثم يرتفع فوق الأرض ، ويأخذهم على قدر أعمالهم . ففي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق ، حتى تكون منهم كمقدار ميل »

قال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل ؟ أمسافة الأرض ، أم الميل الذي تكتحل به العين .

قال : « فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه . ومنهم من يكون إلى ركبتيه . ومنهم من يكون إلى حقويه . ومنهم من يلجمه العرق إلجاما » .
قال : وأشار رسول الله بيده إلى فيه[1] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[2] ، قال : « يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه »[3] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب في صفة القيامة . (٤/٢١٩٦) ، ورقمه : (٢٨٦٤) .
(٢) سورة المطففين : ٦ .
(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب قول الله تعالى : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾ ، فتح الباري ، (١١/٣٩٢) . ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب في صفة يوم القيامة ، (٤/٢٨٦٢] ، ورقمه : ٢٨٦٢ .

سبعين ذراعا ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم »[1] .

٨ ـ وعندما يرى الكفار العذاب والهوان الذي يصيب الكفرة المشركين يصيبهم الحسرة والندم ، ولكثرة حسرة العذاب سمي الله ذلك اليوم بيوم الحسرة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] .

ولشدة تحسر الكافر وندمه على عدم اتباعه للرسول الذي بعث إليه ، واتباعه لأعداء الرسل ، فإنه يعض على يديه ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[3] .

٩ ـ وفي ذلك اليوم يوقن الكفار أن ذنبهم غير مغفور ، وعذرهم غير مقبول ، فييأسوا من رحمة الله ، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[4] .

١٠ ـ ويتمنى الكفار في ذلك اليوم أن يهلكهم الله ، ويجعلهم ترابا ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾[5] ، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[6] ، فما بالك بأقوام كانت مناياهم هي غاية المنى !!

---

(١) المصادر السابقة ، والسياق للبخاري .
(٢) سورة مريم : ٣٩ .
(٣) سورة الفرقان : ٢٧ ـ ٢٨ .
(٤) سورة الروم : ١٢ .
(٥) سورة النساء : ٤١ .
(٦) سورة النبأ : ٤٠

المطلب الثاني
إحباط أعمالهم

أعمال الكفار قسمان : قسم هو طغيان وبغي وإفساد في الأرض ونحو ذلك ، فهذه أعمال باطلة فاسدة لا يرجو أصحابها من ورائها خيرا ، ولا يتوقعون عليها ثوابا .

وقد شبه القرآن هذه الأعمال بالظلمات التي يركب بعضها بعضا ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾(١) .

والقسم الثاني : أعمال يظنون أنها تغني عنهم من الله شيئا ، كالصدقة والعتاق وصلة الأرحام والإنفاق في سبل الخير ، وقد ضرب الله في كتابه لهذا النوع من الأعمال أمثلة .

فشبهها في بعض المواضع بالسراب الذي يظنه رائيه ماء ، ولكنه عندما يأتيه ـ وهو يؤمل أن يصل إليه فيروي غلته ، ويذهب ظمأه ـ لا يجده شيئا ، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(٢) .

وشبهها في موضع آخر بالرياح الشديدة الباردة تهب على الزروع والثمار فتدمرها ، ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٣) ،

---

(١) سورة النور : ٤٠

(٢) سورة النور : ٣٩ .

(٣) سورة آل عمران : ١١٧ .

والصر : البرد الشديد ، وهذه الرياح الباردة هي الكفر والشرك التي تحرق أعمالهم الصالحة .

وشبهها في موضع ثالث بالرماد الذي جاءته ريح عاصف فذرته في كل مكان ، فكيف يستطيع صاحبه جمعه بعد تفرقه !! ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾(١) .

ولذلك فإن الله يجعل أعمال الكفار هباء منثورا ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾(٢) .

وهذا الفريق الذي يظن أنه على خير يفاجأ يوم القيامة بأن عمله باطل ضائع ، ومن هؤلاء عُباد اليهود والنصارى بعد البعثة النبوية ، فإن فريقا منهم يجهدون أنفسهم بالعبادة، وفعل الخيرات ، ويظنون أن ذلك ينفعهم عند الله تبارك وتعالى ، وكذلك الذين انتسبوا إلى الإسلام ، ولكنهم أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وعبدوا غير الله ، كل هؤلاء لا تنفعهم أعمالهم ، ولا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا ، ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾(٣) .

وقد سأل مصعب بن سعد أباه سعد بن أبي وقاص عن الأخسرين أعمالا ، فقال : « هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمدا ﷺ ، وأمّا النصارى

---

(١) سورة إبراهيم : ١٨ .

(٢) سورة الفرقان : ٢٣ .

(٣) سورة الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٦ .

فكفروا بالجنة ، وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب »[1] .

وإنما كان اليهود والنصارى من الأخسرين أعمالا ، لأن كثيرا منهم يظنون أنفسهم على الحق ، ويجتهدون في العبادة ، وحقيقة الأمر أنهم خاسرون ، لأنهم يكفرون برسول الله الخاتم ، وكتابه المنزل ، مع كفرهم بكثير مما أنزل إليهم من ربهم ، وإيمانهم بالمحرف من دينهم .

فهذه الأعمال التي يظن الكفرة أنها نافعتهم في يوم الدين لا وزن لها ولا قيمة لها في ذلك اليوم لأنها قامت على غير أساس ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2] والأساس هو الإسلام ، فما لم يكن المرء مسلما موحدا فعمله مردود ، وسعيه موزور غير مشكور ، روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : يا رسول الله ، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ؟ قال : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين »[3] .

المطلب الثالث
تخاصم أهل النار

عندما يعاين الكفرة أعداء الله ما أعد لهم من العذاب ، وما هم فيه من أهوال يمقتون أنفسهم كما يمقتون أحبابهم وخلانهم في الحياة الدنيا ، بل تنقلب كل محبة لم تقم على أساس من الإيمان إلى عداء ، قال تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة رقم : (١٨) فتح الباري : (٨/٤٢٥) .
(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أهون أهل الدنيا عذابا ، (١/١٩٦) ورقم الحديث ٢١٤ .

﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ، وعند ذلك يخاصم أهل النار بعضهم بعضا ، ويحاج بعضهم بعضا ، العابدون المعبودين ، والأتباع السادة المتبوعين ، والضعفاء المتكبرين ، والإنسان قرينه ، بل يخاصم الكافر أعضاءه .

١ ـ أما مخاصمة العابدين المعبودين : ففي قوله تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[2] إنهم يخاطبون آلهتهم التي كانوا يعبدون ،معترفين بضلالهم إذ كانوا يعبدونها ، ويسوون بينها وبين الخالق ، وقد خاب وخسر من رفع المخلوق إلى مرتبة الخالق ، وكل من عبد من دون الله آلهة ، فقد سوى بين الخالق والمخلوق ، وهذا هو الظلم العظيم ، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه : ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3] .

أما الصالحون الأخيار الذين عُبِدوا وهم لا يعلمون ، أو عبدوا بغير رضاهم كالملائكة وصالحي البشر ، فإنهم يتبرؤون من عابديهم ، ويكذبون زعم العابدين وافتراءهم ، فإن الملائكة ما طلبت هذه العبادة ، ولا رضيت بها ، والذين طلبوها هم الجن ، كي يضلوا البشر ويوبقوهم ، فهؤلاء الضالون عابدون للجن لا للملائكة ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة الزخرف : ٦٧ .

(٢) سورة الشعراء : ٩١ ـ ٩٩ .

(٣) سورة لقمان : ١٣ .

(٤) سورة سبأ : ٤٠ ـ ٤١ .

وعيسى بن مريم يتبرأ في يوم الدين من الذين اتخذوه إلها وعبدوه من دون الله ، ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ . . ﴾[1] .

هذا موقف جميع المعبودات التي لم ترض باتخاذها آلهة ، تتبرأ من عابديها ، وتكذبهم في دعواهم ، وتقر بعبوديتها لله ربها ، ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[2].

وقال في موضع آخر : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[3] .

٢ ـ وأما تخاصم الأتباع مع قادة الضلال من أصحاب الفكر ، والنظريات الضالة ، والمبادىء المناقضة للإسلام ، فقد ذكرها الله في موضع آخر فقال :

﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم

(١) سورة المائدة : ١١٦ ـ ١١٧ .
(٢) سورة النحل : ٨٦ ـ ٨٧ .
(٣) سورة يونس : ٢٨ ـ ٣٠ .

مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾(١) .

وهذا المذكور في هذه الآيات هو تلاوم أهل النار في عرصات القيامة ، فالأتباع يقولون لقادة الضلال أنتم الذين كنتم تزينون لنا الباطل ، وتغروننا بمخالفة الحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾(٢) ، ولكن القادة ورجال الفكر والزعماء يرفضون هذا ، ويقولون لهم : أنتم تتحملون نتيجة أعمالكم ، فقد اخترتم الكفر ، ولم يكن لنا من سلطان عليكم ، إن طغيانكم واستكباركم هو الذي أوصلكم إلى هذه النهاية .

٣ ـ أما مخاصمة الضعفاء للسادة من الملوك والأمراء وشيوخ العشائر الذين كانوا يتسلطون على العباد ، ويشدُّ الضعفاء أزرهم ، ويعينوهم على باطلهم بالنفس والمال فقد ذكرها الله تعالى في قوله : ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾(٣) ، ولندع الداعية المفسر الأستاذ سيد قطب رحمه الله ، وأجزل له المثوبة يفسر لنا هذه الآيات الكريمة ، ولنعش معه في الظلال . . . (وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا . .)(٤) الطغاة المكذبون ، وأتباعهم من الضعفاء

(١) سورة الصافات : ١٩ ـ ٣٥

(٢) سورة البقرة : ٢٥٧ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢١ .

(٤) سورة إبراهيم : ٢١ .

المستذلين . . . ومعهم الشيطان . . . ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات . . . برزوا « جميعا » مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائما ، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق . . . برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار ، وبدأ الحوار : « فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟» . . والضعفاء هم الضعفاء . هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه ؛ وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة . ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله . والضعف ليس عذراً ، بل هو الجريمة ؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً ، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله . وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبه في الحرية ـ التي هي ميزته ومناط تكريمه ـ أو أن ينزل كارهاً . والقوة المادية ـ كائنة ما كانت ـ لاتملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية ، ويستمسك بكرامته الآدمية . فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد ، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه . أما الضمير . أما الروح . أما العقل . فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها ، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال !

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة ، وفي التفكير ، وفي السلوك ؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله ، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه ؟ لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة . فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ، ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً . . كلا ، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء . إنما هم ضعفاء لأن الضعف في

أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان !

إن المستضعفين كثرة ، والطواغيت قلة . فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة ؟ وماذا الذي يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح ، وسقوط الهمة ، وقلة النخوة ، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان ! .

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير . فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت . فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان ! .

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء . . وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة !! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم :

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾(1) ؟ . .

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم ؟!

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة ، وتعريضهم إياهم للعذاب ؟ إن السياق يحكي قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال ! .

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال :

﴿ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾(2) . .

وهو رد يبدو فيه البرم والضيق :

« لو هدانا الله لهديناكم » . .

فعلام تلوموننا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد ؟ إننا لم نهتد

(1) سورة ابراهيم : ٢١ .
(2) سورة إبراهيم : ٢١ .

ونضلكم . ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا ، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال ! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله . فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها ، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حساباً لقدرة القاهر الجبار . وإنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجع الأمر لله . . والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[1] . . ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي ، فيعلنوا لهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر . فقد حق العذاب ، ولا راد له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى ، وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص :

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[2] .

لقد قضي الأمر ، وانتهى الجدل ، وسكت الحوار . . وهنا نرى على المسرح عجباً . نرى الشيطان . . هاتف الغواية ، وحادي الغواة . . نراه الساعة يلبس مسوح الكهان ، أومسوح الشيطان ! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء ، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3] .

---

(١) سورة الأعراف : ٢٨ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢١ .

(٣) سورة إبراهيم : ٢٢ .

الله ! الله ! أما إن الشيطان حقاً لشيطان ! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار . .

إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور ، وأغرى بالعصيان ، وزين الكفر ، وصدهم عن استماع الدعوة . . هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة ، حيث لا يملكون أن يردوها عليه ـ وقد قضي الأمر ـ هو الذي يقول الآن ، وبعد فوات الأوان :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾(١) .

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له ، وليس له عليهم من سلطان ، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم ، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ !(٢) .

ثم يؤنبهم ، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم . يؤنبهم على أن أطاعوه ! :

﴿ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾(٣) ! .

ثم يخلي بهم ، وينفض يده منهم ، وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم ، ووسوس لهم أن لا غالب لهم ، فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا ، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ (٤) .

وما بيننا من صلة ولا ولاء !

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٢ .
(٢) سورة إبراهيم : ٢٢ .
(٣) سورة إبراهيم : ٢٢ .
(٤) سورة إبراهيم : ٢٢ .

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الاشراك :

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾[1] .

ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه :

﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] .

فيا للشيطان ، ويالهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ، ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوهم[3] .

وفي موضع آخر يذكر الله تخاصم الضعفاء والسادة المستكبرين فيقول :
﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾[4] .

وهذه الآيات الكريمة تأتي بعد الإخبار بما كان من استعلاء فرعون من تذبيحه الأطفال ، ومحاولته قتل موسى ، ومحاورته ذلك المؤمن الذي واجه فرعون ودحض حجته وباطله ، وكيف وقف الشعب موقف التابع الذي ينفذ رغبات الطاغية ، فيقوم أفراده بالتذبيح والإيذاء والمطاردة ، هؤلاء الذين كانوا في الدنيا أعوانا للظلمة المجرمين يعلمون في يوم القيامة فداحة الجريمة التي وقعوا فيها ، ويقولون للسادة أمثال فرعون : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[5] ، ولكن السادة لا يملكون لأنفسهم شيئا ، ولا يستطيعون نصر

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٢ .

(٣) في ظلال القرآن : ٢٠٩٥/٤ .

(٤) سورة المؤمن : ٤٧ ـ ٤٨ .

(٥) سورة المؤمن : ٤٧ .

أنفسهم، فيقولون: ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾[1] ، وهذا الموقف يدلنا على الجواب الذي يمكننا أن نواجه به المقولة الباطلة التي يرددها بعض الظلمة حيث يقولون لأتباعهم : اتبعوني ، وأنا أتحمل وزركم إن كان عليكم وزر ، فإن تحملهم مثل أوزار الذين يضلونهم ، لا يمنع العذاب عن الذين اتبعوهم ، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾[2] وقال في موضع آخر محدثا عن مخاصمة الضعفاء للمستكبرين : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[3].

فالأتباع والضعفاء يتهمون سادتهم وزعمائهم قائلين لهم : أنتم الذين حلتم بيننا وبين الإيمان ، فلولاكم لكنا من الذين اتبعوا ما أنزل إلينا من ربنا ولكن المستكبرين يرفضون هذه التهمة ، ويقولون لهم : أنتم المجرمون ، كل ما في الأمر أننا دعوناكم فاستجبتم لنا ، ولم يكن لنا عليكم من سلطان ، فتقول الشعوب المستضعفة الضالة : بل مكركم بنا في الليل والنهار أضلنا وحرفنا عن جادة الصواب ، فالمؤامرات والمؤتمرات ، ووسائل الإعلان في مختلف العصور التي تصور

(١) سورة المؤمن : ٤٨ .

(٢) سورة العنكبوت : ١٢ ـ ١٣ .

(٣) سورة سبأ : ٣١ ـ ٣٣ .

الحق باطلا ، والباطل حقا ، وما كان يلقيه الزعماء من شبهات ومزاعم باطلة ، كل ذلك أضلنا وجعلنا نكفر بالله ، ونشرك به ، والحق أن الجميع خاطئون ، وهم غير معذورين في ضلالهم وكفرهم .

ويصف الحق هذا التخاصم بين أهل النار عند دخولهم النار فيقول : ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾(١) .

فهؤلاء الذين كان بعضهم يرحب ببعض في الحياة الدنيا ، ويوقر بعضهم بعضا ، يتحول حالهم في ذلك اليوم فيقول بعضهم لبعض : ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾(٢) . ويتمنى كل فريق على الله أن يزيد من كانوا أحبابه في الدنيا من العذاب والآلام ، إن هذا التخاصم بين أهل النار حق كائن لا شك في ذلك ، كذلك يقول ربنا تبارك وتعالى .

٤ ـ ويقع الخصام في ذلك اليوم بين الكافر وقرينه الشيطان ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ

---

(١) سورة ص : ٥٥ ـ ٦٤ .

(٢) سورة ص : ٥٩ ـ ٦٠ .

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(١).

٥ ـ ويبلغ الأمر أشده والمخاصمة ذروتها عندما يخاصم المرء أعضاءه ، ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢) . وهذا يكون من الكفار عندما يعاينون العذاب الشديد الذي أعده الله لهم ، فيلجأون إلى التكذيب والإنكار ، ويزعمون أنهم كانوا صالحين ، ويكذبون بشهادة الملائكة والمرسلين والصالحين الذين يشهدون عليهم ، فعند ذلك يختم الله على أفواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، فعند ذلك يقولون لأعضائهم : « بعدا لكنَّ وسحقا ، عنكن كنت أجادل »(٣) .

أخرج مسلم والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : «يلقى العبد ربه ، فيقول الله ؛ ألم أكرمك وأسودك وأزوجك ، وأسخّر لك الخيل والإبل ، وأذرك تراس وتربع فيقول : بلى أي رب ، فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقال : إني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثاني ، فيقول له مثل ذلك ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : آمنت بك وبكتابك وبرسولك ، وصليت وصمت وتصدقت ، ويثنى بخير ما استطاع ، فيقول : ألا نبعث شاهدنا عليك ، فيفكر في نفسه من الذي يشهد علي ؟ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه انطقي ، فتنطق فخذه وفمه وعظامه بعمله ما كان ،

---

(١) سورة ق : ٢٣ ـ ٢٩ .

(٢) سورة فصلت : ١٩ ـ ٢١ .

(٣) هذا جزء من حديث رواه مسلم وغيره ، انظر تفسير ابن كثير : (١٦٨/٦) .

وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط عليه »[1] .

وإن هذا الحوار الذي يجري بين العبد وجوارحه موضع عجب واستغراب ، وقد أضحك هذا الموقف الرسول ﷺ ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ،

فقال : « هل تدرون مِمّ أضحك ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال : من مخاطبة العبد ربّه . يقول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟

قال : يقول : بلى .

قال : فيقول : إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني .

قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، ثم يختم على فيه ، فيقال لأركانه : انطقي ، قال : فتنطق بأعماله .

قال : ثمَّ يخلى بينه وبين الكلام .

قال : فيقول : بعدا لكنَّ وسحقا . فعنكنَّ كنت أناضل »[2] .

٦ ـ ويخاصم البدن في يوم القيامة الروح .

قال ابن كثير : « وقد روى ابن مندة في كتاب « الروح » عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد ، فتقول الروح للجسد : أنت فعلت . ويقول الجسد للروح : أنت أمرت ، وأنت سولت .

فيبعث الله ملكا يفصل بينهما ، فيقول لهما :

إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير ، والآخر ضرير دخلا بستانا . فقال المقعد للضرير : إني أرى هاهنا ثمارا ، ولكن لا أصل إليها .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه : (٤/٢٢٨٠) ورقمه : ٢٩٦٩ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه : (٤/٢٢٨٠) ، ورقمه : ٢٩٦٩ .

فقال له الضرير : اركبني فتناولها . فركبه فتناولها . فأيهما المعتدي ؟

فيقولان : كلاهما .

فيقول لهما الملك : فإنكما قد حكمتما على أ نفسكما . يعني أن الجسد للروح كالمطية ، وهو راكبه »[1] .

٧ ـ وفي ذلك الموقف يمقتون أنفسهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾[2] ، كما يمقتون كل الذين كانوا لهم أنصارا وخلانا في الدنيا ، ويدعون عليهم ، ويطلبون لهم المزيد من العذاب ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[3] ، ولشدة حنقهم على من أضلهم يسألون الله أن يريهم الذين أضلوهم ليدوسوهم بأقدامهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾[4] ، وعندما يدخلون النار ترتفع أصواتهم بلعن بعضهم بعضا ، ثم يتمنى بعضهم لبعض مزيدا من العذاب ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[5] .

---

(١) تفسير ابن كثير : (٩٢/٦) .

(٢) سورة المؤمن : ١٠ .

(٣) سورة الأحزاب : ٦٦ ـ ٦٨ .

(٤) سورة فصلت : ٢٩ .

(٥) سورة الأعراف : ٣٨ .

المبحث الثاني
حال عصاة المؤمنين

بعض المؤمنين يكون قد قارف ذنوبا توقعه في أهوال ومشقات وصعاب ، وسنعرض في هذا المبحث لذكر بعض العصاة وما يصيبهم في ذلك اليوم من البلاء .

المطلب الأول
الذين لا يؤدون الزكاة

من حقوق الله الكبرى الزكاة ، وهي حق المال ، والذين لا يؤدون زكاة أموالهم يعذبون بهذه الأموال في الموقف العظيم ، وقد أخبرت النصوص أن عذابهم بها على وجوه .

الأول : أن يمثل لصاحب المال ماله شجاعا أقرع ، له زبيبتان ، فيطوق عنقه ، ويأخذ بلهزمتي صاحبه ، قائلا له أنا مالك ، أنا كنزك ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ، ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك . ثم تلا : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[1] ، [2] » .

والشجاع الأقرع : الحية الذكر المتمعط شعر رأسه لكثر سمّه ، والزبيبتان : نقطتان سوداوان فوق عيني الحيّة .

الثاني : أن يؤتى بالمال نفسه الذي منع زكاته ، فإن كان من الذهب والفضة جعل صفائح من نار ، ثم عذب به صاحبه ، وإن كان المال حيوانا . إبلا أو بقرا أو غنما ، أرسل على صاحبه فعذب به ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[3] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي فيها حقًها ، إلّا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت عليه ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله ، إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

قيل : يا رسول الله ، فالإبل ؟ قال : « ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها ، ومن حقها حَلبُها يوم وردها ، إلا إذا كان يوم القيامة ، بطح لها بقاع قرقر[4] ، أوفر ما كانت ، لا يفقد منها فصيلا واحدا ، تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها ، كلما مر عليه أولاها ردّ عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة ، وإمّا إلى النار » .

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٠ .

(٢) مشكاة المصابيح : ١/٥٥٩ ، ورقم الحديث : ١٧٧٤ .

(٣) سورة التوبة : ٣٤ ـ ٣٥ .

(٤) بطح لها بقاع قرقر : بسط لها ومدّ لها بأرض مستوية .

قيل : يا رسول الله ، فالبقر والغنم ؟ قال : « ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي فيها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر ، لا يفقد منها شيئاً ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء[1] ، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضي الله بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار »[2]

المطلب الثاني
المتكبـــرون

الكبر جريمة كبرى في حكم الله وشرعه ، والله يبغض أصحابها أشدَّ البغض ، وعندما يبعث الله العباد يحشر المتكبرين في صورة مهينة ذليلة ، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي عن عمرو بـن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر المتكبرون أمثال الذر يوم القيامة ، في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان »[3] .

والذر صغار النمل ، وصغار النمل لا يعبأ به الناس ، فيطؤونه بأرجلهم وهم لا يشعرون .

وكما يبغض الله المتكبرين يبغض أسماءَهم التي كانوا يطلقونها على أنفسهم استكبارا واستعلاءً ، وتصبح هذه الأسماء التي كانوا يفرحون عند سماعها أنكر الأسماء وأخبثها ، وأغيظها على الله .

---

(١) العقصاء : الملتوية القرون ، والجلحاء : التي لا قرون لها . والعضباء : التي انكسر قرنها الداخل .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، في كتاب الزكاة ، باب اثم مانع الزكاة ، (٢/٦٨٠) ورقمه : ٩٨٧ ، والحديث في الصحاح والسنن عن أكثر من صحابي ، راجع جامع الأصول : ٤/٥٥٤ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/٦٣٥) ورقمه : ٥١١٢ ، وإسناده حسن كما قال محقق المشكاة .

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أخنع اسم عند الله يوم القيامة ، رجل تسمى ملك الأملاك » وزاد مسلم في رواية « لا مالك إلا الله عز وجل » .

ورواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة بلفظ « أغيظ رجل على الله يوم القيامة ، وأخبثه ، وأغيظه عليه ، رجل كان يسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله »[(١)] .

قال القاضي عياض : أخنع : معناه أشدُّ الأسماء صغارا ، وقال ابن بطال : وإذا كان الاسم أذل الأسماء ، كان من تسمى به أشدُّ ذلا[(٢)] .

المطلب الثالث
ذنوب لا يكلم الله أصحابها ولا يزكيهم

وردت نصوص كثيرة ترهب من ذنوب توعد الله من ارتكبها بأن لا يكلمه في يوم القيامة ولا يزكيه ، وله عذاب أليم .

فمن هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ، وهم الأحبار والرهبان والعلماء الذين يكتمون ما عندهم من العلم إرضاءً لحاكم ، أو تحقيقاً لمصلحة ، أو طلبا لعرض دنيوي ، ككتمان الأحبار والرهبان ما يعرفونه من كتبهم من صفات الرسول ﷺ ، وإنكارهم لنبوته ، مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم .

وقد قال الله في هؤلاء : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٦١٩/٢) ، ورقمه : ٩١٤ .
(٢) فتح الباري : (٥٨٩/١٠) .

﴿ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾[1] .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾[2] . « وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم ، لأنهم كتموا وقد علموا ، فاستحقوا الغضب ، فلا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، أي لا يثنى عليهم ولا يمدحهم ، بل يعذبهم عذابا أليما »[3] .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والبيهقي ، ورواه الحاكم بنحوه . وقال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وفي رواية لابن ماجة قال : « ما من رجل يحفظ علما فيكتمه إلا أتى يوم القيامة ملجوما بلجام من نار »[4] .

ومن الذين يغضب الله عليهم يوم القيامة ، فلا يكلمهم ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم الذين ينقضون ما عاهدوا الله عليه ويشترون بأيمانهم ثمنا قليلا ، فيحلفون الأيمان الكاذبة تحقيقا لكسب دنيوي تافه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5] .

وقد ساق ابن كثير أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية :

منها الحديث الذي رواه مسلم وأهل السنن وأحمد عن أبي ذر قال : قال

(١) سورة البقرة : ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : (١/٣٦٣) .

(٤) الترغيب والترهيب للحافظ المنذري : (١/٩٧) .

(٥) سورة آل عمران : ٧٧ .

رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذابٌ أليم » .

قلت : يا رسول الله ، من هم ؟ خسروا وخابوا .

قال : وأعاده رسول الله ثلاث مرات .

قال : « المسبل ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمنان » .

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىء مسلم ، لقي الله - عز وجل - وهو عليه غضبان » .

ومنها ما رواه البخاري عن عبدالله بن أبي أوفى أن رجلا أقام سلعة له في السوق ، فحلف بالله لقد أعطي فيها مالم يعطه ، ليوقع فيها رجلا من المسلمين ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾[1] .

ومنها ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده ، ورجل حلف على سلعته بعد العصر ، يعني كاذبا ، ورجل بايع إماما ، فإن أعطاه وفى له ، وإن لم يعطه لم يف له » وقال الترمذي : حديث حسن صحيح[2] .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعته : لقد أعطي بها أكثر مما أعطى وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال

(١) سورة آل عمران : ٧٧ .

(٢) انظر هذه الأحاديث في تفسير ابن كثير : (٢ / ٦٠) .

امرىء مسلم ، ورجل منع فضل ماء ، فيقول الله يوم القيامة : اليوم أمنعك فضلي ، كما منعت فضل مالم تعمل يداك »[1] .

ومن الذنوب التي توعد الله عليها بعدم تكليم صاحبها ، وعدم نظره إليه ، وترك تزكيته ، غير ما تقدم ، الشيخ الزاني ، والملك الكذاب ، والعائل (أي الفقير) المستكبر ، والعاق لوالديه ، والمرأة المتشبهة بالرجال ، والديوث ، ومن أتى إمرأته في دبرها ، ومن جر ثوبه خيلاء .

ففي صحيح مسلم وسنن النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »[2] .

وفي مسند أحمد ، وسنن النسائي ، ومستدرك الحاكم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال ، والديوث »[3] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الذي يأتي إمرأته في دبرها لا ينظر الله إليه » رواه في« شرح السنة »[4] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثوبه بطرا »[5] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد . باب قول الله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ فتح الباري : (١٣/٤١٩) .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٣/٧٣) ، ورقمه : ٣٠٦٤ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٣/٧٤) ، ورقمه : ٣٠٦٦ .

(٤) مشكاة المصابيح (٢/١٨٤) ورقم الحديث : (٣١٩٤) ، وقال فيه محقق المشكاة : ورواه النسائي في « الكبرى » ، وهو حديث صحيح .

(٥)، مشكاة المصابيح : (٢/٤٧٢) ورقمه : ٤٣١١ .

وفيهما أيضا عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة »[1] .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « الإسبال في الإزار والقميص والعمامة ، من جر منها شيئا تخيلا لم ينظر الله إليه يوم القيامة » رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة[2] .

المطلب الرابع
الأثرياء المنعمـون

الذين يركنون إلى الدنيا ، ويطمئنون إليها ، ويكثرون من التمتع بنعيمها ، يُضَيَّق عليهم في يوم القيامة ، فقد أخبر الرسول ﷺ أن الذي يكثر شبعه في الدنيا ، يطول جوعه يوم القيامة ، ففي سنن الترمذي وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم أن الرسول ﷺ قال لأحد أصحابه : « كف عنا جشاءَك ، فإن أكثرهم شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة »[3] . كما أخبر أن أصحاب المال الكثير والمتاع الدنيوي الواسع يكونون أقل الناس أجرا في يوم القيامة ، مالم يكونوا قد بذلوا أموالهم في سبل الخيرات ، ففي الصحيحين عن أبي ذر قال : « إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله تعالى خيرا ، فنفح فيه بيمينه وشماله ، وبين يديه وورائه ، وعمل فيه خيرا »[4] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٤٧٢/٢) ، ورقمه : ٤٣١٢ .

(٢) وإسناده صحيح كما يقول محقق مشكاة المصابيح : (٤٧٤/٢) ، ورقم الحديث : (٤٣٣٢) .

(٣) ساق الشيخ ناصر الدين الألباني طرق الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ورقم الحديث : (٣٤٣) .

(٤) صحيح الجامع الصغير : (١٦٥/٢) ، ورقمه : (١٩٥٠) .

وقلة الحسنات تؤخرهم ، وتجعل الآخرين يتقدمونهم ، بعدما كانوا في الدنيا مقدمين ، ففي سنن ابن ماجة عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة ، إلا من قال بالمال هكذا ، وهكذا ، وكسبه طيب »[1] .

وأخبرناالرسول ﷺ أن الذين أثقلوا أنفسهم بالنعيم الدنيوي ، والغنى والثراء لا يستطيعون أن يتجاوزوا في يوم القيامة العقبات والأهوال ، ففي شعب الإيمان عن أم الدرداء قالت : قلت لأبي الدرداء : مالك لا تطلب كما يطلب فلان ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أمامكم عقبة كؤودا لا يجوزها المثقلون »[2] .

المطلب الخامس
فضيحة الغادر

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء ، فقيل : هذه غدرة فلان ابن فلان » رواه مسلم[3] .

والغادر : الذي يواعد على أمر ، ولا يفي به ، واللواء : الراية العظيمة ، لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب ، أو صاحب دعوة الجيش ، ويكون الناس تبعا له[4] . فالغادر ترفع له راية تسجل عليها غدرته ، فيفضح بذلك يوم القيامة ،

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣٦٤/٤) ، ورقمه : ١٧٦٦ .
(٢) مشكاة المصابيح : (٦٠٧/٢) ورقمه : (٥٢٠٤) . وعزاه في صحيح الجامع إلى الحاكم أيضا انظر : صحيح الجامع (١٧٨/٢) ورقمه : ١٩٩٧ .
(٣) صحيح مسلم ، (١٣٥٩/٣) ورقمه : ١٧٣٥ ، والحديث رواه البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم .
(٤) شرح النووي على مسلم : (٤٢/١١) .

وتجعل هذه الراية عند مؤخرته ، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة »[1] .

وكلما كانت الغدرة كبيرة عظيمة كلما ارتفعت الراية التي يفضح بها في يوم الموقف الغظيم ، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ، ألا ولاغادر أعظم غدرا من أمير عامة »[2] ، وأمير العامة هو الحاكم أو الخليفة ، وكانت غدرته كذلك لأنَّ ضرره يتعدى إلى خلق كثير ، ولأنَّ الحاكم أو الوالي يملك القوة والسلطان فلا حاجة به إلى الغدر .

وقد جعل الله العقاب بهذا اللون من العقوبة على طريقة ما يعهده البشر ويفهمونه ألا ترى قول شاعرهم :

أسمّي ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها في المجمع

فكانت العرب ترفع للغادر لواء في المحافل ومواسم الحج ، وكذلك يطاف بالجاني مع جِنايته[3] .

المطلب السادس

الغــلول

الغلول هو الأخذ من الغنيمة على وجه الخفية ، وهو ذنب يخفي تحته شيء من الطمع والأثرة ، وقد توعد الله تبارك وتعالى الغال بفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، وذلك لتحميله ما غلّه في ذلك اليوم ، ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ

(١) صحيح مسلم : (٣/١٣٦١) ، ورقم الحديث : ١٧٣٨ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) التذكرة للقرطبي : ٢٩٧ .

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[١] .

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية : « أي يأتي به حاملا له على ظهره وعلى رقبته ، معذبا بحمله وثقله ، ومرعوبا بصوته ، وموبخا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد »[٢] .

ومن الغلول غلول الحكام والموظفين والعمال والولاة من الأموال العامة ، وقد وضح الرسول ﷺ كيف يحمل الغالون يوم القيامة ما غلوه في أكثر من حديث ، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فذكر الغلول فعظمه ، وعظم أمره ، ثم قال : « لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، يقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمه ، فيقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاه لها ثغاء ، يقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رأسه رقاع تخفق ، فيقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[٣] ، فيقول : يا رسول

---

(١) سورة آل عمران : ١٦١

(٢) تفسير القرطبي : (٤/٢٥٦) .

(٣)) الصامت : الذهب والفضة .

الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك » متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم ، وهو أتم[١] .

وأخرج الطبراني في « معجمه الكبير » ، والبيهقي في « السنن » ، والحميدي في مسنده أن الرسول ﷺ استعمل عبادة بن الصامت على الصدقة ، ثم قال له : « اتق الله يا أبا الوليد أن تأتي يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك ، له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثؤاج »[٢] .

وقد ساق ابن كثير في تفسيره الأحاديث المرهبة من الغلول ، ومنها أحاديث غلول العمال من الصدقات ، وساق حديث أبي حميد الساعدي قال : « استعمل رسول الله ﷺ رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لي .

فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فقال : « ما بال العامل نبعثه على عمل ، فيقول : هذا لكم ، وهذا لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه ، فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ، إن كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاه تيعر » رواه البخاري ومسلم[٣] .

المطلب السابع
غاصب الأرض

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ « من أخذ من الأرض شيئا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين »[٤] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٤٠١) . ورقم الحديث : ٣٩٩٥ .
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٥٣٧) ، ورقمه : (٨٥٧) . والحديث صحيح .
(٣) تفسير ابن كثير : (٢/١٤٥) .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض ، فتح الباري : (٥/١٠٣) .

المطلب الثامـــن
ذو الوجهيـــن

شر الناس يوم القيامة المتلوِّن الذي لا يثبت على حال واحدة وموقف واحد ، فيأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ، روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تجدون شرَّ الناس يوم القيامة ذا الوجهين ، الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه »(١) .

وورد في بعض الأحاديث أن هذا الصنف من الناس يكون له لسان من نار يوم القيامة ، فقد أخرج أبو داود واللفظ له ، والبخاري في الأدب المفرد ، والدارمي ، وأبو يعلى وغيرهم عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان له وجهان في الدنيا كان له لسان من نار يوم القيامة »(٢) .

المطلب التاسع
الحاكم الذي يحتجب عن رعيته

روى أبو داود وابن ماجة والحاكم بإسناد صحيح عن أبي مريم الأزدي قال : قال رسول الله ﷺ : « من ولي من أمور المسلمين شيئا ، فاحتجب دون خلتهم ، وحاجتهم ، وفقرهم ، وفاقتهم ، احتجب الله عنه يوم القيامة ، دون خلته ، وحاجته ، وفاقته ، وفقره »(٣) .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٥٧٨) ، ورقمه : ٤٨٢٠ .
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٥٨٤) ، ورقمه : ٨٩٢ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٥/٣٦٨) ، ورقم الحديث : ٦٤٧١ .

المطلب العاشر
الذي يسأل وله ما يغنيه

يبعث الذي كان يسأل الناس وله ما يغنيه ، وفي وجهه خموش أو كدوش ، فقد أخرج أبو داود والنسائي والترمذي والدارمي وغيرهم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل وله ما يغنيه ، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا أو خموشا أو كدوحا في وجهه .

قيل : يا رسول الله ، وما يغنيه ؟

قال : خمسون درهما ، أو قيمتها من الذهب »[1] .

وفي مسند الإمام أحمد عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « مسألة الغنى شين في وجهه يوم القيامة »[2] .

المطلب الحادي عشر
البصاق تجاه القبلة

جهة القبلة محترمة مقدسة ، ولذا فقد جاءت الأحاديث ناهية عن استقبال القبلة واستدبارها حال البول والغائط .

ومما نهى عنه الرسول ﷺ البصاق تجاه القبلة ، وأخبرناأن الذي يتنخم تجاه القبلة يأتي يوم القيامة ونخامته في وجهه ، فقد روى البزار في مسنده ، وابن حبان وابن خزيمة في صحيحهما عن ابن عمر قال : « تبعث النخامة في القبلة يوم

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : ورقم الحديث : (٤٩٩) .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٢٠٨/٥) ورقمه : ٥٧٤٧ ، وقال المحقق فيه : صحيح .

القيامة ، وهي في وجه صاحبها »[1] .

وروى أبو داود في « سننه » وابن حبان في « صحيحه » عن حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ قال : « من تفل تجاه القبلة جاء يوم القيامة وتفله بين عينيه » ، وإسناده صحيح[2] .

المطلب الثاني عشر
من كذب في حلمه

يعاقب الذي يكذب في حلمه يوم القيامة بأن يكلف بأن يعقد بين شعيرتين ، والذي يستمع إلى قوم وهم كارهون يعاقب بأن يصب الآنك في أذنيه يوم القيامة ، والآنك الرصاص .

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ، ولن يفعل ، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ، أو يفرون منه ، صب في أذنه الآنك يوم القيامة »[3] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣/٣٣) ، ورقمه : ٢٩٠٧ ، وقال الشيخ ناصر فيه : صحيح ، وانظر كلام الشيخ ناصر الدين الألباني على الحديث في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » حديث رقم : ٢٢٣ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ورقم الحديث : ٢٢٢ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب تعبير الرؤيا ، باب من كذب في حلمه ، فتح الباري : (١٢/٤٢٧) .

المبحث الثالث
حال الأتقياء

المطلب الأول
يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون

صنف من عباد الله لا يفزعون عندما يفزع الناس ، ولا يحزنون عندما يحزن الناس ، أولئك هم أولياء الرحمن الذين آمنوا بالله ، وعملوا بطاعة الله استعدادا لذلك اليوم فيؤمنهم الله في ذلك اليوم ، وعندما يبعثون من القبور تستقبلهم ملائكة الرحمن تهدىء من روعهم ، وتطمئن قلوبهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[1] ، والفزع الأكبر ، هو ما يصيب العباد عندم يبعثون من القبور ، ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[2] .

ففي ذلك اليوم ينادي منادي الرحمن أولياء الرحمن مطمئناً لهم ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾[3] وقال في موضع آخر : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠١ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٢ .

(٣) سورة الزخرف : ٦٨ ـ ٦٩ .

﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[(1)] .

والسر في هذا الأمن الذي يشمل الله به عبادة الأتقياء ، أن قلوبهم كانت في الدنيا عامرة بمخافة الله ، فأقاموا ليلهم ، وأظمئوا نهارهم ، واستعدوا ليوم الوقوف بين يدي الله ، فقد حكى عنهم ربهم أنهم كانوا يقولون : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[(2)] ، ومن كان حاله كذلك فإن الله يقيه من شر ذلك اليوم ويؤمنه ، ﴿فَوَقَىٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[(3)] .

وفي الحديث الذي يرويه أبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : وعزتي وجلالي ، لاأجمع لعبدي أمنين ولا خوفين ، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي »[(4)] .

وكلما كان العبد أكثر إخلاصا لربه تبارك وتعالى كان أكثر أمنا في يوم القيامة ، فالموحدون الذين لم يلبسوا إيمانهم بشيء من الشرك ، لهم الأمن التام يوم القيامة ، يدلك على هذا جواب إبراهيم لقومه عندما خوفوه بأصنامهم ، فأجابهم قائلا : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[(5)] .

---

(١) سورة يونس : ٦٢ ـ ٦٤ .

(٢) سورة الدهر: ١٠ .

(٣) سورة الدهر : ١١ ـ ١٢ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٣٧٧) ، ورقمه : ٧٤٢ ، وإسناده حسن .

(٥) سورة الأنعام : ٨١ ـ ٨٢ .

المطلب الثاني
الذين يظلهم الله في ظله

عندما يكون الناس في الموقف العظيم تحت وهج الشمس القاسي ، يذوقون من البلاء شيئاً تنوء بتحمله الجبال الشم الراسيات ـ يكون فريق من الأخيار هانئين في ظل عرش الرحمن ، لا يعانون الكربات التي يقاسي منها الآخرون .

وهؤلاء هم أصحاب الهمم العالية ، والعزائم الصادقة ، الذي تمثلت فيه عقيدة الإسلام ، وقيمه الفاضلة ، أو قاموا بأعمال جليلة ، لها في مقياس الإسلام وزن كبير .

فمن هؤلاء ؟ الإمام العادل ، الذي يملك القوة والسلطان ، ولكنه لم يطغ ، وأقام العدل بين العباد وفق سلطان الشرع الإلهي .

ومنهم الشاب الذي نشأ في عبادة ربه ، وألجم نفسه بلجام التقوى ، وردع النفس والهوى ، فعاش عمره طاهرا نقيا .

ومنهم الذين يعمرون مساجد الله ، يجدون في رحابها الأنس بالله ومناجاته ، فلا يكادون يفارقونها حتى يحنوا إلى رحابها .

ومن هؤلاء المتحابون في الله تبارك وتعالى ، تجمعهم رابطة الأخوة فيه ، ويجتمعون على البر والتقوى والصلاح ، ويتفرقون على عمل صالح .

ومنهم الذين تعرض لهم فتنة النساء ، فيحول خوف الله بينهم وبين الوقوع في الفاحشة .

ومنهم المنفق الذي يخلص دينه لله ، فيخفي الصدقة حتى عن نفسه .

ومنهم الذي تملأ مخافة الله قلبه ، فتفيض عيناه من أجل ذلك وهو وحيد ليس معه أحد .

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعة يظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربِّهِ ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته إمرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »[١] .

وقد جاءَت نصوص كثيرة تدل على إظلال الله للمتحابين فيه في ظل العرش في ذلك اليوم منها حديث أبي هريرة عند مسلم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي ، يوم لا ظل إلا ظلي »[٢] .

وفي معجم الطبراني الكبير ومسند أحمد ، وصحيح ابن حبان ، ومستدرك الحاكم ، عن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المتحابين في الله في ظل العرش »[٣] . وفي كتاب « الاخوان » لابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : « حقت محبتي على المتحابين ، أظلهم في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظلي »[٤] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب من جلس في المسجد ، فتح الباري : (١٤٣/٢) . ورواه مسلم : (٧١٥/٢) ، ورقمه : (١٠٣) والسياق للبخاري .

(٢) رواه مسلم : (١٩٨٨/٤) ، ورقمه : ٢٥٦٦ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (١٦١/٢) ورقمه : ١٩٣٣ .

(٤) صحيح الجامع الصغير : (١١٦/٤) .

والإظلال في ظل العرش ليس مقصورا على السبعة المذكورين في الحديث ، فقد جاءت نصوص كثيرة تدل على أن الله يظل غيرهم ، وقد جمع ابن حجر العسقلاني الخصال التي يظل الله أصحابها في كتاب سماه : « معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال »[1] .

ومن هذه الخصال إنظار المعسر أو الوضع عنه ، ففي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي اليسر عن رسول الله ﷺ قال : « من أنظر معسرا أو وضع عنه ، أظله الله في ظله »[2] .

وفي مسند أحمد وسنن الدارمي بإسناد صحيح عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ قال : « من نفس عن غريمه أو محا عنه ، كان في ظل العرش يوم القيامة »[3] .

المطلب الثالث
الذين يسعون في حاجة إخوانهم ويسدّون خلتهم

من أعظم ما يفرج كربات العبد في يوم القيامة سعي العبد في الدنيا في فك كربات المكروبين ، ومساعدة المحتاجين ، والتيسير على المعسرين ، وإقالة عثرات الزالين ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »[4] .

---

(١) فتح الباري : (٢/١٤٤) .
(٢) صحيح مسلم : (٤/٢٣٠٢) ، ورقمه : ٣٠٠٦ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٤/٣٦٤) ، ورقمه : ١٤٥٢ .
(٤) مشكاة المصابيح : (١/٧١) ورقم الحديث : ٢٠٤ .

وروى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمر أن رسول لله ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة »[1] .

وروى الدينوري في « المجالسة » ، والبيهقي في « الشعب » والضياء في « المختارة » عن أنس أن النبي ﷺ قال : « من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في الدنيا والآخرة »[2] .

المطلب الرابع
الذين ييسرون على المعسرين

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسرا تجاوز عنه ، لعل الله أن يتجاوز عنا ، قال : فلقي الله فتجاوزعنه »[3] .

وروى النسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إن رجلا لم يعمل خيرا قط ، وكان يداين الناس ، فيقول لرسوله : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز ، لعل الله يتجاوز عنا .

فلما هلك قال : هل عملت خيرا قط ؟ قال : لا ، إلا أنه كان لي غلام ، وكنت أداين الناس ، فإذا بعثته يتقاضى قلت له : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز ، لعل الله أن يتجاوز عنا . قال الله : قد تجاوزت عنك »[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب لا يظلم المسلم المسلم ، فتح الباري : (٥/٩٧) .
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢١٨/٣) ورقم الحديث : ١٢١٧ .
(٣) مشكاة المصابيح : (١٠٨/٢) ، ورقم الحديث : (٢٨٩٩) .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٢٠٤/٢) ، ورقم الحديث : ٢٠٧٣ .

وفي مستدرك الحاكم بإسناد صحيح عن حذيفة ، وعقبة بن عامر ، وأبي مسعود ، عن رسول الله ﷺ قال : « أتى الله عز وجل بعبد من عباده آتاه الله مالا ، فقال له : ماذا عملت في الدنيا ؟ فقال : ما عملت من شيء يا رب ، إلا أنك آتيتني مالا ، فكنت أبايع الناس ، وكان من خلقي أن أيسر على الموسر وأنظر المعسر . قال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك ، تجاوزوا عن عبدي »[1] .

المطلب الخامس
الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا

العادلون في يوم القيامة في مقام رفيع ، يجلسون على منابر من نورعن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور ، عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا »[2] .

المطلب السادس
الشهداء والمرابطون

إذا فزع الناس في يوم القيامة فإن الشهيد لا يفزع ، ففي سنن الترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معدي كرب قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير

(١) صحيح الجامع الصغير : (٩٢/١) ، ورقم الحديث : ١٢٤ .
(٢) صحيح مسلم : (١٤٥٨/٣) ، ورقم الحديث : ١٨٢٧ .

من الدنيا ومافيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقربائه »[1] .

والشاهد في الحديث أن الشهيد يأمن من الفزع الأكبر ، وهو فزع يوم القيامة . ومثل الشهيد المرابط في سبيل الله ، فإنه إذا مات وهو مرابط أمّنه الله من الفزع الأكبر ، فقد روى الطبراني بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ ، قال : « رباط يوم خير من صيام دهر ، ومن مات مرابطا في سبيل الله أمن من الفزع الأكبر ، وغدي عليه برزقه وريح من الجنة ، ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله »[2] .

ومن إكرام الله للشهيد يوم القيامة أن الله يبعثه وجرحه يتفجر دماً اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول لله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ، لا يُكْلَم أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم في سبيله ، إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم ، والريح ريح المسك »[3] .

وروى الترمذي والنسائي وأبو داود بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من قاتل في سبيل الله فواق[4] ناقه ، فقد وجبت له الجنة ، ومن جرح جرحا في سبيل الله ، أو نكب نكبة[5] ، فإنها تجيء يوم القيامة

---

(١) مشكاة المصابيح : (٣٥٨/٢) ، ورقم الحديث : ٣٨٣٤ ، وقال فيه محقق المشكاة : إسناده صحيح .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (١٧١/٣) ، ورقم الحديث : ٣٤٧٣ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب من يجرح في سبيل الله ، فتح الباري : (٢٠/٦) .
(٤) الفواق : ما بين الحلبتين .
(٥) أي أصيب بنكبة ، أي حادثة .

كأغزر ما كانت ، لونها الزعفران ، وريحها المسك »[1] .

قال ابن حجر : « قال العلماء : الحكمة في بعثه كذلك أن يكون معه شاهد بفضيلته ببذله نفسه في طاعة الله تعالى »[2] .

المطلب السابع
الكاظمون الغيظ

كثيرة هي المواقف العصيبة التي يصيب العبد فيها الأذى ، وقد يكون مصدره قريب أو صديق أو مُحْسَن إليه ، ولا شك أن الأذى المسموع أو المرئي أو المحسوس الذي يصيبنا يسبب لنا ألما في أعماقنا ، فتجيش نفوسنا بأنواع الانفعالات التي تدعونا إلى المواجهة الحادة ، وضبط النفس في مثل هذه الأحوال لا يملكه إلا أفذاذ الرجال .

إن الإسلام يعدُّ كظم الغيظ خلقا إسلاميا راقيا يستحق صاحبه التكريم ، فالجنة التي عرضها السموات والأرض أعدَّت للمتقين ، وكظم الغيظ في مقدمة صفات المتقين ، ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[3] .

وفي يوم القيامة يدعو رب العزة من كظم غيظه على رؤوس الخلائق ، ثم يخيره في أي الحور العين شاء ، روى الترمذي وأبو داود عن سهل بن معاذ بن جبل

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥٥) ، ورقم الحديث : ٣٨٢٥ .
(٢) فتح الباري : (٦/٢٠) .
(٣) سورة آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٤ .

عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كظم غيظا ، وهو يقدر أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور العين شاء »[1] .

المطلب الثامن
عتق الرقاب المسلمة

من الأعمال الكريمة التي يتمكن صاحبها من اقتحام العقبات الكأداء في يوم القيامة ، عتق الرقاب قال تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾[2] .

وقد ساق ابن كثير في تفسير هذه السورة النصوص الحديثية التي توضح هذه الآيات قال الإمام أحمد : حدثنا علي بن إبراهيم ، حدثنا عبدالله يعني ابن سعيد بن أبي هند ، عن اسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير ، عن سعيد بن مرجانه ، أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب ـ أي عضو ـ منها إربا منه من النار حتى أنه ليعتق باليد اليد وبالرجل الرجل وبالفرج الفرج » .

فقال علي بن الحسين : أنت سمعت هذا من أبي هريرة ؟ فقال سعيد : نعم . فقال علي بن الحسين لغلام له أفره غلمانه : ادع مطرفاً ، فلما قام بين يديه قال : اذهب فأنت حر لوجه الله ، وقد رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، من طرق عن سعيد بن مرجانة به وعند مسلم أن هذا الغلام الذي

---

(١) مشكاة المصابيح (٦٣١/٢) ورقمه ٥٠٨٨ ، وحسّن الشيخ ناصر إسناده في صحيح الجامع (٣٥٣//٥) . ورقم الحديث فيه : ٦٣٩٨ ، عزاه إلى أحمد والطبراني ، وانظر رقم : ٦٣٩٤ في صحيح الجامع .

(٢) سورة البلد : ١١ ـ ١٣ .

أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم .

وقال قتادة عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن أبي نجيح قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيما مسلم أعتق رجلا مسلماً ، فإن الله جاعل وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت إمرأة مسلمة فإن الله جاعل وفاء كلّ عظم من عظامها عظماً من عظامها من النار » رواه ابن جرير ، هكذا ، وأبو نجيح هذا هو عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه .

وقال الإمام أحمد : حدثناحيوة بن شريح ،حدثنا بقية ، حدثني بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن كثير بن مرة عن عمرو بن عبسةأنه حدثهم أن النبي ﷺ قال : « من بنى مسجدا ليذكر الله فيه يبني الله له بيتاً في الجنة . ومن أعتق نفساً مسلمة كانت فديته من جهنم ، ومن شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة » .

وقال أحمد : حدثناالحكم بن نافع ، حدثنا جرير عن سليم بن عامر أن شرحبيل بن السمط قال لعمرو بن عبسة : حدثنا حديثاً ليس فيه تزيد ولا نسيان . قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار عضواً بعضو ، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ كان كمعتق رقبة من بني إسماعيل » وروى أبو داود والنسائي بعضه .

وقال أحمد : حدثناهاشم بن القاسم ، حدثنا الفرج ، حدثنا لقمان عن أبي أمامه عن عمرو بن عبسة ؛ قال السلمي : قلت له حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم ، قال : سمعته يقول : « من ولد له ثلاثة أولاد

في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة ، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار ، ومن أنفق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها » وهذه أسانيد جيدة قوية ، ولله الحمد .

وقال أبو داود : حدثنا عيسى بن محمد الرملي ، حدثنا ضمرة عن ابن أبي عبلة ، عن العريف بن عياش الديلمي ، قال : أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان ، فغضب وقال : إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق في بيته ، فيزيد وينقص ، قلنا : إنما أردنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، قال : أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب يعني النار بالقتل ، فقال : « أعتقوا عنه ، يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار » . وكذا رواه النسائي من حديث إبراهيم بن أبي عبلة ، عن العريف بن عياش الديلمي ، عن واثلة به .

وقال أحمد : حدثنا عبدالصمد ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن قيس الجذامي ، عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ قال : « من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار » .

وحدثنا عبد الوهاب الخفاف ، عن سعيد عن قتادة ؛ قال : ذكر لنا أن قيساً الجذامي حدث عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « من أعتق رقبة مؤمنة فهي فكاكه من النار » تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم وأبو أحمد ، قالا : حدثنا عيسى بن عبدالرحمن البجلي ، من بني بجيلة ، من بني سليم ، عن طلحة بن مصرف ، عن عبد الرحمن بن عوسجة ، عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول

الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، علمني عملاً يدخلني الجنة ؛ فقال : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسئلة ، أعتق النسمة وفك الرقبة » . فقال : يا رسول الله ، أوليستا بواحدة ؟قال : « لا إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في عتقها ، والمنحة الوكوف ، والفيء على ذي الرحم الظالم ، فإن لم تطق ذلك ، فأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وائمر بالمعروف ، وانْهَ عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك ، فكف لسانك إلا من الخير »[1] .

المطلب التاسع
فضل المؤذنين

من الذين يظهر فضلهم في يوم القيامة المؤذنون ، فهم أطول الناس أعناقا في ذلك اليوم ، روى مسلم في صحيحه عن معاوية بن أبي سفيان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة »[2] . وطول العنق جمال ، ثم هو مناسب لما قاموا به من عمل حيث كانوا يبلغون الناس بأصواتهم كلمات الأذان التي تعلن التوحيد وتدعو للصلاة .

والمؤذن يشهد له في ذلك اليوم كل شيء سمع صوته عندما كان يرفع صوته بالأذان في الدنيا ، روى البخاري في صحيحه أن أبا سعيد الخدري قال لعبد الرحمن بن صعصعه : « إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذّنت في الصلاة ، فارفع بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة »[3] .

(١) تفسير ابن كثير : (٧/٢٩٥) .
(٢) صحيح مسلم : (٤/٢٩٠) ورقم الحديث : ٣٨٧ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول النبي ﷺ : « الماهر بالقرآن . . » . فتح الباري : (١٣/٥١٨) .

المطلب العاشر
الذين يشيبون في الإسلام

يكون الشيب نورا لصاحبه إذا كان مسلما في يوم القيامة ، كما صحت بذلك الأحاديث ، ففي سنن الترمذي والنسائي عن كعب بن مرة أن رسول الله ﷺ قال : « من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة »(١) .

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن حبان عن عمر بن عبسة قال : قال رسول الله ﷺ : « من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة »(٢) .

وروى البيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « الشيب نور المؤمن ، لا يشيب رجل شيبة في الإسلام إلا كانت له بكل شيبة حسنة ، ورفع بها درجة »(٣) . وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعا : « لا تنتفوا الشيب ، فإنه نور يوم القيامة ، من شاب شيبة في الإسلام كانت له بكل شيبة حسنة ، ورفع بها درجة » رواه ابن حبان بإسناد حسن(٤) .

وروى ابن عدي والبيهقي في الشعب عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الشيب نور في وجه المسلم ، فمن شاء فلينتف نوره »(٥) .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٠٤/٥) ورقم الحديث : ٦١٨٣ ، وعلّم عليه الشيخ ناصر بالصحة .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٣٠٤/٥) ورقم الحديث : ٦١٨٤ ، والحديث صحيح كما قال محقق الكتاب .
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٤٧/٣) ، ورقم الحديث : ١٢٤٣ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٤٧/٣) ، ورقم الحديث : ١٢٤٤ .

المطلب الحادي عشر
فضل الوضـــوء

الذين استجابوا للرسول ﷺ ، وأقاموا الصلاة ، وأتوا بالوضوء كما أمرهم نبيهم يُدْعَوْن يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ : يقول : « إن أمتي يُدْعَون يوم القيامة غرّا محجلين من آثار الوضوء »[1] .

قال ابن حجر : « (غرا) جمع أغر ، أي ذو غُرّة ، وأصل الغرة لمعة بيضاء تكون في جبهة الفرس ، ثم استعملت في الجمال والشهرة وطيب الذكر ، والمراد بها هنا النور الكائن في وجوه أمة محمد ﷺ ، وغُرّاً منصوب على المفعولية ليُدْعَوْن أو على الحال . أي أنهم إذا دعوا على رؤوس الأشهاد نودوا بهذا الوصف ، وكانوا على هذه الصفة .

وقوله (محجلين) من التحجيل ، وهو بياض يكون في ثلاث قوائم من قوائم الفرس ، وأصله من الحِجل بكسر الحاء وهو الخلخال ، والمراد به هنا أيضا النور »[2] .

وهذه الغرة وذلك التحجيل تكون للمؤمن حلية في يوم القيامة ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء »[3] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الوضوء ، باب فضل الوضوء ، فتح الباري : (١/٢٣٥) .
(٢) فتح الباري : (١/٢٣٦) .
(٣) مشكاة المصابيح : (١/٩٦) ورقم الحديث : ٢٩١ .

وبهذه الحلية النورانية تتميز هذه الأمة في يوم القيامة ، وبها يعرف الرسول ﷺ أمته من بين الخلائق ، لا فرق بين أصحابه وغيرهم ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى مقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أنا قد رأينا إخواننا » .

قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟

قال : « أنتم أصحابي ، إخواننا الذين لم يأتوا بعد » .

فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من امتك يارسول الله ؟

فقال : « أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة ، بين ظهري خيل دهم بهم ، ألا يعرف خيله ؟ » .

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : « فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم[1] على الحوض »[2] .

وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة ، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه ، فأنظر إلى ما بين يدي ، فأعرف أمتي من بين الأمم ، ومن خلفي مثل ذلك ، وعن يميني مثل ذلك ، وعن شمالي مثل ذلك » .

فقال رجل : يا رسول الله ، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟

قال : « هم غُرٌّ محجلون من أثر الوضوء ، ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذريتهم »[3] .

---

(١) أي سابقهم .

(٢) مشكاة المصابيح : (١/٩٨) ، ورقم الحديث : ٢٩٨ .

(٣) مشكاة المصابيح : (١/٩٩) ورقم الحديث ٢٩٩ .

الفَصْلُ التَّاسِعُ

الشفاعة

عندما يشتد البلاء بالناس في الموقف العظيم ويطول بحث العباد عن أصحاب المنازل العالية ليشفعوا لهم عند ربهم ، كي يأتي لفصل الحساب وتخليص الناس من كربات الموقف وأهواله ، فيطلبون من أبيهم آدم أن يقوم بهذه المهمة الكبيرة ، ويذكِّرونه بفضله وإكرام الله له ، فيأبى ويعتذر ، ويذكر عصيانه ربه بأكله من الشجرة التي حرّم الله عليه الأكل منها ، ويحيلهم إلى نوح أول رسول أرسله الله إلى البشر ، الذي سماه الله عبداً شكوراً ، فيأبى ويذكر ما كان منه من تقصير في بعض الأمور تجاه ربه ومولاه ، وهكذا يحيلهم إلى من بعده من أولي العزم من الرسل ، والآخر يدفعها إلى من بعده ، حتى يأتوا الرسول الخاتم : محمد ﷺ ، الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيقوم مقاما يحمده عليه الأولون والآخرون ، وتظهر به منزلته العظيمة ، ودرجته العالية ، فيستأذن على ربّه فيأذن له ، ويحمده ويمجِّده ، ويسأله في أمته ، فيستجيب له ، ذلك أن الله أعطى كل نَبيّ دعوة في أمته لا ترد ، وقد استعجل كل نبي تلك الدعوة في الدنيا ، واختبأ الرسول ﷺ دعوته إلى ذلك الموقف الذي تحتاج فيه أمته إلى دعوته ، فصلوات الله وسلامه عليه فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، كما وصفه ربّه ، وقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل نبي سأل سؤالا أو قال : لكل نبي دعوة دعاها لأمته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة »[١] .

---

(١) جامع الأصول : ١٠/٤٧٥ ، ورقم الحديث : ٨٠٠٩ .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ قال : « لكل نبي دعوة دعا بها في أمته ، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة »[1] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجَّل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً »[2] .

وروى الترمذي وأبو داود عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »[3] .

---

(١) جامع الأصول : ١٠/٤٧٥ ، ورقم الحديث : ٨٠١٠ .

(٢) جامع الأصول : ١٠/٤٧٦ ، ورقم الحديث : ٨٠١١ .

(٣) جامع الأصول : ١٠/٤٧٦ ، ورقم الحديث : ٨٠١٢ وإسناده صحيح كما قال محقق الكتاب .

المَبحَث الأوّل
أحاديث الشفاعة

وقد جاءت أحاديث كثيرة تصف الشفاعة العظمى ، وسنكتفي بإيراد ما جمعه ابن الأثير منها في جامع الأصول[1] .

١ ـ روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن معبد بن هلال العنزي قال : « انطلقنا إلى أنس بن مالك ، وتشفعنا بثابت ، فانتهينا إليه وهو يصلي الضحى ، فاستأذن لنا ثابت ، فدخلنا عليه ، وأجلس ثابتاً معه على سريره فقال له : يا أبا حمزة ، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة .

فقال: حدثنا محمد ﷺ ، قال : « إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض ، فيأتون آدم ، فيقولون : اشفع لذريتك ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم ، فإنه خليل الله ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى ، فإنه كليم الله ، فيؤتى موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيؤتى عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد .

فأؤتى فأقول : أنا لها ، ثم انطلق فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، فأقوم بين يديه ، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلاّ أن يلهمنيها ، ثم أخر لربنا ساجداً ،

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٤٧٧) وقد أبقينا تخريج محقق الكتاب على حاله في الهامش .

فيقول : يامحمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقول : انطلق ، فمن كان في قلبه مثال حبة من بُرَّةٍ أو شعيرةٍ من إيمانٍ فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل .

ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال لي : انطلق ، فمن كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردلٍ من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل .

ثم أعود إلى ربي أحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ، ارفع رأسك وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ، أمتي أمتي ، فيقال لي : انطلق ، فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من أيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل » .

هذا حديث أنس الذي أنبأنا به ، فخرجنا من عنده ، فلما كنا بظهر الجبَّان[1] ، قلنا : لو ملنا إلى الحسن فسلمنا عليه وهو مستخف في دار أبي خليفة ؟ قال : فدخلنا عليه ، فسلمنا عليه ، قلنا : يا أبا سعيد ، جئنا من عند أخيك أبي حمزة ، فلم نسمع بمثل حديثٍ حدَّثناه في الشفاعة ، قال : هيه ، فحدثناه الحديث ، فقال : هيه ، قلنا : ما زادنا ؟ قال : قد حدثنا به منذ عشرين سنة ، وهو يومئذ جميع[2] ، ولقد ترك شيئاً ما أدري : أنسي الشيخ ، أم كره أن يحدثكَم فتتَّكلوا ؟ قلنا له : حدثنا ، فَضَحكَ وقال : خلق الإنسان من عجل ، ما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه .

قال : « ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له

(١) الجبان ، والجبانة : المقابر .

(٢) رجل جميع : أي مجتمع الخلق قوي ، لم يهرم ، ولم يضعف .

ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله ، قال : فليس ذلك لك ، أو قال : ليس ذلك إليك ، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله » قال : فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك ـ أراه قال : قبل عشرين سنة ـ وهو يومئذ جميع .

وفي رواية قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيهتمون لذلك ـ وفي رواية : فيلهمون لذلك ـ فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا ؟ قال : فيأتون آدم ، فيقولون : أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي ربه منها ، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

قال : فيأتون نوحاً ، فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي رَبَّه منها ، ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلا ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست هناكم ، وذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي ربه منها ، ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله وأعطاه التوراة .

قال : فيأتون موسى ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي ربه منها ، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى روح الله وكلمته ، فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمداً ، عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال : قال رسول الله ﷺ : فيأتونني ، فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله ، فيقال : يا محمد ، ارفع ، قل يسمع ،

سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي ، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجداً ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال لي : ارفع يا محمد ، قل يسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً ، فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة .

قال : فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة فأقول : يا رب ، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ، أو وجب عليه الخلود » أخرجه البخاري ومسلم .

وأخرجه البخاري تعليقاً : عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال : « يحبس المؤمنون يوم القيامة . . . وذكر نحوه ، وفي آخره : ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن - أي وجب عليه الخلود - ثم تلا هذه الآية ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾[1] ، قال : وهذا المقام المحمود الذي وُعِدَهُ نبيكم ﷺ » .

زاد في رواية : فقال النبي ﷺ : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة » .

قال يزيد بن زريع : فلقيت شعبة ، فحدثته بالحديث ، فقال شعبة : حدثنا به قتادة عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ بالحديث ، إلا أن شعبة جعل مكان « الذَّرّة » : « ذُرَةً » قال يزيد : صحف فيها أبو بسطام ، كذا في كتاب مسلم من رواية يزيد عن شعبة . قال البخاري : وقال أبانٌ عن قتادة بنحوه . وفيه « من إيمان » مكان « خير » زاد في رواية : أن النبي ﷺ قال - في حديث سؤال المؤمنين

(١) سورة الإسراء : ٧٩ .

الشفاعة ـ « فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه » وللبخاري طرف منه عن حميد عن أنس قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة شفعت ، فقلت : أدخل الجنة من كان في قلبه خردلة ، فيدخلون ، ثم أقول : أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء . قال أنس : كأني أنظر إلى أصابع النبي ﷺ »[1] .

٢ ـ وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كنا مع النبي ﷺ في دعوة ، فرفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فنهس منها نهسة[2] ، وقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون : مم ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ، ويسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه ، إلى ما بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم .

فيأتونه ، فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فقال : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح .

فيأتون نوحاً ، فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا

---

(١) رواه البخاري ١٣/٣٩٥ ـ ٣٩٧ في التوحيد ، باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، وباب قول الله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ، وباب قوله تعالى : ﴿ وكلم موسى تكليما ﴾ وفي تفسير سورة البقرة ، باب قول الله تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ ، وفي الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، ومسلم رقم ١٩٣ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها .
(٢) النهس : أخذ اللحم بمقدم الأسنان .

عند ربك ؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنَّه قد كان لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى إبراهيم .

فيأتون إبراهيم فيقولون : أنت نبي الله ، وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، أما ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات . . . فذكرها ـ نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى .

فيأتون موسى فيقولون : أنت رسول الله ، فضلك برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، أما ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى عيسى .

فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى ، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروحٌ منه ، وكلمت الناس في المهد ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ، فيأتون محمداً ﷺ ـ وفي رواية : فيأتوني ـ فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فأنطلق ، فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي ، فأقول : أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، فيقال : يا محمد ، أدخل من

أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ، كما بين مكة وهجر ـ أو كما بين مكة وبصرى ـ وفي كتاب البخاري : كما بين مكة وحمير .

وفي رواية قال : « وضعت بين يدي رسول الله ﷺ قصعة من ثريد ولحم ، فتناول الذراع ـ وكانت أحبَّ الشاة إليه ـ فنهس نهسة ، فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، ثم نهس أخرى ، فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، فلما رأى أصحابه لا يسألونه ، قال : ألا تقولون : كيفه ؟ قالوا : كيفه يا رسول الله ؟ قال : يقوم الناس لرب العالمين . . . وساق الحديث بمعنى ما تقدم ، وزاد في قصة إبراهيم ، فقال : وذكر قوله في الكوكب : هذا ربي ، وقوله لآلهتهم ، بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله : إني سقيم ، وقال : والذي نفس محمد بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة إلى عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر ، أو هجر ومكة ، لا أدري أي ذلك قال ؟ » أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، إلا أن في كتاب مسلم « نفسي نفسي » مرتين في قول كل نبي ،والحميدي ذكر كما نقلناه ، وفي رواية الترمذي « نفسي ، نفسي ، نفسي » ثلاثاً في الجميع[1] .

وروي مسلم عن حذيفة بن اليمان ، وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تُزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا ، استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل

---

(١) رواه البخاري ٦/٢٦٤ و ٢٦٥ في الأنبياء ، باب قول الله عز وجل : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ، وباب قول الله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ وفي تفسير سورة بني إسرائيل باب (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً) ، ومسلم رقم ١٩٤ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، والترمذي رقم ٢٤٣٦ في صفة القيامة ، باب ماجاء في الشفاعة .

أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله ، قال : فيقول إبراهيم : لست بصاحب ذلك ، إنما كنت خليلاً من وراء وراء ، اعمدوا إلى موسى الذي كلمه تكليما ، قال : فيأتون موسى ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى : لست بصاحب ذلك ، فيأتون محمداً ﷺ : فيقوم ، فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم ، فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمر أولكم كالبرق ، قال : بأبي وأمي ، أي شيء كالبرق ، قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمرِّ الريح ، ثم كمرِّ الطير ، وشد الرجال ، تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط ، فيقول : رب سلم سلم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة ، تأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ، ومكدوس[1] في النار ، والذي نفسُ أبي هريرة بيده ، إن قعر جهنم لسبعين[2] خريفاً[3] » .

٤ ـ روي الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ ـ آدم فمن سواه ـ إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، فقال : فيفزع الناس ثلاث فزعات ، فيأتون آدم ، فيقولون : أنت أبونا آدم ، فاشفع لنا إلى ربك ، فيقول : إني أذنبت ذنباً فأهبطت به إلى الأرض ، ولكن ائتوا نوحاً ، فيأتون نوحاً ، فيقول : إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأُهلكوا ، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم ،

(١) وفي بعض النسخ ومكردس .

(٢) وفي بعض النسخ : لسبعون ، وكلاهما صحيح ، وانظر ما قاله النووي في شرح مسلم .

(٣) رقم ١٩٥ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

فيقول : إني كذبت ثلاث كذبات ، ثم قال رسول الله ﷺ : ما منها كذبة إلا ماحل[1] بها عن دين الله ، ولكن ائتوا موسى ، فيأتون موسى ، فيقول : قد قتلت نفساً ، ولكن ائتوا عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقول : إني عُبِدْتُ من دون الله ، ولكن ائتوا محمداً ﷺ ، فيأتوني ، فانطلق معهم . قال ابن جدعان : قال أنس : فكأني أنظر إلى رسول الله ، قال: فآخذ بحلقة باب الجنة ، فأقعقعها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : محمد ، فيفتحون لي ويرحبون ، فيقولون : مرحباً ، فأَخرّ ساجداً ، فيلهمني الله من الثناء والحمد ، فيقال لي : ارفع رأسك ، سل تُعْطَ ، واشفع تُشَفع ، وقل يُسمَع لقولك ، وهو المقام المحمود الذي قال الله تعالى : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[2] قال سفيان : ليس عن أنس إلا هذه الكلمة « فآخُذُ بحلقة باب الجنة فأُقعْقِعُها » أخرجه الترمذي[3] .

---

(١) المماحلة : المخاصمة والمجادلة .

(٢) سورة الإسراء : ٧٩ .

(٣) رقم ٣١٤٧ في التفسير ، باب ومن سورة بني إسرائيل ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وهو كما قال .

المَبحَث الثاني

وَجه الاستدلال بالأحاديث على الشفاعة العظمى

الناظر في هذه الأحاديث يجد أن المؤمنين يرغبون إلى الأنبياء وآخرهم محمد ﷺ كي يخلصوهم من الموقف العظيم ، إلا أننا نجد أن الرسول ﷺ عندما يشفع إنما يشفع في أمته ، قال شارح الطحاوية بعد إيراده لبعض أحاديث الشفاعة التي سقناها : « والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه ، لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى ، في مأتى الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء ، كما ورد في حديث الصور ، فإنه المقصود في هذا المقام ، ومقتضى سياق أول الحديث ، فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ، ويستريحوا من مقامهم ، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه ، فإذا وصلوا إلى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة وإخراجهم من النار ، وكأن مقصود السلف ـ في الإقتصار على هذا المقدار من الحديث ـ هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها ، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح من الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث »[1] ثم ساق مضمون حديث الصور .

وفي كلام محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي عدة أمور :

١ ـ أنه أكد وجود هذا الإشكال في هذه الأحاديث ، وممن ذكر هذا الإشكال ابن

(١) شرح الطحاوية : ص ٢٥٥ .

حجر العسقلاني ، ونقله عن الدراوردي ، فإنه قال : « كأن راوي هذا الحديث ركب شيئا على غير أصله ، وذلك أن في أول ذكر الشفاعة في الإراحة من كرب الموقف ، وفي آخره ذكر الشفاعة في الإخراج من النار ، يعني وذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف والمرور على الصراط ، وسقوط من يسقط في تلك الحالة في النار ، ثم يقع بعد ذلك الشفاعة في الإخراج »[1] قال ابن حجر بعد نقله كلام الدراوردي « وهو إشكال قويٌّ »[2] .

٢ ـ وقد أجاب شارح الطحاوية عن هذا الإشكال ـ كما نقلناه عنه ـ أن الذين نقلوا هذه النصوص قصَّروا في النقل ، وسرّ هذا التقصير أنهم قصدوا الرد على الخوارج الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها ، وزعموا أن كل من دخل النار فإنه فيها خالد ، واحتج على ما ذهب إليه بحديث الصور الذي يصرح فيه بأن الرسول ﷺ يشفع أولا كي يأتي الحق للقضاء بين الناس ، ثم يشفع مرة أخرى لدخول الجنة ، ولو كان حديث الصور هذا صحيحاً لكان فيه حل لهذا الإشكال ، ولكنه حديث ضعيف كما بينه الشيخ ناصر الدين الألباني في تحقيقه لأحاديث الطحاوية .

ولعل ما ذهب إليه القاضي عياض وتابعه النووي وابن حجر وغيرهما عليه أكثر دقّة وتوفيقا مما قاله شارح الطحاوية ، قال ابن حجر : « وقد أجاب عن هذا الإشكال عياض وتبعه النووي وغيره بأنه قد وقع في حديث حذيفة المقرون بحديث أبي هريرة بعد قوله : « فيأتون محمدا فيقوم ويؤذن له » أي في الشفاعة ، وترسل الأمانة والرحم ، فيقومان جنبي الصراط يمينا وشمالا ، فيمر أولكم

---

(١) فتح الباري : (١١/٤٣٧) .
(٢) فتح الباري : (١١/٤٣٨) .

كالبرق » الحديث ، قال عياض : فبهذا يتصل الكلام ، لأن الشفاعة التي لجأ إليه الناس فيها هي الإراحة من كرب الموقف ، ثم تجيء الشفاعة في الإخراج ، وقد وقع في حديث أبي هريرة . . الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد ، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين ، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمرور عليه ، فكان الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف ، قال : وبهذا تجتمع متون الأحاديث ، وتترتب معانيها »[1] ، وقد زاد الحافظ ابن حجر هذه المسألة إيضاحاً ، وأورد النصوص الدالة على أن في بعض الأحاديث شيئا من الإختصار فقال : « قلت : فكأن بعض الرواة حفظ مالم يحفظ الآخر ، وسيأتي بقيته في شرح حديث الباب الذي يليه وفيه « حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً وفي جانبي الصراط كلاليب مأمورة بأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ومكدوس في النار » فظهر منه أنه ﷺ أول ما يشفع ليقضى بين الخلق ، وأن الشفاعة فيمن يخرج من النار ممن سقط تقع بعد ذلك .

وقد وقع ذلك صريحا في حديث ابن عمر اختصر في سياقه الحديث الذي ساقه أنس وأبو هريرة مطولا . وقد تقدم في كتاب الزكاة من طريق حمزة بن عبدالله بن عمر عن أبيه بلفظ : « إن الشمس تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد فيشفع ليُقضي بين الخلق ، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محمودا يحمده أهل الجمع كلهم .

ووقع في حديث أبي بن كعب عند أبي يعلي « ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي في الكلام ، ثم تمر أمتي على الصراط وهو منصوب بين ظهراني جهنم فيمرون » .

---

(١) فتح الباري : (١١/٤٣٨) .

وفي حديث ابن عباس من رواية عبدالله بن الحارث عنه عند أحمد « فيقول عز وجل : يا محمد ما تريد أن أصنع في أمتك ؟ فأقول : يا رب عجل حسابهم » وفي رواية عن ابن عباس عند أحمد وأبي يعلي « فأقول أنا لها ، حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، فإذا أراد الله أن يفرغ من خلقه نادى مناد : أين محمد وأمته » .

وتعرض الطيبي للجواب عن الإشكال بطريق آخر فقال : يجوز أن يراد بالنار الحبس والكرب والشدة التي كان أهل الموقف فيها من دنو الشمس إلى رؤوسهم وكربهم بحرِّها وسفعها حتى ألجمهم العرق ، وأن يراد بالخروج منها خلاصهم من تلك الحالة التي كانوا فيها .

قال ابن حجر : وهو احتمال بعيد ، إلا أن يقال إنه يقع إخراجان وقع ذكر أحدهما في حديث الباب على اختلاف طرقه والمراد به الخلاص من كرب الموقف ، والثاني في حديث الباب الذي يليه ويكون قوله فيه : « فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه » بعد تمام الخلاص من الموقف ونصب الصراط والإذن في المرور عليه ، ويقع الإخراج الثاني لمن يسقط في النار حال المرور فيتحدا » .

وأجاب القرطبي عن أصل الإشكال بأن في قوله آخر حديث أبي زرعة عن أبي هريرة بعد قوله ﷺ فأقول : يا رب أمتي أمتي ، « فيقال أدخل من أمتك من الباب الأيمن من أبواب الجنة من لا حساب عليه ولا عذاب » . فقال : في هذا ما يدل على أن النبي ﷺ يشفع فيما طلب من تعجيل الحساب ، فإنه لما أذن له في ادخال من لا حساب عليه دل على تأخير من عليه حساب ليحاسب ، ووقع في حديث الصور الطويل عند أبي يعلي « فأقول وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة يدخلون الجنة ، فيقول الله : وقد شفعتك فيهم وأذنت لهم في دخول الجنة » .

قلت : وفيه إشعار بأن العرض والميزان وتطاير الصحف يقع في هذا

الموطن ، ثم ينادي المنادي : ليتبع كل أمة من كانت تعبد ، فيسقط الكفار في النار ، ثم يميز بين المؤمنين والمنافقين بالامتحان بالسجود عند كشف الساق ، ثم يؤذن في نصب الصراط والمرور عليه ، فيطفأ نور المنافقين فيسقطون في النار أيضا ، ويمر المؤمنون عليه إلى الجنة ، فمن العصاة من يسقط ويوقف بعض من نجا عند القنطرة بينهم ثم يدخلون الجنة »[١] .

قلت : فهذا لو ثبت لرفع الإشكال لكن الكلبي ضعيف ، ومع ذلك لم يسنده ، ثم هو مخالف لصريح الأحاديث الصحيحة أن سؤال المؤمنين الأنبياء واحدا بعد واحد إنما يقع في الموقف قبل دخول المؤمنين الجنة والله أعلم .

---

(١) فتح الباري : (١١/٤٣٨) .

المبحث الثالث

الشفاعة المقبولة والشفاعة المرفوضة وأنواع الشفاعة المقبولة

دلت الأحاديث التي سقناها على نوعين من أنواع الشفاعة التي تقع في ذلك اليوم .

الأول : الشفاعة العظمى ، وهي المقام المحمود ، الذي يرغب الأولون والآخرون فيه إلى الرسول ﷺ ليشفع إلى ربه كي يخلص العباد من أهوال المحشر .

الثاني : الشفاعة في أهل الذنوب من الموحدين الذين دخلوا النار ، وسيأتي الحديث عن هذا النوع في مبحث « دخول الجنة » من كتاب « الجنة والنار » إن شاء الله تعالى .

وبقي أنواع جاء ذكرها في الأحاديث نعرض لها هنا على وجه الاختصار :

الأول والثاني : شفاعة الرسول ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفي آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لايدخلوها .

الثالث : شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم .

الرابع : الشفاعة في أقوام يدخلون الجنة بغير حساب ، ويمكن أن يستشهد لهذا بحديث عكاشة بن محصن حيث دعا له الرسول ﷺ أن يجعله من السبعين

ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، والحديث في الصحيحين .

الخامس : شفاعة الرسول ﷺ في تخفيف عذاب عمّه أبي طالب ، حيث يخرجه الله به إلى ضحضاح من نار يغطي قدميه يغلي لهما دماغه .

السادس : شفاعته في الإذن للمؤمنين بدخول الجنة ، وسيأتي الحديث عن هذا النوع في كتاب الجنة إن شاء الله تعالى .[1] .

والشفاعة في أهل الذنوب ليست خاصة بالرسول ﷺ ، فقد يشفع النبيون والشهداء والعلماء ، وقد يشفع للمرء أعماله ، ولكن رسولنا ﷺ له النصيب الأوفر منها ، وقد يشفع غيره أيضا في رفع درجات المؤمنين ، وبقية الأنواع خاصة بالرسول ﷺ .

هذه هي أنواع الشفاعة التي تقع في يوم القيامة ، أما الشفاعة المرفوضة فهي الشفاعة التي يتعامل بها الناس في الدنيا ، حيث يشفع الشافع وإن لم يرض الذي شفع عنده ، وقد يكره مَنْ شفع عنده على قبول شفاعة الشافعين لعظم منزلتهم وقوتهم وبأسهم، وهذه هي الشفاعة التي يعتقدها المشركون والنصارى في آلهتهم ، ويعتقدها المبتدعون من هذه الأمة في مشايخهم ، وقد أكذب الله أصحابها ، فلا أحد يشفع في ذلك اليوم إلا بإذن من الله ، ولا يشفع إلا إذا رضي الله عن الشافع والمشفوع ، قال تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[2] وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[3] .

ولذلك فإن والد إبراهيم لما مات كافراً فإن الله لا يقبل شفاعة خليله فيه في

(١) انظر في هذا الموضوع شرح الطحاوية : ٢٥٣ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٣) سورة الأنبياء : ٢٨ .

ذلك اليوم : روي البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : يلقي إبراهيم أباه آزر في يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال لإبراهيم : ما تحت قدميك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى في النار »[1] .

---

(١) مشكاة المصابيح : ٥٨/٣ .

الفصل العاشر

الحساب والجزاء

تمهيد : المراد بالحساب والجزاء

يراد بالحساب والجزاء أن يُوقف الحقُّ تبارك وتعالى عباده بين يديه ، ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها ، وأقوالهم التي قالوها ، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر ، واستقامة وانحراف ، وطاعة وعصيان ، وما يستحقونه على ما قدموه من إثابة وعقوبة ، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين ، وبشمالهم إن كانوا طالحين .

ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده ، وما يقولونه له ، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين ، وشهادة الشهود ووزن للأعمال .

والحساب منه العسير ، ومنه اليسير ، ومنه التكريم ، ومنه التوبيخ والتبكيت ، ومنه الفضل والصفح ، ومتولى ذلك أكرم الأكرمين .

المبحث الأول
مشهد الحساب

حدثنا ربنا عن مشهد الحساب والجزاء في يوم الحساب فقال : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1] . وحسبنا أن نعلم أن القاضي والمحاسب في ذلك اليوم هو الحكم العدل قيوم السموات والأرض ليتبين لنا عظم هذا المشهد وجلاله ومهابته ، ولعل هذا الإشراق المنصوص عليه في الآية ، إنما يكون عند مجيء الملك الجليل لفصل القضاء ، قال تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[2] ، وهو مجيء الله أعلم بكيفيته ، نؤمن به ونعلم أنه حق ، ولا نؤوِّله ولا نحرِّفه ، ولا نكذب به ، والآية تنصُّ على مجيء الملائكة ، فهو موقف جليل تحضره ملائكة الرحمن بكتب الأعمال التي أحصت على الخلق أعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم ليكون حجة على العباد ، وهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[3] .

ويجاء في موقف القضاء والحساب بالرسل ويسألون عن الأمانة التي حمَّلهم

---

(١) سورة الزمر : ٦٩ .

(٢) سورة البقرة : ٢١٠ .

(٣) سورة الكهف : ٤٧ .

الله إياها . وهي إبلاغ وحي الله إلى من أرسلوا إليه ، ويشهدون على أقوامهم ما علموه منهم .

ويقوم الأشهاد في ذلك اليوم العظيم فيشهدون على الخلائق بما كان منهم ، والأشهاد هم الملائكة الذين كانوا يسجلون على المرء أعماله ، ويشهد أيضا الأنبياء والعلماء كما تشهد على العباد الأرض والسماء والليالي والأيام .

ويؤتى بالعباد الذين عقد الحق محكمته العظيمة لمحاسبتهم ، ويقامون صفوفا للعرض على رب العباد ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾[1] ، ويؤتى بالمجرمين منهم وهم الذين كذبوا الرسل ، وتمردوا على ربهم ، واستعلوا في الأرض - مقرنين في الأصفاد ، مسربلين بالقطران ، ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[2] ولشدة الهول تجثوا الأمم على الركب عندما يدعى الناس للحساب لعظم ما يشاهدون ، وما هم فيه واقعون ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

إنه مشهد جليل عظيم نسأل الله أن ينجينا فيه بفضله وَمَنِّهِ وكرمه .

---

(١) سورة الكهف : ٤٨ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٩ - ٥١ .

(٣) سورة الجاثية : ٢٧ .

المبحث الثاني

هل يسأل الكفار؟ ولماذا يسألون؟

اختلف العلماء في الكفار : هل يحاسبون ويسألون ؟ أم يأمر بهم إلى النار من غير سؤال ، لأن أعمالهم باطلة حابطة فلا فائدة من السؤال والحساب ؟ وإذا كانوا يحاسبون ويسألون فما فائدة حسابهم وسؤالهم ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هذه المسألة تنازع فيها المتأخرون من أصحاب أحمد وغيرهم ، فممن قال إنهم لا يحاسبون أبو بكر عبدالعزيز ، وأبو الحسن التميمي ، والقاضي أبو يعلى ، وغيرهم ، وممن قال : إنهم يحاسبون : أبو حفص البرمكي من أصحاب أحمد ، وأبو سليمان الدمشقي ، وأبو طالب »[1] .

والصحيح أن الكفار محاسبون مسؤولون كما أن أعمالهم توزن ، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝١٠٣

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٠٥/٤) .

(٢) سورة القصص : ٦٢ .

(٣) سورة القصص : ٦٥ .

(٤) سورة القارعة : ٦ ـ ١١ .

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[1] ، ولا شك أن هذه النصوص في الكفار المشركين .

أما لماذا يحاسبون وتوزن أعمالهم مع أن أعمالهم حابطة مردودة فلأمور :

الأول : إقامة الحجة عليهم ، وإظهار عدل الله فيهم ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، وهو صاحب العدل المطلق ، ولذلك يسألهم ويحاسبهم ، ويطلعهم على سجلاتهم التي حوت أعمالهم ، ويظهر الميزان عظم سيئاتهم وشناعة أفعالهم ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[2] ، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[3] .

يقول القرطبي : « والباري ـ سبحانه وتعالى ـ يسأل الخلق في الدنيا والآخرة تقريراً لإقامة الحجة وإظهاراً للحكمة »[4] .

الثاني : أن الله يحاسبهم لتوبيخهم وتقريعهم ، يقول شيخ الإسلام : « يراد بالحساب عرض أعمال الكفار عليهم وتوبيخهم عليها ، ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات ، فإن أريد بالحساب المعنى الأول ، فلا ريب أنهم محاسبون بهذا الإعتبار .

وإن أريد به المعنى الثاني فإن قصد ذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات

---

(١) سورة المؤمنون : ١٠٣ .

(٢) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٣) سورة الكهف : ٤٩ .

(٤) تذكرة القرطبي : ٢٢٥ .

يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر »[1] .

وهذا التأنيب والتقريع والتوبيخ ظاهر من نصوص كثيرة كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[2] . وقوله ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[3] ،وقوله :﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾[4] ، وقوله :﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾[5] .

قال ابن كثير : « وأما الكفار فتوزن أعمالهم ، وإن لم تكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بهذا كفرهم ، لإظهار شقائهم وفضيحتهم على رؤوس الخلائق »[6] .

الثالث : أن الكفار مكلفون بأصول الشريعة كما هم مكلفون بفروعها ، فيسألون عما قصروا فيه وخالفوا فيه الحق ، يقول القرطبي : « وفي القرآن ما يدل على أنهم مخاطبون بها (أي فروع الشريعة) مسؤولون عنها ، محاسبون بها ، مجزيون على الإخلال بها ، لأن الله تعالى يقول : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٣٠٥) .
(٢) سورة الأنعام : ٣٠ .
(٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .
(٤) سورة الأعراف : ٤٤ .
(٥) سورة القصص : ٦٤ .
(٦) النهاية ، لابن كثير : (٢/٣٥) .

يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[1] فتوعدهم على منعهم الزكاة ، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[2] فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأنهم مسؤولون عنها، مجزيون بها »[3] .

الرابع : أن الكفار يتفاوتون في كفرهم وذنوبهم ومعاصيهم ، ويحلون في النار بمقدار هذه الذنوب ، فالنار دركات بعضها تحت بعض ، كما أن الجنة درجات بعضها فوق بعض ، وكلما كان المرء أشد كفراً وضلالا كلما كان أشد عذابا ، وبعض الكفرة يكون في الدرك الأسفل من النار ، ومنهم المنافقون ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[4] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « عقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قَلَّت سيئاته ، ومن كان له حسنات خففت عنه العذاب ، كما أن أبا طالب أخف عذابا من أبي لهب . . فكان الحساب لبيان مراتب العذاب ، لا لأجل دخولهم الجنة »[5] . ويذكر القرطبي في وزن أعمال العباد وجهين :

الأول : أنه يوضع في إحدى الكفتين كفرة وسيئاته . ولا يجد الكافر حسنة توضع في الكفة الأخرى ، فترجح كفة السيئات لكون كفة الحسنات فارغة .

والثاني : أن حسنات الكافر من صلة رحم ، وصدقة ، ومواساة للناس توضع في كفة الحسنات ، ولكن كفة السيئات ترجح بسبب كفره وشركه[6]

---

(١) سورة فصلت : ٦-٧ .
(٢) سورة المدثر : ٤٢ - ٤٦ .
(٣) تذكرة القرطبي : ٣٠٩ .
(٤) سورة النساء : ١٤٥ .
(٥)، مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٠٥/٤) .
(٦) تذكرة القرطبي : ٣١٢ .

والوجه الأول هو الصحيح لأن الشرك يحبط العمل ، ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[1] ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2] . وفي الحديث : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه »[3] .

٢ ـ ولأنه قد صحّ أن الرسول ﷺ أخبر أن الكافر يطعم بحسنته في الدنيا فيوافى يوم القيامة وليس له حسنة ، ففي صحيح مسلم ، ومسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنته ، يعطى بها في الدنيا (وفي رواية يثاب عليها الرزق في الدنيا) ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بها بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها »[4]

توجيه النصوص الدالة على أن الكفار لا يُسألون

فإن قيل : قررتم فيما سبق أن الكفار يسألون ويجادلون ويتكلمون ويعتذرون ، فكيف تفعلون بالنصوص الدالة على خلاف ذلك ، كقوله تعالى ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[5] ، وقوله ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾[7] ، ونحو ذلك من النصوص .

---

(١) سورة الزمر : ٦٥ .

(٢) سورة البقرة : ٢١٧ .

(٣) رواه النسائي في الجهاد عن أبي أمامة انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم : ٥٢ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٨٢/١) ورقمه : ٥٣ .

(٥) سورة القصص : ٧٨ .

(٦) سورة الرحمن : ٣٩ .

(٧) سورة المرسلات : ٣٥ .

فنقول ليس بين هذه النصوص وتلك تعارض ، وقد وفَّق أهل العلم بينهما بوجوه عِدَّة .

الأول : أن الكفار لا يسألون سؤال شفاء وراحة ، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، لم عملتم كذا وكذا[1] ؟ وكذا يقال في تكليمهم واعتذارهم ، أي لا يكلمهم الله بما يحبونه ، بل يكلمهم كلام تقريع وتوبيخ[2] .

الثاني : أنهم لا يسألون سؤال استفهام ، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم ، وإنما يسألون سؤال تقرير ، فيقال لهم : لم فعلتم كذا ؟ قال الحسن وقتادة : لا يسألون عن ذنوبهم ، لأن الله حفظها عليهم وكتبتها عليهم الملائكة[3] .

الثالث : أنهم يسألون في يوم القيامة في موطن دون موطن ، قال القرطبي : « القيامة مواطن ، فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لايكون ذلك »[4] .

وقال السفاريني : « وقيل يسألون في موطن دون موطن رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما . . فللناس يوم القيامة حالات ، والآيات مخرجة باعتبار تلك الحالات ، ومن ثَمَّ قال الإمام أحمد في أجوبته القرآنية : أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون ، ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون ، فذلك قوله تعالى ؛ ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾[5] »[6] الآية ، فإذا أذن لهم في الكلام

(١) التذكرة للقرطبي : ٢٨٦ .
(٢) انظر : تذكرة القرطبي : ٢٨٧ .
(٣) لوامع الأنواء البهية : (٢/١٧٤] .
(٤) تذكرة القرطبي : ٢٨٦ .
(٥) سورة السجدة : ١٢ .
(٦) لوامع الأنوار البهية : (٢/١٧٤] .

تكلموا ، واختصموا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[1] ، عند الحساب وإعطاء المظالم ، ثم يقال لهم بعد ذلك : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾[2] ، يعني في الدنيا ، فإن العذاب مع هذا القول كائن[3] » .

الرابع : قال القرطبي : « إن معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[4] ، سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين ، أي إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحدا يوم القيامة أن يقال : مادينك ؟ وما كنت تصنع في الدنيا ؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمنا أو كان كافرا ، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصدور ، ويكون المشركون سود الوجوه زرقا مكروبين ، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار ، وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم . . . »[5] .

---

(١) سورة الزمر : ٣١ .

(٢) سورة ق : ٢٨ .

(٣) لوامع الأنوار البهية : ٢/١٧٤ .

(٤) سورة القصص : ٧٨ .

(٥) تذكرة القرطبي : ٢٨٧ .

المبحث الثالث

القواعد التي يحاسب العباد على أساسها

لو عَذَّب الله جميع خلقه لم يكن ظالما لهم ، لأنهم عبيده وملكه ، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء .

ولكن الحق تبارك وتعالى يحاكم عباده محاكمة عادلة ، لم تشهد البشرية لها مثيلاً من قبل ، وقد بيَّن لنا ربنا في كثير من النصوص جملة القواعد التي تقوم عليها المحاكمة والمحاسبة في ذلك اليوم .

وسنذكر من ذلك ما ظهر لنا من تلك القواعد .

١ ـ العدل التام الذي لا يشوبه ظلم

يُوَفِّي الحق عز وجل ـ عباده في يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة ، ولا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[١] .

وقال لقمان في وصيته لابنه معرفا إياه بعدل الله ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[٢] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٨١ .

(٢) سورة لقمان : ١٦ .

وقال الحق في موضع آخر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[2] . وقال : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[3].

وقال تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[4] فقد أخبر الحق تبارك وتعالى في هذه النصوص أنه يُوفي كل عبدٍ عمله ، وأنه لا يضيع منه ، ولا ينقص منه مقدار الذرة ، وهي الهباءة التي ترى في أشعة الشمس إذا دخلت من الطاق ، ولا مقدار الفتيل ولا النقير ، والفتيل هو الخيط الذي يكون في شق النواة ، والنقير : النقرة الصغيرة التي تكون في ظهر النواة .

٢- لا يؤخذ أحد بجريرة غيره

قاعدة الحساب والجزاء التي تمثل قمة العدل ومنتهاه أن الله يجازي العباد بأعمالهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، ولا يحمل الحق تبارك وتعالى أحداً وزر غيره ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[5] . وهذا هو العدل الذي لاعدل فوقه ، فالمهتدى يقطف ثمار هدايته ، والضال ضلاله على نفسه ، ﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[6] .

---

(١) سورة النساء : ٤٠ .
(٢) سورة النساء : ٧٧ .
(٣) سورة النساء : ١٢٤ .
(٤) سورة الزلزال : ٧-٨ .
(٥) سورة الأنعام : ١٦٤ .
(٦) سورة الإسراء : ١٥ .

وهذه القاعدة العظيمة إحدى الشرائع التي اتفقت الرسالات السماوية على تقريرها ، قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾[1] .

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[2] ؛ « أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى ، لا تؤخذ نفس بذنب غيرها ، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها ، وأصل الوزر الثقل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾[3] ، وهو هنا الذنب ، . . . والآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يقول : اتبعوا سبيلي أحمل أوزاركم ، ذكره ابن عباس ، وقيل : إنها نزلت ردا على العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وابنه ، وبجريرة حليفه »[4] .

الذين يحمِلون أثقالاً مع أثقالهم

قد يعارض بعض أهل العلم هذا الذي ذكرناه من أن الإنسان لا يحمل شيئا من أوزار الآخرين بمثل قوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾[5] وقوله : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[6] .

وهذا الذي ذكروه موافق لما ذكرناه من النصوص ، وليس بمعارض لها ،

---

(١) سورة النجم : ٣٦ - ٤١ .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٤ ؛

(٣) سورة الشرح : ٢ .

(٤) تفسير القرطبي : (١٥٧/٤) .

(٥) سورة العنكبوت : ١٣ .

(٦) سورة النحل : ٢٥ .

فإن هذه النصوص تدلُّ على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب ، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله ، كما أن دعاة الهدى ينالون أجر ما عملوه ، ومثل أجر من اهتدى بهديهم ، واستفاد بعلمهم ، فإضلال هؤلاء لغيرهم هو فعل لهم يعاقبون عليه[1] .

٣ ـ اطلاع العباد على ما قدموه من أعمال

من إعذار الله لخلقه ، وعدله في عباده أن يطلعهم على ما قدموه من صالح أعمالهم وطالحها ، حتى يحكموا على أنفسهم ، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر .

قال تعالى : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] ، وقال : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾[3] ، وقال : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾[4] . وقال : ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[5] .

وإطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم . وقراءتهم لها ، فقد أخبرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أنه وكل بكل واحد منا ملكين يسجلان عليه صالح أعماله وطالحها ، فإذا مات ختم على كتابه ، فإذا كان يوم القيامة أعطى العبد كتابه ، وقيل له : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .

---

(١) توسعنا في بحث هذه المسألة في كتابنا « مقاصد المكلفين » .
(٢) سورة المائدة : ١٠٥ .
(٣) سورة آل عمران : ٣٠ .
(٤) سورة الانفطار : ٥ .
(٥) سورة الكهف : ٤٩ .

قال تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1] .

وهو كتاب شامل لجميع الأعمال كبيرها وصغيرها ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2] .

٤ ـ مضاعفة الحسنات دون السيئات

ومن رحمته أن يضاعف أجر الأعمال الصالحة ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[3] .

وأقل ما تضاعف به الحسنة عشرة أضعاف ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[4] . أما السيئة فلا تجزى إلا مثلها ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[5] . وهذا مقتضى عدله تبارك وتعالى .

وقد روى الحاكم في مستدركه ، وأحمد في مسنده بإسناد حسن عن أبي ذر رضي الله عنه قال : حدثنا الصادق المصدوق فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال :« الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد . والسيئة واحدة أو أغفرها ، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا مالم تشرك بي ، لقيتك بقرابها مغفرة »[6] .

---

(١) سورة الإسراء : ١٣ .
(٢) سورة الكهف : ٤٩ .
(٣) سورة التغابن : ١٧ .
(٤) سورة الأنعام : ١٦٠ .
(٥) سورة الأنعام : ١٦٠ .
(٦) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ورقم الحديث : ١٢٨ .

ومن الأعمال التي أخبر الرسول ﷺ أنها تضاعف عشرة أضعاف قراءة القرآن ، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي والدارمي بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ حرفاً من كتاب الله ، فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول : (الم) حرف . ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . غريبٌ إسنادا[1] .

وأخبرنا رسولنا صلوات الله وسلامه عليه أيضا أن الذكر يضاعف عشرة أضعاف ، ففي السنن للترمذي والنسائي وأبي داود عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « خصلتان ـ أو خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة ، وهما يسيرٌ ، ومن يعمل بهما قليل : يسبح الله في دُبُر كل صلاة عشراً ، ويحمده عشراً ، ويكبّره عشراً ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده ، قال : فتلك خمسون ومائة باللسان ، وألف وخمسمائة في الميزان ، وإذا أخذت مضجعك تسبحه وتكبره وتحمده مائة ، فتلك مائة باللسان ، وألف في الميزان ، فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة ؟ قالوا : فكيف لا نحصيها ؟ قال : يأتي أحدكم الشيطان وهو في صلاته ، فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، حتى ينفتل ، فلعله لا يفعل ، ويأتيه وهو في مضجعه ، فلا يزال ينومه حتى ينام ، أخرجه الترمذي والنسائي .

وفي رواية أبي داود بعد قوله : « في الميزان » الأولى ، قال : « ويكبر أربعاً وثلاثين إذا أخذ مضجعه ، ويحمد ثلاثاً وثلاثين ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين ، فذلك مائة باللسان ، وألف في الميزان ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده . قالوا : يا رسول الله ، كيف هما يسيرٌ ، ومن يعمل بهما قليل ؟ قال : يأتي أحدكم

---

(١) مشكاة المصابيح : (١/٦٦١) . رقم الحديث ٢١٣٧ .

الشيطان في منامه فينومه قبل أن يقوله ، ويأتيه في صلاته فيذكره حاجته قبل أن يقولها .[1] .

وحدثنا رسولنا ﷺ في حديث الإسراء الذي يرويه البخاري وغيره تردده ﷺ بين ربه وموسى ، حيث كان يشير عليه موسى في كل مرة أن يرجع إلى ربه ، فيسأله أن يخفف عنه من الصلاة ، حتى أصبحت خمسا بعد أن كانت خمسين . قال في ختام ذلك : « قال الجبار تبارك وتعالى : إنه لا يبدل القول ، كما فرضت عليك في أم الكتاب ، فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهي خمسون في أم الكتاب ، وهي خمس عليك . فرجع إلى موسى . فقال : كيف فعلت ؟ قال : خففت عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها » .

وقد يضاعفها أكثر من ذلك ، وقد تصل المضاعفة إلى سبعمائة ضعف ، وأكثر من ذلك ، ومن ذلك أجر المنفق في سبيل الله ، قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾[2] قال ابن كثير : هذا فضل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . فقال : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3] قال سعيد بن جبير : « يعني في طاعة الله » . وقال مكحول : يعني به الانفاق في الجهاد من رباط الخيل واعداد السلاح وغير ذلك . وعن ابن عباس : الجهاد والحج يضعف الدرهم فيها إلى سبعمائة ضعف »[4] .

وأورد ابن كثير عند تفسير هذه الآية الحديث الذي يرويه مسلم والنسائي

---

(١) جامع الأصول : (٤/٣٧٢). رقم الحديث: ٢٤١٨ .

(٢) سورةالبقرة : ٢٦١ .

(٣) سورة البقرة : ٢٦١ .

(٤) تفسير ابن كثير : (١/٥٦١).

وأحمد عن عبدالله بن مسعود أن رجلا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لتأتين يوم القيامة بسبعمائة مخطومة » هذا لفظ أحمد والنسائي . ولفظ مسلم : جاء رجل بناقة مخطومة ، فقال : يا رسول الله . هذه في سبيل الله ، فقال : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة »[1] .

ومن الأعمال التي تضاعف أضعافا لا تدخل تحت حصر ، ولا يحصيها إلا الذي يجزي بها : الصوم ، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : « إلا الصوم فإنه لي : وأنا أجزي به »[2] .

والسر في كون الصائم يعطى من غير تقدير ، أن الصوم من الصبر ، والصابرون يوفون أجورهم بغير حساب ، قال تعالى ؛ ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[3] ، قال القرطبي : وقال أهل العلم : كل أجر يكال كيلا ، ويوزن وزنا إلا الصوم ، فإنه يحثى حثوا ويغرف غرفا »[4] .

ومن الصبر : الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها وكربها التي يبتلي الله بها عباده ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[5] .
وعندما يرى أهل العافية عظم أجر الصابرين يتمنون أن تكون جلودهم قرضت

---

(١) تفسير ابن كثير : (٥٦٢/١) .
(٢) مشكاة المصابيح : (٦١٣/١) ، ورقمه : ١٩٥٩ .
(٣) سورة الزمر : ١٠ .
(٤) تفسير القرطبي : (٢٤٠/١٥) .
(٥) سورة البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

بالمقاريض لينالوا أجر الصابرين ، ففي سنن الترمذي عن جابر ، ومعجم الطبراني عن ابن عباس بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال : « لَيودَّن أهل العافية يوم القيامة ، أن جلودهم قرضت بالمقاريض ، مما يرون من ثواب أهل البلاء »(١) .

ومن فضل الله تبارك وتعالى أنَّ المؤمن الذي يهم بفعل الحسنة ، ولكنه لا يفعلها تكتب له حسنة تامة ، والذي يهم بفعل السيئة ، ثم تدركه مخافة الله ، فيتركها تكتب له حسنة تامة ، ففي صحيح البخاري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ، قال : إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثمَّ بيَّن ذلك ، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها ، كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها ، فعملها ، كتبها الله له سيئة واحدة »(٢) .

تبديل السيئات حسنات

وتبلغ رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن يبدِّل سيئاتهم حسنات ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة ، وآخر أهل النار خروجا منها . رجل يؤتى به يوم القيامة . فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا .

فيقول نعم : لا يستطيع أن ينكر . وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (١١١/٥) ، ورقم الحديث : ٥٣٦٠ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من هم بحسنة أو سيئة ، فتح الباري (٣٢٣/١١) .

فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة .

فيقول : رب ، عملت أشياء لا أراها ها هنا » .

فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[1] .

٥- إقامة الشهود على الكفرة والمنافقين

أعظم الشهداء في يوم المعاد على العباد هو ربهم وخالقهم وفاطرهم ، الذي لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾[2] ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾[3] .

ولكن الله يحب الأعذار إلى خلقه ، فيبعث من مخلوقاته شهداء على المكذبين الجاحدين حتى لا يكون لهم عذر ، وقد أشارت أكثر من آية إلى الشهداء الذين يشهدون على العباد، كقوله تعالى :﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[4] ، وقوله تعالى :﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾[5] .

وأول من يشهد على الأمم رسلها ، فيشهد كل رسول على أمته بالبلاغ ، ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[6] ، ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[7] ،

---

(١) صحيح مسلم : (١٧٧/١) . ورقم الحديث : ١٩٠ .

(٢) سورة يونس : ٦١ .

(٣) سورة النساء : ٦٦ .

(٤) سورة غافر : ٥١ .

(٥) سورة الزمر : ٦٩ .

(٦) سورة النساء : ٤١ .

(٧) سورة النحل : ٨٩ .

وقوله : ﴿ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هم الرسل ، لأن كل أمة رسولها منها ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾[2] .

وكما يشهدون على أممهم بالبلاغ يشهدون عليهم بالتكذيب ، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[3] ، وقال : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾[4] قال ابن كثير في شرح الآية الأولى : « هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلوا إليهم ، . . . وقول الرسل : (لا علم لنا) قال مجاهد والحسن البصري والسدي : إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم . . . وقال ابن عباس : لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا ، رواه ابن جرير ثم اختاره ، ولا شك أنه قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الله عز وجل ، أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا ما أجبنا ، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه ، وأنت العليم بكل شيء المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا شيء »[5] .

ثم إن الأمم تكذب رسلها ، وتقول كل أمة ما جاءنا من نذير ، فتأتي هذه الأمة : أمة محمد ﷺ وتشهد للرسل بالبلاغ ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ

---

(١) سورة التوبة : ١٢٨ .

(٢) سورة القصص : ٧٥ .

(٣) سورة المائدة : ١٠٩ .

(٤) سورة الأعراف : ٦-٧ .

(٥) تفسير ابن كثير : (٢/٦٧٦) .

جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] .

وقد أورد البخاري في صحيحه في كتاب التفسير الحديث الذي رواه أبوسعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يدعى نوح يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك يا رب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فيشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، فذلك قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2][3] .

وقد أفاد ابن حجر أنه قد جاء الحديث عند أحمد والنسائي وابن ماجة بلفظ : « يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، ويجيء النبي ومعه الرجلان ، ويجيء النبي ومعه أكثر من ذلك . قال : فيقال لهم : أبلغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيقال للنبي : أبلغتهم ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : من يشهد لك ؟ . . . » الحديث . وذكر ابن حجر أيضاً أن في بعض روايات الحديث زيادة : « فيقال : ما علمكم ؟ فيقولون : أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا فَصَدَّقناه »[4] .

ومن الأشهاد الأرض والأيام والليالي ، تشهد بماعمل فيها وعليها ، ويشهد المال على صاحبه ، وقد عقد القرطبي في تذكرته لهذا الموضوع بابا ، وذكر فيه حديث الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال قرأ رسول الله ﷺ هذه

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٣) صحيح البخاري ، (١٣) كتاب التفسير : (١٧١/٨) .

(٤) فتح الباري : (١٧٢/٨) .

الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[1] . قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا ، كـذا وكذا فهذه أخبارها » .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

ويشهد على العبد أيضا ملائكة الرحمن الذين كانوا يسجلون عليه صالح أعماله وطالحها ، كما قال تعالى : ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[2] ، والسائق والشهيد الملكان اللذان كانا موكلين بتلك النفس .

وتشهد الملائكة على العباد بما كانوا يعملون ، ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[3] فإذا لَجَّ العبد في الخصومة ، وكذَّب ربّه ، وكذب الشهود الذين شهدوا عليه ، أقام الله عليه شاهدا منه ، فتشهد على المرء أعضاؤه ، وقد مضى بيان هذا .

(١) سورة الزلزال : ٤ .
(٢) سورة ق : ٢١ .
(٣) سورة هود : ١٨ .

المَبحث الرابع
ما يُسأل عنه العباد

يسأل العباد عن الإله الذي كانوا يعبدونه ، وعن اجابتهم للمرسلين ، وقد بينا ذلك فيما مضى .

ويسألون عن أعمالهم التي عملوها ، وعما تمتعوا به من النعيم في الحياة الدنيا ، كما يسألون عن عهودهم ومواثيقهم ، وعن أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم ، وهذا ما سنبينه في هذا المبحث .

١- الكفر والشرك

أعظم ما يسأل عنه العباد هو كفرهم وشركهم ، فيسألهم عن الشركاء والأنداد الذين كانوا يعبدونهم من دون الله كما قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾[١] ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[٢] .

ويسألون عن عبادتهم لغير الله من تقديم القرابين للآلهة التي كانوا يعبدونها ، ونحر الذبائح باسمها ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾[٣] .

---

(١) سورة الشعراء : ٩٢ ـ ٩٣ .

(٢) سورة القصص : ٦٢ .

(٣) سورة النحل : ٥٦ .

ويسألون عن تكذيبهم للرسل ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[1] .

٢- ما عمله في دنياه

يسأل المرء في يوم القيامة عن جميع أعماله التي عملها في الحياة الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] . وقال ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[3] ، وفي سنن الترمذي عن أبي بَرْزَة الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة ، حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه ماذا عمل به ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيما أبلاه ؟ »[4] .

وفي سنن الترمذي أيضا عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه ، حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ؟ وماذا عمل فيم علم »[5] .

والذي يتأمل في مثل هذا الحديث يعلم السر في دعوة الرسول ﷺ المسلم إلى

---

(١) سورة القصص : ٦٥ - ٦٦ .

(٢) سورة الحجر : ٩٢ .

(٣) سورة الأعراف : ٦.

(٤) جامع الأصول : (٤٣٦/١٠) ، ورقمه : ٧٩٦٩ . وقال المحقق : قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وكذا رمز له الشيخ ناصر بالصحة في صحيح الجامع : (١٤٨/٦) ، ورقمه : ٧١٧٧ .

(٥) جامع الأصول : (٤٣٧/١٠) ، ورقمه : ٧٩٧٠ ، وهو حديث حسن كما قال محقق جامع الأصول . وقد حسنه الشيخ ناصر في صحيح الجامع : (١٤٨/٦) ، ورقمه (٧١٧٦) .

التخفف من المال ، فكلّما كثر مال العبد كثر حسابه وطال ، وكلّما قلَّ ماله خفَّ حسابه وأسرع به إلى الجنة ، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن فقراء المهاجرين يسبقون أغنياءَهم إلى الجنة بأربعين سنة ، ففي صحيح مسلم عن أبي عبدالرحمن الحُبليّ قال : جاء ثلاثة نفر إلى عبدالله بن عمرو بن العاص ، وأنا عنده ، فقالوا : يا أبا محمد ، إنـا والله ، ما نقدر على شيء ، لا نفقة ، ولا دابة ، ولا متاع . فقال : ما شئتم إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يَسَّر الله لكم . وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان . وإن شئتم صبرتم . فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياءَ ، يوم القيامة إلى الجنَّة بأربعين خريفا »(1) .

٣- النعيم الذي يتمتع به

يسأل الله عباده في يوم القيامة عن النعيم الذي خولهم إياه في الدنيا ، كما قال : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾(2) .

يعني بالنعيم شبع البطون ، وبارد الماء ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم ، وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصري : من النعيم الغداء والعشاء . وقال أبو قلابة : من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي . وعن ابن عباس : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار(3) .

وهذا الذي فسروها به من باب التنوع في التفسير ، فإن أصناف النعيم كثيرة

---

(١) صحيح مسلم : (٤/٢٢٨٥) . ورقمه ٢٩٧٩ .
(٢) سورة التكاثر : ٨ .
(٣) تفسير ابن كثير : ٧/٣٦٤ .

لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[1] ، وبعض أنواع النعيم من الضروريات وبعضها من الكماليات ، والناس يتفاوتون في ذلك فيما بينهم ، ويوجد في عصر مالا يجده أهل عصور أخرى ، وفي بلد مالا يجده أهل بلاد أخرى ، وكل ذلك يسأل عنه العباد .

روى الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أوَّل ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ؟ ونُرَوِّك من الماء البارد »[2] .

وبعض الناس لا يستشعر النعم العظيمة التي وهبه الله إياها ، فلا يدرك النعمة التي في شربة الماء ، ولقمة الطعام ، وفيما وهبه الله من مسكن وزوجه وأولاد، ويظن أن النعم تتمثل في القصور والبساتين والمراكب فحسب ، فقد سأل رجل عبدالله بن عمرو بن العاص فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبدالله : ألك إمرأة تأوي إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال فإن لي خادما . قال : فأنت من الملوك[3] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »[4] ، ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون .

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٤ .
(٢) مشكاة المصابيح : (٢/٦٥٦) ورقمه : (٥١٩٦) ، وقال محقق المشكاة : إسناده صحيح .
(٣) صحيح مسلم : (٤/٢٢٨٥) ورقم الحديث : ٢٩٧٩ .
(٤) مشكاة المصابيح : (٢/٦٤٨) ورقمه : ٥١٥٥ .

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لا بأس بالغنى لمن اتقى الله عز وجل ، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم »[1] .

وفي بعض الأحاديث النبوية بيان من الرسول ﷺ عن صورة من صور السؤال عن النعيم الذي يواجه الله به عباده في ذلك اليوم ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يلقى (الرب) العبد فيقول : أي فلُ[2] ، ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخِّر لك الخيل والإبل ، وأذرك تراس وتربع ؟ فيقول : بلى . قال : فيقول : أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ قال : فيقول : لا . فيقول : فإني أنساك كما نسيتني .

ثم يلقى الثاني فيقول : أي فلُ ، ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخِّر لك الخيل والإبل ، وأذرك تراس وتربع ؟ فيقول : بلى . أي رب ، فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا . فيقول : فإني أنساك كما نسيتني .

ثم يلقى الثالث ، فيقول له مثل ذلك . فيقول : يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع . فيقول : ههنا إذن[3] .

قال : ثم يقال له : الآن نبعث عليك شاهدا عليك ، ويتفكر في نفسه : من ذا يشهد علي ؟ فيختم الله على فيه . ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله . وذلك ليعذر من نفسه .

وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه »[4] .

---

(١) مشكاة المصابيح ، ٦٧٦/٢ ، ورقمه : ٥٢٩٠ ، وعزاه المحقق إلى ابن ماجة ، وقال : إسناده صحيح .

(٢) فل : أي يا فلان .

(٣) معناه قف : ههنا إذن .

(٤) رواه مسلم في صحيحه : (٢٢٨٠/٤) ، ورقمه : ٢٩٦٨ .

والسؤال عن النعيم سؤال عن شكر العبد لما أنعم الله به عليه ، فإذا شكر فقد أدى حق النعمة ، وإن أبى وكفر ، أغضب عليه الله ، ففي صحيح مسلم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة ، فيحمده عليها ، أو يشرب الشّربة فيحمده عليها »[1] .

٤ ـ العهود والمواثيق

يسأل الله عباده عما عاهدوه عليه ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾[2] ، وكل عهد مشروع بين العباد فإن الله سائل العبد عن الوفاء به ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[3] .

٥ ـ السّمع والبصر والفؤاد

يسأل الله العباد عن جميع ما يقولونه ، ولذلك حذرهم من القول بلا علم ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[4] قال قتادة : « لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، فإن الله سائلك عن ذلك كله »[5].

قال ابن كثير : « ومضمون ماذكروه في الآية أن الله نهى عن القول بغير

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٤٤٦) ، ورقمه : ٤٢٠٠ .
(٢) سورة الأحزاب : ١٥ .
(٣) سورة الإسراء : ٣٤ .
(٤) سورة الإسراء : ٣٦ .
(٥) تفسير ابن كير : (٤/٣٠٨) .

علم ، بل بالظن ، الذي هو التوهم والخيال . كما قال تعالى : ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾[1] . وفي الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » ، وفي سنن أبي داود بئس مطيّة الرجل « زعموا » وفي الحديث الآخر : « إن أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه مالم تريا » وفي الصحيح : « من تحلم حلما كُلِّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل »[2] .

---

(١) سورة الحجرات : ١٢ .

(٢) تفسير ابن كثير : (٣٠٨/٤) .

المبحث الخامس
أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله

أول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله تبارك وتعالى الصلاة ، فإن صلحت أفلح ونجح وإلا خاب وخسر ، ففي سنن الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيئا . قال الرب تبارك وتعالى : انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك »[1] .

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، قال : يقول ربنا ـ عز وجل ـ لملائكته : انظروا في صلاة عبدي ، أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامَّةً كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئا ، قال : أنظروا ، هل لعبدي من تطوع ، فإن كان له تطوع ، قال : أتموا لعبدي فريضته من تطوعه ، ثمَّ تؤخذ الأعمال بعد ذلك »[2] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٤٣٤) ، ورقمه : ٧٩٦٤ ، وعزاه في صحيح الجامع إلى الترمذي والنسائي وابن ماجة ، وصححه . صحيح الجامع : (٢/١٨٤) ورقمه : ٢٠١٦ .

(٢) جامع الأصول : (١٠/٤٣٥) ، ورقمه : ٧٩٦٥ ، وعزاه الشيخ ناصر في صحيح الجامع إلى أبي داود وأحمد والنسائي والحاكم . وقال فيه : صحيح . صحيح الجامع : (٢/٣٥٢) ، ورقمه :٢٥٦٨ .

المبحث السادس
أنواع الحساب وأمثلة لهذه الأنواع

المطلب الأول
أنواع الحساب

يتفاوت حساب العباد ، فبعض العباد يكون حسابهم عسيرا وهؤلاء هم الكفرة المجرمون الذين أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وتمردوا على شرع الله ، وكذبوا الرسل ، وبعض عصاة الموحدين قد يطول حسابهم ويعسر بسبب كثرة الذنوب وعظمها .

وبعض العباد يدخلون الجنة بغير حساب ، وهم فئة قليلة لا يجاوزون السبعين ألفا ، وهم الصفوة من هذه الأمة ، والقمم الشامخة في الإيمان والتقى والصلاح والجهاد ، وسيأتي ذكرهم وصفتهم عند الحديث عن أهل الجنة وبعض العباد يحاسبون حسابا يسيرا ، وهؤلاء لا يناقشون الحساب ، أي لا يدقق ، ولا يحقق معهم ، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها ، وهذا معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[1] ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فقلت : يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[2] ؟ فقال رسول

---

(١) سورة الانشقاق : ٧ ـ ٨ .

(٢) سورة الانشقاق : ٧ ـ ٨ .

الله ﷺ : « إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك »[1] .

قال النووي في شرحه للحديث : « معنى نوقش الحساب : استقصي عليه . قال القاضي : وقوله : « عذب » له معنيان : أحدهما : أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ . والثاني : أنه مفض إلى العذاب بالنار ويؤيده قوله في الرواية الأخرى : « هلك » مكان « عذب » هذا كلام القاضي .

قال النووي : وهذا الثاني هو الصحيح ، ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصى عليه ، ولم يسامح هلك ، ودخل النار ، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء »[2] .

ونقل ابن حجر عن القرطبي في معنى قوله : « إنما ذلك العرض » قال : « إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منّة الله عليه في سترها عليه في الدنيا ، وفي عفوه عنها في الآخرة »[3] .

والمراد بالعرض ـ كما هو ظاهر من هذه الأحاديث ـ عرض ذنوب المؤمنين عليهم ، كي يدركوا مدى نعمة الله عليهم في غفرانها لهم .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب ، فتح الباري : (٤٠٠/١١) ، وصحيح مسلم : (٢٢٠٤/٤) ورقمه : ٢٨٧٦ ، واللفظ للبخاري .
(٢) النووي على مسلم : (٢٠٨/١٧) .
(٣) فتح الباري : (٤٠٢/١١) .

المطلب الثاني
أمثلة هذه الأنواع

ورد في السنة النبوية مشاهد للمناقشة والعرض والمعاتبة التي تكون من الله لعباده ، وسنسوق لكل واحد من هذه الأنواع الثلاثة مشهدا مما صح في السنة .

١ ــ مناقشة المرائين :

روى مسلم والترمذي والنسائي عن شفي بن ماتع الأصبحي رحمه الله أنه دخل المدينة ، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة ، فدنوت منه ، حتى قعدت بين يديه ، وهو يحدث الناس ، فلما سكت وخلا ، قلت له : أسألك بحق وحق ، لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته ، فقال أبو هريرة : أفعل ، لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ ، عقلته وعلمته ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة ، فمكثنا قليلا ، ثم أفاق ، فقال : لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ، ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشغ أبو هريرة نشغةً أخرى ، ثم أفاق ومسح عن وجهه ، وقال : أفعل ، لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ ، أنا وهو في هذا البيت ، ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة ، ثم مال خارًّا على وجهه ، فأسندته طويلا ، ثم أفاق ، فقال :

حدثني رسول الله ﷺ : أن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قتل في سبيل الله ، ورجلٌ كثير المال ، فيقول الله للقارىء : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى ، يا رب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء

الليل وآناء النهار ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال : فلان قارئ ، وقد قيل ذلك .

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله : ألم أوسع عليك ، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى ، يا رب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم ، وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جوادٌ ، فقيل ذلك .

ثم يؤتى بالذي قُتل في سبيل الله ، فيقول الله : في ماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذلك ، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي ، فقال : يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة » .

قال الوليد أبو عثمان المدائني : فأخبرني عقبة بن مسلم : أن شفيا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا .

قال أبو عثمان : وحدثني العلاء بن أبي حكيم : « أنه كان سيافا لمعاوية ، فدخل عليه رجل ، فأخبره بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاوية : قد فُعِل بهؤلاء هكذا ، فكيف بمن بقي من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً ، حتى ظننا أنه هالك ، وقلنا : قد جاء هذا الرجل بشر ، ثم أفاق معاوية ، ومسح عن وجهه ، وقال : صدق الله ورسوله ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] . أخرجه الترمذي .

وفي رواية مسلم والنسائي عن سليمان بين يسار : قال : « تفرق الناس عن

---

(١) سورة هود : ١٥ ـ ١٦ .

أبي هريرة ، فقال له ناتل أخو أهل الشام : أيها الشيخ حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد ، فأتي به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، فقال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأوتي به ، فعرفه نعمة فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلّمت العلم ليقال : عالمٌ ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار ، ورجلٌ وسّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتي به فعرفه بنعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جوادٌ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار » .

٢ ـ عرض الرب ذنوب عبده عليه :

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي رب . حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1][2] .

---

(١) سورة هود : ١٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب قوله تعالى : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ ، فتح الباري : (٩٦/٥) ، وصحيح مسلم : (٢١٢٠/٤) ، ورقمه : ٢٧٦٨ .

قال القرطبي في قوله : « فيضع عليه كنفه » أي ستره ولطفه وإكرامه ، فيخاطب خطاب ملاطفة ، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة ، فيقول له : هل تعرف ؟ فيقول : رب أعرف ، فيقول الله ممتنا عليه ، ومظهراً فضله لديه : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، أي لم أفضحك بها فيها ، وأنا أغفرها لك اليوم[1] .

٣ ــ معاتبة الرب عبده فيما وقع منه من تقصير

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن معاتبة الرب لعبده يوم القيامة ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدني .

قال : يا رب كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني ؟

قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟

يا ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقني .

قال : يا رب ، كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟

قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي ؟ »[2] .

---

(١) تذكرة القرطبي : ٢٦٣ .

(٢) مشكاة المصابيح : (٤٨٦/١) ، ورقم الحديث : ١٥٢٨ .

المَبحَث السَابع

إيتاء العباد كتبهم

في ختام مشهد الحساب يعطى كل عبد كتابه المشتمل على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا وتختلف الطريقة التي يؤتى بها العباد كتبهم ، فأما المؤمن فإنه يؤتى كتابه بيمينه من أمامه ، فيحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله في الجنة مسرورا ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾(١)، واذا اطلع المؤمن على ما تحويه صحيفته من التوحيد وصالح الأعمال سرّ واستبشر ، وأعلن هذا السرور ، ورفع به صوته ، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾(٢) .

وأما الكافر والمنافق وأهل الضلال فإنهم يأتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور، وعظائم الأمور﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾(٣) . ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦

---

(١) سورة الانشقاق : ٧ ـ ٩ .

(٢) سورة الحاقة : ١٩ ـ ٢٤ .

(٣) سورة الانشقاق : ١٠ ـ ١٢ .

﴿ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾
خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾[1] .

وعندما يعطى العباد كتبهم يقال لهم : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] .

---

(1) سورة الحاقة : ٢٥ ـ ٣١ .
(2) سورة الجاثية : ٢٩ .

المبحث الثامن
تصوير القرطبي لمشهد الحساب

قال القرطبي مصورا مشهد الحساب : « فإذا بعث العباد من قبورهم إلى الموقف ، وقاموا فيه ما شاء الله ، حفاة عراة ، وجاء وقت الحساب الذي يريد الله أن يحاسبهم فيه ، أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأتوها ، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه ، فأولئك هم السعداء ومنهم من يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره ، وهم الأشقياء ، فعند ذلك يقرأ كل كتاب به ، وأنشدوا :

مثل وقوفك يوم العرض عريانا ... مستوحشا قلق الأحشاء حيرانا
والنار تلهّب من غيظ ومن حنق ... على العصاة ورب العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهل ... فهل ترى فيه حرفا غير ما كانا
لما قرأت ولم تنكر قراءته ... إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملائكتي ... امضوا بعبد عصا للنار عطشانا
المشركون غداً في النار يلتهبوا ... والمؤمنون بدار الخلد سكانا

فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب ، ونصبت الموازين ، وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق : أين فلان بن فلان ؟ هلم إلى العرض على الله تعالى . وقد وكلت الملائكة بأخذك ، فقربتك إلى الله ، لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك ، إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذا قرع النداء قلبك ، فعلمت أنك المطلوب ، فارتعدت فرائصك ، واضطربت جوارحك ، وتغير لونك ، وطار قلبك ، تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه ، والوقوف بين يديه ، وقد

رفع الخلائق إليك أبصارهم ، وأنت في أيديهم ، وقد طار قلبك ، واشتد رعبك ، لعلمك أين يراد بك .

فتوهم نفسك ، وأنت بين يدي ربك ، في يدك صحيفة مخبرة بعملك ، لا تغادر بلية كتمتها ، ولا مخبأة أسررتها ، وأنت تقرأ مافيها بلسان كليل ، وقلب منكسر ، والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك ، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكركها ! وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها ! وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيما ! فيا حسرة قلبك ، ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك .

فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فعلم أنه من أهل الجنة ، فيقول : هاؤم اقرأوا كتابية ، وذلك حين يأذن الله ، فيقرأ كتابه ، فإذا كان الرجل رأسا في الخير يدعو إليه ، ويأمر به ، ويكثر تبعه عليه ، دعي باسمه واسم أبيه ، فيتقدم حتى إذا دنى أخرج له كتاب أبيض ، في باطنه السيئات ، وفي ظاهره الحسنات ، فيبدأ بالسيئات فيقرؤها فيشفق ويصفر وجهه ويتغير لونه ، فإذا بلغ آخر الكتاب ، وجد فيه : هذه سيئاتك ، وقد غفرت لك ، فيفرح عند ذلك فرحا شديدا ، ثم يقلب كتابه ، فيقرأ حسناته ، فلا يزداد إلا فرحا ، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه : هذه حسناتك ، قد ضوعفت لك ، فيبيض وجهه ، ويؤتى بتاج ، فيوضع على رأسه ، ويكسى حلتين ، ويحلّى كل مفصل فيه ، ويطول ستين ذراعا ، وهي قامة آدم . ويقال له : انطلق إلى أصحابك فبشرهم ، وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا ، فإذا أدبر قال[1] : ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴾ ، أي مرضية ، قد رضيها ، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ في السماء ، ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ ثمارها وعناقيدها ﴿دَانِيَةٞ﴾

---

(١) الآيات التي استشهد بها المصنف في كلامه من سورة الحاقة : ١٩ ـ ٣٢ .

أدنيت منهم . فيقول لأصحابه : هل تعرفوني ؟ فيقولون : قد غمرتك كرامة الله ، من أنت ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان ، ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ أي قدمتم في أيام الدنيا .

وإذا كان الرجل رأسا في الشر يدعـو إليه ، ويأمر به ، فيكثر تبعه عليه ، ونودي باسمه واسم أبيه ، فيتقدم إلى حسابه ، فيخرج له كتاب أسود ، بخط أسود ، في باطنه الحسنات ، وفي ظاهره السيئات ، فبدأ بالحسنات فيقرؤها ، ويظن أنه سينجـو ، فإذا بلغ آخر الكتاب ، وجد فيه : هذه حسناتك ، وقد رُدَّت عليك ، فيسود وجهه ، ويعلوه الحزن ، ويقنط من الخير ، ثم يقلب كتابه ، فيقرأ سيئاته ، فلا يزداد إلا حزنا ، ولا يزداد وجهه إلا سوادا . فإذا بلغ آخر الكتاب ، وجد فيه : هذه سيئاتك ، وقد ضوعفت عليك ، أي يضاعف عليه العذاب ، ليس المعنى أنه يزاد عليه مالم يعمل . قال فيعظم إلى النار ، وتزرق عيناه ، ويسود وجهه ، ويكسى سرابيل القطران .

ويقال له : انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا ، فينطلق وهو يقول: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ يعني الموت ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ تفسير ابن عباس رضي الله عنهما : هلكت عني حجتي . قال الله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي اجعلوه يصلى الجحيم ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ الله أعلم بأي ذراع . قال الحسن وقال ابن عباس رضي الله عنهما : سبعون ذراعاً بذراع الملك . ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ قيل: يدخل عنقه فيها ، ثم يجربها ، ولو أن حلقة منها وضعت على جبل لذاب .

فينادي أصحابه فيقول : هل تعرفوني ؟ فيقولون : لا ، ولكن قد نرى ما

بك من الحزن . فمن أنت ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان ، لكل إنسان منكم مثل هذا .

وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ، تخلع كتفه اليسرى ، فيجعل يده خلفه ، فيأخذ بها كتابه . وقال مجاهد : يحول وجهه في موضع قفاه ، فيقرأ كتابه كذلك .

فتوهم نفسك إن كنت من السعداء ، وقد خرجت على الخلائق مسرور الوجه ، قد حل بك الكمال والحسن والجمال ، كتابك في يمينك ، أخذ بضبعيك ملك ينادي على رؤوس الخلائق : هذا فلان بن فلان ، سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا . وأما إن كنت من أهل الشقاوة ، فيسود وجهك ، وتتخطى الخلائق كتابك في شمالك ، أو من وراء ظهرك ، تنادي بالويل والثبور ، وملك أخذ بضبعيك ينادي على رؤوس الخلائق : ألا إن فلان بن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدا[1] .

---

(١) تذكرة القرطبي : ٢٥٥ .

الفصل الحادي عشر

اقتصاص المظالم بين الخلق

يقتص الحكم العدل في يوم القيامة للمظلوم من ظالمه ، حتى لا يبقى لأحد عند أحد مظلمة ، حتى الحيوان يقتص لبعضه من بعض ، فإذا انططحت شاتان إحداهما جلحاء لا قرون لها ، والأخرى ذات قرون ، فإنه يقتص لتلك من هذه ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء »[(١)] .

والذي يعتدي على غيره بالضرب ، يقتص منه بالضرب في يوم القيامة ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري في « الأدب المفرد » ، والبيهقي في السنن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ ضَربَ بِسوط ظلما ، اقتص منه يوم القيامة »[(٢)] .

وفي معجم الطبراني الكبير عن عمار ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من ضرب مملوكه ظالما ، أقيد منه يوم القيامة » وإسناده صحيح[(٣)] .

والذي يقذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد في يوم القيامة إن كان كاذبا فيما رماه به ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال أبو القاسم ﷺ : « من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحدّ يوم القيامة ، إلا أن يكون كما قال »[(٤)] .

---

(١) صحيح مسلم : (١٩٩٧/٤) ، ورقمه : (٢٥٨٢) .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٣١٩/٥) ، ورقمه : ٦٢٥٠ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٣١٩/٥) ، ورقمه ٦٢٥٢ .
(٤) صحيح مسلم : (١٢٨٢/٣) ، ورقمه : ١٦٦٠ .

المطلب الأول
كيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة

إذا كان يوم القيامة كانت ثروة الإنسان ورأس ماله حسناته ، فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم ، فإن لم يكن له حسنات أو فنيت حسناته ، فإنه يؤخذ من سيئاتهم فيطرح فوق ظهره .

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء ، فليتحلل منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه »[1] .

وهذا الذي يأخذ الناس حسناته ، ثم يقذفون فوق ظهره بسيئاتهم هو المفلس ، كما سماه الرسول ﷺ ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون من المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « إن المفلس من أمتي ، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذه من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته ، قبل أن يقضي ما عليه ، أخذت من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار »[2] .

والمدين الذي مات ، وللناس في ذمته أموال يأخذ أصحاب الأموال من حسناته بمقدار مالهم عنده ، ففي سنن ابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عمر

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب من كانت له مظلمة عند الرجل ، فتح الباري : (١٠١/٥) .

(٢) صحيح مسلم : (١٩٩٧/٤) ، ورقمه : ٢٥٨١ .

رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات وعليه دينار أو درهم ، قضى من حسناته ، ليس ثمَّ دينار ولا درهم »[1] .

وإذا كانت بين العباد مظالم متبادلة اقتص لبعضهم من بعض ، فإن تساوى ظلم كل واحد منهما للآخر كان كفافا لا له ولا عليه ، وإن بقي لبعضهم حقوق عند الآخرين أخذها .

ففي سنن الترمذي عن عائشة ، قالت : جاء رجل فقعد بين يدي الرسول ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن لي مملوكين يكذبونني ، ويخونني ، ويعصونني ، وأشتمهم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟

فقال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك ، وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ، ولا عليك . وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلا لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم ، اقتص لهم منك الفضل » فتنحى الرجل ، وجعل يهتف ويبكي .

فقال له رسول الله ﷺ « أما تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[2][3] .

ولما كان هذا شأن الظلم فحري بالعباد الذين يخافون ذلك اليوم أن يتركوه

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٥/٥٣٧) ، ورقم الحديث : ٦٤٣٢ .
(٢) سورة الأنبياء : ٤٧ .
(٣) مشكاة المصابيح : (٣/٦٦) ، ورقمه : ٥٥٦١ ، وأورده في صحيح الجامع : (٦/٣٢٧) ورقمه : ٧٨٩٥ ، وعزاه إلى أحمد والترمذي .

ويجتنبوه وقد أخبر الرسول ﷺ أن الظلم يكون ظلمات في يوم القيامة ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « الظلم ظلمات يوم القيامة »[1] .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺقال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »[2] .

المطلب الثاني
عظم شأن الدماء

من أعظم الأمور عند الله أن يسفك العباد بعضهم دم بعض في غير الطريق الذي شرعه الله تبارك وتعالى ، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه الترمذي عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : « يجيء الرجل آخذا بيد الرجل ، فيقول : يا رب ، هذا قتلني : فيقول : لم قتلته ؟

فيقول : قتلته لتكون العزة لك .

فيقول : فإنها لي .

ويجيء الرجل آخذا بيد الرجل ، فيقول : أي رب ، إن هذا قتلني .

فيقول الله : لم قتلته ؟

فيقول : لتكون العزة لفلان .

فيقول : إنها ليست لفلان ، فيبوء بإثمه »[3] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب الظلم ظلمات يوم القيامة ، فتح الباري : (٥/١٠٠) ، وصحيح مسلم : (٤/١٩٦٩) ، ورقمه : ٢٥٧٩ .

(٢) صحيح مسلم : (٤/١٩٦٩) ، ورقمه : ٢٥٧٨ .

(٣) صحيح الجامع الصغير : (٦/٣٢٤) . ورقم الحديث : ٧٨٨٥ .

وفي السنن للترمذي ، وأبي داود ، وابن ماجة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دما ، فيقول : يا رب ، سل هذا فيم قتلني ؟ حتى يدنيه من العرش »[1] .

ولعظم أمر الدماء فإنها تكون أول شيء يقضى فيه بين العباد .

فقد روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء »[2] . قال ابن حجر في شرحه للحديث : « وفي الحديث عظم أمر الدم ، فإن البداءة إنما تكون بالأهم ، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة ، وإعلام البنية الإنسانية غاية في ذلك »[3] .

ولا تعارض بين هذا الحديث وحديث أن أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة ، قال ابن حجر العسقلاني : « ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة رفعه : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته » الحديث أخرجه أصحاب السنن ، لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق . والثاني : فيما يتعلق بعبادة الخالق . وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين ، ولفظه : « أول ما يحاسب العبد عليه صلاته ، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء »[4] .

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٢٤/٦) ورقم الحديث : ٧٨٨٧ .
(٢) جامع الأصول : (١٠//٤٣٦) ، ورقمه : ٧٩٦٨ .
(٣) فتح الباري : (٣٩٧/١١) .
(٤) فتح الباري : (٣٩٦/١١) .

المطلب الثالث
الاقتصاص للبهائم بعضها من بعض

« يقضي الله بين خلقه : الجن والإنس والبهائم ، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء ، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله : كونوا ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[1] » .

هذا حديث أخرجه ابن جرير في تفسيره بإسناده إلى أبي هريرة يرفعه ، وفي رواية أخرى أخرجها ابن جرير أيضا عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن الله يحشر الخلق كلهم ، كل دابة وطائر وإنسان ، يقول للبهائم والطير : كونوا ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[2] » .

وعن ابن جرير أيضا عن عبدالله بن عمرو قال : « إذا كان يوم القيامة مدّ الأديم ، وحشر الدواب والبهائم والوحش ، ثم يحصل القصاص بين الدواب ، يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها ، فإذا فرغ من القصاص بين الدواب ، قال لها : كوني ترابا ، قال فعند ذلك يقول الكافر : ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[3] » .

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » .

وأخرج أحمد في مسنده بإسناد رجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة رضي الله

---

(١) سورة النبأ : ٤٠ .

(٢) سورة النبأ : ٤٠ .

(٣) سورة النبأ : ٤٠ .

عنه عن النبي ﷺ قال : « يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرّناء ، وحتى الذرة من الذرة » .

وفي المسند أيضا عن أبي هريرة يرفعه : « ألا والذي نفسي بيده ليختصمن كل شيء يوم القيامة ، حتى الشاتان فيما انتطحتا » .

وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان ، فقال : أبا ذر ، هل تدري فيم تنتطحان ؟

قال : لا .

قال : ولكن الله يدري وسيقضي بينهما »[1] .

كيف يقتص من البهائم وهي غير مكلفة ؟

أشكل على كثير من أهل العلم هذا الذي ذكره الرسول ﷺ من حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض ، وقد وضح هذا النووي في شرحه على صحيح مسلم فقال :

« هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة ، وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين ، وكما يعاد الأطفال والمجانين ، ومن لم تبلغه دعوة . وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[2] ، وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا

---

(١) أورد الشيخ ناصر هذه الأحاديث ، وتكلم على أسانيدها في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٦٠٦-٦١١) .

(٢) سورة التكوير : ٥ .

شرع ، وجب حمله على ظاهره . قال العلماء : وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب . وأما القصاص من القرناءللجلحاء فليس هو من قصاص التكليف ، إذ لا تكليف عليها ، بل هو قصاص مقابلة ، و(الجلحاء) بالمدّ هي الجماء التي لا قرن لها . والله أعلم » .

قال الشيخ ناصر الدين الألباني بعد إيراده هذه الفقرة من كلام النووي :

وذكر نحوه ابن الملك في « مبارق الأزهار » (٢/٢٩٣) مختصراً . ونقل عنه العلامةالشيخ علي القاريء في « المرقاة » (٤/٧٦١) أنه قال :

« فإن قيل : الشاة غير مكلفة ، فكيف يقتص منها ؟ قلنا : إن الله تعالى فعال لما يريد ، ولا يسأل عما يفعله ، والغرض منه إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع ، بل يقتص حق المظلوم من الظالم » .

قال القاريء : « وهو وجه حسن ، وتوجيه مستحسن ، إلا أن التعبير عن الحكمة بـ (الغرض) وقع في غير موضعه . وجملة الأمر أن القضية دالـة بطريق المبالغة على كمال العدالة بين كافة المكلفين ، فإنه إذا كان هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف ، فكيف بذوي العقول من الوضيع والشريف ، والقوي والضعيف ؟ » .

وعقب على هذا الشيخ ناصر قائلا :«ومن المؤسف أن تُرَد كل هذه الأحاديث من بعض علماء الكلام بمجرد الرأي ، وأعجب منه أن يجنح إليه العلامة الألوسي ! فقال بعد أن ساق الحديث عن أبي هريرة من رواية مسلم ومن رواية أحمد بلفظ الترجمة عند تفسيره آية ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[1] في تفسيره « روح المعاني » (٩/٣٠٠٦) :

« ومال حجة الإسلام الغزالي وجماعة إلى أنه لا يحشر غير الثقلين ، لعدم

---

(١) سورة التكوير : ٥ .

كونه مكلفاً ، ولا أهلاً لكرامة بوجه ، وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليها يدل على حشر غيرهما من الوحوش ، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحاً ، لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام . وإلى هذا القول أميل ، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول ، لأن لهم ما يصلح مستنداً في الجملة . والله تعالى أعلم » .

قلت (الشيخ ناصر) : كذا قال ـ عفا الله عنا وعنه ـ وهو منه غريب جداً لأنه على خلاف ما نعرفه عنه في كتابه المذكور ، من سلوك الجادة في تفسير آيات الكتاب على نهج السلف ، دون تأويل أو تعطيل ، فما الذي حمله هنا على أن يفسر الحديث على خلاف ما يدل عليه ظاهره ، وأن يحمله على أنه كناية عن العدل التام ، أليس هذا تكذيباً للحديث المصرح بأنه يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء ، فيقول هو تبعا لعلماء الكلام : إنه كناية ! . . . أي لا يقاد للشاة الجماء . وهذا كله يقال لو وقفنا بالنظر عند رواية مسلم المذكورة ، أما إذا انتقلنا به إلى الروايات الأُخرى كحديث الترجمة ، وحديث أبي ذر وغيره ؛ فإنها قاطعة في أن القصاص المذكور هو حقيقة وليس كناية ، ورحم الله الإمام النووي ، فقد أشار بقوله السابق : « وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره » .

قلت : أشار بهذا إلى رد التأويل المذكور ، وبمثل هذا التأويل أنكر الفلاسفة وكثير من علماء الكلام كالمعتزلة وغيرهم رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ، وعلوّه على عرشه ، ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة ، ومجيئه تعالى يوم القيامة . وغير ذلك من آيات الصفات وأحاديثها .

وبالجملة ، فالقول بحشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض هو الصواب الذي لا يجوز غيره ، فلا جرم أن ذهب إليه الجمهور كما ذكر الألوسي

نفسه في مكان آخر من « تفسيره »(٩/٢٨١) ، وبه جزم الشوكاني في تفسير آية « التكوير » من تفسيره « فتح القدير » ، فقال (٥/٣٧٧) :

« الوحوش ما توحش من دواب البر ، ومعنى (حشرت) بعثت ، حتى يقتص لبعضها من بعض ، فيقتص للجماء من القرناء »[1] .

المطلب الرابع
متى يقتص للمؤمنين بعضهم من بعض ؟

في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار ، حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذّبوا ، أذن لهم بدخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ، لأحدهم بمسكنه في الجنّة أدل بمنزله كان في الدنيا »[2] .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ ناصر الدين الألباني : (٤/٦١٢) .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب قصاص المظالم ، فتح الباري : (٥/٩٦) .

الفصل الثاني عشر
الميزان

المطلب الأول
تعريفه

في ختام ذلك اليوم ينصب الميزان لوزن أعمال العباد ، يقول القرطبي : « وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها »[1] .

وقد دلت النصوص على أن الميزان ميزان حقيقي ، لا يقدر قدره إلا الله تعالى ، فقد روى الحاكم عن سلمان عن النبي ﷺ : قال « يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت . فتقول الملائكة : يا رب لمن يزن هذا ؟ فيقول الله تعالى : لمن شئت من خلقي . فتقول الملائكة : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك »[2] .

وهو ميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[3] .

---

(١) تذكرة القرطبي : ٣٠٩ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٦٥٦) . ورقم الحديث : ٩٤١ .

(٣) سورة الأنبياء : ٤٧ .

وقد اختلف أهل العلم في وحدة الميزان وتعدده ، فذهب بعضهم إلى أن لكل شخص ميزانا خاصا ، أو لكل عمل ميزانا لقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1] .

وذهب آخرون إلى أن الميزان واحد ، وأن الجمع في الآية إنما هو باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص .

وقد رجح ابن حجر بعد حكايته للخلاف أن الميزان واحد ، قال : « ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله ، لأن أحوال القيامة لا تكيَّف بأحوال الدنيا »[2] .

وقال السفاريني : « قال الحسن البصري : لكل واحد من المكلفين ميزان . قال بعضهم : الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد ، لقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ . قال : وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان ، ولأفعال الجوارح ميزان ، ولما يتعلق بالقول ميزان . أورد هذا ابن عطية وقال : الناس على خلافة ، وإنما لكلٍّ واحد وزن مختص به ، والميزان واحد . وقال بعضهم إنما جمع الموازين في الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم . وهو حسن »[3] .

المطلب الثاني
الميزان عند أهل السنة

الميزان عند أهل السنة ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد وخالف في هذا المعتزلة ، وقلة قليلة من أهل السنة .

---

(١) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٢) فتح الباري : (٥٣٧/٣) .

(٣) لوامع الأنوار البهية : (١٨٦/٢) .

قال ابن حجر : « قال أبو إسحق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال . وأنكرت المعتزلة الميزان ، وقالوا : هو عبارة عن العدل ؛ فخالفوا الكتاب والسنة ، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ، ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين .

وقال ابن فورك : أنكرت المعتزلة الميزان ، بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها إذ لا تقوم بأنفسها .

قال : وقد روى بعض المتكلمين عن ابن عباس أن الله تعالى يقلب الأعراض أجساما فيزنها . انتهى .

وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء ، وعزا الطبري القول بذلك إلى مجاهد .

والراجح ما ذهب إليه الجمهور .

وَذُكِرَ الميزان عند الحسن فقال : له لسان وكفتان »[1] .

وعزا القرطبي تفسير الميزان بالعدل إلى مجاهد والضحاك والأعمش[2] .

ولعل هؤلاء العلماء فسروا الميزان بالعدل في مثل قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾[3] ، فالميزان في هذه الآية العدل ، أمر الله عباده أن يتعاملوا به فيما بينهم ، أما الميزان الذي ينصب في يوم القيامة فقد تواترت بذكره الأحاديث ، وأنه ميزان حقيقي ، وهو ظاهر القرآن[4] .

---

(١) فتح الباري : (١٣/٥٣٨) بتصرف يسير .
(٢) تذكرة القرطبي : ٣١٣ .
(٣) سورة الرحمن : ٧ ـ ٩ .
(٤) النهاية لابن كثير : (٢/٣٤) .

وقد رد الإمام أحمد على من أنكر الميزان بأن الله تعالى ذكر الميزان في قوله : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[1] . والنبي ﷺ ذكر الميزان يوم القيامة ، فمن رد على النبي ﷺ ، فقد رد على الله عز وجل[2] .

وقد استدل شيخ الإسلام على أن الميزان غير العدل ، وأنه ميزان حقيقي توزن به الأعمال بالكتاب والسنة ، فقال :

« الميزان : هو ما يوزن به الأعمال ، وهو غير العدل كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾[3] ، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾[4] ، وقوله : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[5] .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . وقال عن ساقَيْ عبدالله بن مسعود : « لهما في الميزان أثقل من أحد » .

وفي الترمذي وغيره حديث البطاقة ، وصححه الترمذي والحاكم وغيرهما في الرجل الذي يؤتى به ، فينشر له تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل منها مدّ البصر ، فيوضع في كِفَّة ، ويؤتى ببطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله . قال النبي ﷺ : « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » . وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس ، فهو ما به تبين العدل . والمقصود بالوزن العدل ، كموازين الدنيا .

---

(١) سورة الأنبياء : ٤٧ .
(٢) فتح الباري : (٥٣٨/١٣) .
(٣) سورة المؤمنون : ١٠٢ .
(٤) سورة المؤمنون : ١٠٣ .
(٥) سورة الأنبياء : ٤٧ .

وأما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب »[1] .

وقد رَدَّ القرطبي على الذين أنكروا الميزان وأوَّلوا النصوص الواردة فيه وحملوها على غير محملها قائلا : « قال علماؤنا ولو جاز حمل الميزان على ما ذكروه ، لجاز حمل الصراط على الدِّين الحق ، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح ، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة ، والملائكة على القوى المحمودة ، وهذا كله فاسد ، لأنه رد لما جاء به الصادق ، وفي الصحيحين فيعطى صحيفة حسناته ، وقوله : فيخرج له بطاقة ، وذلك يدل على الميزان الحقيقي ، وأن الموزون صحف الأعمال كما بينا وبالله التوفيق »[2] .

المطلب الثالث
ما الذي يوزن في الميزان

اختلف أهل العلم في الموزون في ذلك اليوم على أقوال :

الأول : أن الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها ، وأنها تجسم فتوضع في الميزان ، ويدل لذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيح قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[3] .

وقد دلت نصوص كثيرة على أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورة الله

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٠٢/٤) .
(٢) التذكرة : ٣١٤ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) . فتح الباري (٥٣٧/١٣) .

أعلم بها ، فمن ذلك مجيء القرآن شافعا لأصحابه في يوم القيامة ، وأن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان أو غيابتان ، أو فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما . ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه . اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيابتان[1] ، أو فرقان[2] من طير صواف تحاجان عن أصحابهما »[3] .

وروى مسلم أيضا عن النواس بن سمعان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران ، كأنهما غمامتان ، أو ظلتان بينهما شرق[4] ، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما »[5] .

وهذا القول رجّحه ابن حجر العسقلاني ونصره ، فقال : « والصحيح أن الأعمال هي التي توزن ، وقد أخرج أبو داود والترمذي ، وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق » .

الثاني : أن الذي يوزن هو العامل نفسه ، فقد دلّت النصوص على أن العباد يوزنون في يوم القيامة ، فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم ، لا بضخامة

---

(١) الغيابة : أقل كثافة من الغمامة ، وأقرب إلى رأس صاحبها .
(٢) فرقان : طائفتان .
(٣) مشكاة المصابيح : (٦٥٦/١) ـ ورقم الحديث : ٢١٢٠ .
(٤) شرق : أي ضوء ونور .
(٥) مشكاة المصابيح : (٦٥٦/١) . ورقم الحديث : ٢١٢١ .

أجسامهم ، وكثرة ما عليهم من لحم ودهن ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال : اقرأوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾[1][2] » .

ويؤتى بالرجل النحيف الضعيف دقيق الساقين فإذا به يزن الجبال ، روى أحمد في مسنده ، عن زر بن حبيش عن ابن مسعود ، أنه كان رقيق الساقين ، فجعلت الريح تلقيه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله ﷺ : « مم تضحكون ؟ » قالوا : يانبي الله من رقة ساقيه »

قال : « والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد » .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد وإسناده جيد قوي[3] .

وما أحسن ما قال الشاعر :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد هرير
ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير

الثالث : أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال . فقد روى الترمذي في « سننه » عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مثل مدّ البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : ألك عذر ؟ فيقول لا يارب .

---

(١) سورة الكهف : ١٠٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الكهف ، فتح الباري : (٨/٤٢٦) .

(٣) النهاية لابن كثير : (٢/٢٩) .

فيقول الله تعالى : بلى ، إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم اليوم ، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفّة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء »[1] .

وقد مال القرطبي إلى هذا القول ، فقال : « والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة ، وبها تخف ، . . . قال ابن عمر : توزن صحائف الأعمال ، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام ، فيجعل الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلا على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار »[2] .

وقال السفاريني : « والحق أن الموزون صحائف الأعمال ، وصححه ابن عبدالبر والقرطبي وغيرهما ، وصوبه الشيخ مرعي في « بهجته » ، وذهب إليه جمهور من المفسرين ، وحكاه ابن عطية عن أبي المعالي . . »[3] .

ولعل الحق أن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله ، فقد دلت النصوص التي سقناها على أن كل واحد من هذه الثلاثة يوزن ، ولم تنف النصوص المثبتة لوزن الواحد منها أن غيره لا يوزن ، فيكون مقتضى الجمع بين النصوص إثبات الوزن للثلاثة المذكورة جميعها .

وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي فقال : « والذي استظهر من

---

(١) جامع الأصول : (٤٥٩/١٠) ورقمه ٧٩٨١ ، قال محقق الجامع : إسناده صحيح ، ورواه ابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم والبيهقي وغيرهم .

(٢) تذكرة القرطبي : ٣١٣ .

(٣) لوامع الأنوار البهية : (١٨٧/٢) .

النصوص - والله أعلم - أن العامل وعمله وصحيفة عمله - كل ذلك يوزن ، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن ، قد وردت بكل ذلك ، ولا منافاة بينها ، ويدلُّ كذلك ما رواه أحمد - رحمه الله تعالى - عن عبدالله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ : قال : قال رسول الله : « توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل ، فيوضع في كفة ، ويوضع ماأحصى عليه ، فيمايل به الميزان . قال : فيبعث به إلى النار .

قال : فإذا أدبر ، إذا صائح من عند الرحمن - عزَّ وجلَّ - يقول : لا تعجلوا ، فإنَّه قد بقي له ، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله ، فتوضع مع الرجل في كفه ، حتى يميل به الميزان » .

فهذا يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى ، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن ، ولله الحمد والمنة »[١] .

المطلب الرابع
الأعمال التي تثقل في الميزان

أثقل ما يوضع في ميزان العبد حسن الخلق ، فعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « إن أثقل شيء يوضع في ميزان العبد يوم القيامة خلق حسن ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء » . رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وروى أبو داود الفصل الأول[٢] .

---

(١) معارج القبول : (٢/ ٢٧٢) .

(٢) مشكاة المصابيح : (٢/ ٦٣٠) ، ورقم الحديث : ٥٠٨١ .

وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) . ما بين السماء والأرض »[2] .

وروى البخاري والنسائي وأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من احتبس فرسا في سبيل الله ، إيمانا بالله ، وتصديقا بوعده ، كان شبعه وريُّه ، وروثه ، وبوله ، حسنات في ميزانه يوم القيامة »[3] .

---

(١) جامع الأصول : (٣٩٧/٤) ، ورقمه : ٢٤٦٢ .
(٢) صحيح مسلم : (٢٠٣/١) ، ورقم الحديث : ٢٢٣ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٢٢٩/٥) ، ورقم الحديث : ٥٨٤٣ .

الفصل الثالث عشر
الحوض

يكرم الله عبده ورسوله محمدا ﷺ في الموقف العظيم بإعطائه حوضا واسع الأرجاء ، ماؤه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، يأتيه هذا الماء الطيب من نهر الكوثر ، الذي أعطاه لرسوله ﷺ في الجنة ، ترد عليه أمة المصطفى ﷺ ، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا .

وقد اختلف أهل العلم في موضعه فذهب الغزالي والقرطبي إلى أنَّه يكون قبل المرور على الصراط في عرصات القيامة، واستدلوا على ذلك بأنه يؤخذ بعض وارديه إلى النار فلو كان بعد الصراط لما استطاعوا الوصول إليه[1] .

واستظهر ابن حجر أن مذهب البخاري أن الحوض يكون بعد الصراط ، لأن البخاري أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة ، وأحاديث نصب الصراط »[2] .

وما ذهب إليه القرطبي أرجح ، وقد استعرض ابن حجر أدلة الفريقين في كتابه القيم : « فتح الباري »[3] .

---

(١) انظر تذكرة القرطبي : ٣٠٢ .

(٢) انظر فتح الباري : (١١/٤٦٦) .

(٣) فتح الباري : (١١/٤٦٦) .

المبحث الأول
الأحاديث الواردة فيه

الأحاديث الواردة في الحوض متواترة ، لا شك في تواترها عند أهل العلم بأحاديث الرسول ﷺ ، وقد رواها عن الرسول ﷺ أكثر من خمسين صحابيا ، وقد ذكر ابن حجر أسماء رواة أحاديثه من الصحابة[1] .

ونحن نسوق هنا بعض هذه الأحاديث التي أوردها الخطيب التبريزي في مشكاته[2] :

١ ــ عن عبدالله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : « حوضي مسيرة شهر ، وزواياه سواء[3] . ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من يشرب منها فلا يظمأ أبدا » . متفق عليه .

٢ ــ وعن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « إنّ حوضي أبعد من أيلة[4] من عدن لهو أشدُّ بياضا من الثلج ، وأحلى من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم ، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه » .

قالوا : يا رسول الله ! أتعرفنا يومئذ ؟ قال : « نعم ، لكم سيماء[5] ليست

(١) فتح الباري : (٤٦٨/١١) .
(٢) مشكاة المصابيح : (٦٨/٣) .
(٣) أي مربع لا يزيد طوله عن عرضه شيئا .
(٤) هي مدينة العقبة في الأردن .
(٥) السيماء : العلامة .

لأحد من الأمم ، تردون علي غرا محجلين من أثر الوضوء » . رواه مسلم .

٣ ـ وفي رواية له[١] عن أنس . قال « ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء » .

٤ ـ وفي أخرى له عن ثوبان ، قال : سئل عن شرابه . فقال : « أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل يغت[٢] ، فيه ميزابان يُمِدَّانه من الجنة ، أحدهما من ذهب والآخر من وَرِق » .

---

(١) أي لمسلم .

(٢) يَغت : أي يِصُبّ ويسيل .

المبحث الثاني
الذين يردون الحوض والذين يذادون عنه

وردت أحاديث كثيرة بين فيها الرسول ﷺ الذين يردون على حوضه ، والذين يمنعون من الشرب منه ، ونحن نذكر لك بعض ما أورده ابن الأثير منها في جامع الأصول[1] .

١ ـ روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن إلي رجال منكم ، حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني[2] ، فأقول : أي رب ، أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ؟ »

٢ ـ ورويا أيضا عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني ، حتى إذا رأيتهم ، ورفعوا إلي ، اختلجوا دوني ، فلأقولن : أي رب ، أصيحابي ، أصيحابي ، فليقالن لي : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

وفي رواية « ليردن علي ناس من أمتي . . . الحديث ، وفي آخره : فأقول : سحقا لمن بدل بعدي » أخرجه البخاري ومسلم .

٣ ـ ورويا عن أبي حازم رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، قال :

---

(١) جامع الأصول : ٤٦٨/١ .

(٢) اختلجوا : أخذوا بسرعة .

سمعت النبي ﷺ يقول : « أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدا ، وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم ، قال أبو حازم : فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث ، فقال : هكذا سمعت سهلاً يقول ؟ فقلت : نعم ، قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد ، فيقول : فإنهم مني ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول سحقا سحقا لمن بدل بعدي » . أخرجه البخاري ومسلم .

٤ ـ ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي ـ أو قال : من أمتي ـ فَيُحَلَّؤُون[1] عن الحوض ، فأقول : يا رب ، أصحابي ، فيقول : إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى » وفي رواية « فيجلون » أخرجه البخاري ومسلم .

وللبخاري : أن رسول الله ﷺ قال : « بينما أنا قائم على الحوض ، إذا زمرة ، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلم ، فقلت : إلى أين ؟ فقال : إلى النار والله ، فقلت : ما شأنهم ؟ فقال : إنهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة أخرى ، حتى عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم : هلم ، قلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم قد ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم »[2] .

ولمسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « ترد علي أمتي الحوض ، وأنا أذود الناس عنه ، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ، قالوا : يا نبي الله تعرفنا ؟ قال : نعم ، لكم سيما ليست لأحد غيركم ، تردون غرا محجلين من آثار الوضوء وليصدن عني طائفة منكم ، فلا يصلون ، فأقول : يا رب ، هؤلاء من أصحابي ، فيجيء

---

(١) يحلؤون : أي يدفعون ويطردون .

(٢) همل النعم : الإبل الضالة . والمعنى أن الناجي منهم قليل .

ملك ، فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ » .

وفي أخرى قال : « إن حوضي أبعد من أيلة من عدن ، لهو أشد بياضاً من الثلج ، وأحلى من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم ، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه ، قالوا : يا رسول الله ، أتعرفنا يومئذ ؟ قال : نعم ، لكم سيما[1] ليست لأحد من الأمم ، تردون عليَّ غرا محجلين » .

وقد أورد القرطبي في تذكرة بعض الأحاديث التي سقناها ثم قال : « قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين : فكل من ارتدعن دين الله أو أحدث فيه مالا يرضاه الله ، ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض ، المبعدين عنه ، وأشدهم طردا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها ، والروافض على تباين ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها ، فهؤلاء كلهم مبدلون .

وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع .

ثم البعد قد يكون في حال ، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ، ولم يكن في العقائد ، وعلى هذا يكون نور الوضوء يعرفون به ، ثم يقال لهم : سحقا ، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر ، ثم يكشف لهم الغطاء فيقال لهم : سحقا سحقا ، ولا يخلد في النار إلا كل جاحد مبطل ، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان »[2] .

(١) السيما : العلامة .

(٢) التذكرة للقرطبي : ص ٣٠٦ .

الفصل الرابع عشر
الحشر إلى دار القرار: الجنة أو النار

المبحث الأول
يطلب من كل أمة أن تتبع الإله الذي كانت تعبده

في ختام هذا اليوم يحشر العباد إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار ، وهما المقرّ الأخير الذي يصير إليه العباد جميعا ، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه يطلب من كل أمة في آخر ذلك اليوم أن تتبع الإله الذي كانت تعبده ، فالذي كان يعبد الشمس يتبع الشمس ، والذي كان يعبد القمر يتبع القمر ، والذي كان يعبد الأصنام تصور لهم آلهتهم ثم تسير أمامهم ويتبعونها ، والذين كانوا يعبدون فرعون يتبعونه ، ثم إن هذه الآلهة الباطلة تتساقط في النار ، ويتساقط عبادها وراءها في السعير ، كما قال تعالى في فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾[1] .

ولا يبقى بعد ذلك إلا المؤمنون وبقايا أهل الكتاب ، وفي المؤمنين المنافقون الذين كانوا معهم في الدنيا ، فيأتيهم ربهم ، فيقول لهم ما تنتظرون ؟ فيقولون ننتظر ربنا ، فيعرفونه بساقه عندما يكشفها لهم ، وعند ذلك يخرون له سجودا ، إلا المنافقون فلا يستطيعون ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[2] ، ثم يتبع المؤمنون ربهم ، وينصب الصراط ويعطى المؤمنون أنوارهم ، ويسيرون على الصراط ، ويطفأ نور المنافقين ، ويقال لهم: ارجعوا

(١) سورة هود : ٩٨ .

(٢) سورة القلم : ٤٢ .

وراءكم فالتمسوا نورا ، ثم يضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ويمر العباد على الصراط مسرعين بقدر إيمانهم وأعمالهم الصالحة .

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ ، قال : «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر ، وغُبَّر[1] أهل الكتاب . فيدعى اليهود ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزير ابن الله . فيقال : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون ؟ قالوا : عطشنا يا ربنا ، فاسقنا . فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون في النار .

ثم يدعى النصارى ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم ، ما اتخذ الله من صاحبةولا ولد ، فيقال لهم : ما تبغون ؟ فيقولون : عطشنا ، يا ربنا فاسقنا ، قال : فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب ، يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون في النار . حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر ، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها ، قال : فماذا تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد . قالوا : يا ربنا ، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، لا نشرك بالله شيئا (مرتين أوثلاثا) حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم ،

---

(١) غبَّرهم : بقاياهم .

وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا .

ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلم سلم .

قيل : يا رسول الله ، وما الجسر ؟ قال : دحض مزلة ، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك ، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها : السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والرِّكاب ، فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم »[١] .

وروى مسلم أيضا عن أبي هريرة في وصف المرور على الصراط ، قال : قال رسول الله ﷺ : « وترسل الأمانة والرحم ، فتقومان على جنبتي الصراط يمينا وشمالا ، فيمر أولكم كالبرق ، قال : قلت : بأبي أنت وأمي ، أي شيء كالبرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمرِّ الريح ، ثمّ كمرِّ الطير وشدِّ الرحال ، تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب ، سلم سلم . حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا ، قال : وعلى حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به . فمخدوش ناج ، ومكدوس في النار »[٢] .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي الزبير ، أنه سمع جابر بن عبدالله يسأل عن الورود ، فقال : « نجيء نحن يوم القيامة عن كذا وكذا[٣] انظر إلى ذلك فوق

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، (١٦٧/١) ورقمه : (١٨٣) .
(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة ، (١٨٧/١) ورقمه (١٩٥) .
(٣) يقول ابن رجب في تعليقه على هذه اللفظة من الحديث : « أصل هذه اللفظة تصحيف من الرواي للفظ « كوم » ، فكتب عليه كذا وكذا لإشكال فهمه عليه ، ثم كتب انظر إلى ذلك ، يأمر الناظر فيه

الناس ، قال : فتدعى الأمم بأوثانها ، وما كانت تعبد ، الأول فالأول ، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول : من تنظرون ؟ فيقولون : ننظر ربنا ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : حتى ننظر إليك ، فيتجلى لهم يضحك .

قال : فينطلق بهم ويتبعونه ، ويعطى كل إنسان منهم ، منافق أو مؤمن نورا ، ثم يتبعونه ، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك ، تأخذ من شاء الله ثم يطفأ نور المنافقين ، ثم ينجو المؤمنون أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر ، سبعون ألفا لا يحاسبون ، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء . . »(١) .

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال في إجابته للصحابة عندما سألوه عن رؤيتهم لله : « هل تُضَارُّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله . قال فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك ، يجمع الله الناس ،فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون: نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا أتانا ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب جسر جهنم ، قال رسول الله ﷺ : « فأكون أول من يجيز ، ودعاء الرسل يومئذ : اللهمَّ سلِّم سلِّم ، وبه كلاليب مثل شوك السعدان ، أما رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، فتخطف الناس بأعمالهم ،

= بالتروي والفكر في صحة لفظه ، فأدخل ذلك كله في الرواية قديما » التخويف من النار : ص ١٩٩ ، وقد ذكر أن الصواب كما جاء في المسند وكتاب السنة : « نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس ، فتدعى الأمم بأوثانها . . » .

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة : (١/ ١٧٥) . ورقمه (١٩١) .

منهم المُوبق بعمله ، ومنهم المخردل ، ثم ينجو . . »[1] .

وقد دلت هذ النصوص الصحيحة الصريحة الواضحة على عدة أمور مهمة ، فقد ذكرت حشر الكفار إلى النار ، ومسير المؤمنين إلى الجنة على الصراط ، وخلاص المؤمنين من المنافقين ، كما أشارت في جملتها إلى معنى الورود على النار الذي نصَّ الله عليه في قوله ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[2] .

وسنتناول هذه المباحث بشيء من التفصيل فيما يأتي .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب الصراط جسر جهنم ، فتح الباري : ٤٤٤/١١ ، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، (١٦٣/١) ورقم الحديث (١٨٢) ، واللفظ للبخاري .

(٢) سورة مريم : ٧١ .

المبحث الثاني

حشر الكفار إلى النار

جاءت نصوص كثيرة تصور لنا كيف يكون حشر الكفار إلى النار هم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها .

١ ـ فمن ذلك أنهم يحشرون كقطعان الماشية جماعات جماعات ، ينهرون نهرا غليظا ، ويصاح بهم من هنا وهناك ، كما يفعل الراعي ببقره أو غنمه ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾(١) ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾(٢) .

وقال : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾(٣) . ومعنى يوزعون أي يجمعون ، تجمعهم الزبانية أولهم على آخرهم ، كما يفعل البشر بالبهائم .

٢ ـ وأفادت النصوص أنهم يحشرون إلى النار على وجوههم ، لا كما كانوا يمشون في الدنيا على أرجلهم ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(٤) .

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن رجلا قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : « أليس الذي أمشاه على رجليه في

---

(١) سورة الزمر : ٧٢ .

(٢) سورة الطور : ١٣ .

(٣) سورة فصلت : ١٩ .

(٤) سورة الفرقان : ٣٤ .

الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » قال قتادة : بلى وعزة ربنا[1] .

ومع حشرهم على هذه الصورة المنكرة على وجوههم فإنهم يحشرون عميا لا يرون ، وبكما لا يتكلمون ، وصما لا يسمعون ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾[2] .

٣ ـ ويزيد بلاءهم أنهم يحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾[3] .

٤ ـ وهم في هذا مغلوبون مقهورون أذلاء صاغرون ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾[4] .

٥ ـ وقبل أن يصلوا إلى النار تصك مسامعهم أصواتها التي تملأ قلوبهم رعبا وهلعا ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾[5] .

٦ ـ وعندما يبلغون النار ويعاينون أهوالها يندمون ويتمنون العودة إلى الدنياكي يؤمنوا ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[6] ،ولكنهم لا يجدون من النار مفراً ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾[7] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب الحشر ، فتح الباري : (٣٧٧/١١) . ومسلم : (٢١٦١/٤) . ورقمه : (٢٨٠٦) . واللفظ لمسلم .

(٢) سورة الإسراء : ٩٧ .

(٣) سورة الصافات : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٤) سورة آل عمران : ١٢ .

(٥) سورة الفرقان : ١٢ .

(٦) سورة الأنعام : ٢٧ .

(٧) سورة الكهف : ٥٣ .

٧ ـ وعند ذلك يؤمرون بالدخول في النار وغضب الجبار أذلاء خاسرين ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[١] ، ولا ينجو من النار من الجن والإنس إلا الأتقياء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[٢] . يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات :

« يقسم الله بنفسه وهو أعظم قسم وأجله ؛ أنهم سيحشرون بعد الموت ، فهذا أمر مفروغ منه ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ ، ولن يكونوا وحدهم ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾[٣] فهم والشياطين سواء ، والشياطين هم الذين يوسوسون بالإنكار ، وبينهما صلة التابع والمتبوع ، والقائد والمقود . . وهنا يرسم صورة حسيّة وهم جاثون حول جهنم جثو الخزي والمهانة ، ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾[٤] ، وهي صورة رهيبة ، وهذه الجموع التي لا يحصيها العد محشورةمحضرة إلى جهنم جاثية حولها ، تشهد هولها ، ويلفحها حرها ، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها ، وهم جاثون على ركبهم في ذلة وفزع . . وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين ، يليه مشهد النزع والجذب لمن كانواأشدّ عتوا وتجبرا : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾[٥] وفي اللفظ تشديد ، ليرسم بظله وجرسه

---

(١) سورة النحل : ٢٩ .

(٢) سورة مريم : ٦٨ ـ ٧٢ .

(٣) سورة مريم : ٦٨ .

(٤) سورة مريم : ٦٨ .

(٥) سورة مريم : ٦٩ .

صورة لهذا الانتزاع ، تتبعها صورة القذف في النار ، وهي الحركة التي يكملها الخيال .

وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها ، فلا يؤخذ أحد جزافا من هذه الجموع التي لا تحصى ، والتي أحصاها الله فردا فردا : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾[1] فهم المختارون ليكونوا طليعة المقذوفين »[2] .

وقد غيّرت هذه الآية ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[3] أحوال الصالحين ، فأسهرت ليلهم ، وعكرت عليهم صفو العيش ، وحرمتهم الضحك ، والتمتع بالشهوات ، فقد ذكر ابن كثير أن أبا ميسرة كان إذا أوى إلى فراشه قال : ياليت أمي لم تلدني ، ثم يبكي ، فقيل له ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال : أخبرنا الله أنا ورادوها ، ولم نخبر أنا صادرون عنها . وقال عبدالله بن المبارك عن الحسن البصري ، قال : قال رجل لأخيه : هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك ؟ قال : فما رئي ضاحكا حتى لحق بالله ، وقال ابن عباس لرجل يحاوره : أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها ، فانظر هل نصدر عنها أم لا ؟[4] .

---

(١) سورة مريم : ٧٠ .

(٢) في ظلال القرآن : (٤/٢٣١٧) .

(٣) سورة مريم : ٧١ .

(٤) تفسير ابن كثير : (٤/٤٧٦) .

المبحث الثالث

مرور المؤمنين على الصراط وخلاص المؤمنين من المنافقين

عندما يذهب بالكفرة الملحدين ، والمشركين الضالين إلى دار البوار : جهنم يصلونها ، وبئس القرار ، يبقى في عرصات القيامة أتباع الرسل الموحدون ، وفيهم أهل الذنوب والمعاصي ، وفيهم أهل النفاق ، وتلقى عليهم الظلمة قبل الجسر كما في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : سئل الرسول ﷺ : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال : « هم في الظلمة دون الجسر » .

يقول شارح الطحاوية[1] : « وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ، ويتخلفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم ، روي البيهقي بسنده عن مسروق ، عن عبدالله ، قال : « يجمع الله الناس يوم القيامة » إلى أن قال : «فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه ، حتى يكون آخر من يعطى نوره في إبهام قدمه ، يضيء مرة ويطفأ أخرى ، إذا أضاء قدم قدمه ، وإذا أطفأ قام ، قال : فيمر ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف دحض مزلة ، ويقال لهم : امضوا على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمر

---

(١) شرح الطحاوية : ص ٤٧٠ .

كالريح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كشدّ الرّجل ، يرمل رملا على قدر أعمالهم ، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه ، تخرُّ يدٌ ، وتعلق يد ، وتخر رجل وتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فيخلصون فإذا خلصوا ، قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك ، بعد أن أراناك ، لقد أعطانا مالم يعط أحد »[1] .

وقد حدثنا الحق تبارك وتعالى عن مشهد مرور المؤمنين على الصراط ، فقال : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2] .

فالحق يخبر أن المؤمنين والمؤمنات الذين استناروا بهذا الدين العظيم في الدنيا ، وعاشوا في ضوئه ، يعطون في يوم القيامة نورا يكشف لهم الطريق الموصلة إلى جنات النعيم ، ويجنبهم العثرات والمزالق في طريق دحض مزلة ، وهناك يبشرون بجنات النعيم ، ويحرم المنافقون الذين كانوا يزعمون في الدنيا أنهم مع المؤمنين ، وأنهم منهم ، لكنهم في الحقيقة مفارقون لهم لا يهتدون

---

(١) قال الشيخ ناصر في تخريجه لأحاديث شرح الطحاوية (٤٧٠) : « صحيح ، وأخرجه الحاكم ، وأظن أن البيهقي من طريقه رواه ، وقال الحاكم : « صحيح على شرح الشيخين » ووافقه الذهبي » وبينّ الشيخ أن أحد رواته فيه ضعف ، ثم هو مدلس ، لكنه توبع ، وصرح بالتحديث ، فالحديث صحيح .

(٢) سورة الحديد : ١٢ ـ ١٥ .

بهداهم ، ولا يسلكون سبيلهم من النور ، كما حرموا أنفسهم في الدنيا من نور القرآن العظيم ، فيطلب المنافقون من أهل الإيمان أن ينتظروهم ليستضيئوا بنورهم ، وهناك يخدعون ، كما كانوا يخدعون المؤمنين في الدنيا ، ويقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، وبذلك يعود المنافقون إلى الوراء ، ويتقدم المؤمنون إلى الأمام ، فإذا تمايز الفريقان ، ضرب الله بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ويكون مصير المؤمنين والمؤمنات الجنة ، ومصير المنافقين والمنافقات النار .

وقد أخبر الحق أن دعاء المؤمنين عندما يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم هو (ربنا أتمم لنا نورنا) ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طُفىء »[2] .

(١) سورة التحريم : ٨ .
(٢) تفسير ابن كثير : ٦١/٧ .

المبحث الرابع

الذين يمرون على الصراط هم المؤمنون دون المشركين

دلت الأحاديث التي سقناها على أن الأمم الكافرة تتبع ما كانت تعبد من آلهة باطلة ، فتسير تلك الآلهة بالعابدين حتى تهوي بهم في النار ، ثم يبقى بعد ذلك المؤمنون وفيهم المنافقون ، وعصاة المؤمنين ، وهؤلاء هم الذين ينصب لهم الصراط .

ولم أر في كتب أهل العلم من تنبه إلى ما قررناه من أن الصراط إنما يكون للمؤمنين دون غيرهم من الكفرة المشركين والملحدين غير ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى ، فإنه قال : في كتابه التخويف من النار : « واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ، ومشرك يعبد مع الله غيره ، فأما المشركون ، فإنهم لا يمرون على الصراط ، وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط »[1] وقد ساق بعض الأحاديث التي سقناها ، ومنها حديث أبي سعيد الخدري الذي في الصحيحين ، ثم قال : « فهذا الحديث صريح في أن كل من أظهر عبادة شيء سوى الله كالمسيح والعزير من أهل الكتاب فإنه يلحق بالمشركين في الوقوع في النار قبل نصب الصراط ، إلا أن عباد الأصنام والشمس والقمر وغير ذلك من المشركين تتبع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا ، فترد النار مع معبودها أولا ، وقد دل القرآن على هذا المعنى في قوله تعالى في شأن فرعون :

---

(١) التخويف من النار : ص ١٨٧ .

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾[1] .. وأما من عبدالمسيح والعزير من أهل الكتاب ، فأنهم يتخلفون مع أهل الملل المنتسبين إلى الأنبياء ، ثم يردون النار بعد ذلك .

وقد ورد في حديث آخر أن من كان يعبد المسيح يمثل له شيطان المسيح فيتبعونه ، وكذلك من كان يعبد العزير ، وفي حديث الصور أنه يمثل لهم ملك على صورة المسيح ، وملك على صورة العزير ، ولا يبقى بعد ذلك إلا من كان يعبد الله وحده في الظاهر سواء كان صادقا أو منافقا من هذه الأمة وغيرها ، ثم يتميز المنافقون عن المؤمنين بامتناعهم عن السجود ، وكذلك يمتازون عنهم بالنور الذي يقسم للمؤمنين»[2] .

وهذا نظر سديد من قائله رحمه الله .

(١) سورة هود : ٩٨ .

(٢) التخويف من النار : ص ١٨٨ .

المبحث الخامس
معنى ورود النار

ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بورود النار المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[1] هو دخول النار ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه[2] ، وكان يستدل على ذلك بقول الله تعالى في فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾[3] ، وبقوله : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[4] ، وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾[5] ، وروى مسلم الأعور عن مجاهد ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[6] ، قال : داخلها[7] .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالورود هنا المرور على الصراط ، يقول شارح الطحاوية : « واختلف المفسرون في المراد بالورود في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[8] ما هو ؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[9] . وفي « الصحيح » أنه ﷺ ، قال : « والذي نفسي بيده ، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة » ، قالت حفصة : فقلت : يا رسول الله ، أليس الله يقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[10] . فقال : « ألم تسمعيه قال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا

---

(١) سورة مريم : ٧٢ .
(٢) التخويف من النار : ص ٢٠ .
(٣) سور هود : ٩٨ .
(٤) سورة مريم : ٨٦ .
(٥) سورة الأنبياء : ٩٩ .
(٦) سورة مريم : ٧٢ .
(٧) التخويف من النار : ص ٢٠٠ .
(٨) سورة مريم : ٧١ .
(٩) سورة مريم : ٧٢ .
(١٠) سورة مريم : ٧١ .

﴿وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[1] . أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها ، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال : نجاه الله منهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودًا﴾[2] ، ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحًا﴾[3] . ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبًا﴾[4] ، ولم يكن العذاب أصابهم ، ولكن أصاب غيرهم ، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة ، لأصابهم ما أصاب أولئك ، وكذلك حال الوارد على النار ، يمرون فوقها على الصراط ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا ، فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور أن الورود هو الورود على الصراط »[5] .

والحق أن الورود على النار ورودان : ورود الكفار أهل النار ، فهذا ورود دخول لاشك في ذلك كما قال تعالى في شأن فرعون ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾[6] ، أي بئس المدخل المدخول .

والورود الثاني : ورود الموحدين ، أي مرورهم على الصراط على النحو المذكور في الأحاديث .

---

(1) سورة مريم : ٧٢ .
(2) سورة هود : ٥٨ .
(3) سورة هود : ٦٦ .
(4) سورة هود : ٩٥ .
(5) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٤٧١ .
(6) سورة هود : ٩٨ .

المبحث السادس

حقيقة الصراط ومعتقد أهل السنة فيه

قال السفاريني : « الصراط في اللغة الطريق الواضح . ومنه قول جرير :

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم

وفي الشرع جسر ممدود على متن جهنم ، يرده الأولون والآخرون ، فهو قنطرة بين الجنة والنار »[1] .

وقد بين شارح الطحاوية معتقده في الصراط المذكور في الأحاديث فقال :

« ونؤمن بالصراط ، وهو جسر على جهنم ، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله ﷺ سئل : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال : « هم في الظلمة دون الجسر »[2] .

وقد بين السفاريني رحمه الله تعالى ـ موقف الفرق من الصراط ، وهل هو صراط مجازي أم حقيقي ؟ ثم قرر مذهب أهل الحق الذي دلت عليه النصوص فيه ، فقال : « اتفقت الكلمة على إثبات الصراط في الجملة ، لكن أهل الحق يثبتونه على ظاهره من كونه جسرا ممدودا على متن جهنم ، أحد من السيف وأدق من الشعر ، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبدالجبار المعتزلي ، وكثير من أتباعه زعما

---

(١) لوامع الأنوار البهية : (٢/١٨٩) .

(٢) شرح الطحاوية : ص ٤٦٩ .

منهم أنه لايمكن عبوره ، وإن أمكن ففيه تعذيب ، ولا عذاب على المؤمنين والصلحاء يوم القيامة ، وإنما المراد طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾(١) ، وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾(٢) ، ومنهم من حمله على الأدلة الواضحة والمباحات والأعمال الرديئة التي يسأل عنها ويؤاخذ بها، وكل هذا باطل وخرافات لوجوب حمل النصوص على حقائقها ، وليس العبور على الصراط بأعجب من المشي على الماء أو الطيران في الهواء ، أو الوقوف فيه ، وقد أجاب ﷺ عن سؤال حشر الكافر على وجهه بأن القدرة صالحة لذلك ، وأنكر العلامة القرافي كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف ، وسَبَقه إلى ذلك شيخه العز بن عبدالسلام ، والحق أن الصراط وردت به الأخبار الصحيحة وهو محمول على ظاهره بغير تأويل كما ثبت في الصحيحين والمسانيد والسنن والصحاح مما لا يحصى إلا بكلفة من أنه جسر مضروب على متن جهنم يمر عليه جميع الخلائق ، وهم في جوازه متفاوتون »(٣) .

وذكر القرطبي مذهب القائلين بمجازية الصراط ، المؤولين للنصوص المصرحة به ، فقال :

« ذهب بعض من تكلم على أحاديث وصف الصراط بأنه أدق من الشعر ، وأحدُّ من السيف أن ذلك راجع إلى يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصي ، ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى لخفائها وغموضها ، وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي دقيق ، فضرب المثل بدقة الشعر فهذا من هذا الباب ، ومعنى قوله : أحد من السيف أن الأمر الدقيق الذي يصعد من عند الله تعالى إلى

---

(١) سورة محمد : ٥ .

(٢) سورة الصافات : ٢٣ .

(٣) لوامع الأنوار البهية : ٢/١٩٢ .

الملائكة في إجازة الناس على الصراط يكون في نفاذ حد السيف ومضيه إسراعا منهم إلى طاعته وامتثاله ، ولا يكون له مرد كما أن السيف إذا نفذ بحده وقوة ضاربه في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد ، وإما أن يقال : إن الصراط نفسه أحد من السيف وأدق من الشعر فذلك مدفوع بما وصف من أن الملائكة يقومون بجنبيه ، وأن فيه كلاليب وحسكا ، أي أن من يمر عليه يقع على بطنه ، ومنهم من يزل ، ثم يقوم ، وفيه أن من الذين يمرون على مَنْ يعطي النور بقدر موضع قدميه ، وفي ذلك إشارة إلى أن للمارين عليه مواطيء الأقدام ، ومعلوم أن دقة الشعر لا يحتمل هذا كله[1] .

ثم رد عليهم مقالتهم ، فقال : « ما ذكره هذا القائل مردود بما ذكرنا من الأخبار وأن الإيمان يجب بذلك ، وأن القادر على إمساك الطير في الهواء قادر على أن يمسك عليه المؤمن ، فيجريه أو يمشيه ، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند الاستحالة ولا استحالة في ذلك للآثار المروية في ذلك ، وبيانها بنقل الأئمة العدول ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور »[2] .

---

(١) التذكرة للقرطبي : ٣٣٢ .

(٢) التذكرة للقرطبي : ٣٣٣ .

المَبحَث السَابع

عظة المرور على الصراط

يقول القرطبي : « تفكر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط ، مع ضعف حالك واضطراب قلبك ، وتزلزل قدمك ، وثقل ظهرك بالأوزار ، المانعة لك من المشي على بساط الأرض ، فضلا عن حدة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك ، فأحسست بحدته ، واضطررت إلى أن ترفع قدمك الثاني ، والخلائق بين يديك يزلون ، ويعثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب ، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم فيا له من منظر ما أفظعه ، ومرتقى ما أصعبه ، ومجاز ما أضيقه »[1] .

وقال أيضاً :[2] « فتوهم نفسك - يا أخي - إذا صرت على الصراط ، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة ، قد لظى سعيرها ، وعلا لهيبها ، وأنت تمشي أحيانا ، وتزحف أخرى ، قال :

أبت نفسي تتوب فما احتيالي ... إذا برز العباد لذي الجلالي
وقاموا من قبورهم سكارى ... بأوزار كأمثال الجبال
وقد نصب الصراط لكي يجوزوا ... فمنهم من يكب على الشمال

---

(١) التذكرة للقرطبي : ٣٣٢ .
(٢) التذكرة للقرطبي : ٣٣٠ .

ومنهم من يسير لدار عدن تلقاه العرائس بالغوالي
يقول له المهيمن يا وليي غفرت لك الذنوب فلا تبالي

وقال آخر :

إذا مد الصراط على جحيم تصول على العصاة وتستطيل
فقوم في الجحيم لهم ثبور وقوم في الجنان لهم مقيل
وبان الحق وانكشف المغطى وطال الويل واتصل العويل

المراجع مرتبة على حروف المعجم

١ ــ التخويف من النار ، للحافظ أبي الفرج بن الجوزي . طبعة المكتبة العلمية . بيروت .

٢ ــ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي . طبعة المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة .

٣ ــ تفسير الألوسي . طبعة إدارة الطباعة المنيرية .

٤ ــ تفسير ابن كثير . طبعة دار الأندلس . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٥ ـ ١٩٦٦ .

٥ ــ تفسير القرطبي . طبعة دار الكتاب العربي . القاهرة .

٦ ــ جامع الأصول في أحاديث الرسول ـ لابن الأثير تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط . نشر مكتبة الحلواني الطبعة الأولى ، ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢ .

٧ ــ الروح لابن القيم . نشر المكتبة العلمية . بيروت .

٨ ــ سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني . نشر المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى .

٩ ــ شرح العقيدة الطحاوية . لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي . نشر المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الرابعة . ١٣٩١ .

١٠ ــ صحيح البخاري . اعتمدنا على متن فتح الباري : طبعة السلفية . القاهرة . الطبعة الأولى .

١١ ــ صحيح الجامع الصغير للسيوطي . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نشر المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الأولى . ١٣٨٨ ـ ١٩٦٩ .

١٢ ــ صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي . طبعة دار إحياء الكتب العربية . بيروت . الطبعة الثانية . ١٩٧٢ .

١٣ ــ العهد القديم والعهد الجديد .

١٤ ــ فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني . طبعة المكتبة السلفية . القاهرة . الطبعة الأولى .

١٥ ــ في ظلال القرآن ، لسيد قطب . طبعة دار الشروق .

١٦ ــ لسان العرب ، لابن منظور . ترتيب يوسف خياط ، ونديم مرعشلي ، طبعة دار لسان العرب .

١٧ ــ لوامع الأنوار البهية ، للسفاريني . طبعة دولة قطر . الطبعة الأولى .

١٨ ـ مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع ابن قاسم . طبعة دولة المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى .
١٩ ـ مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي . طبعة المكتب الإسلامي . دمشق . الطبعة الأولى . ١٣٨١ ـ ١٩٦١ .
٢٠ ـ معارج القبول . للشيخ حافظ حكمي طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية . الرياض .
٢١ ـ مقاصد المكلفين ، لمؤلف هذا الكتاب . طبعة مكتبة الفلاح . الكويت .
٢٢ ـ نهاية البداية والنهاية لابن كثير . نشر مكتبة النهضة الحديثة . الرياض . الطبعة الأولى . ١٩٦٨ .

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ـ العقيدة في الله	الطبعة الخامسة
٢ ـ عالم الملائكة الأبرار	الطبعة الرابعة
٣ ـ عالم الجن والشياطين	الطبعة الرابعة
٤ ـ معالم الشخصية الإسلامية	الطبعة الرابعة
٥ ـ الرسل والرسالات	الطبعة الرابعة
٦ ـ المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم	الطبعة الثالثة
٧ ـ الصوم في ضوء الكتاب والسنة	الطبعة الثالثة
٨ ـ اصل الاعتقاد	الطبعةالثالثة
٩ ـ مواقف ذات عبر	الطبعة الثانية
١٠ ـ مقاصد المكلفين « النيات في العبادات»	الطبعة الأولى
١١ ـ القياس بين مؤيديه ومعارضيه	الطبعة الثانية
١٢ ـ ثلاث شعائر	الطبعة الثالثة
١٣ ـ جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة	الطبعة الثانية
١٤ ـ خصائص الشريعة الإسلامية	الطبعة الثانية
١٥ ـ تاريخ الفقه الإسلامي	الطبعة الأولى
١٦ ـ الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية	الطبعة الثانية
١٧ ـ نحو ثقافة إسلامية أصيلة	الطبعة الأولى
١٨ ـ سلسلة محاضرات إسلامية هادفة	الطبعة الأولى
١٩ ـ القيامة الصغرى وأشراط القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢٠ ـ القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢١ ـ الجنة والنار	الطبعة الأولى

يُطلب هذا الكتاب في
المملكة العربية السعودية
من
دار الهجرة للنشر والتوزيع
ص.ب ٢٠٥٩٧ الثقبة ٣١٩٥٢ الخبر
تلفون الخبر: ٨٩٨٣٠٠٤ تلفون الرياض: ٤٧٩٢٠٥٥



هاتف ٦٩٣٩٤٠ ـ فاكس ٦٩٣٩٤١
ص.ب ٢١١٥١١ عمّان ١١١٢١ ـ الاردن

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ٥

اليوم الآخر

٣

الجنة والنار

الدكتور عمر سليمان الأشقر





دار النفائس

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة (٥)

اليوم الآخر



الجنة والنار

تأليف
الدكتور عمر سليمان الأشقر



دار النفائس
للنشر والتوزيع الأردن

٢٥٤ و ٢٤١
عمر

عمر سليمان الأشقر

اليوم الآخر . الجنة والنار . عمر سليمان الأشقر

ط ٤ . عمان : (د . ن) ١٩٩١

(٢٧٨) ص

ر . أ ١٩٩٠/١٠/٧٢٦

١ - الإسلام . عقيدة .   أ - العنوان

تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية

الطَبعَة السَّابعَة

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م



دار النفائس

للنشر والتوزيع

الاردن - عمان - العبدلي - مقابل جوهرة القدس

هاتف : ٤٠ ٣٩ ٦٩ - فاكس : ٤١ ٣٩ ٦٩ - ص.ب : ٢١١٥١١

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الجنة والنار ، وخلق لكل واحدة منهما أهلا وأصحابا ، وجعل الجنة دار أوليائه ، والنار دار أعدائه . والصلاة والسلام على خاتم رسله ، وأشرف خلقه الذي جاء إلى الجنة داعيا ، وفي نعيمها مرغبا ، ومن النار وعذابها مخوفا ومحذرا ومرهبا .

وأصلي وأسلم على آل الرسول وصحبه وتابعيهم بإحسان الذين أعدوا للأمر عدته ، وأخذوا له أهبته ، فأسهروا ليلهم يصلون ، ويستغفرون ، ويناجون الله ، ويرتلون كتابه ، وأظمؤوا نهارهم تقربا إلى الله بالصيام لأنهم علموا أن الأمر جد ، ولا نجاة من النار ، ولا فوز بالجنة إلا بالتشمير عن ساعد الجدّ ، وبعد :

فهذا هو القسم الثالث من أقسام اليوم الآخر ، وهو حديث عن الجنة والنار .

وقد جعلنا هذا القسم في بابين .

الباب الأول حديث عن النار ، وقد تم هذا الباب في عشرة فصول ، يسبقها تمهيد .

أما التمهيد فهو تعريف بالنار .

والفصل الأول عقدناه للتدليل على عقيدة أهل السنة والجماعة في أن الجنة والنار مخلوقتان ورددت فيه على من زعم خلاف ذلك من أهل الفرق .

والفصل الثاني حديث عن خزنة النار ، وهم الملائكة القائمون على النار ، وبيان عددهم وعظم خلقهم .

والفصل الثالث وصف للنار ، وفيه حديث عن مكانها ، وسعتها ، ودركاتها ، وأبوابها ، ووقودها ، وشدة حرها ، وكلامها ، وصفة خلقها ، وتأثيرها على الدنيا وأهلها .

والفصل الرابع سقناه للتدليل على أنها خالدة لا تبيد ، ورددنا فيه على الذين زعموا أنها تفنى وتبيد .

وفي الفصل الرابع حديث عن أهل النار وهم فريقان : فريق خالد فيها ، وهم الكفرة المشركون ، وفريق غير خالد وهم عصاة الموحدين . وقد تحدثنا عن كلا الفريقين ، وذكرنا شيئا من جرائمهم التي استحقوا بها النار .

وفي الفصل السادس حديث عن كثرة أهل النار ، وسقنا النصوص الدالة على كثرة الهالكين ، وقلة الناجين ، والسر في ذلك . وفي هذا الفصل مبحث للحديث عن النساء وأنهن أكثر أهل النار ، وبيان السبب في كونهن كذلك .

وفي الفصل السابع بيان لعظم أهل النار وضخامة خلقهم .

والفصل الثامن مخصص للحديث عن طعام أهل النار وشرابهم .

والفصل التاسع فصل طويل مسوق للحدث عن عذاب أهل النار ، وقد سقت فيه صورا من عذابهم ، كما بينت أن أهل النار متفاوتون في عذابهم في النار ، ثم ذكرت شيئا من أنواع العذاب الذي أعده الله لهم ، ومنه الصهر ، واللفح ، والسحب ، وتسويد الوجوه ، وانضاج الجلود ، واندلاق الأمعاء ، واطلاع النار على أفئدتهم ، كما سقت النصوص المبينة لقيودهم وأغلالهم وسلاسلهم ومطارقهم التي يعذبون بها .

والفصل العاشر والأخير عقدته لبيان السبل التي يتقي بها العباد نار الله .

والباب الثاني عقدته للحديث عن الجنة ، وفيه سبعة فصول ، يسبقها تمهيد . أما التمهيد فللتعريف بالجنة .

والفصل الأول عقدته لدخول الجنة ، بينت فيه مشهد دخول المؤمنين الجنة ، وشفاعة الرسول ﷺ للمؤمنين في دخولها ، وكيف يدخلها المؤمنون بعد تهذيبهم وتنقيتهم ، وتحدثت فيه عن أول المؤمنين دخولا الجنة ، وعن السبعين ألفا من هذه الأمة الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وصفتهم وعن سبق فقراء المهاجرين أغنياءهم إلى الجنة ، وعقدت مبحثا طويلا لبيان أن عصاة الموحدين الذين دخلوا النار يخرجون منها برحمة أرحم الراحمين وشفاعة الشفاعين ، وبينت مذهب أهل السنة من هذه الشفاعة ، ورددت على الذين أنكروها وردوها ، وختمت هذا الفصل بمبحثين : الأول عن آخر من يدخل الجنة ، والثاني عمن دخل الجنة قبل يوم القيامة .

والفصل الثاني سقته للتدليل على أنَّ الجنة خالدة وأهلها فيها خالدون ، وللرد على من زعم خلاف ذلك .

والفصل الثالث في صفة الجنة ، وقد تحدثنا فيه عن عظم نعيمها ، وأبوابها ، ودرجاتها ، وتربتها ، وأنهارها ، وعيونها ، وقصورها ، ونورها ، وريحها ، وأشجارها ، وثمارها ، وريحانها ، ودوابها .

والفصل الرابع حديث عن أهل الجنة والأعمال التي استحقوا بها الجنة ، وكيف يرث أهل الجنة نصيب أهل النار في الجنة ، وبيان أن الضعفاء في الجنة أكثر من الأغنياء ، وأن الرجال أكثر فيها من النساء ، وحققت القول في مسألة دخول أطفال المؤمنين وأطفال المشركين الجنة ، ومن المباحث الذي تضمنها هذا الفصل ذكر سادة أهل الجنة كهولا وشبانا ونساء ، وذكر العشرة المبشرين بالجنة ، وذكر

أسماء بعض من نص على أنه في الجنة ، وختمت هذا الفصل بذكر أن الجنة ليست ثمنا للعمل ، بل العمل سبب لدخول الجنة ، ونيل الجنة إنما هو برحمة الله وفضله .

والفصل الخامس حديث عن صفة أهل الجنة ونعيمهم فيها .

وأطول فصول هذا الباب الفصل السادس الذي عقدته للحديث عن نعيم أهل الجنة ، وبينت فيه فضل نعيم الجنة على متاع الدنيا . وتحدثت فيه عن تمتع أهل الجنة بأنواع الطعام والشراب ، كما تحدث عن فرشهم وخدمهم وسوقهم وآنية طعامهم وشرابهم ، وعن اللباس الذي يلبسونه ، والأماني التي يتمنونها ، فتتحقق على صورة عجيبة غريبة ، ليس لها في الدنيا نظير .

وعقدت مبحثا في هذا الفصل للحديث عن أزواج المؤمنين في الجنة ، سواء كن من الحور العين أم أزواجهم من نساء الدنيا .

وبينت في هذا الفصل أن أعظم ما يعطاه المؤمنون في الجنة رضوان الله عز وجل ، ولذة النظر إلى وجهه الكريم ، ومن النعيم في دار النعيم تسبيح المولى وتقديسه وتكبيره .

والفصل السابع والأخير فيه حديث عما جرى من محاجة بين الجنة والنار وحكم الله بينهما .

أسأل الله تعالى أن يوفقنا للعمل بطاعته ، وأن ينجينا من النار بمنه وكرمه ، وأن يدخلنا الجنة برحمته وفضله ، إنه سميع مجيب قريب ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد .

عمر سليمان الأشقر
الكويت
١٩ من رمضان ١٤٠٦
١٩٨٦/٥/٢٧

الباب الأول

النار

تمهيد: تعريف وبيان

النار هي الدار التي أعدها الله للكافرين به ، المتمردين على شرعه ، المكذبين لرسله ، وهي عذابه الذي يعذب فيه أعداءه ، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين .

وهي الخزي الأكبر ، والخسران العظيم ، الذي لا خزي فوقه ، ولا خسران أعظم منه ، ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾(١) ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾(٢) ، وقال : ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾(٣) .

وكيف لا تكون النار كما وصفنا وفيها من العذاب والآلام والأحزان ما تعجز عن تسطيره أقلامنا ، وعن وصفه ألسنتنا ، وهي مع ذلك خالدة وأهلها فيها خالدون ، ولذلك فإن الحق أطال في ذم مقام أهل النار في النار ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾(٤) ، ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾(٥) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٢ .

(٢) سورة التوبة : ٦٣ .

(٣) سورة الزمر : ١٥ .

(٤) سورة الفرقان : ٦٦ .

(٥) سورة ص : ٥٥ ـ ٥٦ .

الفَصْل الأول

الجنّة والنار مخلوقتان

قال الطحاوي في العقيدة السلفية التي تنسب إليه المعروفة بالعقيدة الطحاوية : « والجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان أبدا ولا تبيدان ، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه ، وكل يعمل لما قد فرغ له ، وصائر إلى ما خلق له ، والخير والشر مقدّران على العباد » .

وقال محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية في شرحه لهذا النصّ :

« أما قوله : « إن الجنة والنار مخلوقتان » ، فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يزل أهل السنة على ذلك ، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية ، فأنكرت ذلك ، وقالت : بل ينشئهما الله يوم القيامة . وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله ، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ، ولا ينبغي له أن يفعل كذا . وقاسوه على خلقه في أفعالهم ، فهم مشبهة في الأفعال ، ودخل التجهم فيهم ، فصاروا مع ذلك معطلة . وقالوا : خلق الجنة قبل الجزاء عبث ، لأنها تصير معطلةً مددا متطاولة . فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى ، وحرفوا النصوص عن مواضعها ، وضللوا وبدّعوا من خالف شريعتهم » .

ثم ساق الأدلة من الكتاب والسنة التي تدل على أنهما مخلوقتان ، « فمن نصوص الكتاب: قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[2]، وعن النار : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[3]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[4]. وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[5]. وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى . كما في « الصحيحين » ، من حديث أنس رضي الله عنه ، في قصة الإسراء ، وفي آخره : « ثم انطلق بي جبرائيل ، حتى أتى سدرة المنتهى ، فغشيها ألوانٌ لا أدري ماهي ، قال : ثم دخلت الجنة ، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » .

وفي « الصحيحين » من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » . وتقدم حديث البراء بن عازب[6]، وفيه : « ينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روَحها وطيبها » . وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء .

وفي « صحيح مسلم » ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ ، فذكرت الحديث ، وفيه : وقال رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٣ .
(٢) سورة الحديد : ٢١ .
(٣) سورة آل عمران : ١٣١ .
(٤) سورة النبأ : ٢١ ـ ٢٢ .
(٥) سورةالنجم : ١٣ ـ ١٥ .
(٦) تقدم في كتاب : « القيامة الكبرى »

« رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به ، حتى لقد رأيتني آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني تقدّمت . ولقد رأيت النار يَحْطِم بعضها بعضا حين رأيتموني تأخرت » .

وفي « الصحيحين » ، واللفظ للبخاري ، عن عبدالله بن عباس ، قال : انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ ، فذكر الحديث ، وفيه : فقالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك ، ثم رأيناك تكعكعت ؟ فقال : « إني رأيت الجنة ، وتناولت عنقوداً ، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار ، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع ، ورأيت أكثر أهلها النساء » ، قالوا : بم ، يا رسول الله ؟ قال : « بكفرهن » ، قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : « يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهرَ كله ، ثم رأت منك شيئا ، قالت : ما رأيت خيراً قط » .

وفي « صحيح مسلم » من حديث أنس : « وأيم الذي نفسي بيده ، لو رأيتم ما رأيت ، لضحكتم قليلا وبكيتم كثيراً » . قالوا: وما رأيت يا رسول الله ؟ قال . « رأيت الجنة والنار » .

وفي « الموطأ والسنن » ، من حديث كعب بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما نسمة المؤمن طيرٌ تعلق في شجر الجنة ، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة »[1] . وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة .

وفي « صحيح مسلم والسنن والمسند » ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لما خلق الله الجنة والنار ، أرسل جبرائيل إلى

---

(١) قال محقق الطحاوية : صحيح .

الجنة ، فقال : اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، فرجع فقال : وعزتك ؛ لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بالجنة ، فحفَّت بالمكاره ، فقال : ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها . قال : فنظر إليها ، ثم رجع فقال : وعزتك ، لقد خشيت أن لا يدخلها أحد .

قال : ثم أرسله إلى النار ، قال : اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فنظر إليها ، فإذا هي يركب بعضها بعضاً ، ثم رجع فقال : وعزتك ، لايدخلها أحد سمع بها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، ثم قال : اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر إليها ، فرجع فقال : وعزتك ، لقد خشيت أن لاينجو منها أحد إلا دخلها » . ونظائر ذلك في السنة كثيرة[1] .

وقد عقد البخاري في صحيحه بابا قال فيه : « باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة[2] وساق في هذا الباب أحاديث كثيرة تدل على أن الجنة مخلوقة ، منها الحديث الذي ينص على أن الله يُري الميت عندما يوضع في قبره مقعده من الجنة والنار ، وحديث إطلاع الرسول ﷺ على الجنة والنار ، وحديث رؤية الرسول ﷺ لقصر عمر بن الخطاب في الجنة ، وغير ذلك من الأحاديث ، وقد كان ابن حجر مصيبا عندما قال : « وأصرح مما ذكره البخاري في ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود بإسناد قوي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لما خلق الله الجنة ، قال لجبريل : « اذهب فانظر إليها »[3] .

---

(١) شرح الطحاوية : ٤٧٦ - ٤٧٨ .

(٢) في كتاب بدء الخلق ، انظر فتح الباري : (٣١٧/٦) .

(٣) فتح الباري : (٣٢٠/٦) .

شبهة من قال النار لم تخلق بعد

وقد ناقش شارح الطحاوية شبهة الذين قالوا : لم تخلق النار بعد ورد عليها فقال :

« وأما شبهة من قال أنها لم تخلق بعد ، وهي : أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطراراً أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت ، لقوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(١) و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾(٢) ، وقد روى الترمذي في جامعه ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال : يا محمد ، أقرىء أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبةُ الماء ، وأنها قيعان ، وأن غِرَاسها سبحان الله ، والحمدلله ، ولا إله إلا الله والله أكبر »(٣) . قال : هذا حديث حسن غريب . وفيه أيضا من حديث أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « من قال سبحان الله وبحمده ، غرست له نخلة في الجنة »(٤) ، قال : هذا حديث حسن صحيح .

قالوا : فلو كانت مخلوقةً مفروغاً منها لم تكن قيعاناً ، ولم يكن لهذا الغراس معنى . قالوا : وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾(٥) .

فالجواب : إنكم إن أردتم بقولكم إنها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور

---

(١) سورة القصص : ٨٨ .

(٢) سورة آل عمران : ١٨٥ .

(٣) قال الشيخ ناصر في تعليقه على شرح الطحاوية ص : ١٠٦ وهو مخرج في الصحيحين .

(٤) وقال أيضا في هذا الحديث : صحيح ، وهو مخرج في المصدر السابق : ٦٤ .

(٥) سورة التحريم : ١١ .

وقيام الناس من القبور ، فهذا باطل ، يرده ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر ، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها ، وأنها لا يزال الله يُحدث فيها شيئا بعد شيء ، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أموراً أخر ـ فهذا حق لا يمكن رده ، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر .

وأما احتجاجكم بقوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1] ، فأتيتم من سوء فهمكم معنى الآية ، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن ـ نظير احتجاج إخوانكم على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما !! فلم توفقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية ، وإنما وفق لذلك أئمة الإسلام . فمن كلامهم : أن المراد « كل شيء » مما كتب الله عليه الفناء والهلاك « هالك » ، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ، وكذلك العرش ، فإنه سقف الجنة .

وقيل : المراد إلا ملكه . وقيل : إلا ما أريد به وجهه . وقيل : إن الله تعالى أنزل : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[2] ، فقالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، وطمعوا في البقاء ، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون ، فقال : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[3] لأنه حي لا يموت ، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت . وإنما قالوا ذلك توفيقاً بينها وبين النصوص المحكمة ، الدالة على بقاء الجنة ، وعلى بقاء النار أيضا ، على ما يذكر عن قريب ، إن شاء الله تعالى »[4] .

---

(١) سورة القصص : ٨٨ .

(٢) سورة الرحمن : ٢٦ .

(٣) سورة القصص : ٨٨ .

(٤) شرح الطحاوية : ص ٤٧٩ ، وراجع في هذا الموضوع « يقظة أولي الاعتبار لصديق حسن خان ص : ٣٧ ، وعقيدة السفاريني : (٢ / ٢٣٠) .

الفصل الثاني

خزنة النار

يقوم على النار ملائكة ، خلقهم عظيم ، وبأسهم شديد ، لا يعصون الله الذي خلقهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1] .

وعدتهم تسعة عشر ملكا ، كما قال تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[2] ، وقد فتن الكفار بهذا العدد ، فقد ظنوا أنه يمكن التغلب على هذا العدد القليل ، وغاب عنهم أن الواحد من هؤلاء يملك من القوة ما يواجه به البشر جميعا ، ولذلك عقب الحق على ما سبق بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[3] .

قال ابن رجب : « والمشهور بين السلف والخلف أن الفتنة إنما جاءت من

---

(١) سورة التحريم : ٦ .

(٢) سورة المدثر : ٢٦ - ٣٠ .

(٣) سورة المدثر : ٣١ .

حيث ذكر عدد الملائكة الذين اغتر الكفار بقلتهم، وظنوا أنهم يمكنهم مدافعتهم وممانعتهم ، ولم يعلموا أن كل واحد من الملائكة لا يمكن البشر كلهم مقاومته »[1] . وهؤلاء الملائكة هم الذين سماهم الله « بخزنة جهنم » في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾[2] .

(١) التخويف من النار : ص ١٧٤ .
(٢) سورة غافر : ٤٩ .

الفَصْل الثالث

صفة النار

المبحث الأول

مكان النار

اختلف العلماء في موقع النار الآن ؛ فقال بعضهم : هي في الأرض السفلى ،وقال آخرون :هي في السماء ،وقال آخرون بالتوقف في ذلك . وهو الصواب ، لعدم ورود نص صريح صحيح يحدد موقعها ، ومن الذين توقفوا في هذا ،الحافظ السيوطي قال : « وتَقِفُ عن النار ، أي تَقُولُ فيها بالوقف ، أي محلها ، حيث لا يعلمه إلا الله ، فلم يثبت عندي حديث أعتمده في ذلك »[1] .

وقال الشيخ ولي الله الدهلوي في عقيدته : « ولم يصرح نص في تعيين مكانهما (أي الجنة والنار) ، بل حيث شاء الله تعالى ، إذ لا احاطة لنا بخلق الله وعوالمه »[2] ، وقال صديق حسن خان عقب إيراده لقولِ الدهلوي هذا : « أقول : وهذا القول أرجح الأقوال وأحوطها إن شاء الله تعالى »[3] .

(١) يقظة أولي الاعتبار ، لصديق حسن خان : ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٣) المصدر السابق .

المبحث الثاني
سعة النار وبعد قعرها

النار شاسعة واسعة ، بعيد قعرها ، مترامية أطرافها ، يدلنا على هذا أمور :

الأول : الذين يدخلون النار أعداد لا تحصى ، ومع كثرة عددهم فإن خلق الواحد فيهم يضخم حتى يكون ضرسه في النار مثل جبل أحد ، وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام ، ومع ذلك فإنها تستوعب هذه الأعداد الهائلة التي وجدت على امتداد الحياة الدنيا من الكفرة المجرمين على عظم خلقهم ، ويبقى فيها متسع لغيرهم وقد أخبرنا الله بهذه الحقيقة في سورة ق فقال : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[1] . إن النار تشبه الطاحونة التي ينحدر إليها ألوف وألوف من أطنان الحبوب فتدور بذلك كله لا تكل ولا تمل ، وينتهي الحب والطاحونة تدور انتظارا للمزيد . وقد جاء في حديث احتجاج الجنة والنار أن الله يقول للنار : « إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ، ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما النار ، فلا تمتلىء حتى يضع رجله ـ وفي رواية حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله ـ فتقول : قط قط ، فهنالك تمتلىء ، ويُزْوى بعضها إلى بعض ، ولايظلم الله من خلقه أحداً » رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة[2] .

وعن أنس عن النبي ﷺ قال : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من

---

(١) سورة ق : ٣٠ .
(٢) جامع الأصول : (١٠/٥٤٤) .

مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض ، فتقول : قط ، قط ، بعزتك وكرمك » متفق عليه[١] .

الثاني : يدل على بعد قعرها أيضا أن الحجر إذا ألقي من أعلاها احتاج إلى آماد طويلة حتى يبلغ قعرها ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، إذ سمع وَجْبَة[٢] ، فقال النبي ﷺ « تدرون ماهذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا ، فهو يهوي في النار إلى الآن »[٣] .

وروى الحاكم عن أبي هريرة ، والطبراني عن معاذ وأبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « لو أن حجرا مثل سبع خلفات ، ألقي من شفير جهنم هوى فيها سبعين خريفا لا يبلغ قعرها »[٤] .

الثالث : كثرة العدد الذي يأتي بالنار من الملائكة في يوم القيامة ، فقد وصف الرسول ﷺ مجيء النار في يوم القيامة ، الذي يقول الله فيه : ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾[٥] ، فقال : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » . رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود[٦] . ولك أن تتخيل عظم هذا المخلوق الرهيب الذي احتاج إلى هذا العدد الهائل من الملائكة الأشدّاء الأقوياء الذين لا يعلم مدى قوتهم إلا الله تبارك وتعالى .

---

(١) مشكاة المصابيح : (١٠٩/٣) .
(٢) أي سقطة .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الجنة ، باب في شدة حر النار ، (٢١٨٤/٤) ، ورقمه (٢٨٤٤) .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٥٨/٥) ، ورقمه ٥١٢٤ ، وإسناده صحيح .
(٥) سورة الفجر : ٢٣
(٦) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها ، باب في شدة حرّ جهنم (٢١٨٤/٤) ، ورقم الحديث : ٢٨٤٢

الرابع : ومما يدل على هول النار وكبرها أن مخلوقين عظيمين كالشمس والقمر يكونان ثورين مكورين في النار ، ففي « مشكل الآثار » للطحاوي عن سلمة بن عبدالرحمن قال : حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة». ورواه البيهقي في كتاب « البعث والنشور » وكذا البزار والإسماعيلي والخطابي ، بإسناد صحيح ، على شرط البخاري ، وقد أخرجه في صحيحه مختصرا بلفظ : « الشمس والقمر مكوران في النار »[1] .

---

(١) أورد الشيخ ناصر الحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٣٢) . ورقم الحديث : ١٢٤ ، وقد نقلناتحقيقه للحديث مختصرا .

المبحث الثالث
دركات النار

النار متفاوتة في شدة حرّها ، وما أعده الله من العذاب لأهلها ، فليست درجة واحدة وقد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(١) . والعرب تطلق : « الدرك » على كل ما تسافل ، كما تطلق : « الدرج » على كل ما تعالى ، فيقال : للجنة درجات وللنار دركات ، وكلما ذهبت النار سفلا كلما علا حرّها واشتد لهيبها(٢) ، والمنافقون لهم النصيب الأوفر من العذاب ،ولذلك كانوا في الدرك الأسفل من النار .

وقد تسمى النار درجات أيضا ، ففي سورة الأنعام ذكر الله أهل الجنة والنار ، ثمّ قال : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾(٣) ، وقال : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ . . ﴾(٤) ، قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : « درجات الجنة تذهب علوا ، ودرجات النار تذهب سفلا »(٥) . وقد ورد عن بعض السلف أن عصاة الموحدين ممن يدخلون النار يكونون في الدرك الأعلى ،ويكـون فـي الدرك الثاني اليهود ، وفي الدرك الثالث النصارى ، وفي الدرك الرابع الصابئون ، وفي الخامس المجوس ،

---

(١) سورة النساء : ١٤٥ .

(٢) راجع تذكرة القرطبي : ص ٣٨٢ ، والتخويف من النار ، لابن رجب : ص ٥٠ .

(٣) سورة الأنعام : ١٣٢ .

(٤) سورة آل عمران : ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٥) التخويف من النار ، لابن رجب : ص : ٥ .

وفي السادس مشركو العرب ، وفي السابع المنافقون[1] . ووقع في بعض الكتب تسمية هذه الدركات : فالأول جهنم ، والثاني لظى ، والثالث الحطمة ، والرابع السعير ، والخامس سقر ، والسادس الجحيم ، والسابع الهاوية .

ولم يصح تقسيم الناس في النار وفق هذا التقسيم ، كما لم يصح تسمية دركات النار على النحو الذي ذكروه ، والصحيح أن كل واحد من هذه الأسماء التي ذكروها : جهنم ، لظى ، الحطمة .. الخ اسم علم للنار كلها ، وليس لجزء من النار دون جزء ، وصح أن الناس متفاوتون على قدر كفرهم وذنوبهم .

---

(١) إذا كان هذا التقسيم اجتهادي بحسب فقهنا للنصوص الدالة على شدة جرم الفرق المختلفة فإن هذا الترتيب الذي ذكروه يحتاج إلى إعادة نظر ، فالمجوس عباد النيران ليسوا بأقل جرما من مشركي العرب ، والأولى أن نسكت فيما سكتت عنه النصوص .

المبحث الرابع
أبواب النار

أخبر الحق أن للنار سبعة أبواب كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[1] . قال ابن كثير في تفسير الآية : « أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه ، أجارنا الله منها ، وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك بحسب عمله » ، ونُقِلَ عن علي بن أبي طالب قوله وهو يخطب : « إن أبواب جهنم هكذا ـ قال أبو هارون ـ أطباقا بعضها فوق بعض » ونقل عنه أيضا قوله : « أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض ، فيمتلىء الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، حتى تمتلىء كلها »[2] .

وعندما يَرِدُ الكفار النار تفتح أبوابها ، ثم يدخلونها خالدين ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3] ، وبعد هذا الإقرار يقال لهم : ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[4] ، وهذه الأبواب تغلق على المجرمين ، فلا مطمع لهم في الخروج منها بعد ذلك ، كما قال تعالى :

---

(١) سورة الحجر : ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) تفسير ابن كثير : (١٦٢/٤) .
(٣) سورة الزمر : ٧١ .
(٤) سورة الزمر : ٧٢ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾[1] .

قال ابن عباس : (مؤصدة) مغلقة الأبواب ، وقال مجاهد : أصد الباب بلغة قريش ، أي أغلقه[2] .

وقال الحق في سورة الهمزة : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾[3]

فأخبر الحق أن أبوابها مغلقة عليهم ، وقال ابن عباس :(في عمد ممددة) يعني الأبواب هي الممدة ، وقال قتادة في قراءة ابن مسعود : إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة[4] ، وقال عطية: هي عمد من حديد ، وقال مقاتل : أطبقت الأبواب عليهم ، ثم شدّت بأوتاد من حديد ، حتى يرجع عليهم غمها وحرها ، وعلى هذا فقوله : (ممددة) صفة للعمد ، يعني أن العمد التي أوثقت بها الأبواب ممددة مطولة ، والممدود الطويل أرسخ وأثبت من القصير[5] .

وقد تفتح أبواب النار وتغلق قبل يوم القيامة ، فقد أخبر المصطفى أن أبواب النار تغلق في شهر رمضان ، فعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين ومردة الجن »[6] .

---

(١) سورة البلد : ١٩ - ٢٠ .
(٢) تفسير ابن كثير : (٢٩٨/٧) .
(٣) سورة الهمزة : ١ - ٩ .
(٤) تفسير ابن كثير : (٣٦٨/٧) .
(٥) التخويف من النار ، لابن رجب ص : ٦١ .
(٦) التخويف من النار : ص ٦٦ .

وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إذا كان أول ليلة من رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وأغلقت أبواب النار ، فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة ، فلم يغلق منها باب »[1] .

(١) التخويف من النار : ص ٦٦ .

المبحث الخامس
وقود النار

الأحجار والفجرة الكفار وقود النار ، كما قال الحق : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾(1) ، وقال : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾(2) .

والمراد بالناس الذين توقد النار بهم الكفرة المشركون ، وأمّا نوع الحجارة التي تكون للنار وقودا فالله أعلم بحقيقتها ، وقد ذهب بعض السلف إلى أن هذه الحجارة من كبريت ، قال عبدالله بن مسعود : هي حجارة من كبريت ، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا يعدّها للكافرين ، رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في المستدرك . وقال بهذا القول ابن عباس ومجاهد وابن جريج(3) .

وإذا كان القول بهذا مأخوذا من الرسول ﷺ فنأخذ به ، ولا نجادل فيه ، وإن كان أمرا اجتهاديا مبنيا على العلم بطبائع الحجارة وخصائصها فهذا قول غير مسَلَّم ، فإن من الحجارة ما يفوق حجارة الكبريت قوة واشتعالا . والأوائل رأوا أن حجارة الكبريت لها خصائص ليست لغيرها من الحجارة فقالوا إنها مادة وقود النار ، يقول ابن رجب : « وأكثر المفسرين على أن المراد بالحجارة حجارة الكبريت

---

(1) سورة التحريم : ٦ .
(2) سورة البقرة : ٢٤ .
(3) تفسير ابن كثير : (١٠٧/١) .

توقد بها النار . ويقال : إن فيها خمسة أنواع من العذاب ليس في غيرها : سرعة الإيقاد ، ونتن الرائحة ، وكثرة الدخان ، وشدة الالتصاق بالأبدان ، وقوة حرّها إذا حميت »[1] . وقد يوجد الله من أنواع الحجارة ما يفوق مافي الكبريت من خصائص ، ونحن نجزم أن مافي الآخرة مغاير لما في الدنيا .

ومما توقد به النار الآلهة التي كانت تعبد من دون الله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2] .

وحصبها : وقودها وحطبها ، وقال الجوهري : « كل ما أوقدت به النار أو هيجتها فقد حصبتها » ، وقال أبو عبيدة : « كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به »[3] .

---

(١) التخويف من النار لابن رجب : ص ١٠٧ .

(٢) سورة الأنبياء : ٩٨ ـ ٩٩ .

(٣) يقظة أولي الاعتبار : ص ٦١ .

المبحث السادس
شدة حرها وعظم دخانها وشرارها

قال الله تعالى : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾(١) ، وقد تضمنت هذه الآية ذكر ما يتبرد به الناس في الدنيا من الكرب والحر وهو ثلاثة : الماء والهواء والظل ، وذكرت الآية أن هذه لا تغني عن أهل النار شيئاً ، فهواء جهنم : السموم ، وهو الريح الحارة الشديدة الحر ، وماؤها الحميم الذي قد اشتدَّ حرّه ، وظلها اليحموم وهو قِطَعُ دخانها(٢) .

وكما هوَّل في هذه الآية أمر أصحاب الشمال أهل النار ، هول في آية أخرى أمر النار فقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾(٣) .

والظل الذي أشارت إليه الآية ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾(٤) ، هو ظل دخان النار، والظل يشعر عادة بالنداوة والبرودة ، كما أن النفس تحبه وتستريح إليه ، أمّا هذا الظل فإنه ليس بارد المدخل ولا بكريم المنظر ، إنه ظل من يحموم .

وقد حدثنا القرآن عن هذا الظل الذي هو دخان جهنم الذي يعلو النار ،

---

(١) سورة الواقعة : ٤١ ـ ٤٤ .
(٢) التخويف من النار : ص ٨٥ .
(٣) سورة القارعة : ٨ ـ ١١ .
(٤) سورة الواقعة : ٤١ .

فقال : ﴿ انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾[1]. فالآية تقرر أن الدخان الذي يتصاعد من هذه النار لضخامته ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، وهو يلقي ظلالاً ولكنها غير ظليلة ، ولا تقي من اللهب المشتعل ، أمّا شرار هذه النار المتطاير منها فإنه يشبه الحصون الضخمة ، كما يشبه هذا الشرار الجمالة الصفر أي الإبل السود .

وقال الحق مبينا قوة هذه النار ، ومدى تأثيرها في المعذبين : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾[2]، إنها تأكل كل شيء ، وتدمر كل شيء ، لا تبقي ولا تذر ، تحرق الجلود ، وتصل إلى العظام وتصهر مافي البطون ، وتطلع على الأفئدة .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن « نارنا جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » ، قيل :يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : « فضلت عليها بتسعة وستين جزءا ، كلهنَّ مثل حرها » . رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري ، وفي لفظ مسلم : « ناركم التي يوقد ابن آدم . . »[3] .

وهذه النار لا يخبو أوارها مع تطاول الزمان ، ومرور الأيام ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾[4] ، ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾[5] ، ولذلك لا يجد الكفار طعم الراحة ، ولا يخفف عنهم العذاب مهما طال العذاب ، ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[6] .   والنار تسعّر كل يوم كما في الحديث عند

---

(١) سورة المرسلات : ٣٠ ـ ٣٣ .
(٢) سورة المدثر : ٢٧ ـ ٣٠ .
(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار ، فتح الباري : (٦/ ٣٣٠) ، ورواه مسلم في كتاب الجنة ، باب شدة حر النار : (٤/ ٢١٨٤) .
(٤) سورة النبأ : ٣٠ .
(٥) سورة الإسراء : ٩٧ .
(٦) سورة البقرة : ٨٦ .

مسلم عن عمرو بن عبسه عن النبي ﷺ قال : « صل صلاة الصبح ، ثم أقصر عن الصلاة ، حتى تطلع الشمس ، وترتفع فإنها تطلع بين قرني شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار ، ثم صل فإن الصلاة مشهودة حتى يستقل الظل بالرمح ، ثم أقصر عن الصلاة فإنه حينئذ تسجر جهنم ، فإذا أقبل الفيء فَصَلِّ » .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إذا اشتد الحرّ فأبردوا بالصلاة ، فإن شدّة الحر من فيح جهنم » .

وتُسعَّرُ النار في يوم القيامة عندما تستقبل أهلها ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾[1] ومعنى سعّرت : أوقدت ، وأحميت .

(١) سورة التكوير : ١٢ ـ ١٣

المبحث السابع

النار تتكلم وتبصر

الذي يقرأ النصوص من الكتاب والسنة التي تصف النار يجدها مخلوقا يبصر ، ويتكلم ، ويشتكي ، ففي الكتاب العزيز أن النار ترى أهلها وهم قادمون عليها من بعيد ، فعند ذلك تطلق الأصوات المرعبة الدالة على مدى حنقها وغيظها على هؤلاء المجرمين ، قال تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾[1] . وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : « إن الرجل ليجر إلى النار ، فتنزوي وينقبض بعضها إلى بعض ، فيقول الرحمن : مالك ؟ فتقول : إنه يستجير مني ، فيقول : أرسلوا عبدي . وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يا رب ما كان هذا ظني بك ، فيقول الله : ما كان ظنك ؟ فيقول : أن تسعني رحمتك ، فيقول : أرسلوا عبدي . وإن الرجل ليجر إلى النار ، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى البعير ، وتزفر زفرة أخرى لا تبقي أحدا إلا أخافته »[2] .

وقد خرج الإمام أحمد والترمذي من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يخرج يوم القيامة عنق من النار ، لها عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، تقول : إني وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلها آخر ، وبالمصورين » وصححه الترمذي[3] .

---

(١) سورة الفرقان : ١٢ .

(٢) ساق ابن كثير هذا الحديث في « النهاية » (٢/ ٢١) وقال : « وإسناده صحيح » .

(٣) التخويف من النار ، ص ١٧٩ . وانظر جامع الأصول : (١٠/ ٥١٨) ، وقال المحقق : إسناده حسن ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

المبحث الثامن

رؤيا ابن عمر للنار

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن عمر قال : رأيت في المنام أنه جاءني ملكان في يد كل واحد منهما مقمعة من حديد ، ثم لقيني ملك في يده مقمعة من حديد ، قالوا : لن تُرع . نعم الرجل أنت . لو كنت تكثر الصلاة من الليل ، فانطلقوا بي حتى وقفوا بي على شفير جهنم ، فإذا هي مطوية كطي البئر ، لها قرون كقرون البئر ، بين كل قرنين ملك بيده مقمعة حديد ، وإذا فيها رجال معلقون بالسلاسل رؤوسهم أسفلهم ، وعرفت رجالا من قريش ، فانصرفوا بي عن ذات اليمين ، فقصصتها على حفصة ، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ ، فقال : « إن عبدالله رجل صالح »[1] .

---

(١) التخويف من النار ، لابن رجب : ص ٥١ .

المَبحث التاسع
هل يرى أحد النار قبل يوم القيامة عيانا

الذي نعلمه أن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه قد رأى النار كما رأى الجنة في حياته ، ففي الصحيحين عن عبدالله بن عباس في صلاة الخسوف أن الرسول ﷺ قال : « إني رأيت الجنة ، فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر كاليوم منظرا قط أفظع ، ورأيت أكثر أهلها النساء »[1] .

وفي صحيح البخاري عن أسماء أن الرسول ﷺ قال : « قد دنت مني الجنة ، حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطاف من قطافها ، ودنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم ؟ فإذا إمرأة تخدشها هرة . قلت : ما شأن هذه ؟ قالوا : حبستها حتى ماتت جوعا ، لا هي أطعمتها ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض »[2] .

وفي مسند أحمد عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله ﷺ : « إن النار أدنيت مني حتى نفخت حرّها عن وجهي ، فرأيت فيها صاحب المحجن ، والذي بحر البحيرة وصاحب حمير ، وصاحبة الهرة »[3] .

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنه

---

(١) مشكاة المصابيح : (١/٤٧٠) .
(٢) صحيح الجامع : (٤/١٣٣) ، ورقم الحديث : ٤٢٤٧ .
(٣) صحيح الجامع : (٢/١٧١) ، ورقمه : ١٩٦٨ .

عرضت عليَّ الجنة والنار ، فقربت مني الجنة ، حتى لقد تناولت منها قطفا ، قصرت يدي عنه ، وعرضت عليَّ النار فجعلت أتأخر رهبة أن تغشاني ، ورأيت امرأة حميرية سوداء طويلة ، تعذب في هرة لها ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تسقها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض ، ورأيت فيها أبا ثمامة عمر بن مالك يجر قُصبة من النار »[1] .

وبعد أن يموت العباد تعرض عليهم في البرزخ مقاعدهم في الجنة إن كانوا مؤمنين ، ومقاعدهم في النار إن كانوا كافرين، وقد بينا ذلك في الحديث عن البرزخ .

(١) صحيح الجامع : (٢/٢٩٨) ، ورقمه : ٢٣٩٤ .

المبحث العاشر

تأثير النار على الدنيا وأهلها

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « اشتكت النار إلى ربها ، فقالت ربّ أكل بعضي بعضا ، فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ونفس في الصيف ، فأشدُّ ما تجدون من الحر ، وأشدُّ ما تجدون من الزمهرير » .

وروى البخاري أيضا عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «أبردوا بالصلاة ، فإن شدّة الحرّ من فيح جهنم »[1] .

---

(١) انظر هذين الحديثين في صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة ، فتح الباري : (٦/ ٣٣٠) ، وعزاهما في جامع الأصول : (١٠/ ٥١٧) إلى البخاري ومسلم والترمذي .

الفصل الرابع

النار خالدة لا تبيد

النار خالدة لا تفنى ولا تبيد ، كما قال الطحاوي في عقيدته : « والجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان ولا تبيدان »[1] ، ونقل ابن حزم اتفاق الأمة على ذلك ، فقد جاء في كتابه « الملل والنحل » قوله : « اتفقت فرق الأمّة كلها على أن لا فناء للجنة ولا لنعيمها ، ولا للنار ولا لعذابها ، إلا الجهم بن صفوان »[2] . وجاء في كتابه « مراتب الإجماع » قوله : « . . . وأن النار حق ، وأنها دار عذاب لا تفنى ، ولا يفنى أهلها بلا نهاية »[3] . والنصوص الدالة على خلود النار كثيرة جدّاً ، وسيأتي ذكر الكثير منها في تضاعيف البحث ، وحسبك أن الله سماها « دار الخلد » .

هذا مذهب أهل السنة والجماعة أن النار خالدة لا تبيد ، وأهلها فيها خالدون ، ولا يخرج منها إلا عصاة الموحدين ، أما الكفرة والمشركون فهم فيها خالدون .

---

(١) شرح الطحاوية : ص ٤٧٦ .

(٢) الملل والنحل ، لابن حزم : (٤/٨٣) .

(٣) مراتب الإجماع : ١٧٣ .

القائلون بفناء النار

والمخالفون لمذهب أهل الحق في هذه المسألة سبع فرق:

١ ـ الجهمية القائلون بفناء النار وفناء الجنة أيضا ، وقد حكى الإمام أحمد في آخر كتاب « الرد على الزنادقة » مذهب الجهمية بأن النار والجنة تفنيان، ورد عليهم ذاكرا النصوص الدالة على عدم فنائهما .

٢ ـ الخوارج والمعتزلة يقولون بخلود كل من يدخل النار ، ولو كانوا من أهل التوحيد ، وسرّ هذا القول أن الخوارج يكفرون المسلمين بالذنوب ، فكل من ارتكب ذنبا ، فإنه كافر خالد مخلد في نار جهنم ، والمعتزلة يرون أن من ارتكب ذنبا فهو في منزلة بين المنزلتين ، فلا هو مؤمن ولا كافر ، ويجرون عليه أحكام الإسلام في الدنيا ، ولكنه في الآخرة مخلد في نار جهنم ، وقد سقنا كثيرا من النصوص الدالة على أن أهل التوحيد يخرجون من النار .

٣ ـ اليهود الذين يزعمون أنهم يعذبون في النار وقتا محدودا ، ثم يخلفهم غيرهم فيها ، وقد أكذبهم الله في زعمهم ، ورد عليهم مقالتهم ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾[2]

---

(١) سورة البقرة : (٨٠ ـ ٨١) .

(٢) سورة آل عمران : ٢٣ ـ ٢٤ .

ونقل ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس أنه قال في تفسير آية البقرة : « قال أعداء الله اليهود : لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم ، الأيام التي أصبنا فيها العجل : أربعين يوما ، فإذا انقضت عنا تلك الأيام ، انقطع عنا العذاب » .

وذكر ابن جرير عن السدى قوله : « قالت اليهود : إن الله يدخلنا النار أربعين ليلة ، حتى إذا أكلت النار خطايانا ، نادى منادٍ : أخرجوا كل مختون من ولد بني إسرائيل ، فلذلك أمرنا أن نختتن ، قالوا : فلا يَدَعُون منا في النار أحدا إلا أخرجوه »[1] .

وذكر أيضا عن ابن عباس قال : « ذكر أن اليهود وجدوا في التوراة مكتوبا : إن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهى إلى شجرة الزقوم ثابتة في أصل الجحيم ، وكان ابن عباس يقول : إن الجحيم سقر ، وفيها شجرة الزقوم ، فزعم أعداء الله أنه خلا العدد الذي وجدوا في كتابهم أياما معدودة » .

قال ابن جرير : « وإنما يعني بذلك المسير الذي ينتهي في أصل الجحيم ، فقالوا : إذا خلا العدد انتهى الأجل ، فلا عذاب وتذهب جهنم وتهلك ، فذلك قوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[2] . يعنون بذلك الأجل ، فقال ابن عباس : « لما اقتحموا من باب جهنم ساروا في العذاب ، حتى انتهوا إلى شجرة الزقوم آخر يوم من الأيام المعدودة ، قال لهم خزان سقر : زعمتم أنكم لن تمسكم النار إلا أياما معدودة ، فقد خلا العدد ، وأنتم في الأبد ، فأخذ بهم في الصعود في جهنم يرهقون »[3] .

---

(١) تفسير ابن جرير : (١/ ٣٨١) .
(٢) سورة البقرة : ٨٠ .
(٣) تفسير ابن جرير : (١/ ٣٨١) .

٣ ــ قول إمام الإتحادية **ابن عربي الطائي** ، فإنه زعم أن أهلها يعذبون فيها مدة ، ثم تنقلب طبائعهم نارية يتلذذون بالنار لموافقتها لطبائعهم ، قال ابن حجر في الفتح : « وهذا قول بعضٍ من ينسب إلى التصوف من الزنادقة »(١) .

٥ ــ قول من زعم أن أهلها يخرجون منها ، وتبقى على حالها خالدة لا تبيد .

٦ ــ قول **أبي هذيل العلاف** من أئمة المعتزلة الذاهب إلى أن حياة أهل النار تفنى ، ويصيرون جمادا لا يتحركون ، ولا يحسون بألم ، قال بذلك لأنه يقول بامتناع حوادث لا نهاية لها ، فخالف الأدلة الصريحة القطعية الثبوت بمقاييس عقلية باطلة .

٧ ــ قول من قال : إن الله يخرج منها من يشاء ، كما ورد في الأحاديث ، ثم يبقيها شيئا ، ثم يفنيها ، فإنه جعل لها أمدا تنتهي إليه(٢) .

والقول الأخير مال إليه البحر العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغفر له ، كما ذهب إليه تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى .

وقد تتابع العلماء في التأليف لبيان خطأ هذا المذهب، يقول ابن حجر العسقلاني بعد حكايته لهذا القول : « وقد مال بعض المتأخرين إلى هذا القول ، ونصره بعدة أوجه من جهة النظر ، وهو مذهب رديء مردود على قائله ، وقد أطنب السبكي الكبير في بيان وهائه فأجاد »(٣) ، وهذا الكتاب الذي أشار إليه هو

---

(١) فتح الباري : (١١/٤٢١).

(٢) راجع في هذا المبحث المصادر التالية : شرح الطحاوية : ص ٤٨٣ ، شرح عقيدة السفاريني (٢/٢٣٤) ، يقظة أولي الاعتبار لصديق حسن خان : ص ٤١ ، فتح الباري : (١١/٤٢١) .

(٣) فتح الباري : (١١/٤٢٢) .

« الاعتبار ببقاء الجنة والنار » لتقي الدين علي بن عبدالباقي السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٥٦ .

وقال صديق حسن خان : « وقد ألف العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي رسالة سماها : « توفيق الفريقين على خلود أهل الدارين » ، وفي الباب رسالة للسيد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير ، ورسالة للقاضي العلامة المجتهد محمد بن علي الشوكاني ، حاصلها بقاء الجنة والنار وخلود أهلهما فيهما »(١) .

وهنا أمور نحب بيانها :

الأول : أن هذا القول قول باطل وإن ذهب إليه عَلَمان من أعلام الإسلام ، فقد علَّمنا شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم أن حب الحق ينبغي أن يكون مقدما على حب الرجال . وأدلة بطلانه النصوص الكثيرة الدالة على خلود النار ، وهي نصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة ، وقد ذكرنا قول من نقل الإجماع على خلود النار .

الثاني : أنه لا يجوز بحال من الأحوال ذم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بسبب هذه المقالة ، فقد كفرهما قوم ، وفسقهما قوم بسبب ذلك ، وكل هذا ليس بصواب ، فإنهما مجتهدان مأجوران مثابان ، ولو علما الحق في خلاف قولهما لاتبعاه ، ودعوى أن المخالف في مثل هذا يكفَّر قائلة يُوصِل القائلين بهذا إلى تكفير أئمة هذه الأمة الذين لا يُمارَى في إمامتهم ، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يذهب إلى أن المسافر إذا لم يجد الماء لا يتيمم ولا يصلي ، وقد اتفقت الأمة على خلاف هذا ، والإمام مالك كان يرى أن « بسم الله الرحمن الرحيم » ليست آية

---

(١) يقظة أولى الاعتبار ، لصديق حسن خان : ص ٤٢ ، ورسالة الصنعاني طبعها المكتب الإسلامي ببيروت ، وقد حققها وكتب لها مقدمة ضافية الشيخ ناصر الدين الألباني فأجاد .

من كتاب الله ، وقد أجمعت الأمة على أن ما بين الدفتين قرآن ، وقال أقوام بعدم زيادة الإيمان ونقصانه مع كونه مثبت بالكتاب والسنة صريح فيهما ، والإجماع منعقد عليه .

الثالث : ينبغي أن ننبه أن لابن تيمية وابن القيم قولا بعدم فناء النار ، جاء في مجموع فتاوي شيخ الإسلام قوله في إجابة سؤال : « وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات مالا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك ، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين ، كالجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم ، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله ، وسنة رسوله ، وجماع سلف الأمة وأئمتها »[1] .

وإذا كان الأمر كذلك ، أي لهما قولان ، فلا يجوز أن نجزم بأن القول بفناء النار هو قولهما مالم يعلم أنه القول الأخير ، وإذا لم يعلم القول الأخير فالأولى التوقف في نسبة أحد المذهبين إليهما .

الرابع : الأدلة التي احتج بها شيخ الإسلام وابن القيم على فناء النار ، بعضها غير صحيح ، والصحيح منها غير صريح ، بل يمكن حمله على غير فناء النار ، بل على فناء النار التي يكون فيها عصاة الموحدين . وقد ناقش الصنعاني في رسالته التي يرد فيها على ابن تيمية وابن القيم هذه الأدلة ، وبين عدم نهوضها على ما ذهب إليه . وهذه الرسالة هي المسماة « برفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار »[2] .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٠٧/١٨) .

(٢) طبعها المكتب الإسلامي ببيروت .

ومن الذين تعرضوا لهذه المسألة القرطبي في « التذكرة » ، فقد ساق النصوص الدالة على خلود الجنة والنار ، والمخبرة بأن الموت يذبح بين الجنة والنار ثم يقال : « يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » ثم قال : « هذه الأحاديث مع صحتها في خلود أهل الدارين فيها ، لا إلى غاية ولا إلى أمد ، مقيمين على الدوام والسرمد من غير موت ولا حياة ولا راحة ولا نجاة »[١] . ثم تعرض للرد على الذين قالوا بفناء النار ، وبين أن الذي يفنى إنما هو النار التي يدخلها عصاة الموحدين ، قال: «فمن قال: إنهم يخرجون منها ، وأن النار تبقى خالية بجملتها خاوية على عروشها ، وأنها تفنى وتزول ، فهو خارج عن مقتضى المعقول ، ومخالف لما جاء به الرسول ، وما أجمع عليه أهل السنة والأئمة العدول . . وإنما تخلى جهنم وهي الطبقة العلية التي فيها العصاة من أهل التوحيد ، وهي التي ينبت على شفيرها الجرجير[٢] ، قال فضل بن صالح المعافري : كنا عند مالك بن أنس ذات يوم ، فقال لنا انصرفوا ، فلما كان العشية رجعنا إليه ، فقال : إنما قلت لكم انصرفوا ، لأنه جاءني رجل يستأذن عليَّ زعم أنه قدم من الشام في مسألة فقال : يا أبا عبدالله ما تقول في أكل الجرجير ؛ فإنه يتحدث عنه أنه ينبت على شفير جهنم ؟ فقلت له : لا بأس به[٣] . فقال : أستودعك الله وأقرأ عليك السلام ، ذكره الخطيب أبو بكر أحمد رحمه الله ، وذكر أبو بكر البزار ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، قال : يأتي على النار زمان تخفق الرياح أبوابها ، ليس فيها أحد ، يعني من الموحدين ، هكذا رواه

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٤٣٦ .

(٢) هذا القول لا يصح فيه خبر ثابت ، وكأن قائلة أراد منه خمود النار التي يكون فيها عصاة الموحدين حتى ينبت النبات على حوافها .

(٣) هذه القصة إن كانت صحيحة فقد تكلف هذا السائل في سفره لتبين أمر هو في غاية الوضوح .

موقوفا من قول عبدالله بن عمرو ، وليس فيه ذكر النبي ﷺ ، ومثله لا يقال من جهة الرأي ، فهو مرفوع »[1] .

---

(1) التذكرة للقرطبي : ص ٤٣٧ .

الفصل الخامس

أهل النيران وجرائمهم

المبحث الأول

أهلها المخلدون فيها

المطلب الأول

التعريف بهم

أهل النار الخالدون فيها الذين لا يرحلون ولا يبيدون ـ هم الكفرة والمشركون . قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾(1) ، وقال : ﴿لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾(2) ، وقال : ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾(3) ، وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ

---

(1) سورة الأعراف : ٣٦ .

(2) سورة الأنبياء : ٩٩ .

(3) سورة الزخرف : ٧٤ .

عَذَابِهَا ﴾(1) . وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾(2) ! وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾(3) .

وقال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(4) ، وقال : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾(5) .

ولما كانوا خالدين فيها فقد وصف الحق عذاب النار بأنه مقيم ، أي لا ينقطع ، كما أضافه إلى الخلد ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(6) ، وقال : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾(7) .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم : ياأهل النار لا موت ، ويا أهل الجنة لا موت ، خلود »(8) . وروي عن أبي هريرة قال : قال

---

(1) سورة فاطر : ٣٦ .
(2) سورة البقرة : ٣٩ .
(3) سورة البقرة : ١٦٠ - ١٦١ .
(4) سورة التوبة : ٦٣ .
(5) سور التوبة : ١٧ .
(6) سورة المائدة : ٣٧ .
(7) سورة يونس : ٥٢ .
(8) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب ، فتح الباري : (٤٠٦/١١) .

رسول الله ﷺ : « يقال لأهل الجنة : يا أهل الجنة لا موت ، ولأهل النار : يا أهل النار خلود لا موت »[1] .

وهذا يقال بعد ذبح الموت كما في حديث ابن عمر عند البخاري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم ينادي منادي : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم »[2] .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، ويقولون : نعم هذا الموت . قال : ويقال : يا أهل النار ، هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبون وينظرون ، ويقولون : نعم ، هذا الموت ، قال فيؤمر به فيذبح . قال : ثم قال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » . قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3][4] .

وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري يرفعه قال : « إذا كان يوم القيامة أتي بالموت كالكبش الأملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيذبح وهم ينظرون ، فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة ، ولو أن أحدا مات حزنا لمات أهل النار » قال : حديث حسن صحيح[5] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق : باب صفة الجنة والنار، فتح الباري : (١١/٤١٥) .

(٣) سورة مريم : ٣٩ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها : (٤/٢١٨٨) .

(٥) التذكرة للقرطبي : ص ٤٣٦ .

المطلب الثاني
النار مسكن الكفرة المشركين

لما كان الكفرة المشركون خالدين في النار فإن النار تعتبر بالنسبة لهم سكناً ومأوى ، كما أن الجنة مسكن المؤمنين ، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(١) ، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾(٢) ، ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾(٣) . وهي مأواهم تتولى أمرهم ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾(٤) .

وهي بئست المسكن والمثوى ، ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾(٥) ، ﴿ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾(٦) .

المطلب الثالث
الدعاة إلى النار

أصحاب المبادىء الضالة ، والمذاهب الباطلة المخالفون لشرع الله ، والدعاة المؤمنون بباطلهم هم دعاة النار ، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾(٧) ،

---

(١) سورة آل عمران : ١٥١ .
(٢) سورة يونس : ٨ .
(٣) سورة العنكبوت : ٦٨ .
(٤) سورة الحديد : ١٥ .
(٥) سورة البقرة : ٢٠٦ .
(٦) سورة ص : ٥٥ ـ ٥٦ .
(٧) سورة البقرة : ٢٢١ .

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[1] ، ومن هؤلاء الشيطان ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[2] ، ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[3] . وهؤلاء الذين يدعون إلى النار في الدنيا يقودون أقوامهم وأتباعهم إلى النار في الآخرة ، ففرعون مثلاً ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾[4] . وكل قادة الشر الذين يدعون إلى عقائد ومبادىء مخالفة للإسلام هم دعاة إلى النار ، لأن الطريق الوحيد الذي ينجي من النار ويدخل الجنة هو طريق الإيمان ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[5] ، كانوا يدعونه إلى فرعون وكفره وشركه ، وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده والإيمان به ، ولما كان الكفار دعاة إلى النار حرم الله على المؤمنين الزواج من المشركات ، كما حرّم على المؤمنات الزواج من المشركين ، ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[6] .

المطلب الرابع
أعظم جرائم الخالدين في النار

لقد أطال القرآن في تبيان جرائم الخالدين الذين استحقوا بها الخلود في النيران ، ونحن نذكر هنا أهمها :

---

(١) سورة القصص : ٤١ .
(٢) سورة لقمان : ٢١ .
(٣) سورة فاطر : ٦ .
(٤) سورة هود : ٩٨ .
(٥) سورة غافر : ٤١ .
(٦) سورة البقرة : ٢٢١ .

١ ـ الكفر والشرك . فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الذين كفروا ينادون عندما يكونون في النار ، فيقال لهم : إن مقت الله لكم أعظم من مقتكم أنفسكم بسبب كفركم بالإيمان ، ثم بين أن خلودهم في النار إنما هو بسبب كفرهم وشركهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾[١] .

وحدثنا الحق تبارك وتعالى أن خزنة النار يسألون الكفار عند ورودهم النار قائلين ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ ؟[٢] فيكون الجواب : أنهم استحقوا النار بسبب تكذيبهم المرسلين ، وما جاؤوا به ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴾[٣] .

وقال في المكذبين بالكتاب : ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴾[٤] .

وقال في المكذبين بالكتاب المشركين بالله ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[٥] .

---

(١) سورة غافر : ١٠ .

(٢) سورة غافر : ٥٠ .

(٣) سورة الملك : ٩ .

(٤) سورة طه : ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٥) سورة غافر : ٧٠ .

وقال في الكفرة المشركين المسوين آلهتهم برب العالمين ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1] .

وقال في حق المكذبين بيوم الدين ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾[2] وقال : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[3] . وقال : ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[4] .

٢ ـ عدم القيام بالتكاليف الشرعية مع التكذيب بيوم الدين وترك الإلتزام بالضوابط الشرعية ، فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن أهل الجنة يسألون أهل النار قائلين ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾[5] ، فيجيبون قائلين : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾[6] .

٣ ـ طاعة رؤساء الضلال وزعماء الكفر فيما قرروه من مبادىء الضلال وخطوات الكفر التي تصد عن دين الله ومتابعة المرسلين . قال تعالى في هؤلاء : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ

---

(١) سورة الشعراء : ٩٤ ـ ٩٨ .
(٢) سورة الفرقان : ١١ .
(٣) سورة الرعد : ٥ .
(٤) سورة الإسراء : ٩٧ ـ ٩٨ .
(٥) سورة المدثر : ٤٢ .
(٦) سور المدثر : ٤٣ ـ ٤٧ .

ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[1]

وعندما يحل الكفار في النار، وتقلب وجوههم فيها يتندمون لعدم طاعتهم الله ورسوله، وطاعتهم السادة الكبراء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[2].

٤ ـ النفاق: وعد الله المنافقين النار، وهو وعد قطعه على نفسه لا يخلفه ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[3] وأخبرنا أن موقع المنافقين في النار هو دركاتها السفلى، وهي أشدها حراً، وأكثرها إيلاما ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[4].

٥ ـ الكبر: وهذه صفة يتصف بها عامة أهل النار، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[5].

وقد عقد مسلم في صحيحه بابا عنون له بقوله: « باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء »، وذكر فيه احتجاج الجنة والنار وما قالتا وما قال الله

---

(١) سورة فصلت: ٢٥.

(٢) سورة الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٧.

(٣) سورة التوبة: ٦٨.

(٤) سورة النساء: ١٤٥.

(٥) سورة الأعراف: ٣٦.

لهما ، وساق فيه حديث أبي هريرة يرفعه إلى الرسول ﷺ ، وفيه أن النار قالت : « يدخلني الجبارون والمتكبرون » وفي رواية قالت : « أوثرت بالمتكبرين والجبارين » . وقال الله لها : « أنت عذابي أعذب بك من أشاء »(١) .

وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي عن حارثة بن وهب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ، كل عتل جواظ مستكبر »(٢) وفي رواية لمسلم « كل جوَّاظ زنيم متكبر »(٣)، ومصداق هذا في كتاب الله تبارك وتعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾(٥) ، وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾(٦) .

المطلب الخامس
جملة الجرائم التي تدخل النار

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : ما عمل أهل النار ، وما عمل أهل الجنة ؟ فأجاب : عمل أهل النار : الإشراك بالله تعالى ، والتكذيب

---

(١)) صحيح مسلم : (٤/٢١٨٦) ورقم الحديث : ٢٨٤٦ .
(٢)) جامع الأصول : (١٠/٥٤٧) ورقم الحديث : ٨١١١ .
(٣) انظر الحديث ورواياته في « صحيح مسلم » كتاب الجنة « باب النار يدخلها الجبارون»:(٤/٢١٩٠) ورقمه ٢٨٥٣ ، والعتل : الغليظ الجافي الذي لا ينقاد للخير ، والزنيم : الدعي الملصق بالقوم وليس منهم ، أو هو اللئيم في أخلاق الناس ، والجواظ : الذي جمع ومنع .
(٤) سورة الزمر : ٦٠ .
(٥) سورة الاحقاف : ٢٠ .
(٦) سورة النازعات : ٣٧ .

للرسل ، والكفر ، والحسد ، والكذب ، والخيانة ، والظلم ، والفواحش ، والغدر ، وقطيعة الرحم ، والجبن عن الجهاد ، والبخل ، واختلاف السر والعلانية ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والجزع عند المصائب ، والفخر والبطر عند النعم ، وترك فرائض الله ، واعتداء حدوده ، وانتهاك حرماته ، وخوف المخلوق دون الخالق ، والعمل رياءً وسمعه ، ومخالفة الكتاب والسنة ، أي اعتقادا وعملا ، وطاعة المخلوق في معصية الخالق ، والتعصب للباطل ، واستهزاء بآيات الله ، وجحد الحق ، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهادة ، والسحر ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، والربا ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »[1] .

وقد ذكر الرسول ﷺ جماع الذنوب التي تدخل النار ، ففي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال في خطبة له طويلة : « وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زَبْرَ له[2] ، الذين هم فيكم تبعا لا يتبعون أهلا ولا مالا ، والخائن الذي لا يخفى له طمع[3] ، وإن دقَّ إلّا خانة ،ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك . وذكر البخل ، والكذب والشنظير[4] ، الفحاش[5] » .

---

(١) يقظة أولي الاعتبار ، ص ٢٢٢ .

(٢) أي لا عقل له يمنعه مما لا ينبغي ، وقيل : هو الذي لا مال له .

(٣) أي لا يظهر له .

(٤) هو الفحاش كما هو مفسر في الحديث .

(٥) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ،باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار : (٢١٩٧/٤) . ورقمه : ٢٨٦٥ .

المطلب السادس
أشخاص بأعيانهم في النار

الكفار والمشركون في النار لا شك في ذلك ، وقد أخبرنا القرآن الكريم ، كما أخبرنا الرسول ﷺ أن أشخاصا بأعيانهم في النار ، فمن هؤلاء فرعون موسى ، ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾(١) . ومنهم امرأة نوح وامرأة لوط ، ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾(٢) .

ومنهم أبو لهب وامرأته ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾(٣) ومنهم عمرو بن عامر الخزاعي ، فقد رآه الرسول ﷺ يجر أمعاءه في النار(٤) ومنهم الذي قتل عمار وسَلَبَه ، ففي معجم الطبراني بإسناد صحيح عن عمرو بن العاص وعن ابنه عن النبي ﷺ ، قال : « قاتل عمّار وسالبه في النار »(٥) .

---

(١) سورة هود : ٩٨ .
(٢) سورة التحريم : ١٠ .
(٣) سورة تبت : ١ ـ ٥ .
(٤) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وأحمد ، وقد ذكرنا نص الحديث في موضع آخر .
(٥) صحيح الجامع : (١١٠/٤) ، ورقمه : ٤١٧٠ .

المطلب السابع
كفرة الجن في النار

كفرة الجن يدخلون النار كما يدخلها كفرة الإنس ، فالجن مكلفون كالإنس ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] .

وفي يوم القيامة يحشر الجن والإنس على حدّ سواء ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾[2] ، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾[3] ثم يقال للكفرة منهم : ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾[4] وعند ذلك يكبكبون في النار ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[5] ، وبذلك تتم كلمة الله القاضية بملء النار من كفرة الجن والإنس ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[6] ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[7] .

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ .
(٢) سورة الأنعام : ١٢٨ .
(٣) سورة مريم : ٦٨ .
(٤) سورة الأعراف : ٣٨ .
(٥) سورة الشعراء : ٩٤ ـ ٩٥ .
(٦) سورة هود : ١١٩ .
(٧) سورة فصلت : ٢٥ .

المبحث الثاني
الذين لا يخلدون في النار

المطلب الأول
التعريف بهم

الذين يدخلون النار ، ثم يخرجون منها هم أهل التوحيد الذين لم يشركوا بالله شيئاً ، ولكن لهم ذنوب كثيرة فاقت سيئاتهم ، فخفت موازينهم ، فهؤلاء يدخلون النار مددا يعلمها الله تبارك وتعالى ، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين ، ويخرج الله برحمته أقواما لم يعملوا خيرا قط .

المطلب الثاني
الذنوب المتوعد عليها بالنار

سنذكر هنا بعض الذنوب التي جاءت النصوص مخبرة أن أهلها يعذبون بسببها في النار :

١ ـ الفرق المخالفة للسنة :

روى أبو داود والدارمي وأحمد والحاكم وغيرهم عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال : ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة » .

وهذا حديث صحيح . قال فيه الحاكم بعد سياقه لأسانيده : « هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح الحديث » . ووافقه الذهبي . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فيه : « هو حديث صحيح مشهور » . وصححه الشاطبي في « الاعتصام » , وقد جمع الشيخ ناصر الدين الألباني طرقه وتكلم على أسانيده، وبين أنه حديث صحيح لا شك في صحته[1] .

وقد ذهب صديق حسن خان إلى أن الزيادة التي في الحديث وهي « كلها هالكة إلا واحدة » ومثلها « ثنتان وسبعون في النار » زيادة ضعيفة . ونقل تضعيف ذلك عن شيخه الشوكاني ومن قبله عن ابن الوزير ومن قبله عن ابن حزم . وقد استحسن قول من قال : « إن هذه الزيادة من دسيس الملاحدة ، فإن فيها التنفير عن الإسلام والتخويف من الدخول فيه »[2] .

وقد رد الشيخ ناصر الدين الألباني على من ضعف هذه الزيادة من وجهين :

الأول : أن النقد العلمي الحديثي قد دل على صحة هذه الزيادة ، فلا عبرة بقول من ضعفها .

الثاني : أن الذين صححوها أكثر وأعلم من ابن حزم ، لا سيما وهو معروف عند أهل العلم بتشدده بالنقد ، فلا ينبغي أن يحتج به إذا تفرد عند عدم المخالفة ، فكيف إذا خالف .

وأما ابن الوزير فإنه يرد الزيادة من جهة المعنى لا من جهة الإسناد ، وقد تكلم على هذا صديق حسن خان في « يقظة أولى الاعتبار » مبينا أن مقتضى الزيادة أن الذي يدخل الجنة من هذه الأمة قليل ، والنصوص الصحيحة الثابتة تدل على

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ورقم الحديث (٢٠٤) .

(٢) يقظة أولى الاعتبار : ص ٢٠٦ .

أن الداخلين من هذه الأمة الجنة كثير كثير ، يبلغون نصف أهل الجنة[1] .

والرد على هذا من عدة وجوه :

الأول : ليس معنى انقسام الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة أن يكون أكثر الأمة في النار ، لأن أكثر الأمة عوام لم يدخلوا في تلك الفرق ، والذين افترقوا وقعدوا وأصلوا مخالفين السنة قليل بالنسبة للذين جانبوا ذلك كله .

الثاني : ليس كل من خالف أهل السنة في مسألة من المسائل يعد من الفرق المخالفة للسنة ، بل المراد بهم الذين تبنوا أصولا تصيِّرهم فرقة مستقلة بنفسها ، تركوا من أجلها كثيرا من نصوص الكتاب والسنة ، كالخوارج والمعتزلة والرافضة .

أما الذين يتبنون الكتاب والسنة ولا يحيدون عنها ، فإنهم إذا خالفوا في مسألة من المسائل لا يعدون فرقة من الفِرَق .

الثالث : الزيادة دلت على أن الفرق في النار ، ولكنها لم توجب لهم الخلود في النار .

ومن المعلوم أن بعض أهل هذه الفرق كفرة خالدون في النار ، كغلاة الباطنية الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر كالإسماعيلية والدروز والنصيرية ونحوهم .

ومنهم الذين خالفوا أهل السنة في مسائل كبيرة عظيمة ولكنها لا تصل إلى الكفر ، فهؤلاء ليس لهم وعد مطلق بدخول الجنة ، ولكنهم تحت المشيئة إن شاء الله غفر لهم وإن شاء عذبهم ، وقد تكون لهم أعمال صالحة عظيمة تنجيهم من

---

(1) انظر كلام الشيخ في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » حديث رقم (٢٠٤) . و « يقظة أولي الاعتبار » ص : ٢٠٧ .

النار ، وقد ينجون من النار بشفاعة الشافعين ، وقد يدخلون النار ويمكثون فيها ما شاء الله أن يمكثوا ، ثم يخرجون منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين .

٢ ـ الممتنعون من الهجرة :

لا يجوز للمسلم أن يقيم في ديار الكفر إذا وجدت ديار الإسلام خاصة إذا كان مكثه في ديار الكفر يعرضه للفتنة ، ولم يقبل الله عذر الذين تخلفوا عن الهجرة ، فقد أخبرنا الحق أن الملائكة تُبكِّت هذا الصنف من الناس حال الموت ، ولا تعذرهم عندما يدّعون أنهم كانوا مستضعفين في الأرض ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾[1] ، فلم يعذر الله من هؤلاء إلا المستضعفين الذين لا يجدون حيلة للخروج ، ولا يهتدون إلى الطريق الذي يوصلهم إلى ديار الإسلام .

٣ ـ الجائرون في الحكم :

أنزل الله الشريعة ليقوم الناس بالقسط ، وأمر الله عباده بالعدل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[2] ، وفرض على الحكام والقضاة الحكم بالعدل وعدم الجور ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾[3] ، وقد تهدد الحق الذين لا يحكمون بالحق بالنار ، فقد روى

---

(١) سورة النساء : ٩٧ ـ ٩٨ .

(٢) سورة النحل : ٩٠ .

(٣) سورة النساء : ٥٨ .

بريدة بن الحصيب أن رسول الله ﷺ ، قال : « القضاة ثلاثة : واحد في الجنّة ، واثنان في النار ، فأمّا الذي في الجنّة : فرجل عرف الحق وقضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم ، فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل ، فهو في النار » أخرجه أبو داود[1] .

٤ ـ الكذب على الرسول الله ﷺ :

عقد ابن الإثير في كتابه الكبير : « جامع الأصول » فصلا ساق فيه كثيرا من الأحاديث التي تحذر من الكذب على الرسول ﷺ ، فمنها ما رواه البخاري ومسلم والترمذي عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تكذبوا عليَّ ، فإنه من كذب عليَّ يلج النار » .

ومنها ما رواه البخاري عن سلمة بن الأكوع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تقول عليَّ مالم أقل[2] ، فليتبوأ مقعده في النار »[3] .

ومنها ما رواه البخاري في صحيحه ، وأبو داود في سننه عن عبدالله بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن كذبا علي ليس ككذب على أحد ، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »[4] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/١٦٧) ، وقال محقق الكتاب : وهو حديث صحيح .
(٢) تقوّل عليه : إذا قال عنه مالم يقله .
(٣) التبوؤ : اتخاذ المنزل ، لأن المباءة المنزل .
(٤) جامع الأصول : (١٠/٦١١) ، وقد ساق روايات أخرى فارجع إليه إن أحببت الاطلاع على جميع ما ساقه .

٥ ـ الكبر :

من الذنوب الكبار الكبر ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منهما أدخلته النار » وفي رواية « أذقته النار » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنا ، قال : « إن الله جميل يحب الجمال. الكبر : بطر الحق ، وغمط الناس » رواه مسلم[1] .

٦ ـ قاتل النفس بغير حق :

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[2] ، فلا يجوز في دين الله قتل النفس المسلمة إلا بإحدى ثلاث كما في الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[3] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يزال المؤمن في فسحة من دينه مالم يصب دما حراما » . قال ابن

---

(١) انظر هذين الحديثين وأحاديث أخرى في ذم الكبر والترهيب منه في « مشكاة المصابيح » (٣/٦٣٤ ـ ٦٣٥) .
(٢) سورة النساء : ٩٣ .
(٣) تفسير ابن كثير : (٢/٣٥٥) .

عمر : « إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله »[1] . وقد حذر الرسول صلى الله ﷺ المسلمين أن يقاتل بعضهم بعضا ، وأخبر أن القاتل والمقتول في النار ، فعن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار » قال : فقلت ، أو قيل : يارسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصا على قتل صاحبه »[2] . ولذا فإن العبد الصالح أبى أن يقاتل أخاه ، خشية أن يكون من أهل النار ، فباء القاتل بإثمه وإثم أخيه ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3] .

٧ ــ أكلة الربا :

من الذنوب التي توبق صاحبها الربا ، وقد قال الحق في الذين يأكلونه بعد أن بلغهم تحريم الله له : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[4] ، وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[5] . وقد عده

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الديات ، باب قول الله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ﴾ . فتح الباري : (١٨٧/١٢) .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الفتن ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما : (٢٢١٣/٤) .

(٣) سورة المائدة : ٢٧ ـ ٢٩ .

(٤) سورة البقرة : ٢٧٥ .

(٥) سورة آل عمران : ١٣٠ ـ ١٣١ .

الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه واحداً من سبعة ذنوب توبق صاحبها ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قالوا : وما هن يارسول الله ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

٨ ـ أكلة أموال الناس بالباطل :

من الظلم العظيم الذي يستحق به صاحبه النار أكل أموال الناس بالباطل ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾[1] .

ومن أكل أموال الناس بالباطل أكل أموال اليتامى ظلماً ، وقد خص الحق أموالهم بالذكر لضعفهم وسهولة أكل أموالهم ، ولشناعة هذه الجريمة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[2] .

٩ ـ المصورون :

أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة المصورون الذين يضاهئون خلق الله ، ففي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أشدُّ الناس عذابا عند الله المصورون »[3] .

---

(١) سورة النساء : ٢٩ ـ ٣٠ .

(٢) سورة النساء : ١٠ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/٥٠٠٥) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل مصور في النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفسا ، فيعذبه الله في جهنم » متفق عليه[1] .

وعن عائشة أن الرسول ﷺ قال في النمرقة التي فيها تصاوير : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم » متفق عليه[2] .

وعن عائشة أيضا ، عن النبي ﷺ قال : « أشدُّ الناس عذابا الذين يضاهون بخلق الله » متفق عليه[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو شعيرة » متفق عليه[4] .

١٠ ـ الركون إلى الظالمين :

من الأسباب التي تدخل النار الركون إلى الظالمين أعداء الله وموالاتهم ، ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾[5] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٥٠٠٥) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .
(٥) سورة هود : ١١٣ .

١١ ـ الكاسيات العاريات والذين يجلدون ظهور الناس :

من الأصناف التي تصلى النار الفاسقات المتبرجات اللواتي يفتن عباد الله ، ولا يستقمن على طاعة الله ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » أخرجه مسلم ، والبيهقي ، وأحمد[1] .

قال القرطبي في الذين معهم كأذناب البقر : « وهذه الصفة للسياط مشاهدة عندنا بالمغرب إلى الآن » قال صديق حسن خان معقبا على قول القرطبي : « بل هو مشاهد في كل مكان وزمان ، ويزداد يوما فيوما عند الأمراء والأعيان ، فنعوذ بالله من جميع ما كرهه الله »[2] ، أقول : ولازلنا نرى هذا الصنف من الناس في كثير من الديار يجلدون أبشار الناس ، فتبا لهؤلاء وأمثالهم .

والكاسيات العاريات كثيرات في زماننا ، ولعله لم يسبق أن انتشرت فتنتهن كما انتشرت في زماننا ، وهنَّ على النعت الذي وصفه الرسول ﷺ : كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت .

١٢ ـ الذين يعذبون الحيوان :

روى مسلم في صحيحه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « عُرِضَتْ عَليَّ

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/٣١٦) ورقم الحديث : ١٣٢٦ .

(٢) يقظة أولي الاعتبار : ص ١١٣ .

النار ، فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تُعَذَّب في هرة لها ، ربطتها فلم تُطْعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض ، حتى ماتت جوعا »[1] .

إذا كان هذا حال من يعذب هرة ، فكيف من يتفنن في تعذيب العباد ؟ فكيف إذا كان التعذيب للصالحين منهم بسبب إيمانهم وإسلامهم ؟

١٣ ـ عدم الإخلاص في طلب العلم :

ساق الحافظ المنذري كثيرا من الأحاديث التي ترهب من تعلم العلم لغير الله ، نختار لك بعضا منها : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم علما مما يبتغي به وجه الله تعالى ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة ، يعني ريحها » رواه أبو داود وابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخاري ومسلم .

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَعَلَّموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا تماروا به السفهاء ، ولا تخيَّروا به المجالس ، من فعل ذلك فالنار النار » رواه ابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والبيهقي .

وعن ابن عمر عن رسول الله عليه السلام قال : « من تعلم علما لغير الله ، أو أراد به غير الله ، فليتبوأ مقعده من النار » . رواه الترمذي وابن ماجة كلاهما عن خالد بن دريك عن ابن عمر ، ولم يسمع منه . ورجال إسنادهما ثقات[2] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٣/٦٨٨) .
(٢) انظر هذه الأحاديث وتخريجها في : « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذري : (١/٩١) .

١٤ ـ الذين يشربون في آنية الذهب والفضة :

روى البخاري ومسلم عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم » . وفي رواية لمسلم : « إن الذي يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب . . . . »[1] .

وعن حذيفة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تلبسوا الحرير والديباج ، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، فإنها لهم في الدنيا ، وهي لكم في الآخرة » متفق عليه[2] .

١٥ ـ الذي يقطع السدر الذي يظل الناس :

عن عبدالله بن حبيش قال : قال رسول الله ﷺ : « من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار » رواه أبو داود[3] .

وروى البيهقي بإسناد صحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال : « إن الذين يقطعون السدر يصبون في النار على رؤوسهم صبا »[4] .

١٦ ـ جزاء الانتحار :

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يده ، يجأبها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها

(١) مشكاة المصابيح : (٢/٤٦٣) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) مشكاة المصابيح : (٢/١٢٥) ، وأورده الشيخ ناصر في « صحيح الجامع » : (٥/٣٤١) ، رقم الحديث : (٦٣٥٣) وعزاه إلى أبي داود والضياء في « المختارة » ، وقال : صحيح .
(٤) عزاه في « صحيح الجامع » (٢/٨٨) إلى البيهقي في « السنن » وقال فيه : صحيح .

أبدا ، ومن قتل نفسه بسم ، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبداً »[1] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعنها يطعنها في النار »[2] .

---

(1) التخويف من النار ص ١٤٨ .
(2) صحيح الجامع : (٥/١١٤) .

الفصل السادس

كثرة أهل النار

المبحث الأول

النصوص الدالة على ذلك

جاءت النصوص كثيرة وافرة دالة على كثرة من يدخل النار من بني آدم ، وقلة من يدخل الجنة منهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(١) ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) . وقال الحق تبارك وتعالى لإبليس ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٣) . فكل من كفر فهو من أهل النار على كثرة من كفر من بني آدم .

ويدلك على كثرة الكفرة والمشركين الذين رفضوا دعوة الرسل أن النبي يأتي في يوم القيامةومعه الرهط ، وهم الجماعة دون العشرة ، والنبي ومعه الرجل

---

(١) سورة يوسف : ١٠٣ .

(٢) سورة سبأ : ٢٠ .

(٣) سورة ص : ٨٥ .

والرجلان ، بل إن بعض الأنبياء يأتي وحيداً لم يؤمن به أحد ، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد . . »[1] .

وجاءت نصوص كثيرة تدل على أنه يدخل في النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من كل ألف ، وواحد فقط هو الذي يدخل الجنة .

فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله : ياآدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، ثم يقول : أخرج بعث النار ، قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فذاك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سَكْرى وما هم بسكْرى ، ولكن عذاب الله شديد . فاشتدَّ ذلك عليهم فقالوا : يا رسول الله ، أينا ذلك الرجل ؟ قال : أبشروا ، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل . ثم قال : والذي نفسي بيده ، إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنّة . قال : فحمدنا الله وكبرنا . ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنّة ، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، أو كالرقمة في ذراع الحمار »[2] .

وروى عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره ، وقد تفاوت من أصحابه السَّيْر رفع بهاتين الآيتين صوته : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ

---

(1) صحيح مسلم : (١/١٩٨) . ورقم الحديث : ٢٢٠ .
(2) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب قول الله عز وجل : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ فتح الباري : (١١/٣٨٨) .

﴿كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1] ، فلما سمع أصحابه ذلك حثوا المطي ، وعرفوا أنه عند قول يقوله ، فلما دنوا حوله قال : « أتدرون أي يوم ذاك ؟ قال ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام ، فيناديه ربه عز وجل ، فيقول : يا آدم ابعث بعثا إلى النار . فيقول : يا رب ، وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد في الجنة »

قال : فأبلس أصحابه ، حتى ما أوضحوا بضاحكة . فلما رأى ذلك قال : « أبشروا واعملوا ، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس » قال : فسُرّيَ عنهم ، ثم قال : « اعملوا وأبشروا ، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقمة في ذراع الدابة » رواه أحمد والترمذي والنسائي في كتاب التفسير في سننهما ، وقال الترمذي : حسن صحيح[2] .

وروى الترمذي في سننه عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[3] ، قال : نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر ، فقال : « أتدرون أي يوم ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار . قال : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال : تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة » ، فأنشأ المسلمون يبكون ، فقال رسول الله ﷺ : « قاربوا وسددوا ، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية ، قال : فيؤخذ العدد من الجاهلية ، فإن

---

(1) سورة الحج : 1 ، 2 .
(2) تفسير ابن كثير : (4/ 610) . وهو في مسند أحمد (4/ 435) .
سورة الحج : 1 .

تمت ، وإلا كملت من المنافقين وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة ، أو كالشامة في جنب البعير » ، ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبروا ، ثم قال : ولا أدري أقال : الثلثين أم لا . وكذا رواه الإمام أحمد ، وقال الترمذي فيه : هذا حديث حسن صحيح[1] .

وقد يقال كيف تجمع بين هذه الأحاديث وبين ما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « أول من يدعى يوم القيامة آدم ، فتراءى ذريته ، فيقال : هذا أبوكم آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج بعث جهنم من ذريتك ، فيقول : يا رب ، كم أخرج ؟ فيقول : أخرج من كل مائة تسعة وتسعين فقالوا : يارسول الله ، إذا أخذ منا من كل مائة تسعة وتسعون ، فماذا يبقى منّا ؟ قال : إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود »[2] .

والظاهر أن هذه الرواية لا تخالف الروايات الأخرى الصحيحة التي سقناها من قبل ، فإن ذلك العدد باعتبار معين ، وهذا العدد باعتبار آخر . فالأحاديث التي تجعل النسبة تسعمائة وتسعة وتسعين يمكن أن تحمل على جميع ذرية آدم ، وحديث البخاري الذي يجعلها تسعة وتسعين تحمل على جميع ذريته ما عدا يأجوج ومأجوج ، ويقرّب هذا الجمع - كما يقول ابن حجر - أن يأجوج ومأجوج ذكروا في حديث أبي سعيد دون حديث أبي هريرة ، ويمكن أن يقال أن الأحاديث الأولى تتعلق بالخلق أجمعين ، فإذا جعلت نسبة مَنْ يدخل النار إلى من يدخل الجنة باعتبار الأمم جميعا تكون النسبة (٩٩٩) ، ويكون حديث البخاري الأخير مبيناً نسبة من يدخل النار من هذه الأمة دون سواها ، قال ابن حجر : « ويُقَرِّبُهُ - أي هذا

(١) تفسير ابن كثير : (٤/٦١٠) .
(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب الحشر ، فتح الباري : (١١/٣٧٨) .

القول ـ قولهم في حديث أبي هريرة « إذا أخذ منا » ، ثم قال : « ويحتمل أن تقع القسمة مرتين مرة من جميع الأمم قبل هذه الأمّة ، فيكون من كل ألف واحد إلى الجنة ، ومرة من هذه الأمة ، فيكون من كل ألف عشرة »[1] .

(١) فتح الباري : (١١/ ٣٩٠) ، وقد ساق أقوالا أخرى ، فارجع إليه إن أحببت الاطلاع على المزيد .

المبحث الثاني

السر في كثرة أهل النار

ليس السبب في هذا هو عدم بلوغ الحق إلى البشر على اختلاف أزمانهم وأمكنتهم ، فإن الله لا يؤاخذ العباد إذا لم تبلغهم دعوته ، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1] ، ولذلك فإن الله أرسل في كل أمة نذيرا ، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[2] .

ولكن السبب وراء ذلك يعود إلى قلة الذين استجابوا للرسل وكثرة الذين كفروا بهم وكثير من الذين استجابوا لم يكن إيمانهم خالصا نقيا .

وقد تعرض ابن رجب في كتابه « التخويف من النار » إلى السبب في قلة أهل الجنة ، وكثرة أهل النار فقال :

« فهذه الأحاديث وما في معناها تدل على أن أكثر بني آدم من أهل النار ، وتدل أيضا على أن أتباع الرسل قليل بالنسبة إلى غيرهم ، وغير أتباع الرسل كلهم في النار إلا من لم تبلغه الدعوة أو لم يتمكن من فهمها على ما جاء فيه من الاختلاف ، والمنتسبون إلى أتباع الرسل كثير منهم من تمسك بدين منسوخ ، وكتاب مبدل ، وهم أيضا من أهل النار كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾[3] .

---

(1) سورة الإسراء : ١٥ .

(2) سورة فاطر : ٢٤ .

(3) سورة هود : ١٧ .

وأما المنتسبون إلى الكتاب المحكم والشريعة المؤيدة والدين الحق فكثير منهم من أهل النار أيضا ، وهم المنافقون الذين هم في الدرك الأسفل من النار ، وأمّا المنتسبون إليه ظاهرا وباطنا فكثير منهم فتن بالشبهات ، وهم أهل البدع والضلال ، وقد وردت الأحاديث على أن هذه الأمة ستفرق على بضع وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة ، وكثير منها أيضاً فتن بالشهوات المحرمة المتوعد عليها بالنار ـ وإن لم يقتض ذلك الخلود فيها ـ فلم ينج من الوعيد بالنار ، ولم يستحق الوعد المطلق بالجنّة من هذه الأمّة إلا فرقة واحدة ، وهو ماكان عليه النبي ﷺ وأصحابه ظاهرا وباطنا وسلم من فتنة الشهوات والشبهات ، وهؤلاء قليل جدا لاسيما في الأزمان المتأخرة »[1] .

ولعل السبب الأعظم هو اتباع الشهوات ، ذلك أن حب الشهوات مغروس في أعماق النفس الإنسانية ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2] ، وكثير من الناس يريد الوصول إلى هذه الشهوات عن الطريق التي تهواها نفسه ويحبها قلبه ، ولا يراعي في ذلك شرع الله المنزل ، أضف إلى هذا تمسك الأبناء بميراث الآباء المناقض لشرع الله ﴿ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[3] ..

(١) التخويف من النار ، لابن رجب ، ص ٢١٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤ ..

(٣) سورة الزخرف : ٢٣ ـ ٢٤ ..

وإلف ما كان عليه الآباء وتقديسه داء ابتليت به الأمم ، لا يقل أثره عن الشهوات المغروسة في أعماق الإنسان ، إن لم يكن هو شهوة في ذاته .

وقد روى الترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي هريرةرضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لما خلق الله النار ، قال لجبريل : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ثمَّ جاء ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فحفها بالشهوات ، فقال : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ، فلما رجع ، قال : وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها » . أخرجه الترمذي وأبو داود ، وزاد النسائي : بعد قوله : « اذهب فانظر إليها » ، « وإلى ما أعددت لأهلها فيها »[1] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حجبت النار بالشهوات ، وحجبت الجنة بالمكاره » . أخرجه البخاري ومسلم ، ولمسلم « حفت » بدل : « حجبت »[2] .

قال صديق حسن خان : « والمراد بالشهوات مرادات النفوس ومستلذاتها وأهويتها »[3] ، وقال القرطبي : « الشهوات كل ما يوافق النفس ويلائمها ، وتدعو إليه ، ويوافقها ، وأصل الحفاف الدائر بالشيء المحيط به ، الذي لا يتوصل إليه إلا بعد أن يتخطى »[4] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٥٢٠) ، ورقمه : ٨٠٦٨ ، وقال المحقق : قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٢) المصدر السابق : (١٠/٥٢٠) ، ورقمه : ٨٠٦٩ .

(٣) يقظة أولي الاعتبار : ص ٢٢٠ .

(٤) المصدر السابق .

المبحث الثالث

أكثر من يدخل النار النساء

أكثر من يدخل النار من عصاة الموحدين النساء ، كما في الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ ، أنه قال في خطبة الكسوف « رأيت النار ورأيت أكثر أهلها النساء » .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « يا معشر النساء تصدَّقن ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقلن : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير » .

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد : « وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء » .

وفي صحيح مسلم عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : « إن أقل ساكني الجنة النساء » .

وهذا لا ينافي أن كل واحد من أهل الجنة له أكثر من زوجة ، فإن المراد بالنساء اللواتي هن أكثر النار من كان منهن من ذرية آدم ، أمّا زوجات أهل الجنة الكثيرات فهن من الحور العين .

« وإنما كان النساء أقل ساكني الجنة لما يغلب عليهن من الهوى والميل إلى عاجل زينة الدنيا ، لنقصان عقولهن أن تنفذ بصائرها إلى الأخرى ، فيضعفن عن عمل الآخرة والتأهب لها ، ولميلهن إلى الدنيا والتزين لها ، ومع ذلك هن أقوى أسباب

الدنيا التي تصرف الرجال عن الآخرة ، لما فيهن من الهوى والميل لهن ، فأكثرهن معرضات عن الآخرة بأنفسهنَّ صارفات عنها لغيرهن ، سريعات الانخداع لداعيهنَّ من المعرضين عن الدين ، عسيرات الاستجابة لمن يدعوهن إلى الأخرى ، وأعمالها من المتقين »(١) ، ومع ذلك ففيهن صالحات كثير ، يقمن حدود الله ، ويلتزمن شريعته ويطعن الله ورسوله ، ويدخل منهنَّ الجنة خلق كثير ، وفيهن من يسبقن كثيرا من الرجال بإيمانهنَّ وأعمالهن الصالحة .

---

(١) التذكرة للقرطبي : (٣٦٩/١) .

الفصل السابع

عظم خلق أهل النار

يدخل أهل الجحيم النار على صورة ضخمة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقهم ، ففي الحديث الذي يرفعه أبو هريرة إلى رسول الله ﷺ قال : « ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع » رواه مسلم[1] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ضرس الكافر ، أو ناب الكافر ، مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث »[2] .

وقال زيد بن أرقم : « إن الرجل من أهل النار ليعظم للنار ، حتى يكون الضرس من أضراسه كأحد» . رواه أحمد وهو مرفوع ، ولكن زيدا لم يصرح برفعه[3] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن غلظ جلد الكافر اثنان

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب يدخلها الجبارون : (٤/٢١٩٠) .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون : (٤/٢١٨٩) ، وعزاه في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/١٣٣) إلى مسلم والترمذي والحاكم وابن حبان وأحمد .
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/١٣١) ، وقال فيه : إسناده صحيح على شرط مسلم .

وأربعون ذراعا ، وإن ضرسه مثل أحد ، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة » ، رواه الترمذي[1] .

وروى أبوهريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد ، وعرض جلده سبعون ذراعا ، وعضده مثل البيضاء ، وفخذه مثل وَرْقَان ، ومقعده من النار ما بيني وبين الربذة » أخرجه الحاكم وأحمد[2] .

وهذا التعظيم لجسد الكافر ليزداد عذابه وآلامه ، يقول النووي في شرحه لأحاديث مسلم في هذا الباب : « هذا كله لكونه أبلغ في ايلامه ، وكل هذا مقدور لله تعالى يجب الإيمان به لإخبار الصادق به »[3] . وقال ابن كثير معلقاً على ما أورده من هذه الأحاديث : « ليكون ذلك أنكى في تعذيبهم ، وأعظم في تعبهم ولهيبهم ، كما قال شديد العقاب : ﴿ ليذوقوا العذاب ﴾[4] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (١٠٣/٣) ، وقال محقق المشكاة : « رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، قلت : وسنده صحيح » .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٩٤/٣) ، ونسب إلى الحاكم والذهبي تصحيح الحديث ووافقهما على ذلك على ضعف في أحد رواة الحديث وهو ابن إسحق ، وقد ساق المؤلف كثيرا من المتابعات والشواهد للحديث . والبيضاء اسم جبل . أو يعني بها المدينة المعروفة بالمغرب .

(٣) شرح النووي على مسلم : (١٨٦/١٧) .

(٤) النهاية لابن كثير : (١٣٩/٢) .

الفصل الثامن

طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم

طعام أهل النار الضريع والزقوم ، وشرابهم الحميم والغسلين والغساق ، قال تعالى : ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾(١) ، والضريع شوك بأرض الحجاز يقال له الشبرق . وعن ابن عباس : الشبرق : نبت ذو شوك لاطىء بالأرض ، فإذا هاج سمي ضريعا . وقال قتادة : من أضرع الطعام وأبشعه(٢) . وهذا الطعام الذي يأكله أهل النار لا يفيدهم ، فلا يجدون له لذة ، ولا تنتفع به أجسادهم ، فأكلهم له نوع من أنواع العذاب .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾(٣) . وقد وصف شجرة الزقوم في آية أخرى فقال : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ

---

(١) سورة الغاشية : ٦ ـ ٧ .

(٢) التخويف من النار لابن رجب : ص ١١٥ .

(٣) سورة الدخان : ٤٣ ـ ٤٦ .

﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾[1] .

وقال في موضع آخر : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾[2] .

ويؤخذ من هذه الآيات أن هذه الشجرة شجرة خبيثة ، جذورها تضرب في قعر النار ، وفروعها تمتد في أرجائها ، وثمر هذه الشجرة قبيح المنظر ولذلك شبهه برؤوس الشياطين ، وقد استقر في النفوس قبح رؤوسهم وإن كانوا لا يرونهم ، ومع خبث هذه الشجرة وخبث طلعها ، إلا أن أهل النار يلقى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفرا من الأكل منها إلى درجة ملء البطون فإذا امتلأت بطونهم أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي دردي الزيت ، فيجدون لذلك آلاما مبرحة ، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ اندفعوا إلى الحميم وهو الماء الحار الذي تناهى حرّه ، فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب وتشرب ولا تروى لمرض أصابها ، وعند ذلك يقطع الحميم أمعاءهم ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾[3] . هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم ، أعاذنا الله من حال أهل النار بمنه وكرمه .

وإذا أكل أهل النار هذا الطعام الخبيث من الضريع والزقوم غصّوا به لقبحه وخبثه وفساده ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾[4] ، والطعام ذو الغصة هو الذي يغص به آكله ، إذ يقف في حلقه .

---

(١) سورة الصافات : ٦٢ .

(٢) سورة الواقعة : ٥١ .

(٣) سورة محمد : ١٥ .

(٤) سورة المزمل : ١٢ .

وقد صور لنا الرسول ﷺ شناعة الزقوم وفظاعته ، فقال : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا ، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف عن يكون طعامه » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح[1] .

ومن طعام أهل النار الغسلين ، قال تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾[3] .

والغسلين والغساق بمعنى واحد ، وهو ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد ، وقيل ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم ، وقال القرطبي : هو عصارة أهل النار[4] .

وقد أخبر الحق أن الغسلين واحد من أنواع كثيرة تشبه هذا النوع في فظاعته وشناعته .

أما شرابهم فهو الحميم ، قال تعالى : ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾[5] ، وقال : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[6] ، وقال : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾[7] ، وقال: ﴿ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾[8] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (١٠٥/٣) ، وراوي الحديث هو ابن عباس .
(٢) سورة الحاقة : ٣٥ ـ ٣٧ .
(٣) سورة ص : ٥٨ .
(٤) يقظة أولي الاعتبار ، ص ٨٦ .
(٥) سورة محمد : ١٥ .
(٦) سورة الكهف : ٢٩ .
(٧) سورة ابراهيم : ١٦ ـ ١٧ .
(٨) سورة ص : ٥٧ .

وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شراب أهل النار :

الأول : الحميم ، وهو الماء الحار الذي تناهى حرّه ، كما قال تعالى : ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[1] ، والآن : هو الذي انتهى حره ، وقال : ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾[2] ، وهي التي انتهى حرها فليس بعدها حر .

النوع الثاني : الغساق ، وقد مضى الحديث عنه ، فإنه يذكر في مأكول أهل النار ومشروبهم .

النوع الثالث : الصديد ، وهو ما يسيل من لحم الكافر وجلده ، وفي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ ، قال : « إن على الله عهدا لمن شرب المسكرات ليسقيه طينة الخبال . قالوا : يا رسول الله ، وما طينة الخبال ؟ قال : عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار » .

الرابع : المهل . وفي حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد والترمذي عن النبي ﷺ في قوله : « كعكر الزيت ، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه » .

وقال ابن عباس : في تفسير المهل : « غليظ كدردي الزيت »

أكلهم النار

من أصحاب الذنوب من يطعمه الله جمر جهنم جزاء وفاقا ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾[3] .

---

(١) سورة الرحمن : ٤٤ .
(٢) سورة الغاشية : ٥ .
(٣) سورة النساء : ١٠ .

وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾[1] .

أما لباس أهل النار فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أنه يُفصّلُ لأهل النار حلل من النار ، كما قال تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾[2] . وكان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية يقول : سبحان من خلق من النار ثيابا[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾[4] . والقطران : هو النحاس المذاب . وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقام يوم القيامة ، وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » . وخرجه ابن ماجة ولفظه : « النائحة إذا ماتت ولم تتب قطع الله لها ثيابا من قطران ودرعا من جرب » .

---

(١) سورة البقرة : ١٧٤ .

(٢) سورة الحج :١٩ .

(٣) التخويف من النار : ص ١٢٦ .

(٤) سورة إبراهيم : ٤٩ .

الفصل التاسع

عذاب أهل النار

المبحث الأول

شدة ما يكابده أهل النار من عذاب

النار عذابها شديد ، وفيها من الأهوال وألوان العذاب ما يجعل الإنسان يبذل في سبيل الخلاص منها نفائس الأموال ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾[1] ، وقال الحق في هذا المعنى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى

---

(١) سورة آل عمران : ٩١ .

(٢) سورة المائدة : ٣٦ .

بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال : ياابن آدم ، هل رأيت خيرا قط ؟ هل مرّ بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب »[1] .

إنها لحظات قليلة تنسي أكثر الكفار نعيما كلَّ أوقات السعادة والهناء . وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة : لو أن لك مافي الأرض من شيء أكنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم . فيقول : أردت منك أهون من هذا ، وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئا ، فأبيت إلا أن تشرك بي »[2] .

إن شدة النار وهولها تفقد الإنسان صوابه ، وتجعله يجود بكل أحبابه لينجو من النار ، وأنى له النجاة : ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾[3] .

وهذا العذاب الهائل المتواصل يجعل حياة هؤلاء المجرمين في تنغيص دائم ، وألم مستمر .

---

(١) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح : (١٠٢/٣) .
(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (٤١٦/١١) وانظر مشكاة المصابيح : (١٠٢/٣) .
(٣) سورة المعارج : ١١ .

المبحث الثاني

صور من عذابهم

المطلب الأول

تفاوت عذاب أهل النار

لما كانت النار دركات بعضها أشدُّ عذابا وهولا من بعض كان أهلها متفاوتون في العذاب ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم وأحمد عن سمرة ، عن النبي ﷺ ، قال في أهل النار : « إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته » وفي رواية إلى « عنقه »[1] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن أخف أهل النار عذابا ، ففي صحيح البخاري عن النعمان بن بشير قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه » . وفي رواية أخرى في صحيح البخاري أيضا عن النعمان بن بشير : « إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل في القمقم »[2] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب شدة حرّ النار ، (٤/٢١٨٥) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (١١/٤١٧) ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان : (١/١٩٦) ، ورقمه ٣٦٣ ، واللفظ للبخاري .

وفي رواية عن النعمان بن بشير عند مسلم : « إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار . يغلي منهما دماغه ، كما يغلي المرجل ، ما يرى أن أحدا أشدّ منه عذابا ، وإنه لأهونهم عذابا »(١) .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : « إن أدنى أهل النار عذابا ينتعل نعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه »(٢) .

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ ، وذكر عنده عمه أبو طالب ، فقال : « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه ، يغلي منه أم دماغه »(٣) .

وقد جاءت النصوص القرآنية مصدقة لتفاوت أصحاب النار في العذاب كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾(٤) وقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾(٥) وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾(٦)

يقول القرطبي في هذا الموضوع : « هذا الباب يدلك على أن كفر من كفر فقط ، ليس ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى ، ولا شك أن الكفار في عذاب

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان : (١/١٩٦) ، ورقم الحديث : (٣٦٤) .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان : (١/١٩٥) ورقم الحديث : (٣٦١) .
(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (١١/٤١٧) ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ، (١/١٩٥) ، حديث رقم (٣٦٠) ، وساق فيه عدة أحاديث أخرى .
(٤) سورة النساء : ١٤٥ .
(٥) سورة غافر : ٤٦ .
(٦) سورة النحل : ٨٨ .

جهنم متفاوتون ، كما قد علم من الكتاب والسنة ، ولأنا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين وفتك فيهم وأفسد في الأرض وكفر ، مساويا لعذاب من كفر فقط وأحسن للأنبياء والمسلمين ، ألا ترى أبا طالب كيف أخرجه النبي ﷺ إلى ضحضاح لنصرته إياه ، وذبه عنه وإحسانه إليه ؟ وحديث مسلم عن سمرة يصح أن يكون في الكفار بدليل حديث أبي طالب ، ويصح أن يكون فيمن يعذب من الموحدين »[1] .

وقال ابن رجب : « واعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التي أدخلوا بها النار » ثم ساق الأدلة الدالة على ذلك ، وساق قول ابن عباس : « ليس عقاب من تغلظ كفره وأفسد في الأرض،ودعا إلى الكفر كمن ليس كذلك » ، ثم قال ابن رجب « وكذلك تفاوت عذاب عصاة الموحدين في النار بحسب أعمالهم ، فليس عقوبة أهل الكبائر كعقوبة أصحاب الصغائر ، وقد يخفف عن بعضهم بحسنات أخر له أو بما شاء الله من الأسباب ، ولهذا يموت بعضهم في النار »[2] .

المطلب الثاني
إنضاج الجلود

إن نار الجبار تحرق جلود أهل النار ، والجلد موضع الإحساس بألم الاحتراق ، ولذلك فإن الله يبدل لهم جلودا أخرى غير تلك التي احترقت ، لتحترق من جديد ، وهكذا دواليك ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٤٠٩ .
(٢) التخويف من النار : ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1] .

المطلب الثالث
الصهــر

من ألوان العذاب صب الحميم فوق رؤوسهم ، والحميم هو ذلك الماء الذي انتهى حره ، فلشدة حره تذوب أمعاؤهم وما حوته بطونهم ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾[2] .

أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ حتى يخلص إلى جوفه فيسلت مافي جوفه ، حتى يمرق من قدميه ، وهو الصهر ، ثم يعود كما كان » ، وقال : حسن غريب صحيح[3] .

المطلب الرابع
اللفــح

أكرم مافي الإنسان وجهه ، ولذلك نهانا الرسول ﷺ عن ضرب الوجه ، ومِنْ إهانة الله لأهل النار أنهم يحشرون في يوم القيامة على وجوههم عميا وصما وبكما ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا

---

(١) سورة النساء : ٥٦ .

(٢) سورة الحج : ١٩ .

(٣) التخويف من النار لابن رجب : ١٤٥ ، جامع الأصول : (١٠/٥٤٠)

خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾(١) ، ويلقون في النار على وجوههم : ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢) ، ثم إن ا لنار تلفح وجوههم وتغشاها أبدا لا يجدون حائلا يحول بينهم وبينها ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(٣) ، ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾(٤) ، ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾(٥) ، ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾(٦) وانظر إلى هذا المنظر الذي تقشعر لهوله الأبدان : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾(٧) ، أرأيت كيف يقلب اللحم على النار ، والسمك في المقلى ، كذلك تقلب وجوههم في النار ، نعوذ بالله من عذاب أهل النار .

المطلب الخامس
السحب

ومن أنواع العذاب الأليم سحب الكفار في النار على وجوههم ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾(٨) ، ويزيد من آلامهم حال سحبهم في النار أنهم مقيدون بالقيود والأغلال

---

(١) سورة الإسراء : ٩٧ .
(٢) سورة النمل : ٩٠ .
(٣) سورة الأنبياء : ٣٩ .
(٤) سورة المؤمنون : ١٠٤ .
(٥) سورة إبراهيم : ٥٠ .
(٦) سورة الزمر : ٢٤ .
(٧) سورة الأحزاب : ٦٦ .
(٨) سورة القمر : ٤٧ ـ ٤٨ .

والسلاسل ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾(١) ، قال قتادة : يسحبون مرة في النار وفي الحميم مرة(٢) .

المطلب السادس
تسويد الوجوه

يسود الله في الدار الآخرة وجوه أهل النار ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾(٣). وهو سواد شديد، كأنما حلت ظلمة الليل في وجوههم ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٤) .

المطلب السابع
إحاطة النار بالكفار

أهل النار هم الكفار الذين أحاطت بهم ذنوبهم ومعاصيهم ، فلم تبق لهم حسنة ، كما قال تعالى في الرد على اليهود الذين قالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

---

(١) سورة غافر : ٧٠ - ٧٢ .

(٢) التخويف من النار ، لابن رجب : ص ١٤٧ .

(٣) سورة آل عمران : ١٠٦ .

(٤) سورة يونس : ٢٧ .

﴿ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] ، ولا يكون المرء كذلك إلا إذا كان كافرا مشركا ، يقول صديق حسن خان : « المراد بالسيئة هنا الجنس ، ولا بدَّ أن يكون سببها محيطا به من جميع جوانبه ، فلا تبقى له حسنة ، وسدت عليها مسالك النجاة ، والخلود في النار هو للكفار والمشركين ، فيتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه الآية بالكفر والشرك ، وبهذا يبطل تشبث المعتزلة والخوارج لما ثبت في السنة متواترا من خروج عصاة الموحدين من النار »[2]

ولما كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السوار بالمعصم ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولذا فإن النار تحيط بالكفار من كل جهة ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[3]. والمهاد ما يكون من تحتهم، والغواش جمع غاشية ، وهي التي تغشاهم من فوقهم ، والمراد أن النيران تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾[4] ، وقال في موضع آخر : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾[5] ، وقد صرح بالإحاطة في موضع آخر : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[6] .

وقد فسر بعض السلف المهاد بالفرش ، والغواش باللحف[7] .

وتأتي الإحاطة من ناحية أخرى ، ذلك أن للنار سورا يحيط بالكفار ، فلا

---

(١) سورة البقرة : ٨١ .

(٢) يقظة أولى الاعتبار : ص ٦٧ .

(٣) سورة الأعراف : ٤١ .

(٤) سورة العنكبوت : ٥٥ .

(٥) سورة الزمر : ١٦ .

(٦) سورة التوبة : ٤٩ .

(٧) تفسير ابن كثير : (١٦٨/٣) .

يستطيع الكفار مغادرتها أو الخروج منها ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1]

وسرادق النار سورها وحائطها الذي يحيط بها .

المطلب الثامن
اطلاع النار على الأفئدة

ذكرنا أن أهل النار يضخم خلقهم في النار شيئا عظيما ، ومع ذلك فإن النار تدخل في أجسادهم حتى تصل إلى أعمق شيء فيهم ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾[2] ،قال بعض السلف في قوله : ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ ، قال : « تأكل العظم واللحم والمخ ولا تذره على ذلك »[3] .

وقال الحق تبارك وتعالى : ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[4] ، قال محمد بن كعب القرظي : « تأكله النار إلى فؤاده ، فإذا بلغت فؤاده أنشيء خلقه ، وعن ثابت البناني أنه قرأ هذه الآية ، ثم قال : تحرقهم النار إلى الأفئدة وهم أحياء لقد بلغ منهم العذاب ، ثم يبكي »[5] .

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .
(٢) سورة المدثر : ٢٦ - ٣٠ .
(٣) التخويف من النار ، لابن رجب : ١٤٦ .
(٤) سورة الهمزة : ٤ - ٧ .
(٥) التخويف من النار ، لابن رجب : ١٤٦ .

المطلب التاسع
اندلاق الأمعاء في النار

في الصحيحين عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال : « يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أقتابه في النار ، فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه ، فيقولون : أي فلان ، ما شأنك ، أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه »[1] . ثم هو يدور ويسعى حولها كما يدور الحمار برحاه .

ومن الذين يجرون أمعاءهم في النار عمرو بن لحى ، وهو أول من غير دين العرب ، وقد رآه الرسول ﷺ يجرُّ قصبة في النار ،ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرُّ قصبه في النار ، وكان أول من سيب السوائب »[2] .

المطلب العاشر
قيود أهل النار وأغلالهم وسلاسلهم ومطارقهم

أعدّ الله لأهل النار في النار سلاسل وأغلالا وقيودا ومطارق ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴾[3] ، ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا

(١) متفق عليه ، مشكاة المصابيح : (٦٤٢/٢) ، حديث رقم : ٥١٣٩ .
(٢) مشكاة المصابيح : (٦٨٨/٣) ، تسييب السوائب : تشريع سنة عمرو للعرب أحل فيه ما حرّم الله تعالى ، فقد حرّم أنواعا من الأنعام بأسباب لم ينزل الله بها من سلطان ، كأن يمنع ذبح تلك الحيوانات وحلبها والركوب عليها .
(٣) سورة الإنسان : ٤ .

غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١] ، والأغلال توضع في الأعناق ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٢] ، ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾[٣] ، والأنكال : القيود ، سميت أنكالا لأن الله يعذبهم وينكل بهم بها ، ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا . . ﴾[٤] ، والسلاسل نوع آخر من ألوان العذاب التي يقيد بها المجرمون كما يقيد المجرمون في الدنيا ، وانظر إلى هذه الصورة التي أخبرنا بها الكتاب الكريم ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾[٥] .

وأعد الله لأهل النار مقامع من حديد ،وهي المطارق التي تهوي على المجرمين وهم يحاولون الخروج من النار ، فإذا بها تطوح بهم مرة أخرى إلى سواء الجحيم ، ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[٦] .

---

(١) سورة المزمل : ١٢ ـ ١٣ .
(٢) سورة سبأ : ٣٣ .
(٣) سورة غافر : ٧١ .
(٤) سورة المزمل : ١٢ .
(٥) سورة الحاقة : ٣٠ ـ ٣٢ .
(٦) سورة الحج : ٢١ ـ ٢٢ .

المطلب الحادي عشر
قرن معبوداتهم وشياطينهم بهم في النار

كان الكفار والمشركون يعظمون الآلهة التي يعبدونها من دون الله ، ويدافعون عنها ، ويبذلون في سبيل ذلك النفس والمال ، وفي يوم القيامة يدخل الحق تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله النار إهانة لعابديها وإذلالا لهم ، ليعلموا أنهم كانوا ضالين ، يعبدون مالا يملك لهم ضراً ولا نفعا ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] .

يقول ابن رجب : « لما عبد الكفار الآلهة من دون الله ، واعتقدوا أنها تشفع لهم عند الله ، وتقربهم إليه ، عوقبوا بأن جعلت معهم في النار إهانة لهم وإذلالا ، ونكاية لهم وإبلاغا في حسرتهم وندامتهم ، فإن الإنسان إذا قرن في العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشدَّ في ألمه وحسرته »[2] .

ومن أجل ذلك يقذف في يوم القيامة بالشمس والقمر في النار ، ليكونا مما توقد به النار ،تبكيتاًللظالمين الذين كانوا يعبدونها من دون الله ، ففي الحديث : « الشمس والقمر مكوران في النار »[3] .

يقول القرطبي : « وإنما يجمعان في جهنم ، لأنهما قد عبدا من دون الله ، لا

---

(١) سورة الأنبياء : ٩٨ ـ ٩٩ .

(٢) التخويف من النار : ص ١٠٥ .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ، والبزار والإسماعيلي والخطابي ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/٣٢) .

تكون النار عذابا لهما ، لأنهما جماد ، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم ، هكذا قال بعض أهل العلم »[1] .

ولهذا المعنى يقرن الكفار بشياطينهم ليكون أشد لعذابهم : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[2] .

المطلب الثاني عشر
حسرتهم وندمهم ودعاؤهم

عندما يرى الكفار النار يندمون أشدَّ الندم ، ولات ساعة مندم ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[3] ، وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله ، فيرى كفره وشركه الذي يؤهله للخلود في النار ، فإنه يدعوبالثبور والهلاك ،﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾[4]. ويتكرر دعاؤهم بالويل والهلاك عندما يلقون في النار ، ويصلون حرها ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾[5] . وهناك يعلو صراخهم ويشتد عويلهم ، ويدعون ربهم آملين أن يخرجهم من النار ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٣٩٢ .
(٢) سورة الزخرف : ٣٦ ـ ٣٩ .
(٣) سورة يونس : ٥٤ .
(٤) سورة الانشقاق : : ١٠ ـ ١٢ .
(٥) سورة الفرقان : ١٣ ـ ١٤ .

أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ﴾[١] ، وهم يعترفون في ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقلة عقولهم ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير (١٠) فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾[٢] ، ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾[٣] .

ولكن طلبهم يرفض بشدة ، ويجابون بما تستحق أن تجاب به الأنعام ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين (١٠٦) ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون (١٠٧) قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾[٤] .

لقد حق عليهم القول ، وصاروا إلى المصير الذي لا ينفع معه دعاء ولا يقبل فيه رجاء ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون (١٢) ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (١٣) فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾[٥] .

ويتوجه أهل النار بعد ذلك بالنداء إلى خزنة النار ، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم كي يخفف الله عنهم شيئا مما يعانونه ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩) قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾[٦] .

---

(١) سورة فاطر : ٣٧ .
(٢) سورة الملك : ١٠ .
(٣) سورة غافر : ١٠ .
(٤) سورة المؤمنون : ١٠٦ ـ ١٠٨ .
(٥) سورة السجدة : ١٢ ـ ١٤ .
(٦) سورة غافر : ٤٩ ـ ٥٠ .

وعند ذلك يسألون الشفاعة كي يهلكهم ربهم ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾[1] .

إنه الرفض لكل ما يطلبون ، لا خروج من النار ، ولا تخفيف من عذابها ، ولا إهلاك ، بل هو العذاب الأبدي السرمدي الدائم ، ويقال لهم آن ذاك : ﴿ فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] .

هناك يشتد نحيبهم ، وتفيض دموعهم ، ويطول بكاؤهم ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[3] ، إنهم يبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون دما ، وتؤثر دموعهم في وجوههم كما يؤثر السيل في الصخر ، ففي مستدرك الحاكم عن عبدالله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل النار ليبكون ، حتى لو أجريت السفن في دموعهم ، لجرت ، وإنهم ليبكون الدم ـ يعني ـ مكان الدمع » . وعن أنس بن مالك مرفوعا بلفظ : « يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم حتى تصير في وجوههم كهيئة الأخدود ، لو أرسلت فيه السفن لجرت »[4] ، لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهليهم عندما استحبوا الكفر على الإيمان ، واستمع إلى عويلهم وهم يرددون حال العذاب ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ

---

(١) سورة الزخرف : ٧٧ .

(٢) سورة الطور : ١٦ .

(٣) سورة التوبة : ٨٢ .

(٤) اورد الشيخ ناصر الحديثين في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤/٢٤٥) حديث رقم ١٦٧٩ ، وعزا الحديث الأول منهما إلى الحاكم في مستدركه ، وقد قال فيه الحاكم : « حديث صحيح الإسناد » . ووافقه الذهبي قال الشيخ ناصر : وحقه أن يزيد : على شرط الشيخين « فإن رجاله كلهم من رجالهما ، وذكر أن أحد رجاله وهو أبو النعمان ويلقب (بعارم) كان قداختلط،وساق الشيخ ناصر الحديث الثاني شاهدا للأول ، وعزاه إلى ابن ماجة وابن أبي الدنيا ، ويزيد الرقاس أحد رواته ضعيف ، وباقي رجاله رجال الشيخين .

وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[1] .

وتأمل قوله تعالى يصف حالهم ، ونعوذ بالله من حالهم : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَآءَ رَبُّكَ ﴾[2] ، قال الزجاج : الزفير من شدة الأنين وهو المرتفع جدًا . وقيل الزفير: ترديد النَّفَس في الصدر من شدة الخوف حتى تنتفخ منه الأضلاع ، والشهيق النَّفَس الطويل الممتد ، أو ردُّ النفس إلى الصدر ، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه .

وقال الليث : الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه ، والشهيق أن يخرج ذلك النفس[3] .

---

(١) سورة الأحزاب : ٦٦ .

(٢) سورة هود : ١٠٦ .

(٣) يقظة أولي الاعتبار، لصديق حسن خان ص ٧٢ .

الفصل العاشر

كيف يتقي الإنسان نار الله

لما كان الكفر هو السبب في الخلود في النار فإن النجاة من النار تكون بالإيمان والعمل الصالح ، ولذا فإن المسلمين يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم كي يخلصهم من النار ، ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(١) ، ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾(٢) .

وقد فصّلت النصوص هذا الموضوع فبينت الأعمال التي تَقي النار ، فمن ذلك محبة الله ، ففي مستدرك الحاكم ومسند أحمد عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « والله لا يلقي الله حبيبه في النار »(٣) ، والصيام جنة من النار ، ففي مسند أحمد ، والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن عن جابر بن عبدالله عن

---

(١) سورة آل عمران : ١٦ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩١ - ١٩٤ .

(٣) حديث صحيح ، انظر صحيح الجامع ٦/١٠٤ ، ورقم الحديث : (٦/١٠٤) .

النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : الصيام جنة يستجن بها من النار »[1] ، وعند البيهقي في الشعب من حديث عثمان بن أبي العاص عن النبي ﷺ : « الصوم جنة من عذاب الله » ورواه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وإسناده صحيح[2] ، أما إذا كان الصوم في حال جهاد الأعداء فذاك الفوز العظيم ، فعن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال : « من صام يوما في سبيل الله بعَّد الله وجهه عن النار سبعين خريفا » ، رواه أحمد ، والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي[3] .

ومما ينجي من النار مخافة الله ، والجهاد في سبيل الله ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[4] ، وروى الترمذي والنسائي في سننهما عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم »[5] ، وفي صحيح البخاري عن أبي عبس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله ، فتمسه النار »[6] ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبدا »[7] .

ومما يقي العبد من النار استجارة العبد بالله من النار ، ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[8] ، وفي مسند أحمد وسنن ابن ماجة وصحيح ابن حبان ومستدرك

---

(١) صحيح الجامع : (١١٤/٤) .
(٢) صحيح الجامع : (٢٦٤/٣) .
(٣) صحيح الجامع : (٣١٠/٥) .
(٤) سورة الرحمن : ٤٦ .
(٥) مشكاة المصابيح : (٣٥٦/٢) ، حديث رقم : ٣٨٢٨ ، وقال المحقق: في إسناده : صحيح .
(٦) مشكاة المصابيح : (٣٤٩/٢) ، ورقمه : ٣٧٩٤ .
(٧) مشكاة المصابيح : (٣٤٩/٢) ، ورقمه ٣٧٩٥ .
(٨) سورة الفرقان : ٦٥ .

الحاكم بإسناد صحيح عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما سأل أحد الله الجنة ثلاثا ، إلا قالت الجنة : اللهم أدخله الجنّة ، ولا استجار رجل مسلم الله من النار ثلاثا ، إلا قالت النار : اللهمَّ أجره مني »(١) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في ذكر الملائكة الذين يلتمسون مجالس الذكر وفيه : أن الله عز وجل يسألهم وهو أعلم بهم ، فيقول : « فمم يتعوذون ؟ فيقولون : من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يا رب ما رأوها ، فيقول كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشدَّ منها فرارا ، وأشدُّ مخافة ، فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم »(٢) .

---

(١) صحيح الجامع : (٥/١٤٥) ، ورقمه : ٥٥٠٦ .
(٢) صحيح الجامع : (٢/٢٣٣) ، ورقمه : ٢١٦٩ ، وعزاه إلى البخاري ومسلم وأحمد .

البَابُ الثَّانِي

الجَنَّة

تمهيد : تعريف وبيان

الجنة هي الجزاء العظيم ، والثواب الجزيل ، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته ، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص ، ولا يعكر صفوه كدر ، وما حدثنا الله به عنها ، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يحير العقل ويذهله ، لأن تصوُّر عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه .

استمع إلى قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي **« أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر »** ثم قال الرسول ﷺ : اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[1][2] .

وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا ، فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافه حقير ، لا يساوي شيئا . ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها »[3] .

ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم ، والفوزالكبير ، والنجاة العظمى قال تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ

---

(١) سورة السجدة : ١٧ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة في كتاب : بدء الخلق ، باب : ما جاء في صفة النار . فتح الباري : (٦/٣١٨) . ورقم الحديث : ٣٢٤٤ .

(٣) فتح الباري :(٦/٣١٩) . والنووي على مسلم : (١٧/١٦٦)

وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[1] وقال : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2] وقال أيضا : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[3] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٥ .
(٢) سورة التوبة : ٧٢
(٣) سورة النساء : ١٣

الفصل الأول

دخول الجنة

لا شك أن سعادة المؤمنين لا تعادلها سعادة عندما يساقون معززين مكرمين زمرا زمرا إلى جنات النعيم ، حتى إذا ما وصلوا إليها فتحت أبوابها ، واستقبلتهم الملائكة الكرام يهنئونهم بسلامة الوصول ، بعدما عانوه من الكربات ، وشاهدوه من الأهوال ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[1] ، أي طابت أعمالكم وأقوالكم وعقائدكم ، فأصبحت نفوسكم زاكية ، وقلوبكم طاهرة ، فبذلك استحققتم الجنات .

---

(١) سورة الزمر : ٧٢

المبحث الأول

الشفاعة في دخول الجنة

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين عندما يطول عليهم الموقف في يوم الجزاء يطلبون من الأنبياء أن يستفتحوا لهم باب الجنة ، فكلهم يتمنع ويتأبى ، ويقول : لست لها حتى يبلغ الأمر نبينا محمداً ﷺ فَيَشْفَعُ في ذلك ، فَيُشَفَّعُ ، ففي صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون ، حتى تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا ، استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ، لست بصاحب ذلك . . . »[1] الحديث . وذكر فيه تدافع الأنبياء لها ، حتى يأتون محمدا ﷺ ، فيؤذن لهم .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة : (١٨٦/٤) ، ورقمه : ١٩٥

المبحث الثاني

تهذيب المؤمنين وتنقيتهم قبل الدخول

بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار ، ثم يهذَّبون وينقَّون ، وذلك بأن يقتص لبعضهم من بعض إذا كانت بينهم مظالم في الدنيا ، حتى إذا دخلوا الجنة كانوا أطهارا أبرارا ، ليس لأحد عند الآخر مظلمة ، ولا يطلب بعضهم بعضا بشيء .

روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا »[1] .

وقد سبق أن ذكرنا في « أحاديث الشفاعة » في « القيامة » أن رسولنا ﷺ هو أول من يستفتح الجنة بعد أن يأبى أبو البشر آدم وأولو العزم من الرسل التعرض لهذه المهمة .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة ، فتح الباري : (١١/٣٩٥) .

المبحث الثالث

الأوائل في دخول الجنة

أول البشر دخولا الجنة على الإطلاق هو رسولنا محمد ﷺ ، وأول الأمم دخولا الجنة أمته ، وأول من يدخل الجنة من هذه الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وقد ساق ابن كثير الأحاديث الواردة في ذلك[1] فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يقرع باب الجنة » .

وروى مسلم عن أنس أيضا ، قال : قال رسول الله ﷺ : « آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك »

وثبت في الصحيحين وسنن النسائي ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، قال : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولا الجنة » .

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « أتاني جبريل ، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي » فقال أبو بكر : يا رسول الله ، وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي » .

---

(١) النهاية لابن كثير : (٢/٢١٣)

المبحث الرابع
الذين يدخلون الجنة بغير حساب

أول زمرة تدخل من هذه الأمة الجنة هم القمم الشامخة في الإيمان والتقى والعمل الصالح والاستقامة على الدين الحق يدخلون الجنة صفا واحدا ، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ، صورهم على صورة القمر ليلة البدر .

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوطون ، آنيتهم فيها الذهب ، أمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا »(١) .

وروى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفا أو سبعمائة ألف ـ لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر »(٢) .

وقد صح أن الله أعطى رسوله ﷺ مع كل واحد من السبعين هؤلاء سبعين ألفا ، ففي مسند أحمد بإسناد صحيح عن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٣١٨/٦) ، ورواه مسلم والترمذي وغيرهما .
(٢) المصدر السابق ، فتح الباري : (٣١٩/٦) .

ﷺ قال : « أعطيت سبعين ألفا من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، فاستزدت ربي عز وجل ، فزادني مع كل واحد سبعين ألفا »[1] وفي مسند أحمد وسنن الترمذي وصحيح ابن حبان عن أبي أمامة بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال : « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بلا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ، وثلاث حثيات من حثيات ربي »[2]. فذكر في هذا الحديث زيادة ثلاث حثيات .

وقد وصف الرسول ﷺ السبعين ألفا الأوائل وبَيَّنَ علاماتهم ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ : « عرضت عليَّ الأمم ، فأخذ النبي يمر معه الأمة ، والنبي يمر معه النفر ، والنبي يمر معه العشرة ، والنبي يمر معه الخمسة ، والنبي يمرُّ وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل ، هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير . قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب ، قلت : ولِمَ ؟ قال : كانوا لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون ، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : اللهمَّ اجعله منهم . ثم قام إليه رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : سبقك بها عكاشة »[3] .

ولعل هؤلاء هم الذين سماهم الحق بالمقربين ، وهم السابقون ،

---

(١) صحيح الجامع : (١/٣٥٠) ، ورقمه : ١٠٦٨

(٢) صحيح الجامع : (٦/١٠٨) . ورقمة : ٦٩٨٨

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب ، فتح الباري : (١١/٤٠٥).

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1] ،
وهؤلاء ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ
ٱلْآخِرِينَ﴾[2] .

---

(١) سورة الواقعة : ١٠ ـ ١٢

(٢) سورة الواقعة : ١٣ ـ ١٤

المبحث الخامس

الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة

روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفا »(١) .

وروى الترمذي عن أبي سعيد ، وأحمد والترمذي وابن حبان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام »(٢) .

وقد بَيَّنَ الرسول ﷺ في موضع آخر أن هؤلاء لم يكن عندهم شيء يحاسبون عليه ، هذا مع جهادهم وفضلهم ، أخرج الحاكم في مستدركه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : فقراء المهاجرين ، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ، ويستفتحون ، فيقول لهم الخزنة : أوقد حوسبتم ؟ فيقولون : بأي شيء نحاسب ، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك ؟ قال : فيفتح لهم ، فيقيلون فيه أربعين عاما قبل أن يدخلها الناس »(٣)

---

(١) مشكاة المصابيح : (٦٦٣/٢) ، ورقمه : ٥٢٣٥

(٢) صحيح الجامع : (٩٠/٤) ورقمه : ٤١٠٤

(٣) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٥٣٢/٢) ، ورقمه : ٨٥٣ ، وقد قال الشيخ ناصر فيه : أخرجه الحاكم ؛ وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، أقول (الشيخ ناصر) : إنما هو على شرط مسلم فقط .

وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال : « قمت على باب الجنة فكان عامَّة من دخلها المساكين ، وأصحاب الجدِّ محبوسـون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار »[1] وأصحاب الجد هم الأغنياء من المسلمين .

وقد وقع في الأحاديث السابقة أن الفقراء يسبقون الأغنياء بأربعين خريفاً ، وجاء في حديث آخر بخمسمائة عام ، ووجه التوفيق بين الحديثين أن الفقراء مختلفـو الحال ، وكذلك الأغنياء ـ كما يقول القرطبي ـ[2] فالفقراء متفاوتون في قوة إيمانهم وتقدمهم ، والأغنياء كذلك ، فإذا كان الحساب باعتبار أول الفقراء دخولا الجنة وآخر الأغنياء دخولا الجنة فتكون المدة خمسمائة عام ، أما إذا نظرت إلى آخر الفقراء دخولا الجنة وأول الأغنياء دخولا الجنة فتكون المدة أربعين خريفا ، باعتبار أول الفقراء وآخر الأغنياء والله أعلم »[3] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (٣٤٥/٢) .
(٢) التذكرة ، للقرطبي : ص ٤٧٠
(٣) النهاية لابن كثير : (٢ /٣٤٥)

المبحث السادس
أول ثلاثة يدخلون الجنة

روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : عرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة : شهيد ، وعفيف متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح مواليه »[1] .

(١) جامع الأصول : (١٠/٥٣٥) ، وعزاه محقق الجامع إلى أحمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه ، والبيهقي في السنن .

المَبحَث السَابع
دخول عصاة المؤمنين الجنة

المطلب الأول
إخراجهم من النار وإدخالهم الجنة بالشفاعة

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أمّا أهل النار الذين هم أهلها ؛ فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن[1] ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال : بخطاياهم) فأماتتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحما ، أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر[2] ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبّة تكون في حميل السيل »[3] .

ولمسلم من حديث جابر بن عبدالله يرفعه إلى رسول الله ﷺ : « إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها ، إلا دارات وجوههم ، حتى يدخلون الجنة »[4]

وهؤلاء الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة يسميهم أهل الجنة

---

(١) لكنْ هنا مخففة مهملة لا تعمل .
(٢) جماعات جماعات .
(٣) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ، (١٧٢/١) .
(٤) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة ، (١٧٨/١) . ودارات وجوههم : ما يحيط بالوجه من جوانبه .

بالجنهميين ، ففي صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ ، فيدخلون الجنة ، يسمون الجهنميين »[1] .

وفي الصحيح أيضا عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يخرج[2] من النار بالشفاعة كأنهم الثعارير ، قلت : وما الثعارير ؟ قال : الضغابيس »[3] .

وروى البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « يخرج قوم من النار بعدما مسهم منها سَفْعٌ ، فيدخلون الجنة ، فيسميهم أهل الجنة : الجهنميين »[4] .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة الطويل في وصف الآخرة : « حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ، ممن أراد الله أن يرحمه ، ممن يقول : لا إله إلا الله ، فيعرفونهم في النار ، يعرفونهم بأثر السجود ، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود ، حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا[5] ، فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون منه ، كما تنبت الحبة في حميل السيل »[6] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (٤١٨/١١) ولهم ذكر في حديث جابر عند مسلم : (١٧٩/١) .

(٢) أي قوم .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (٤١٦/١١) والثعارير : قثاء صغار ، والضغبوس : نبت يخرج قدر شبر في دقة الأصبع لا ورق له ، وفيه حموضة . والمقصود (وصفهم بالبياض والدقة) .

(٤) المصدر السابق ، فتح الباري : (٤١٦/١١) .

(٥) احترقوا .

(٦) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الرؤية : (٢٩٩/١) حديث رقم : (١٨٢)

وقد ورد في أكثر من حديث أن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار أو نصف دينار أو مثقال ذرة من إيمان ، بل يخرج أقواما لم يعملوا خيرا قط ، ففي حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل الله أهل الجنة الجنة ، يدخل من يشاء برحمته ، ويدخل أهل النار النار ، ثم يقول : « انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه . . . »[1] .

وفي حديث جابر بن عبدالله في ورود النار : « ثم تحل الشفاعة ، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير مثقال شعيرة ، فيجعلون بفناء الجنة ، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء ، حتى ينبتوا نبات الشيء في حميل السيل . ويذهب حراقه[2] ثم يسأل حتى يجعل له الدنيا وعشرة أمثالها معها »[3] .

وفي حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه ما يزن بره ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة »[4] . والأحاديث في هذا كثيرة .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين : (١٧٢/١)
(٢) حراقه : معناه أثر النار ، والضمير في « حراقه » يعود على المخرجين .
(٣) صحيح مسلم ، باب أدنى أهل الجنة منزلة : (١٧٨/١)
(٤) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة : (١٨٢/١)

المطلب الثاني
موقف الفرق من الشفاعة

أنكرت الخوارج والمعتزلة[1] شفاعة الشافعين في أهل الكبائر والذين أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها ، والذين دخلوها أن يخرجوا منها ، قال القرطبي : « وهذه الشفاعة أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة ، فمنعتها على أصولهم الفاسدة وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقبيح »[2] .

وهذه المقولة المضادة للأحاديث الصحيحة المتواترة برزت والصحابة أحياء ، روى مسلم في صحيحه عن يزيد الفقير، قال: « كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج ، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد الحج ، ثم نخرج على الناس ، قال فمررنا على المدينة ، فإذا جابر بن عبدالله يحدث القوم ، جالس إلى سارية ، عن رسول الله ﷺ ، قال : فإذا هو ذكر الجهنميين ، قال : فقلت له : يا صاحب رسول الله ، ما هذا الذي تحدِّثون به والله يقول : ﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾[3] ، و ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾[4] ؟ فما هذا الذي تقولون ؟ قال : فقال : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم . قال : فهل سمعت بمقام محمد عليه السلام (يعني الذي يبعثه الله فيه) ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يخرج الله به من يخرج قال : ثم نعت وضع الصراط ومرّ الناس عليه ، قال : وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك ، قال : غير أنه قد زعم أن قوما

---

(١) الخوارج فرقة خرجت بعد معركة صفين كفرت عليا ومعاوية ، ومن معهما ، وزعمت أن أهل المعاصي مخلدون في النار ، والمعتزلة أتباع واصل بن عطاء ذهبوا مذهب المعتزلة ، في القول بتخليد أصحاب الكبائر في النار ، وتوقفوا في أمرهم في الدنيا .

(٢) التذكرة للقرطبي : ص ٢٤٩

(٣) سورة آل عمران : ١٩٢

(٤) سورة السجدة : ٢٠

يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها . قال : يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم ، قال : فيدخلون نهرا من أنهار الجنة فيغتسلون فيه ، فيخرجون كأنهم القراطيس[1] ، فرجعنا قلنا : ويحكم ، أترون الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ ؟ فرجعنا . فلا والله ، ما خرج منا غير رجل واحد »[2] .

والخوارج والمعتزلة تطرفوا في هذه المسألة إذ زعموا أن أهل الكبائر لا يخرجون من النار ، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين ، كما أن المرجئة تطرفوا في الجانب المقابل حيث لم يقطعوا بدخول أحد من أهل الكبائر النار ، ويزعمون أن أهل الكبائر جميعا في الجنة من غير عذاب ، وكلا الفريقين مخالف للسنة المتواترة الثابتة عن الرسول ﷺ ، وهم مخالفون لإجماع سلف الأمة وأئمتها ، وقد هدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، حيث ذهبوا إلى أن أهل الكبائر تحت مشيئة الله ، إن شاء غفر لهم برحمته ، وإن شاء عذبهم بذنوبهم ، ثم أدخلهم الجنة برحمته ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4] فالشرك لا يغفره الله ، وما دونه تحت المشيئة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . وحجة الخوارج في نفي هذه الشفاعة الآيات الواردة في نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ، فأهل الشرك يعتقدون أن الشفاعة عند الله كالشفاعة في الدنيا ، يشفع الشافع عند غيره بدون إذن منه ، ويشفع الشافع عند غيره وإن لم يرض عن المشفوع له ، وهذا لا يكون عند الله تبارك وتعالى ، وقد جاءت النصوص بإبطال هذا النوع من الشفاعة ،

---

(١) القراطيس : الصحف التي يكتب فيها .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة ، (١/١٧٩) ، ورقمه : ١٩١

(٣) سورة النساء : ٤٨

(٤) سورة الزمر : ٥٣

كماقال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ ﴾[1] . وقال : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[2] ، وقال : ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾[3] ، وقد جاءت النصوص مبينة أن الشفاعة عند الله لا تكون إلا بإذنه ، ولا تكون إلا بعد أن يرضى عن الشافع والمشفوع له : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[4] وقال : ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾[5] ، وقال : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾[6] ، وقال عن الملائكة أيضا : ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾[7] ، وقال : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾[8] .

فهذه النصوص تنفي تلك الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين وتبطلها ، وتثبت الشفاعة التي تكون بإذن الله ورضاه عن الشافع والمشفوع ، والله لا يرضى عن الكفرة المشركين ، أمّا عصاة أهل التوحيد ، فيشفع فيهم الشافعون ، ولا يشفعون لمشرك . روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : **لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه**»[9] .

---

(١) سورة البقرة : ٤٨
(٢) سورة المدثر : ٤٨
(٣) سورة غافر : ١٨
(٤) سورة البقرة : ٢٥٥
(٥) سورة الأنبياء : ٢٨
(٦) سورة النجم : ٢٦
(٧) سورة الأنبياء : ٢٨
(٨) سورة سبأ : ٢٣
(٩)رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (١١/٤١٨)

المبحث الثامن
آخر من يدخل الجنة

حدثنا الرسول ﷺ قصة آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنة ، وما جرى من حوار بينه وبين ربه ، وما أعطاه الله من الكرامة العظيمة التي لم يُصَدِّق أن الله أكرمه به لعظمها ، وقد جمع ابن الأثير روايات هذا الحديث في جامع الأصول ، ومنه نقلنا هذه الأحاديث[1] .

١ - عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا الجنة : رجل يخرج من النار حبوا ، فيقول الله له : اذهب فادخل الجنة ؛ فيأتيها ، فيخيل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول : يارب ، وجدتها ملأى ، فيقول الله عز وجل : اذهب فادخل الجنة ؛ فإن لك مثل الدنيا ، ، وعشرة أمثالها ؛ أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا ، فيقول : أتسخر بي - أو أتضحك بي - وأنت الملك ؟ قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، فكان يقال : ذلك أدنى أهل الجنة منزلة » أخرجه البخاري ومسلم .

ولمسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار : رجل يخرج منها زحفا ، فيقال له : انطلق فادخل الجنة ، قال : فيذهب فيدخل الجنة ، فيجد الناس قد أخذوا المنازل ، فيقال له :

(١) جامع الأصول : (٥٥٣/١٠) .

أتذكر الزمان الذي كنت فيه ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : تمن ، فيتمنى فيقال له : لك الذي تمنيت ، وعشرة أضعاف الدنيا ، فيقول : أتسخر بي وأنت الملك ؟ قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه » وفي رواية الترمذي مثل هذه التي لمسلم .(١)

٢ ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشي مرة ، ويكبو مرة ، وتسفعه النار مرة ، فإذا ما جاوزها التفت إليها ، فقال : تبارك الذي نجاني منك ، لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين ، فترفع له شجرة ، فيقول : يارب ، أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها ، وأشرب من مائها ، فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها ؟ فيقول : لا ، يارب ، ويعاهده أن لايسأله غيرها، قال: وربه عز وجل يعذره،لأنه يرى مالا صبر له عليه، فيدنيه منها ، فيستظل بظلها ، ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى ، فيقول : أي رب ، أدنني من هذه لأشرب من مائها ، وأستظل بظلها ، لا أسألك غيرها فيقول : يا ابن آدم ، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها ؟ فيقول : لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها ؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها ، وربه تعالى يعذره ، لأنه يرى مالا صبر له عليه ، فيدنيه منها ، فيستظل بظلها ، ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة ، وهي أحسن من الأوليين ، فيقول : أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها ، وأشرب من مائها ، لا أسألك غيرها ، فيقول : يا ابن آدم ، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها ؟ قال : بلى ، يارب لا أسألك غيرها ـ وربه عز وجل

(١) رواه البخاري : (١١/٣٨٦) في الرقاق ، باب في صفة الجنة والنار ، وفي التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، ومسلم رقم : ١٨٦ في الإيمان ، باب آخر أهل النار خروجاً ، والترمذي رقم : ٢٥٩٨ في صفحة جهنم ، باب رقم ١٠ .

يعذره ، لأنه يرى مالا صبر له عليه ، فيدنيه منها ، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة ، فيقول : أي رب أدخلنيها ، فيقول : يا ابن آدم ، ما يصريني[1] منك ، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ؟ قال : يارب ، أتستهزيء مني وأنت رب العالمين ؟ فضحك ابن مسعود ، فقال : ألا تسألوني مم أضحك ؟ فقالوا : مم تضحك ؟ قال : هكذا ضحك رسول الله ﷺ . فقالوا : مم تضحك يا رسول الله ؟ فقال : من ضحك رب العالمين، حين قال : أتستهزيء مني وأنت رب العالمين؟ فيقول : إني لا أستهزيء منك ، ولكني على ما أشاء قادر » أخرجه مسلم[2] .

وهذا الحديث هكذا أخرجه الحميدي وحده في أفراد مسلم ، والذي قبله في المتفق عليه ، وقال : إنما أفردناه للزيادة التي فيه .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة : رجل صرف الله وجهه عن النار قبل الجنة ، ومثل له شجرة ذات ظل ، فقال ، أي رب ، قربني من هذه الشجرة لأكون في ظلها . . وساق الحديث بنحو حديث ابن مسعود ، ولم يذكر : فيقول : يا ابن آدم ، ما يصريني منك ؟ . . إلى آخر الحديث » .

وزاد فيه : « ويذكِّره الله ، سل كذا وكذا ، فإذا انقطعت به الأماني ، قال الله : هو لك وعشرة أمثاله ، قال : ثم يدخل بيته ، فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين ، فيقولان : الحمد لله الذي أحياك لنا ، وأحيانا لك ، قال : « فيقول : ما اعطي أحد مثل ما أعطيت» أخرجه مسلم هكذا عقيب حديث ابن مسعود[3].

---

(١) (ما يصريني) أي ما الذي يرضيك ، ويقطع مسألتك ، وأصل التصرية : القطع والجمع ، ومنه الشاة المصراة ، وهي التي جمع لبنها وقطع حلبه .

(٢) رقم ١٨٧ في الإيمان ، باب آخر أهل النار خروجاً .

(٣) رواه مسلم رقم : ١٨٨ في الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

المبحث التاسع

الذين دخلوا الجنة قبل يوم القيامة

أول من دخل الجنة من البشر هو أبو البشر آدم ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾[1] ،وقال: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[2] ، ولكن آدم عصى ربه بأكله من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها فأهبطه الله من الجنة إلى دار الشقاء : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[3] .

وقد رأى الرسول ﷺ الجنة ففي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : « اطلعت في الجنة فرأيت أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أهلها النساء »[4] .

---

(١) سورة البقرة : ٣٥

(٢) سورة الأعراف : ١٩

(٣) سورة طه : ١١٥ ـ ١٢٣

(٤) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٣١٨/٦)

ومن الذين يدخلون الجنة قبل يوم القيامة الشهداء ، ففي صحيح مسلم عن مسروق قال : سألنا عبدالله بن مسعود عن هذه الآية : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١) الآية ، قال : « إنا قد سألنا عن ذلك فقال : « أرواحهم في أجواف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة ، فقال : هل تشتهون شيئا ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا : قالوا : يارب ، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا »(٢) .

ومن مات عرض عليه مقعده من الجنة والنار بالغداة والعشي ، ففي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعدة بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة »(٣).

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٩

(٢) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥١) ، ورقمه : ٣٨٠٤

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، انظر مسلم بشرح النووي : (١٧/٣٠٠)

الفصل الثاني
الجنة خالدة وأهلها خالدون

المبحث الأول
النصوص الدالة على ذلك

الجنة خالدة لا تفنى ولا تبيد ، وأهلها فيها خالدون ، لا يرحلون عنها ولا يظعنون ، ولا يبيدون ولا يموتون ، ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾[2]

وقد سقنا عند الحديث عن خلود النار ـ الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ذبح الموت بين الجنة والنار ، ثم يقال لأهل الجنة ولأهل النار : « يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » .

إن مقتضى النصوص أن الجنة تخلق خلقا غير قابل للفناء ، وكذلك أهلها ،

---

(١) سورة الدخان : ٥٦

(٢) سورة الكهف : ١٠٧

ففي الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعم ، لا ييأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه »[1] .

واستمع إلى النداء العلوي الرباني الذي ينادي به أهل الجنة بعد دخلوهم الجنة ، « إنَ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا ، فلا تبتئسوا أبدا ، فذلك قوله عز وجل[2] ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] .

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، باب في دوام نعيم الجنة ، (٢١٨١/٤) ، ورقمه : ٢٨٣٦ .
(٢) سورة الأعراف : ٤٣ .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب دوام نعيم الجنة : (٢١٨٢/٤) ، ورقمه : ٢٨٣٧

المبحث الثاني
القائلون بفناء الجنة

قال بفناء الجنة كما قال بفناء النار الجهم بن صفوان إمام المعطلة ، وليس له سلف قط ، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا من أئمة المسلمين ، ولا من أهل السنة ، وأنكره عليه عامّة أهل السنة . وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة قال بفناء حركات أهل الجنة والنار ، بحيث يصيرون إلى سكون دائم ، لا يقدر أحد منهم على حركة[1] ، وكل هذا باطل ، قال شارح الطحاوية : « فأمّا أبدية الجنة ، وأنها لا تفنى ولا تبيد ، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[2] ، أي غير مقطوع ، ولا ينافي ذلك قوله : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾[3] [4] » وقد ذكر شارح الطحاوية اختلاف السلف في هذا الاستثناء فقال : « واختلف السلف في هذا الاستثناء : فقيل : معناه إلا مدة مكثهم في النار ، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها ، لا لكلهم . وقيل : إلا مدة مقامهم في الموقف . وقيل : إلا مدة مقامهم في القبور والموقف . وقيل : هو استثناء الرب ولا يفعله ، كما تقول : والله لأضربنك إلا أن

(١) راجع شرح الطحاوية : ص ٤٨٠ .
(٢) سورة هود : ١٠٨ .
(٣) سورة هود : ١٠٨ .
(٤) شرح الطحاوية : ٤٨١ .

أرى غير ذلك ، وأنت لا تراه ، بل تجزم بضربه . وقيل : « إلا » بمعنى الواو ، وهذا على قول بعض النحاة ، وهو ضعيف . وسيبويه يجعل إلا بمعنى لكن ، فيكون الاستثناء منقطعاً ، ورجحه ابن جرير وقال : إن الله تعالى لا خلف لوعده ، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[1] . قالوا : ونظيره أن تقول : أسكنتك داري حولا إلا ما شئت ، أي سوى ما شئت ، ولكن ما شئت من الزيادة عليه . وقيل : الاستثناء لإعلامهم بأنهم - مع خلودهم - في مشيئة الله ، لأنهم لايخرجون عن مشيئته ، ولاينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾[3] ، وقوله : ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾[4] - ونظائره كثيرة ، يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقيل : إن « ما » بمعنى « من » أي : إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء . وقيل غير ذلك .

وعلى كل تقدير ، فهذا الاستثناء من المتشابه ، وقوله : ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[5] . وكذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾[6] . وقوله : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا ﴾[7] . وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع

---

(١) سورة هود : ١٠٨ .
(٢) سورة الإسراء : ٨٦ .
(٣) سورة الشورى : ٢٤ .
(٤) سورة يونس : ١٦ .
(٥) سورة هود : ١٠٨ .
(٦) سورة ص : ٥٤ .
(٧) سورة الرعد : ٣٥ .

من القرآن، وأخبر أنهم : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [1]. وهذا الاستثناء منقطع ، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [2]- تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود ، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت ، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية ، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها »[3] .

---

(١) سورة الدخان : ٥٦ .

(٢) سورة هود : ١٠٨ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية : ٤٨١ .

الفَصْل الثالث

صِفَة الجَنَّة

المَبحَث الأول

الجَنَّة لا مثل لها

نعيم الجنة يفوق الوصف ، ويقصر دونه الخيال ، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا ، ومهما ترقى الناس في دنياهم ، فسيبقى ما يبلغونه أمراً هينا بالنسبة لنعيم الآخرة ، فالجنة كما ورد في بعض الآثار لا مثل لها ، « هي نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وفاكهة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، في مقام أبدا ، في حَبْرة ونَضْرة ، في دور عالية سليمة بهية »[1] .

وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن بناء الجنة ، فأسمعنا الرسول ﷺ في الإجابة وصفا عجبا ، يقول عليه السلام في صفة بنائها : « لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها المسك الأذفر[2] ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وتربتها

(١) هذا نص حديث أورده ابن ماجه في سننه ، في كتاب الزهد ، باب صفة الجنة ، (١٤٤٨/٢) ، ورقمه : ٤٣٣٢ ، ولم ننسبه إلى الرسول ﷺ لأن في اسناده مقالا ، وإن كان ابن حبان أورده في صحيحه ، ومعناه جميل تشهد له النصوص من الكتاب والسنة .

(٢) الملاط : المادة التي توضع بين اللبنتين .

الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولا يموت ، ولا يبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم »(١) ، وصدق الله حيث يقول : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾(٢) .

وما أخفاه الله عنا من نعيم الجنة شيء عظيم لا تدركه العقول ، ولا تصل إلى كنهه الأفكار ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣) وقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقرؤوا إن شئتم : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٤) »(٥) ورواه مسلم من عدة طرق عن أبي هريرة وجاء في بعض طرقه : « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا ، بلْه(٦) ما أطلعكم الله عليه ، ثمَّ قرأ : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٧) »(٨) ورواه مسلم عن سهل بن سعد الساعدى قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ في آخر حديثه :

---

(١) رواه أحمد والترمذي والدارمي ، انظر مشكاة المصابيح : (٣/٨٩) ، وهو صحيح بطرقه كما أشار إلى ذلك محقق المشكاة .

(٢) سورةالانسان: ٢٠ .

(٣) سورة السجدة : ١٧ .

(٤) سورة السجدة : ١٧ .

(٥) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٦/٣١٨) .

(٦) بَلْه : بفتح الباء وسكون اللام ، ومعناها : دع ما أطلعكم الله عليه ، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم ، وكأنه أضرب عنه استقلالا له في جنب مالم يطلع عليه . أفاده النووي في شرحه على مسلم (١٧/١٦٦) .

(٧) سورة السجدة : ١٧ .

(٨) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها : (٢/٢١٧٤) ، ورقم الحديث : ٢٨٢٤ .

« فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] »[2] .

(١) سورة السجدة : ١٦ ـ ١٧ .
(٢) رواه مسلم ، حديث رقم : ٢٨٢٤ .

المبحث الثاني

أبواب الجنة

للجنة أبواب يدخل منها المؤمنون كما يدخل منها الملائكة ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾[1] ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[2] ، وأخبرنا الحق تبارك وتعالى أن هذه الأبواب تفتح عندما يصل المؤمنون إليها ، وتستقبلهم الملائكة محيية بسلامة الوصول : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[3] .

وعدد أبواب الجنة ثمانية ، وأحد هذه الأبواب يسمى الريّان وهو خاص بالصائمين ففي الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : « في الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمى الريّان ، لا يدخله إلا الصائمون ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل غيرهم »[4] .

وهناك باب للمكثرين من الصلاة ، وباب للمتصدقين ، وباب للمجاهدين ، بالإضافة إلى باب الصائمين المسمى بالريّان ، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين في سبيل الله من ماله ، دعي من أبواب الجنة ،وللجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل

---

(١) سورة ص : ٥٠ .

(٢) سورة الرعد : ٢٣ .

(٣) سورة الزمر : ٧٣ .

(٤) النهاية لابن كثير : (٢/٢١٤) .

الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام » .

فقال أبو بكر : والله ما على أحد من ضرر دعي من أيها دعي ، فهل يدعى منها كلها أحد يارسول الله ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[1] .

وسؤال أبي بكر يريد به شخصاً اجتمعت فيه خصال الخير ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وجهاد ، ونحو ذلك ، بحيث يدعى من جميع تلك الأبواب ، وقد أخبر الرسول ﷺ أن الذي ينفق زوجين في سبيل الله يدعى من أبواب الجنة الثمانية ، وأخبر الرسول ﷺ أن الذي يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يرفع بصره إلى السماء ، فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله تفتح له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها يشاء .

فقد روى مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، وأهل السنن عن أمير المؤمنين عمر ين الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم رفع بصره إلى السماء ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء »[2] .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه خص الذين لا حساب عليهم بباب خاص بهم دون غيرهم وهو باب الجنة الأيمن ، وبقيتهم يشاركون بقية الأمم في الأبواب الأخرى ، ففي الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة في حديث الشفاعة « فيقول الله :

---

(١) النهاية لابن كثير : (٢/ ٢١٤) .

(٢) النهاية لابن كثير : (٢/ ٢١٩) .

يامحمد : أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر » ثم بين في هذا الحديث سعة أبواب الجنة ، وأن ما بين جانبي الباب كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى ، ففي الحديث السابق المتفق عليه يقول الرسول ﷺ : « والذي نفس محمد بيده : إن بين المصراعين من مصاريع الجنة ، أو ما بين عضادتي الباب ، كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى »(1) .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن أبواب الجنة تفتح في رمضان ، ففي الصحيحين ومسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء ، وفي رواية : « فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار »(2) .

وورد في بعض الأحاديث أن ما بين المصراعين مسيرة أربعين سنة ، فقد روى أحمد في « مسنده » وأبو نعيم في « الحلية » عن حكيم بن معاوية عن أبيه معاوية أن رسول الله ﷺ قال : « إن ما بين المصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم ، وإنه لكظيظ » وإسناده صحيح .

ورواه مسلم وأحمد عن عتبة بن غزوان قال : « لقد ذكر لنا أن ما بين المصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم ، وإنه لكظيظ من الزحام » .

---

(1) النهاية لابن كثير : (٢/٢٢١) .
(2) مشكاة المصابيح : (١/٦١٢) .

ورواه الطبراني في معجمه الكبير عن عبد الله بن سلام : « إن ما بين المصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة ، يزاحم عليه كازدحام الإبل وردت لخمس ظمأ »[1] .

---

(١) هذا التحقيق أخذناه بشيء من الاختصار من سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني : (٢٧٣/٤) ، ورقم الحديث : ١٦٩٨ .

المَبحث الثالث

درجـــات الجنـــة

المطلب الأول

الأدلة على أن الجنة درجات ، وأهلها فيها متفاوتون في الرفعة

الجنة درجات بعضها فوق بعض ، وأهلها متفاضلون فيها بحسب منازلهم فيها ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾[1] .

ومن الذين وضحوا هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية ، قال : « والجنة درجات متفاضلة تفاضلا عظيما ، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم . قال تبارك وتعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[2] .

فبين الله سبحانه وتعالى أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه ، وأن عطاءه ما كان محظوراً من بر ولا فاجر ، ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا

---

(١) سورة طه : ٧٥ .

(٢) سورة الإسراء : ١٨ - ٢١ .

﴿... بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[1] . فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجات الآخرة أكبر من درجات الدنيا . وأن درجات الآخرة أكبر من درجات الدنيا ، وتفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين . فقال تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[2] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[3] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » . وفي الصحيحين عن أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . وقد قال الله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[4] وقال تعالى : ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾[5] . وقال

(١) سورة الإسراء : ٢١ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٣ .
(٣) سورة الإسراء : ٥٥ .
(٤) سورة الحديد : ١٠ .
(٥) سورة النساء : ٩٥ - ٩٦ .

تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَـٰهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ (١٩) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَـٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَاءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَـٰبِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3] »[4].

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: « من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها، فقالوا: يارسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فأسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، أراه قال: وفوقه عرش الرحمن - ومنه تفجر أنهار الجنة »[5] وثبت في الصحيح أيضا عن أنس أن أم حارثة أتت رسول الله ﷺ وقد هلك حارثة يوم بدر، أصابه سهم غرب، فقالت: يارسول الله، قد علمت موقع حارثة من قلبي، فإن كان في الجنة لم أبك عليه، وإلا سوف ترى

(١) سورة التوبة: ١٩.
(٢) سورة الزمر: ٩.
(٣) سورة المجادلة: ١١.
(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (١١/١٨٨).
(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله: فتح الباري: (٦/١١).

ما أصنع ، فقال لها : أجنة واحدة هي ؟ إنها جنان كثيرة ، وإنه في الفردوس الأعلى »[1] .

وقد بين الرسول ﷺ أن أهل الجنة متفاضلون في الجنة بحسب منازلهم فيها ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر[2] في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم . قالوا : يارسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »[3] . وفي مسند أحمد وسنن الترمذي وسنن ابن ماجه وصحيح ابن حبان عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « إن أهل الدرجات العلى يراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما »[4] . قال القرطبي : « اعلم أن هذه الغرف مختلفة في العلو والصفة بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال ، فبعضها أعلى من بعض وأرفع . . . . وقوله : « والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » ولم يذكر عملا ، ولا شيئا سوى الإيمان والتصديق للمرسلين ، ذلك ليعلم أنه عنى الإيمان البالغ وتصديق المرسلين من غير سؤال آية ولا تلجلج ، وإلا فكيف تنال الغرفات بالإيمان والتصديق الذي للعامة ، ولو كان كذلك كان جميع الموحدين في أعالي الغرفات ، وأرفع الدرجات ، وهذا محال ، وقد قال الله تعالى :

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (١١/٤١٨) .

(٢) الغابر : الذاهب أو الباقي ، فإنَّ غَبَر من الأضداد ، يقال : غبر إذا ذهب ، وغبر إذا بقى ، ويعني به أن الكوكب حالة طلوعه وغروبه بعيد عن الأبصار فيظهر صغيرا لبعده .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة الجنة والنار ، فتح الباري : (٦/٣٢٠) وصحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف ، (٤/٢١٧٧) ، ورقمه : ٢٨٣١ .

(٤) صحيح الجامع الصغير ، (٢/١٨٧) ، ورقمه : ٢٠٢٦ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾(١) ، والصبر بذل النفس والثبات له وقوفا بين يديه بالقلوب عبودية وهذه صفة المقربين ، وقال في آية أخرى :

﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾(٢) ، فذكر شأن الغرفة ، وأنها لا تنال بالأموال والأولاد ، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح ، ثم بين أن لهم جزاء الضعف ، وأنَّ محلهم الغرفات ، يعلمك أن هذا إيمان طمأنينة وتعلق قلب به ، مطمئنا به في كل ما نابه ، وبجميع أموره وأحكامه ، فإذا عمل عملا صالحا ، فلا يخلطه بضده ، وهو الفاسد ، فلا يكون العمل الصالح الذي لا يشوبه فساد إلا مع إيمان بالغ مطمئن صاحبه بمن آمن وبجميع أموره وأحكامه ، والمخلط ليس إيمانه وعمله هكذا ، فلهذا كانت منزلته دون غيره »(٣) .

وأهل الدرجات العاليات يكونون في نعيم أرقى من الذين دونهم ، فقد ذكر الله أنه أعد للذين يخافونه جنتين ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾(٤) ، ووصفهما ، ثم قال : ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾(٥) ، أي دون تلك الجنتين في المقام والمرتبة ، ومن تأمل صفات الجنتين اللتين ذكرهما الله آخراً علم أنهما دون الأوليين في الفضل، فالأوليان للمقربين ، والأخريان لأصحاب اليمين ، كما قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري(٦) ، قال القرطبي : « لما وصف الجنتين أشار إلى الفرق بينهما ، فقال في الأوليين : ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾(٧) ، وقال في الأخريين : ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ

---

(١) سورة الفرقان : ٧٥ .
(٢) سورة سبأ : ٣٧ .
(٣) التذكرة للقرطبي : ص ٤٦٤ .
(٤) سورة الرحمن : ٤٦ .
(٥) سورة الرحمن : ٦٢ .
(٦) التذكرة للقرطبي : ٤٤٠ .
(٧) سورة الرحمن : ٥٠ .

نَضَّاخَتَانِ ﴾(1) ، أي فوارتان بالماء ، ولكنهما ليستا كالجاريتين ، لأن النضخ دون الجري ، وقال في الأوليين : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾(2) ، معروف وغريب ، رطب ويابس ، فعم ولم يخص ، وفي الأخريين : ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾(3) ، ولم يقل من كل فاكهة زوجان ، وقال في الأوليين : ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾(4) ، وهو الديباج ، وفي الأخريين : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾(5) ، والعبقرى الوشي، ولا شك أن الديباج أعلى من الوشي، والرفرف كسر الخبا ، ولا شك أن الفرش المعدة للاتكاء عليها أفضل من الخبا ، وقال في الأوليين في صفة الحور العين : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾(6)،وفي الآخريتين : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾(7) ، وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان ، وقال في الأوليين: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾(8) ، وفي الأخيرتين : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾(9) ، أي خضراوان كأنهما من شدة خضرتهما سوداوان ، ووصف الأوليين بكثرة الأغصان ، والآخرتين بالخضرة وحدها »(10).

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما

---

(1) سورة الرحمن : ٦٦ .
(2) سورة الرحمن : ٥٢ .
(3) سورة الرحمن : ٦٨ .
(4) سورة الرحمن : ٥٤ .
(5) سورة الرحمن : ٧٦ .
(6) سورة الرحمن : ٥٨ .
(7) سورة الرحمن : ٧٠ .
(8) سورة الرحمن : ٤٨ .
(9) سورة الرحمن : ٦٤ .
(10) التذكرة ، للقرطبي : ص ٤٤٠ .

وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »[1] ، وفي رواية الترمذي : « إن في الجنة جنتين من فضة . . » وذكر الحديث[2] .

وذكر الحق تبارك وتعالى أن الأبرار يشربون كأسا ممزوجة بالكافور ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [3] ، وقال في موضع آخر : ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [4] ، ويبدو أن هذا ـ والعلم عند الله ـ لأهل اليمين ، وقال في موضع آخر : ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [5] ، فأهل اليمين يشربون شرابا ممزوجا من تسنيم وهي عين في الجنة ، والمقربون يشربون من تسنيم صرفا غير ممزوج .

المطلب الثاني
أعلى أهل الجنة وأدناهم منزلة

روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة أن الرسول ﷺ قال : « سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أي رب ؛ وكيف ؟ وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ، فيقول : لك ذلك ومثله ، ومثله ،

---

(١) جامع الأصول : (٤٩٨/١٠) ، ورقمه : ٨٠٢٩ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) سورة الانسان : ٥ .
(٤) سورة الانسان : ١٧ .
(٥) سورة المطففين : ٢٧ .

ومثله ، ومثله . فقال في الخامسة : رضيت ، رب . فيقول : لك هذا وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك . فيقول : رضيت ربِّ .

قال : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » قال : ومصداقه في كتاب الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[1] » .

المطلب الثالث
المنزلة العليا في الجنة

أعلى منزلة في الجنة ينالها شخص واحد تسمى الوسيلة ، وسينالها ـ إن شاء الله ـ النبي المصطفى المختار خيرة الله من خلقه نبينا محمد ﷺ ، قال ابن كثير في النهاية : « ذكر أعلى منزلة في الجنة ، وهي الوسيلة ، فيها مقام رسول الله ﷺ » وساق في ذلك حديث جابر بن عبدالله عند البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته : حلت له الشفاعة يوم القيامة » .

وساق حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند مسلم في صحيحه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليَّ فإن من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله تعالى لي الوسيلة ، فإن من سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة »[2]

---

(١) سورة السجدة : ١٧ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها : (١/١٧٦) ، ورقمه : ١٨٩ .

وقد سأل الصحابة الرسول ﷺ قائلين : « وما الوسيلة ؟ قال : أعلى درجة في الجنة ، لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون هو » رواه أحمد عن أبي هريرة ، وفي المسند عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الوسيلة درجة عند الله ، ليس فوقها درجة ، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة »[1] .

المطلب الرابع
الذين ينزلون الدرجات العاليات

من الذين يحلون الدرجات العاليات في الجنة الشهداء ، وأفضلهم الذين يقاتلون في الصفوف الأولى لا يلتفتون حتى يقتلوا ، ففي مسند أحمد ومعجم الطبراني عن نعيم بن همار[2] بإسناد صحيح عن النبي ﷺ قال : « أفضل الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول ، فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة ، يضحك إليهم ربك ، فإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه »[3] .

والساعي على الأرملة والمسكين له منزلة المجاهد في سبيل الله ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « الساعي على الأرملة والمسكين ، كالمجاهد في سبيل الله ـ وأحسبه قال : وكالقائم لا يفتر ، وكالصائم لا يفطر »[4] .

---

(١) انظر هذه الأحاديث في « النهاية » لابن كثير : (٢/٢٣٣٢) .

(٢) قال ابن حجر في « تقريب التهذيب » : « نعيم بن همّار ، بتشديد الميم ، أو هبار ، أو خمّار ، بالمعجمة أو المهملة ، الغطفاني ، صحابي ، ورجح الأكثر أن اسم أبيه همار .

(٣) مسند أحمد : (٥/٢٨٧) . صحيح الجامع الصغير : (١/٣٦٣) ، ورقمه : ١١١٨ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، باب الاحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم : (٢/٢٢٨٦) ، ورقم الحديث : ٢٩٨٢ .

ومنزلة كافل اليتيم قريبة من منزلة الرسول ﷺ ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « كافل اليتيم له أو لغيره ، أنا وهو كهاتين في الجنة » وأشار مالك بالسبابة والوسطى(١) .

ويرفع الله درجة الآباء ببركة دعاء الأبناء ، ففي مسند أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة ، فيقول : يارب ، أَنَّىٰ لي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »(٢) .

---

(١) المصدر السابق ، وقوله : (له أو لغيره) أي سواء أكفله من ماله ، أو من اليتيم بولاية شرعية .
(٢) النهاية لابن كثير : (٢/٣٤٠) .

المبحث الرابع

تربة الجنة

ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك عن أبي ذر في حديث المعراج قال : قال رسول الله ﷺ : « أدخلت الجنة ، فإذا فيها جنادل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » .

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي سعيد أن ابن صياد سأل الرسول ﷺ عن تربة الجنة ، فقال : « هي درمكة[1] بيضاء مسك خالص » وفي مسند أحمد عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ في اليهود : « إني سائلهم عن تربة الجنة ، وهي درمكة بيضاء ، فسألهم ، فقالوا : هي خبزة ياأبا القاسم ، فقال رسول الله ﷺ : « الخبز من الدر »[2] وروى أحمد والترمذي والدارمي عن أبي هريرة ، قال : قلت : يارسول الله ، مم خلق الخلق ؟ قال : « من ماء » . قلنا : الجنة ما بناؤها ؟ قال : « لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها الدر والياقوت ، وتربتها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولا يموت ، ولا يبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم »[3] .

---

(١) الدرمكة : واحدة الدرمك ، وهو الدقيق الحواري الخالص البياض .

(٢) انظر هذه الأحاديث في النهاية لابن كثير : (٢/٢٤٢) .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣/٨٩) ، ورقمه : ٥٦٣٠ ، وقال محقق المشكاة : وله طرق وشواهد ، وأورده في سلسلة الأحاديث الصحيحة .

المبحث الخامس
أنهار الجنة

أخبرنا الله تبارك وتعالى بأن الجنة تجري من تحتها الأنهار ، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[١]، وأحيانا يقول: تجري من تحتهم الأنهار ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[٢] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن أنهار الجنة حديثا واضحا بيّنا ، ففي إسرائه صلوات الله وسلامه عليه : « رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها[٣] نهران ظاهران ونهران باطنان ، فقلت : ياجبريل ، ما هذه الأنهار ؟ قال : أما النهران الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات »[٤] .

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « رفعت لي السدرة ، فإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فأما الظاهران فالنيل والفرات ، وأما الباطنان : فنهران في الجنة »[٥] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة »[٦] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥ .
(٢) سورة الكهف : ٣١ .
(٣) الضمير عائد إلى سدرة المنتهى ، كما دل على ذلك سياق بعض الأحاديث .
(٤) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء ، (١٥٠/١) ، ورقم الحديث : ١٦٤ .
(٥) جامع الأصول : (٥٠٧/١٠) ، وقال المحقق : رواه البخاري تعليقا في الأشربة ، قال الحافظ في الفتح : وصله أبو عوانة والاسماعيلي والطبراني في « الصغير » من طريقه .
(٦) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة ، (٢١٨٣/٤) ورقم الحديث : =

« ولعل المراد من كون هذه الأنهار من الجنة أن أصلها منها كما أن أصل الإنسان من الجنة ، فلا ينافي الحديث ما هو معلوم مشاهد من أن هذه الأنهار تنبع من منابعها المعروفة في الأرض ، فإذا لم يكن هذا هو المعنى أو ما يشبهه ، فالحديث من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها ، والتسليم للمخبر عنها »[1] .

وقال القاري : « إنما جعل الأنهار الأربعة من أنهار الجنة ، لما فيها من العذوبة والهضم ، ولتضمنها البركة الإلهية ، وتشرفها بورود الأنبياء إليها وشربهم منها »[2] .

ومن أنهار الجنة الكوثر الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[3] وقد رآه الرسول ﷺ وحدثنا عنه ، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « بينما أنا أسير في الجنة ، إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف ، قلت : ما هذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فإذا طيبه ـ أو طينه ـ مسك أذفر » شك هُدْبة[4] .

وقد فسر ابن عباس : الكوثر بالخير الكثير الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ ، فقال أبو بشر لسعيد بن جبير راوي هذا التفسير عن ابن عباس : إن أناسا يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[5] . وقد جمع الحافظ ابن كثير الأحاديث التي أخبر الرسول ﷺ فيها عن

= ٢٨٣٩ وعزاه الشيخ ناصر في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٦/١) إلى مسلم وأحمد والآجري والخطيب .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٨/١) .

(٢) نقله عنه الشيخ ناصر في تعليقه على مشكاة المصابيح : (٨٠/٣) .

(٣) سورة الكوثر : ١ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض ، فتح الباري : (٤٦٤/١١) ، وهدبة أحد رواة الحديث .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض ، فتح الباري : (٤٦٣/١١) .

الكوثر ، فمن هذه الأحاديث ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس ، أن الرسول ﷺ حين أنزلت عليه ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[1] قال : « أتدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر وعدنيه الله عز وجل ، عليه خير كثير » .

وساق حديث أنس عند أحمد في مسنده عن الرسول ﷺ قال : « أعطيت الكوثر ، فإذا نهر يجري على ظهر الأرض ، حافتاه قباب اللؤلؤ ، ليس مسقوفا ، فضربت بيدي إلى تربته ، فإذا تربته مسك أذفر ، وحصباؤه اللؤلؤ » .

وفي رواية أخرى في المسند عن أنس يرفعه : « هو نهر أعطانيه الله في الجنة ، ترابه مسك ، ماؤه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، ترده طيور أعناقها مثل أعناق الجزور » .

وقد ساق الحافظ ابن كثير روايات أخرى كثيرة في الموضوع فارجع إليه إن شئت المزيد[2] .

وأنهار الجنة ليست ماء فحسب ، بل منها الماء ، ومنها اللبن ، ومنها الخمر ، ومنها العسل المصفى .

قال تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[3] .

---

(١) سورة الكوثر : ١

(٢) النهاية لابن كثير : (٢٤٦/٢) .

(٣) سورة محمد : ١٥ .

وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن حكيم بن معاوية (وهو جدّ بهز بن حكيم) أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة بحر العسل ، وبحر الخمر ، وبحر اللبن ، وبحر الماء ، ثم تنشق الأنهار بعد »[1] .

فأنهار الجنة تنشق من تلك البحار التي ذكرها الرسول ﷺ وأخبرنا الرسول ﷺ عن نهر يسمى بارق يكون على باب الجنة ، ويكون الشهداء في البرزخ عند هذا النهر ، ففي مسند أحمد ، ومعجم الطبراني ، ومستدرك الحاكم عن ابن عباس بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ، في قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا »[2] .

---

(١) جامع الأصول : (١٠/٥٠٧) ، وقال المحقق : رواه الترمذي في صفة أنهار الجنة ، ورواه أيضا الدارمي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وهو كما قال .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٣/٢٣٥) ، ورقمه : ٣٦٣٦ .

المبحث السادس

عيون الجنة

في الجنة عيون كثيرة مختلفة الطعوم والمشارب ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾(١) ، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾(٢) ، وقال في وصف الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف ربه ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾(٣) . وقال في وصف الجنتين اللتين دونهما ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾(٤) .

وفي الجنة عينان يشرب المقربون ماءهما صرفا غير مخلوط ، ويشرب منهما الأبرار الشراب مخلوطا ممزوجاً بغيره .

العين الأولى : عين الكافور قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾(٥) . فقد أخبر أن الأبرار يشربون ـ شرابهم ممزوجا من عين الكافور ، بينما عباد الله يشربونها خالصا .

العين الثانية : عين التسنيم ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ

---

(١) سورة الحجر : ٤٥ .
(٢) سورة المرسلات : ٤١ .
(٣) سورة الرحمن : ٥٠ .
(٤) سورة الرحمن : ٦٦ .
(٥) سورة الانسان : ٥ ـ ٦ .

مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن
تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾(١) .

ومن عيون الجنة عين تسمى السلسبيل ، قال تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا
كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾(٢) ولعل هذه هي العين
الأولى نفسها .

---

(١) سورة المطففين : ٢٢ ـ ٢٨ .

(٢) سورة الانسان : ١٧ ـ ١٨ .

المبحث السابع
قصور الجنة وخيامها

يبني الله لأهل الجنة في الجنة مساكن طيبة حسنة كما قال تعالى : ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾[1] . وقد سمى الله في مواضع من كتابه هذه المساكن بالغرفات ، قال تعالى : ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[2] ، وقال في جزاء عباد الرحمن : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾[3] ، وقال تعالى واصفا هذه الغرفات : ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾[4] ، قال ابن كثير : « أخبر عز وجل عن عباده السعداء أن لهم غرفا في الجنة وهي القصور أي الشاهقة ، ﴿ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾[5] طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات . وقد وصف لنا الرسول ﷺ هذه القصور ، ففي الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه عن أبي مالك الأشعري والترمذي عن علّي أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام »[6] .

(١) سورة التوبة : ٧٢ .
(٢) سورة سبأ : ٣٧ .
(٣) سورة الفرقان : ٧٥ .
(٤) سورة الزمر : ٢٠ .
(٥) سورة الزمر : ٢٠ .
(٦) صحيح الجامع الصغير : (٢/٢٢٠) ، ورقمه : ٢١١٩ .

وقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن في الجنة خياما ، قال تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾[1] .

وهذه الخيام خيام عجيبة ، فهي من لؤلؤ ، بل هي من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها في السماء ستون ميلا ، وفي بعض الروايات عرضها ستون ميلا ، ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : « الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ثلاثون ميلا ، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون » ، قال أبو عبدالصمد والحارث عن أبي عمران : « ستون ميلا »[2] .

ورواه مسلم عن عبدالله بن قيس عن النبي ﷺ قال : « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلا ، للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن ، فلا يرى بعضهم بعضا » .

وفي رواية عند مسلم : « في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهل ، ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن »[3] .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن صفات قصور بعض أزواجه وبعض أصحابه ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، قال : أتى جبريل النبي ﷺ فقال : « يارسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام وطعام ، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب »[4] .

---

(١) سورة الرحمن : ٧٢ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة الجنة ، فتح الباري : (٦/٣١٨) .
(٣) رواه مسلم كتاب الجنة ، باب في صفة خيام الجنة : (٤/٢١٨٢) ؛ ورقمه : ٢٨٣٨ .
(٤) مشكاة المصابيح : (٣/٢٦٦) .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة وسمعت خشفة ، فقلت : من هذا ؟ فقال : هذا بلال ، ورأيت قصرا بفنائه جارية ، فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب ، فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتك » ، فقال عمر : بأبي أنت وأمي يارسول الله : أعليك أغار ؟ »[1].

وقد أخبرنا الرسول بالطريق الذي يحصل به المؤمن على مزيد من البيوت في الجنة ، فالذي يبني لله مسجدا يبني الله له بيتا في الجنة ، ففي مسند أحمد عن ابن عباس بإسناد صحيح أن الرسول ﷺ قال : « من بنى لله مسجدا ، ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى الله له بيتا في الجنة »[2].

وفي مسند أحمد وصحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي وسنن ابن ماجه ، عن عثمان أن رسول الله ﷺ قال : « من بنى مسجدا ، يبتغي به وجه الله ، بنى الله له مثله في الجنة »[3].

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد وسنن أبي داود ، وسنن النسائي وسنن ابن ماجه عن أم حبيبة أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى في اليوم والليلة اثنتي عشرة ركعة تطوعا ، بنى الله له بيتا في الجنة »[4].

---

(١) مشكاة المصابيح : (٣/٢٢٦) .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (٥/٢٦٥) ، ورقم الحديث : ٦٠٠٥ .
(٣) المصدر السابق ، ورقمه : ٦٠٠٧ .
(٤) صحيح الجامع : (٥/٣١٦) ، ورقمه : ٦٢٣٤ .

المبحث الثامن

نور الجنة

قال القرطبي : « قال العلماء : ليس في الجنة ليل ونهار ، وإنما هم في نور دائم أبدا ، وإنما يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب ، ذكره أبو الفرج بن الجوزي »[1] .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[2] : « أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلا ونهارا ، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار »[3] .

ويقول ابن تيمية في هذا الموضوع : « والجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، ولا ليل ولا نهار ، لكن تعرف البكرة والعشية بنور يظهر من قبل العرش »[4] .

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٥٠٤ .
(٢) سورة مريم : ٦٢ ـ ٦٣ .
(٣) تفسير ابن كثير : (٤٧١/٤) .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : (٣١٢/٤) .

المبحث التاسع

ريح الجنة

للجنة رائحة عبقة زكية تملأ جنباتها ، وهذه الرائحة يجدها المؤمنون من مسافات شاسعة ، ففي مسند أحمد وسنن النسائي وسنن ابن ماجه ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح أن الرسول ﷺ قال : « من قتل رجلا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاما »[1] .

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد ، وسنن النسائي ، وسنن ابن ماجه عن عبدالله بن عمرو أن الرسول ﷺ قال : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما »[2] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٣٥/٥) ، ورقم الحديث : ٦٣٢٤ .
(٢) صحيح الجامع : (٣٣٧/٥) ، ورقم الحديث : ٦٣٣٣ .

المبحث العاشر

أشجار الجنة وثمارها

المطلب الأول

أشجارها وثمارها كثيرة متنوعة دائمة

أشجار الجنة كثيرة طيبة متنوعة ، وقد أخبرنا الحق أن في الجنة أشجار العنب والنخل والرمان ، كما فيها أشجار السدر والطلح، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾(١) ، ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾(٢) ، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾(٣) ، والسدر هو شجر النبق الشائك ، ولكنه في الجنة مخضود شوكه أي منزوع. والطلح : شجر من شجر الحجاز من نوع العضاه فيه شوك ، ولكنه في الجنة منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة .

وهذا الذي ذكره القرآن من أشجار الجنان شيء قليل مما تحويه تلك الجنـان ، ولذا قال الحق : ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾(٤) ، ولكثرتها فإن أهلها يَدْعون منها بما يريدون ، ويتخيرون منها ما يشتهون ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾(٥) ، ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾(٦) ، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ

---

(١) سورة النبأ : ٣١ ـ ٣٢ .

(٢) سورة الرحمن : ٦٩ .

(٣) سورة الواقعة : ٢٧ ـ ٣٢ .

(٤) سورة الرحمن : ٥٣ .

(٥) سورة ص : ٥ .

(٦) سورة الواقعة : ٢٠ .

وَعُيُونٍ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[١] ، وبالجملة فإن في الجنة من أنواع الثمار والنعيم كل ما تشتهيه النفوس وتلذه العيون ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾[٢].

وقد قال ابن كثير كلاماً لطيفا دلل فيه على عظيم ثمار الجنة ، إذ استنتج أن الله نبه بالقليل على الكثير ، والهين على العظيم عندما ذكر السدر والطلح ، قال : « وإذا كان السدر الذي في الدنيا لا يثمر إلا ثمرة ضعيفة وهو النبق ، وشوكه كثير ، والطلح الذي لا يراد منه في الدنيا إلا الظل ، يكونان في الجنة في غاية من كثرة الثمار وحسنها ، حتى أن الثمرة الواحدة منها تتفتق عن سبعين نوعا من الطعوم ، والألوان ، التي يشبه بعضها بعضا ، فما ظنك بثمار الأشجار ، التي تكون في الدنيا حسنة الثمار ، كالتفاح ، والنخل ، والعنب ، وغير ذلك ؟ وما ظنك بأنواع الرياحين ، والأزاهير ؟ وبالجملة فإن فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نسأل الله منها من فضله »[٣] .

وأشجار الجنة دائمة العطاء ، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت ، وفصل دون فصل ، بل هي دائمة الإثمار والظلال ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[٤] ، ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾[٥] ، أي دائمة مستمرة ، وهي مع دوامها لا يمنع عنها أهل الجنة . ومن لطائف ما يجده أهل الجنة عندما تأتيهم ثمارها أنهم يجدونها تتشابه في

---

(١) سورة المرسلات : ٤١ - ٤٢ .
(٢) سورة الزخرف : ٧٢ .
(٣) النهاية لابن كثير : (٢/٢٦٢) .
(٤) سورة الرعد : ٣٥ .
(٥) سورة الواقعة : ٣٣ - ٣٤ .

المظهر ، ولكنها تختلف في المخبر ، ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾[1] .

وأشجار الجنة ذات فروع وأغصان باسقة نامية ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾[2] ، وهي شديدة الخضرة : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾[3] ، ولا توصف الجنة بأنها مدهامة إلا إذا كانت أشجارها مائلة إلى السواد من شدة خضرتها ، واشتباك أشجارها .

أمّا ثمار تلك الأشجار فإنها قريبة دانية مذللة ينالها أهل الجنة بيسر وسهولة ، ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[4] ، ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾[5] .

أما ظلها فكما قال تعالى : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[6] ، ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾[7] ، ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ﴾[8] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥ .
(٢) سورة الرحمن : ٤٧ ـ ٤٩ .
(٣) سورة الرحمن : ٦٣ ـ ٦٥ .
(٤) سورة الرحمن : ٥٥ .
(٥) سورة الإنسان : ١٤ .
(٦) سورة النساء : ٥٦ .
(٧) سورة الواقعة : ٣٠ .
(٨) سورة المرسلات : ٤١ .

المطلب الثاني
وصف بعض شجر الجنة

حدثنا الرسول ﷺ عن بعض شجر الجنة حديثا عجبا ينبيك عن خلق بديع هائل يسبح الخيال في تقديره والتعرف عليه طويلا ، ونحن نسوق لك بعض ما حدثنا الرسول ﷺ به .

١ ـ الشجرة التي يسير الراكب في ظلها مائة عام :

هذه شجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقها ، وقد بين الرسول ﷺ عظم هذه الشجرة بأن أخبر أن الراكب لفرس من الخيل التي تعد للسباق يحتاج إلى مائة عام حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه ، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « إن في الجنة لشجرة[1] يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام وما يقطعها »[2] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾[3] »[4] .

ورواه مسلم عن أبي هريرة وسهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها »[5] .

---

(١) في صحيح مسلم : شجرة .

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة ، فتح الباري : (٤١٦/١١) ورواه مسلم في كتاب الجنة ؛ باب إن في الجنة شجرة : (٢١٧٦/٢) ، ورقم الحديث : ٢٨٢٨ .

(٣) سورة الواقعة : ٣٠ .

(٤) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٣١٩/٦) .

(٥) رواه مسلم في كتاب الجنة ، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام (٢١٧٥/٢) ، ورقم الحديث : ٢٨٢٦ ، ٢٨٢٧ .

٢ ـ سدرة المنتهى :

وهذه الشجرة ذكرها الحق في محكم التنزيل ، وأخبر الحق أن رسولنا محمدا ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عندها ، وأن هذه الشجرة عند جنة المأوى ، كما أعلمنا أنه قد غشيها ما غشيها مما لا يعلمه إلا الله عندما رآها الرسول ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[1] . وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن هذه الشجرة بشيء مما رآه ، « ثم رفعت لي سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة . قال : (أي جبريل) هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار ، نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، قلت : ما هذان ياجبريل ؟ قال : أمّا الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات » . رواه البخاري ومسلم[2] .

وفي الصحيحين أيضا : « ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى ، ونبقها مثل قلال هجر ، وورقها مثل آذان الفيلة ، تكاد الورقة تغطي هذه الأمة . فغشيها ألوان لا أدري ما هي ، ثم أدخلت الجنة ، فإذا فيها جنابـذ اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك »[3] .

٣ ـ شجرة طوبى :

وهذه شجرة عظيمة كبيرة تصنع ثياب أهل الجنة ، ففي مسند أحمد ، وتفسير ابن جرير ، وصحيح ابن حبان عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ

---

(١) سورة النجم : ١٤ ـ ١٧ .
(٢) صحيح الجامع : (٣/١٨) ، ورقمه : ٢٨٦١ ، وعزاه إلى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٤/٨٢) ، وعزاه إلى البخاري ومسلم . ورقمه : ٤٠٧٥ .

قال : « طوبى شجرة في الجنة ، مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[1] .

وقد دل على أن ثياب أهل الجنة تشقق عنها ثمار الجنة ـ الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يارسول الله ، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة خلقا تخلق ، أم نسجا تنسج ؟ فضحك بعض القوم ، فقال رسول الله ﷺ : « ومم تضحكون ، مِنْ جاهل سأل عالما ؟ ثم أكب رسول الله ﷺ ، ثم قال : أين السائل ؟ قال : هو ذا أنا يارسول الله ، قال : « لا ، بل تشقق عنها ثمر الجنة ، ثلاث مرات »[2] .

المطلب الثالث
سيد ريحان الجنة

أخبرنا الله أن في الجنة ريحانا ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾[3] ، وأخبرنا الرسول ﷺ أن سيد ريحان أهل الجنة الحناء ، ففي معجم الطبراني الكبير بإسناد صحيح على شرط الشيخين عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « سيد ريحان الجنة الحناء »[4] .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٦٣٩/٤) ، ورقم الحديث : ١٩٨٥ ، والحديث إسناده حسن .
(٢) المصدر السابق : (٦٤٠/٤) .
(٣) الواقعة : ٨٩ .
(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٠٧/٣) ، ورقمه : ١٤٢٠ .

المطلب الرابع
سيقان أشجار الجنة من ذهب

ومن عجيب ما أخبرنا به الرسول ﷺ أن سيقان أشجار الجنة من الذهب ، ففي سنن الترمذي ، وصحيح ابن حبان ، وسنن البيهقي ، بإسناد صحيح ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب »(١) .

المطلب الخامس
كيف يكثر المؤمن حظه من أشجار الجنة ؟

طلب خليل الرحمن أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام من نبينا محمد ﷺ في ليلة الإسراء أن يبلغ أمته السلام وأن يخبرهم بالطريقة التي يستطيعون بها تكثير حظهم من أشجار الجنة ، فقد روى الترمذي بإسناد حسن عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال : يامحمد ، أقرىء أمتك أن الجنة أرض طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »(٢) .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (٥/١٥٠) ، قال ابن كثير في النهاية : (٢/٢٥٤) ، رواه الترمذي : وقال : حسن صحيح .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٥/٣٤) . ورقم الحديث : ٥٠٢٨ .

المبحث الحادي عشر
دواب الجنة وطيورها

في الجنة من الطيور والدواب مالا يعلمه إلا الله تعالى ، قال تعالى فيما يناله أهل الجنة من النعيم ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ ﴾[1] ، وفي سنن الترمذي عن أنس قال : سئل رسول الله ﷺ ما الكوثر ؟ قال : « ذاك نهر أعطانيه الله ـ يعني في الجنة ـ أشدُّ بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر[2] » . قال عمر إن هذه لَنَاعِمة ، قال رسول الله ﷺ : « أَكَلَتُها أنعم منها »[3] .

وأخرج أبو نعيم في الحلية ، والحاكم في مستدركه عن ابن مسعود قال : « جاء رجل بناقة مخطومة ، فقال : يارسول الله ، هذه الناقة في سبيل الله . فقال : « لك بها سبعمائه ناقة مخطومة[4] في الجنة » . وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، ووافقهما الشيخ ناصر الدين الألباني[5] . ورواه مسلم في صحيحه عن أبي مسعود الأنصاري ، قال : جاء رجل بناقة مخطومة ، فقال : هذه في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة » رواه مسلم[6] .

---

(١) سورة الواقعة : ٢١ ـ ٢٢ .

(٢) الجزر : الجمال .

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/٩١) ، قال المحقق : رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب ، قلت (الشيخ ناصر) : سنده حسن .

(٤) مخطومة : فيها خطام وهو قريب من الزمام .

(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢/٢٢٨) ، ورقم الحديث : ٦٣٤ .

(٦) مشكاة المصابيح : (٢/٣٥٠) ، ورقمه : ٣٧٩٩ .

الفصل الرابع

أصحاب الجنة

المبحث الأول

الأعمال التي استحقوا بها الجنة

أصحاب الجنة هم المؤمنون الموحدون، فكل من أشرك بالله أو كفر به، أو كذب بأصل من أصول الإيمان فإنه يحرم من الجنان، ويكون في النيران .

والقرآن يذكر كثيراً أن أصحاب الجنة هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات ، وفي بعض الأحيان يفصل الأعمال الصالحة التي يستحق بها صاحبها الجنة .

ومن المواضع التي نص القرآن على استحقاق أهل الجنة الجنة بالإيمان والأعمال الصالحة قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾(1) . وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ

(1) سورة البقرة : ٢٥

أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾(١). وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٢). وقوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٣). وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٤).

وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾(٥).

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾(٦). وفي بعض الأحيان يذكر أنهم استحقوا الجنة لتحقيقهم أمراً من أمور الإيمان أو عملاً صالحاً، وقد يُفصل في الأعمال الصالحة، ويُطيل في ذلك .

ففي بعض الأحيان يذكر أنهم استحقوا الجنة بالإيمان والإسلام ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾(٧).

---

(١) سورة النساء : ٥٦
(٢) سورة الأعراف : ٤١
(٣) سورة التوبة : ٩
(٤) سورة يونس : ٩ ـ ١٠
(٥) سورة الكهف : ٣٠ ـ ٣١
(٦) سورة طه : ٧٥ ـ ٧٦
(٧) سورة الزخرف : ٦٨ ـ ٧٠ .

وأحيانا يذكر أنهم استحقوها لأنهم أخلصوا دينهم لله ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[1].

وأحياناً يذكر استحقاقهم لها لقوة ارتباطهم بالله ورغبتهم إليه وعبادتهم له ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

ومن الأعمال الصبر والتوكل : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[3].

ومنها الاستقامة على الإيمان : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[4]. ومنها الإخبات إلى الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[5]. ومن ذلك الخوف من الله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[6]. ومن ذلك بغض الكفرة المشركين، وعدم موادتهم ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ

---

(١) سورة الصافات : ٤٠

(٢) سورة السجدة : ١٥ ـ ١٨

(٣) سورة العنكبوت : ٥٨ ـ ٥٩

(٤) سورة الأحقاف : ١٣

(٥) سورة هود : ٢٣

(٦) سورة الرحمن : ٤٧

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾(١) .

وفي بعض الأحيان تفصل الآيات في ذكر الأعمال الصالحة التي يستحق بها أصحابها الجنة تفصيلاً كثيراً، فذكر في سورة الرعد أنهم استحقوها باعتقادهم أن ما أنزل على الرسول ﷺ هو الحق، وبوفائهم بالعهود، وعدم نقضهم الميثاق، ووصلهم ما أمر الله بوصله، وخشيتهم لله، وخوفهم من سوء الحساب، وصبرهم لله، وإقام الصلاة، والانفاق سراً وعلانية، ودرئهم بالحسنة السيئة ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾(٢).

وفي مطلع سورة المؤمنين حكم أن الفلاح إنما هو للمؤمنين، ثم بين الأعمال التي تؤهلهم للفلاح، وأعلمنا أن فلاحهم إنما يكون بإدخالهم الفردوس خالدين فيها أبدا . ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾

---

(١) سورة المجادلة : ٢٢

(٢) سورة الرعد : ٢١ ـ ٢٦

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن ثلاثة أعمال عظيمة يستحق بها أصحابها الجنة، فقد روى مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : « . . . وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»[2] .

---

(١) سورة المؤمنون : ١ ـ ١١ .

(٢) رواه مسلم، انظر شرح النووي على مسلم : (١٧/١٩٨) .

المبحث الثاني

طريق الجنة شاق

الجنة درجة عالية، والصعود إلى العلياء يحتاج إلى جهد كبير، وطريق الجنة فيه مخالفة لأهواء النفوس ومحبوباتها، وهذا يحتاج إلى عزيمة ماضية، وإرادة قوية، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره» ولمسلم حفت بدل حجبت[1].

وفي سنن النسائي والترمذي وأبي داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفها بالمكاره، فقال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد»[2].

وقد علق النووي في «شرحه على مسلم» على الحديث الأول قائلاً: «هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ من التمثيل الحسن، ومعناه لا يوصل الجنة إلا بارتكاب المكاره، والنار بالشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما، فمن هتك الحجاب وصل المحجوب، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات، فأمّا المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادة،

---

(١) جامع الأصول: (٥٢١/١٠) ورقمه: ٨٠٦٩

(٢) جامع الأصول: (٥٢٠/١٠) ورقمه: ٨٠٦٨، وقال الترمذي فيه: حديث حسن صحيح غريب.

والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها، وكظم الغيظ، والعفو، والحلم، والصدقة، والإحسان الى المسيء، والصبر عن الشهوات، ونحو ذلك»[1].

---

(١) شرح النووي على مسلم : (١٧/ ١٦٥)

المبحث الثالث

أهل الجنة يرثون نصيب أهل النار في الجنة

جعل الله لكل واحد من بني آدم منزلين : منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار، ثم إن من كتب له الشقاوة من أهل الكفر والشرك يرثون منازل أهل الجنة التي كانت لهم في النار، والذين كتب لهم السعادة من أهل الجنة يرثون منازل أهل النار التي كانت لهم في الجنة، قال تعالى في حق المؤمنين المفلحين بعد أن ذكر أعمالهم التي تدخلهم الجنة : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : «قال ابن أبي حاتم ـ وساق الإسناد الى أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأمّا المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار» وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك ، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له ، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى» وفي لفظ له : قال رسول الله ﷺ : «إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل

---

(١) سورة المؤمنون : ١٠ ـ ١١

مسلم يهودياً أونصرانياً، فيقال : هذا فكاك من النار» . . .وهذا الحديث كقوله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[1]. وقوله : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] . فهم يرثون نصيب الكفار في الجنان .[3]

---

(١) سورة مريم : ٦٣

(٢) سورة الزخرف : ٧٢

(٣) تفسير ابن كثير : (١٠/٥)

المبحث الرابع
الضعفاء أكثر أهل الجنة

أكثر من يدخل الجنة الضعفاء الذين لا يأبه الناس لهم، ولكنهم عندالله عظماء، لاخباتهم لربهم، وتذللهم له، وقيامهم بحق العبودية لله، روى البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ قالوا: بلى، قال: كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره»[1].

قال النووي في شرحه للحديث: «ومعناه يستضعفه الناس، ويحتقرونه، ويتجبرون عليه، لضعف حاله في الدنيا، والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء... وليس المراد الاستيعاب»[2].

وفي الصحيحين ومسند أحمد عن أسامة بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «قمت على باب الجنة، فكان عامّة من دخلها المساكين، وأصحاب الجدّ محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»[3].

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلعت في الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»[4].

---

(١) جامع الأصول: (١٠/٥٣٥)
(٢) النووي على مسلم: (١٧/١٨٧)
(٣) مشكاة المصابيح (٢/٦٦٣)، ورقمه: ٥٢٣٣
(٤) مشكاة المصابيح: (٢/٦٦٣)، ورقمه: ٥٢٣٤

المَبحث الخامس
هَل الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟

تخاصم الرجال والنساء في هذا والصحابة أحياء، ففي صحيح مسلم عن ابن سيرين قال: اختصم الرجال والنساء: أيهم أكثر في الجنة ؟ وفي رواية : إمّا تفاخروا، وإمّا تذاكروا : الرجال في الجنة أكثر أم النساء ؟ فسألوا أبا هريرة، فاحتج أبوهريرة على أنَّ النساء في الجنَّة أكثر بقول الرسول ﷺ «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوأ كوكب درّى في السماء، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم ، وما في الجنة أعزب»[1] .

والحديث واضح الدلالة على أن النساء في الجنة أكثر من الرجال، وقد احتج بعضهم على أن الرجال أكثر بحديث: «رأيتكن أكثر أهل النار». والجواب أنه لا يلزم من كونهنّ أكثر أهل النار أن يكن أقل ساكني الجنة كما يقول ابن حجر العسقلاني[2]، فيكون الجمع بين الحديثين أن النساء أكثر أهل النار وأكثر أهل الجنة، وبذلك يكن أكثر من الرجال وجوداً في الخلق. ويمكن أن يقال : إن حديث أبي هريرة يدل على أن نوع النساء في الجنة أكثر سوءاً كن من نساء الدنيا أو من الحور العين، والسؤال هو : أيهما أكثر في الجنة: رجال أهل الدنيا أم نساؤها ؟ وقد وفَّق القرطبي بين النصين بأن النساء يكن أكثر أهل النار قبل الشفاعة وخروج

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب أول زمرة تدخل الجنة ؛ (٢١٧٩/٤) ، ورقم الحديث : ٢٨٣٤ .

(٢)١) فتح الباري : (٣٢٥/٦)

عصاة الموحدين من النار،فإذا خرجوا منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين كن أكثر أهل الجنة[1].

ويدل على قلة النساء في الجنة ما رواه أحمد وأبويعلي عن عمرو بن العاص قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ في هذا الشعب إذ قال : انظروا هل ترون شيئاً ؟ فقلنا : نرى غربانا فيها غراب أعصم، أحمر المنقار والرجلين، فقال رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة من النساء إلا من كان منهن مثل هذا الغراب في الغربان»[2].

---

(١) راجع التذكرة للقرطبي : ص ٤٧٥

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٦٦/٤)، ورقمه: ١٨٥١، وصحح الشيخ اسناده .

المبحث السادس
الذين توفوا قبل التكليف

المطلب الأول
أطفال المؤمنين

أطفال المؤمنين الذين لم يبلغوا الحلم هم في الجنة إن شاء الله تعالى بفضل الله ورحمته . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[1] . واستدلَّ علي بن أبي طالب بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[2] . على أن أطفال المؤمنين في الجنة ، لأنهم لم يكتسبوا فيرتهنوا بكسبهم[3] . وقد عقد البخاري في صحيحه بابا عنون له بقوله : «باب فضل من مات له ولد فاحتسب» . وساق فيه حديث أنس رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «ما من الناس مسلم يتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» . وحديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النساء قلن للنبي ﷺ اجعل لنا يوماً ، فوعظهنَّ ، وقال : أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا لها حجاباً من النار. قالت امرأة : واثنان ؟ قال : واثنان»[4].

---

(١) سورة الطور: ٢١

(٢) سورة المدثر: ٣٨

(٣) التذكرة للقرطبي ص: ٥١١ ، وعزاه إلى أبي عمرو في التمهيد والاستذكار وأبي عبدالله الترمذي في نوادر الأصول .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب فضل من مات له ولد فاحتسب ، فتح الباري : (١١٨/٣) .

وعقد باباً آخر عنوانه : باب ما قيل في أولاد المشركين» وساق فيه حديث أنس السابق ، وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كان له حجاباً من النار أو دخل الجنة» . وحديث البراء رضي الله عنه قال : «لما توفي إبراهيم عليه السلام قال رسول الله ﷺ : «إن له مرضعاً في الجنة»[1] .

ووجه الدلالة في الأحاديث التي ساقها البخاري على أن أطفال المؤمنين في الجنة ـ كما يقول ـ ابن حجر ـ «أن من يكون سبباً في حجب النار عن أبويه أولى بأن يحجب هو . لأنه أصل الرحمة وسببها »[2] .

وقد جاءت نصوص صريحة في إدخال ذرية المؤمنين الجنة ، فمن ذلك حديث علي مرفوعاً عند عبدالله بن أحمد في زيادات المسند «إن المسلمين وأولادهم في الجنة»[3] .

وحديث أبي هريرة عند أحمد في مسنده مرفوعاً «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهما الله وإياهم بفضل رحمته الجنة»[4] .

وروى مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «صغارهم دعاميص[5] الجنة ، يتلقى أحدهم أباه أو قال أبويه ،

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المسلمين ، فتح الباري : (٢٤٤/٣) وحديث أبي هريرة رواه معلقاً .
(٢) فتح الباري : (٢٤٤/٣) .
(٣) فتح الباري : (٢٤٥/٣)
(٤) فتح الباري : (٢٤٥/٣)
(٥) يراد بالدعموص هنا : الآذن على الملوك المتصرف بين أيديهم .

فيأخذ بثوبه ، أو قال بيده ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى ، أو قال: فلا ينتهي حتى يدخله الله وإياه الجنة»[1].

وروى الإمام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «ذراري المسلمين في الجنة تكفلهم إبراهيم ﷺ»[2] .

وروى أبو نعيم في أخبار أصبهان ، والديلمي ، وابن عساكر عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «أطفال المؤمنين في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة ، حتى يدفعوهم إلى آبائهم يوم القيامة»[3].

وقد نقل النووي إجماع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين في الجنة ، ونَقَلَ عنه أنه توقف بعضهم في ذلك[4] .

وحكى القرطبي التوقف عن حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وإسحاق بن راهوية[5] .

قال النووي : «توقف فيه بعضهم لحديث عائشة ، يعني الذي أخرجه مسلم بلفظ : «توفى صبي من الأنصار ، فقلت: طوبى له لم يعمل سوءًا ولم يدركه ، فقال النبي ﷺ : «أو غير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق للجنة أهلاً . . » .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١/١٧٤) ، ورقم الحديث: ٤٣٢ .
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/١٥٦) ، ورقم الحديث: ٦٠٣ ، وذكر المحقق أن الحاكم صحح إسناده ووافقه الذهبي ، إلا أن الشيخ ناصر قال : هو حسن فقط .
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٣/٤٥١) ، ورقمه: ١٤٦٧ .
(٤) فتح الباري: (٣/٢٤٤)
(٥) التذكرة للقرطبي: (ص٥١١)

قال : والجواب عنه أنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير دليل ، أو قال ذلك قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة»[1] .

أقول: لعل الصواب أن الحديث يشير إلى أنه لا يجوز أن نجزم لواحد بعينه أنه من أهل الجنة ، وإن كنا نشهد لهم مطلقاً بالجنة . والأمر الثاني هو عدم الهجوم على ذلك كي لا يتجرأ الناس على مثل هذا كما هو حاصل في زماننا ، إذ يزعم نعاة الموتى أن ميتهم في الجنة ، وإن كان أفسق الناس .

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : « لا يشهد لكل معين من أطفال المؤمنين بأنه في الجنة ، وإن شهد لهم مطلقاً »[2] .

المطلب الثاني
أطفال المشركين

بَوّب البخاري في صحيحه باباً بعنوان «باب ما قيل في أولاد المشركين» وأورد فيه حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين ، فقال : الله إذخلقهم أعلم بما كانوا عاملين» .

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : «سئل النبي ﷺ عن ذراري المشركين ، فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين» .

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : كل مولود يولد

---

(١) فتح الباري : (٣/٢٤٤)
(٢) مجموعة فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٨١)

على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تنتج البهيمة ، هل ترى فيها جدعاء»[1] .

والبخاري رحمه الله تعالى ـ كما يقول ابن حجر ـ أشعر بهذه الترجمة أنه كان متوقفاً في أولاد المشركين ، وقد جزم بعد هذا في تفسير سورة الروم من صحيحه بما يدل على اختيار القول الصائر إلى أنهم في الجنة ، وقد رتب أيضاً أحاديث هذا الباب ترتيباً يشير إلى المذهب المختار ، فإنه صدره بالحديث الدال على التوقف ، ثم ثنى بالحديث المرجح لكونهم في الجنة ، ثم ثلث بالحديث المصرح بذلك في قوله في سياقه «وأما الصبيان حوله فأولاد الناس» قد أخرجه البخاري في التعبير بلفظ: «وأما الولدان الذين حوله فكل مولود يولد علَى الفطرة ، فقال بعض المسلمين : وأولاد المشركين ؟ فقال: وأولاد المشركين»[2].

قال ابن حجر : «ويؤيده ما رواه أبويعلي من حديث أنس مرفوعاً» سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم »إسناده حسن ، وَوَرَدَ تفسير «اللاهين» بأنهم الأطفال من حديث ابن عباس مرفوعاً أخرجه البزار. وأخرج أحمد من طريق خنساء بنت معاوية بن صريم عن عمتها قالت : «قلت : يا رسول الله ، مَنْ في الجنة ؟ قال : النبي في الجنة ، والشهيد في الجنة ، والمولود في الجنة» . وإسناده حسن[3] .

واحتجوا أيضاً بقوله ﷺ : « أطفال المشركين خدم أهل الجنة» رواه ابن منده في المعرفة ، وأبو نعيم في الحلية ، وأبويعلي في مسنده ، وحكم عليه الشيخ ناصر الدين الألباني بالصحة بمجموع طرقه[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ، فتح الباري : (٢٤٦/٣)
(٢) فتح الباري : (٢٤٦/٣)
(٣) فتح الباري : (٢٤٦/٣)
(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤٥٢/٣) ، ورقمه : ١٤٦٨

والقول بأنهم في الجنة هو قول جمع من أهل العلم ، وهو اختيار أبي الفرج بن الجوزي[1] ، وقال النووي في هذا المذهب : «وهو المذهب الصحيح المختار الذي صار إليه المحققون لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[2] ، واحتج بالأدلة التي ساقها البخاري وغيره[3] .

أقول : وهذا القول هو الذي رجحه القرطبي أيضاً، وقد وفق القرطبي بين النصوص التي يظهر منها التعارض في هذا الموضوع بأن الرسول ﷺ قال في أول الأمر هم مع آبائهم أي في النار ، ثم حصل منه توقف في ذلك ، فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، ثم أوحى إليه أنه لايعذب أحد بذنب غيره ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[4] فحكم بأنهم في الجنة[5] ، وذكر في ذلك حديثاً رواه عبدالرزاق ، ولكن الحديث ضعيف كما قال ابن حجر العسقلاني[6] .

ويشكل على هذا التوفيق الذي ذكره ابن حجر أن المسألة ليست من مسائل النظر والاجتهاد ، ولكنها مسألة غيبية لا يتكلم فيها إلا بوحي ، والله أعلم.

وقد يشكل على القول بأن أولاد المؤمنين والمشركين في الجنة ما ورد من نصوص دالة على أن الله علم أهل الجنة والنار أزلا ، وأن الملك عندما يزور الرحم يكتب رزق الجنين وأجله وشقاءه وسعادته ، وقد يقال في الجواب : إن من مات صغيراً قبل الاكتساب فإنه يكون مكتوباً من السعداء وهو في بطن أمة ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٧٢/٢٤) ، (٣٠٣/٤)

(٢) سورة الإسراء : ١٥

(٣) فتح الباري : (٢٤٧/٣)

(٤) سورة الإسراء : ١٥

(٥) التذكرة للقرطبي : ص ٥١٥

(٦) فتح الباري : (٢٤٧/٣)

وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى أنهم في مشيئة الله تعالى ، وهذا منقول عن حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، وإسحاق ، ونقله البيهقي في «الاعتقاد» عن الشافعي في حق أولاد الكفار خاصة ، قال ابن عبدالبر : وهو مقتضى صنيع مالك ، وليس عنده في هذا شيء منصوص ، إلا أن أصحابه صرحوا بأن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال الكفار خاصة في المشيئة ، والحجة فيه حديث : «الله أعلم بما كانوا عاملين»(١) .

وهذا القول حكاه أبوالحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة(٢) ، وهو اختيار شيخ الإسلام ، فقد اختار أن أطفال المشركين في مشيئة الله ، وانهم يمتحنون في يوم القيامة ، وعزا القول بذلك إلى أبي الحسن الأشعري والإمام أحمد ، قال شيخ الإسلام : «والصواب أن يقال فيهم : الله أعلم بما كانوا عاملين ، ولا يحكم لمعين منهم بجنة ولا نار ، وقد جاء في عدة أحاديث أنهم يوم القيامة يمتحنون في عرصات القيامة يؤمرون وينهون ، فمن أطاع دخل الجنة ، ومن عصى دخل النار ، وهذا هو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة(٣) .

وقال في موضع آخر : «أطفال المشركين الذين لم يكلفوا في الدنيا يكلفون في الآخرة ، كما وردت بذلك أحاديث متعددة ، وهو القول الذي حكاه أبوالحسن الأشعري في أطفال المشركين ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه سئل عنهم فقال : «الله أعلم بما كانوا عاملين»(٤) .

---

(١) فتح الباري : (٣/٢٤٦)
(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٨١ - ٤٠٤) ، (٢٤/٣٧٢)
(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٤/٣٧٢) ، ٤/٣٠٣)
(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٨١)

وقد ذكر ابن حجر أنهم يمتحنون في الآخرة بأن ترفع لهم نار، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن أبى عذب ، أخرجه البزار من حديث أنس وأبي سعيد ، وأخرجه الطبراني من حديث معاذ بن جبل ، وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون ، ومن في الفترة من طرق صحيحة ، وحكى البيهقي في «كتاب الاعتقاد» أنه المذهب الصحيح[1] .

ويدل لصحة هذا القول ما ورد في محكم القرآن في قصة العبدالصالح الذي رَحَلَ نبيُّ الله موسى إلى لقائه في مجمع البحرين ، فإنه قال مبيناً السر في قتله الغلام : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾[2] ، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ في الغلام الذي قتله الخضر « طبع يوم طبع كافراً ، ولو ترك لأرهق أبويه طغياناً وكفراً » قال ابن تيمية معقباً على الحديث : «يعني طبعه الله في أم الكتاب ، أي أثبته وكتبه كافراً ، أي انه إن عاش كفر بالفعل» .

وقد ضعف القرطبي هذا المذهب محتجاً بأن الآخرة دار جزاء لا ابتلاء ، ففي « التذكرة » قال المؤلف (يعني نفسه) : « ويضعفه (القول بامتحانهم في عرصات القيامة) من جهة المعنى أن الآخرة ليست بدار تكليف ، وإنما هي دار جزاء : ثواب وعقاب ، وقال الحليمي : وهذا الحديث ليس بثابت ، وهو مخالف لأصول المسلمين ، لأن الآخرة ليست بدار امتحان ، فإن المعرفة بالله تعالى فيها تكون ضرورة ، ولا محنة مع الضرورة »[3] .

وهذا الذي اعترض به من أن التكليف ينقطع بالموت غير صحيح ، وقد رد

---

(١) فتح الباري : (٢٤٦/٣)
(٢) سورة الكهف : ٨٠
(٣) التذكرة : ص ٥١٤

على هذا شيخ الإسلام ابن تيمية ، قال : «التكليف إنما ينقطع بدخول دار الجزاء وهي الجنة والنار ، وأما عرصات القيامة فيمتحنون فيها كما يمتحنون في البرزخ ، فيقال لأحدهم : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[1] ، وقد ثبت في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال : «يتجلى الله لعباده في الموقف ، إذا قيل ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، فيتبع المشركون آلهتهم ، ويبقى المؤمنون ، فيتجلى لهم الرب الحق في غير الصورة التي كانوا يعرفون ، فينكرونه ، ثم يتجلى لهم في الصورة التي يعرفون ، فيسجد له المؤمنون ، وتبقى ظهور المنافقين كقرون البقر ، فيريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون ، وذلك قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[2][3].

فالمحنة لا تتوقف إلا بدخول الجنة والنار ، وما ذكره القرطبي من أن المعرفة بالله في ذلك اليوم ضرورية صحيح ، إلا أن المحنة تكون بالأمر والنهي كما ورد في بعض النصوص أن الله يكلفهم في ذلك اليوم بالدخول في النار ، فالذي يطيع يكون من أهل السعادة ، والذي يعصي يكون من أهل الشقاء .

---

(١) سورة القلم : ٤٢

(٢) سورة القلم : ٤٢

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٧٢/٢٤) ، وانظر : (٣٠٩/١٧)

المبحث السابع
مقدار ما يدخل الجنة من هذه الأمة

يدخل من هذه الأمة الجنة جموع كثيرة الله أعلم بعددهم ، ففي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال : حدثني ابن عباس ، قال : قال النبي ﷺ : «عرضت عليَّ الأمم ، فأخذ النبيُّ يمرُّ معه الأمّة ، والنبيُّ يمرُّ معه النفر ، والنبيُّ يمرُّ معه العشرة ، والنبي يمرُّ معه الخمسة ، والنبيُّ يمرُّ وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب»[1] .

والسواد الأول الذي ظنه الرسول ﷺ أمته هم بنو إسرائيل ، كما في بعض الروايات في الصحيح« فرجوت أن تكون أمتي فقيل هذا موسى وقومه»[2] .

ولا شك أن أمة محمد ﷺ أكثر من بني إسرائيل ، ففي الحديث «فإذا سواد كثير» قال ابن حجر «في رواية سعيد بن منصور «عظيم» وزاد «فقيل لي : انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي أنظر إلى الأفق الآخر مثله »، وفي رواية ابن فضيل : «فإذا سواد قد ملأ الأفق ، فقيل لي : انظرها هنا ، وها هنا في آفاق السماء » وفي حديث ابن مسعود : « فإذا الأفق قد سدّ بوجوه الرجال » ،

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً ، فتح الباري : (١١/٤٠٦)
(٢) فتح الباري : (١١/٤٠٧)

وفي لفظ لأحمد : « فرأيت أمتي قد ملؤوا السهل والجبل ، فأعجبني كثرتهم وهيأتهم» ، فقيل : أرضيت يا محمد ؟ قلت : نعم يا رب »(١) .

وقد ورد في بعض الأحاديث أن مع كل ألف من السبعين ألفاً سبعين ألفاً ، وثلاث حثيات من حثيات الله ، ففي مسند أحمد ، وسنن الترمذي وابن ماجه عن أبي أمامة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ، ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفاً ،وثلاث حثيات من حثيات ربي »(٢) ، ولا شك أن الثلاث حثيات تدخل الجنة خلقاً كثيراً .

وقد كان رسولنا ﷺ يرجو أن تكون هذه الأمة نصف أهل الجنة ، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي سعيد الخدري عن الرسول ﷺ في ذكر بعث النار ، قال صلوات الله وسلامه عليه في آخره : « والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبرنا . فقال : « أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » ، فكبرنا . فقال : «أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبرنا . قال : « ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض ، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود »(٣) .

بل ورد في بعض الأحاديث أن هذه الأمة تبلغ ثلثي أهل الجنة ، ففي سنن الترمذي بإسناد حسن ، وسنن الدارمي ، و«البعث والنشور» للبيهقي عن بريدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها من هذه الأمة ، وأربعون من سائر الأمم»(٤) .

---

(١) فتح الباري : (٤٠٨/١١)

(٢) مشكاة المصابيح : (٦٤/٣) ، ورقمه : ٥٥٥٦ ، وقد حسنه الترمذي وصحح الشيخ ناصر إسناده .

(٣) مشكاة المصابيح : (٥٨/٣) ، ورقم الحديث : ٥٥٤١

(٤) مشكاة المصابيح : (٩٢/٣) ، ورقم الحديث : ٥٦٤٤

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «أنا أول شفيع في الجنة لم يصدّق نبي من الأنبياء ما صدقت ، وإن من الأنبياء نبيًّا ما صدقه من أمته إلا رجل واحد»[1] .

والسر في كثرة من آمن من هذه الأمة أن معجزة الرسول ﷺ الكبرى كانت وحياً متلواً يخاطب العقول والقلوب ، وهي معجزة باقية محفوظة إلى قيام الساعة ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :« ما من الأنبياء من نبيّ إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليَّ ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2] .

(١) مشكاة المصابيح : (١٢٤/٣) ، ورقم الحديث : ٥٧٤٤

(٢) مشكاة المصابيح : (١٢٤/٣) ، ورقم الحديث : ٥٧٤٦ .

المبحث الثامن
سادة أهل الجنة

المطلب الأول
سيدا كهول أهل الجنة

روى جمع من الصحابة منهم علي بن أبي طالب ، وأنس بن مالك ، وأبو جحيفة ، وجابر بن عبدالله ، وأبو سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال : « أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين » .

وقد ذكر الشيخ ناصر الدين الألباني طرقه في كتب السنة ، وقال في خاتمة تخريجه للحديث : « وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه صحيح بلا ريب ، لأن بعض طرقه حسن لذاته ، وبعضه يستشهد به . . »[1] .

المطلب الثاني
سيدا شباب أهل الجنة

أخبرنا الرسول ﷺ أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، ثبت ذلك من طرق كثيرة تبلغ درجة التواتر ، وقد جمع الشيخ ناصر الدين الألباني طرق الحديث في كتابه القيم « سلسلة الأحاديث الصحيحة » .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٨٧/١٢) ، ورقمه : ٨٢٤ .

فقد رواه الترمذي والحاكم والطبراني وأحمد وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

ورواه الترمذي وابن حبان وأحمد والطبراني وغيرهم عن حذيفة رضي الله عنه قال أتيت النبي ﷺ ، فصليت معه المغرب ، ثم قام يصلي حتى العشاء ، ثم خرج ، فأتبعته ، فقال : « عرض لي ملك استأذن ربه أن يسلم عليَّ ويبشرني في أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

وأخرجه الحاكم وابن عساكر عن عبدالله بن عمر أن الرسول ﷺ قال: « ابناي هذان سيدا شباب أهل الجنة »[1] .

المطلب الثالث
سيدات نساء أهل الجنة

السيد الحق هو الذي يثني عليه ربه ويشهد له ، والسيدة الفاضلة هي التي يرضى عنها ربها ، ويتقبلها بقبول حسن ، وأفضل النساء هن اللواتي يَحُزْن جنات النعيم ، ونساء أهل الجنة يتفاضلن ، وسيدات نساء أهل الجنة : خديجة ، وفاطمة ، ومريم ، وآسية ، ففي مسند أحمد ، ومشكل الآثار للطحاوي ، ومستدرك الحاكم ، بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة أخطط ، ثم قال : « تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون »[2] .

---

(١) وإن أحببت أن تقف على رواته ، ومخرجيه من كتب السنة ، فارجع إلى سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤٣٨/٢) ، ورقم الحديث : ٧٩٧ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (١٣/٤) ، ورقم الحديث : ١٥٠٨ .

ومريم وخديجة أفضل الأربع ، ففي صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال : « خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة »(١) .

ومريم هي سيدة النساء الأولى وأفضل النساء على الإطلاق ، فقد روى الطبراني بإسناد صحيح على شرط مسلم عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم ابنة عمران : فاطمة ، وخديجة ، وآسية امرأة فرعون »(٢) . وكونها أفضل النساء على الإطلاق صرح به القرآن : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣) ، وكيف لا تكون كذلك وقد صرح الحق بأنه تقبلها ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾(٤) .

وهؤلاء الأربع نماذج رائعة للنساء الكاملات الصالحات ، فمريم ابنة عمران أثنى عليها ربها في قوله ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾(٥) .

وخديجة الصديقة التي آمنت بالرسول ﷺ من غير تردد ، وثبتته ، وآسته بنفسها ومالها ، وقد بشرها ربها في حياتها بقصر في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أتى جبريل النبي ﷺفقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ، فتح الباري : (١٣٣/٧) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٤١٠/٣) ، ورقم الحديث : ١٤٢٤ .

(٣) سورة آل عمران : ٤٢ .

(٤) سورة آل عمران : ٣٧ .

(٥) سورة التحريم : ١٢ .

طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب »[1] .

وآسية امرأة فرعون هان عليها ملك الدنيا ونعيمها ، فكفرت بفرعون وألوهيته ، فعذبها زوجها فصبرت حتى خرجت روحها إلى بارئها ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] .

وفاطمة الزهراء ابنة الرسول ﷺ الصابرة المحتسبة التقية الورعة فرع الشجرة الطاهرة ، وتربية معلم البشرية .

---

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها،فتح الباري : ١٣٣/٧ والحديث مروى في هذا الباب من طرق أخرى عن عائشة وعبدالله بن أبي أوفى .

(٢) سورة التحريم : ١١ .

المبحث التاسع

العشرة المبشرون بالجنة

نصَّ الرسول ﷺ نصا صريحا على أن عشرة من أصحابه من أهل الجنة ، ففي مسند أحمد عن سعيد بن زيد ، وسنن الترمذي عن عبدالرحمن بن عوف عن النبي ﷺ قال : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ، وسعد بن أبي وقاص في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة » وإسناده صحيح[1] .

وروى الحديث الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والضياء في المختارة عن سعيد بن زيد بلفظ فيه شيء من الاختلاف عن سابقه ، ولفظه : « عشرة في الجنة : النبي في الجنة ، وأبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة ، وسعد بن مالك في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة » وإسناده صحيح[2] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (١/٧٠) ، ورقمه : ٥٠ .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٤/٣٤) ، ورقمه : ٣٩٠٥ .

وتذكر لنا كتب السنة أن الرسول ﷺ كان يوما جالسا على بئر أريس وأبو موسى الأشعري بواب له ، فجاء أبو بكر الصديق فاستأذن ، فقال له الرسول ﷺ : « ائذن له وبشره بالجنة » ، ثم جاء عمر فقال : « ائذن له ، وبشره بالجنة » ثم جاء عثمان ، فقال : « إئذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه »[(١)] .

وروى ابن عساكر بإسناد صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « القائم بعدي في الجنة ، والذي يقوم بعده في الجنة ، والثالث والرابع في الجنة »[(٢)] . ومراده بالقائم بعده : الذي يلي الحكم بعد موته ، وهؤلاء الأربعة هم أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ رضي الله عنهم جميعا .

وروى الترمذي والحاكم بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ قال لأبي بكر : « أنت عتيق من النار »[(٣)] .

المبحث العاشر

بعض من نص على أنهم في الجنة غير ذكر

١ ـ ٢ ـ جعفر بن أبي طالب ، وحمزة بن عبدالمطلب :

من الذين أخبر الرسول ﷺ أنهم في الجنة جعفر وحمزة ، ففي سنن

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي ، جامع الأصول : (٥٦٢/٨) ، ورقمه : ٦٣٧٢ . والحديث طويل ، وقد اقتصرنا منه على موضع الشاهد فحسب .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (١٤٩/٤) ، ورقمه : ٤٣١١ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٢٤/٢) ، ورقمه : ١٤٩٤ .
(٤) قال الشيخ ناصر في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٢٦/٣) ، حديث رقم ١٢٢٦ : « حديث صحيح جاء من طرق عن أبي هريرة ، وابن عباس ، وعلي بن أبي طالب ، وأبي عامر والبراء » وقد ساق طرقه

الترمذي ، ومسند أبي يعلى ، ومستدرك الحاكم وغيرهم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت جعفر بن أبي طالب ملكا يطير في الجنة بجناحين »[٤] .

وروى الطبراني ، وابن عدي ، والحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة البارحة ، فنظرت فيها ، فإذا جعفر يطير مع الملائكة ، وإذا حمزة متكىء على سرير » . وإسناده صحيح[١] .

وقد صح أن الرسول ﷺ قال : « سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب »[٢] .

٣ ـ عبدالله بن سلام :

روى أحمد والطبراني والحاكم بإسناد صحيح عن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ « عبدالله بن سلام عاشر عشرة في الجنة »[٣] .

٤ ـ زيد بن حارثة :

روى الروياني والضياء عن بريده أن النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة ، فاستقبلتني جارية شابّة ، فقلت : لمن أنت ؟ قالت : لزيد بن حارثة »[٤] .

٥ ـ زيد بن عمرو بن نفيل :

روى ابن عساكر بإسناد حسن عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة ، فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل درجتين »[٥] .

---

(١) صحيح الجامع : (٣/١٤٠) ، ورقمه : ٣٣٥٨ .
(٢) صحيح الجامع : (٣/٢١٩) ، ورقمه : ٣٥٦٩ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (٤/٢٥) ، ورقمه : ٣٨٧٠ .
(٤) صحيح الجامع الصغير : (٣/١٤١) ، ورقمه : ٣٣٦١ .
(٥) صحيح الجامع الصغير : (٣/١٤١) ، ورقمه : ٣٣٦٢ .

وزيد هذا كان يدعو إلى التوحيد في الجاهلية ، وكان على الحنيفية ملة إبراهيم .

٦ ـ حارثة بن النعمان :

وروى الترمذي والحاكم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « دخلت الجنة ، فسمعت فيها قراءة ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : حارثة بن النعمان ، كذلكم البر ، كذلكم البر »[1] .

٧ ـ بلال ابن أبي رباح :

روى الطبراني وابن عدي بإسناد صحيح عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة ، فسمعت خَشْفة بين يدي ، قلت : ما هذه الخشفة ؟ فقيل : هذا بلال يمشي أمامك »[2] .

وفي المسند بإسناد صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة ليلة أسري بي ، فسمعت من جانبها وجسا ، فقلت : يا جبريل ما هذا ؟ قال : بلال المؤذن »[3] .

٨ ـ أبو الدحداح :

روى مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي وأحمد عن جابر بن سمرة أن

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (١٤٢/٣) ، ورقمه : ٣٣٦٦ .
(٢) صحيح الجامع الصغير : (١٤٢/٣) ، ورقمه : ٣٣٦٤ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (١٤٣/٣) ، ورقمه : ٣٣٦٧ .

رسول الله ﷺ قال : « كم من عذق معلّق لابن الدحداح في الجنة »[1] .

وأبو الدحداح هذا هو الذي تصدق ببستانه : بيرحاء ، أفضل بساتين المدينة عندما سمع الله يقول : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾[2] .

٩ ـ ورقة بن نوفل :

روى الحاكم بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا ورقة بن نوفل ، فإني قد رأيت له جنة أو جنتين »[3] .

وورقة آمن بالرسول ﷺ عندما جاءته خديجة بالرسول ﷺ في أول أمره ، وتمنى على الله أن يدرك ظهور أمر الرسول ﷺ لينصره .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (١٨٥/٤) ، ورقمه : ٤٤٥٠ .
(٢) سورة البقرة : ٢٤٥ .
(٣) صحيح الجامع الصغير : (١٥٣/٦) ، ورقمه : ٧١٩٧ .

المبحث الحادي عشر
الجنة ليست ثمناً للعمل

الجنة شيء عظيم ، لا يمكن أن يناله المرء بأعماله التي عملها ، وإنما تنال برحمة الله وفضله ، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة »[1] .

وقد يشكل على هذا النصوص التي تشعر بأن الجنة ثمن للعمل ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

ولا تعارض بين الآيات وما دلَّ عليه الحديث ، فإن الآيات تدل على أن الأعمال سبب لدخول الجنة ، وليست ثمنا لها . والحديث نفى أن تكون الأعمال ثمنا للجنة . وقد ضل في هذا فرقتان : الجبرية التي استدلت بالحديث على أن الجزاء غير مرتب على الأعمال ، لأنه لا صنع للعبد في عمله ، والقدرية استدلوا بالآيات ، وقالوا إنها تدل على أن الجنة ثمن للعمل ، وأن العبد مستحق دخول الجنة على ربه بعمله .

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٧٠) . ورقم الحديث : ٢٨١٦ .
(٢) سورة السجدة : ١٧ .
(٣) سورة الأعراف : ٤٢ .

يقول شارح الطحاوية في هذه المسألة .

« وأما ترتب الجزاء على الأعمال ، فقد ضل فيه الجبرية والقدرية ، وهدى الله أهل السنة ، وله الحمد والمنة ، فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات . فالمنفى في قوله ﷺ : « لن يدخل الجنة أحد بعمله » ـ باء العوض ، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة ، كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله ، بل ذلك برحمة الله وفضله . والباء التي في قوله : ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] وغيرها باء السبب ، أي بسبب عملكم ، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات ، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته »[2] .

---

(1) سورة السجدة : ١٧ .

(2) شرح الطحاوية : ٤٩٥ .

الفصل الخامس

صفة أهل الجنة ونعيمهم فيها

يدخل أهل الجنة الجنة على أكمل صورة وأجملها ، على صورة أبيهم آدم عليه السلام ، فلا أكمل ولا أتم من تلك الصورة والخلقة التي خلق الله عليها أبا البشر آدم ، فقد خلقه الله تعالى بيده فأتم خلقه ، وأحسن تصويره ، وكل من يدخل الجنة يكون على صورة آدم وخلقته ، وقد خلقه الله طوالا كالنخلة السحوق ، طوله في السماء ستون ذراعا ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « خلق الله عز وجل آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا . . . فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، وطوله ستون ذراعا ، فلم يزل الخلق ينقص بعده »(١) .

وإذا كان خلقهم الظاهري متفق فكذلك خلقهم في باطنهم واحد ، نفوسهم صافية ، وأرواحهم طاهرة زاكية ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة في الحديث الذي يصف فيه الرسول ﷺ دخول أهل الجنة ومنهم الزمرة الذين يدخلون الجنة

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ، (٢١٨٣/٤) ، ورقمه : ٢٨٤١ .

نورهم كالبدر قال : « أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء »[1] .

ومن جمال صورتهم أنهم يكونون جردا مردا كأنهم مكحلون ، وكلهم يدخل الجنة في عمر القوة والفتوة والشباب أبناء ثلاث وثلاثين ، ففي مسند أحمد وسنن الترمذي عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال : « يدخل أهل الجنة جردا مردا ، كأنهم مكحلون ، أبناء ثلاث وثلاثين »[2] .

وأهل الجنة ـ كما جاء في حديث أبي هريرة في الصحيحين ـ « لا يبصقون ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوطون »[3] .

وأهل الجنة لا ينامـون ، فقد جاء في حديث جابر بن عبدالله ، وعبدالله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ قال : « النوم أخو الموت ولا ينام أهل الجنة »[4] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب أول زمرة يدخلون الجنة : (٤/٢١٧٩) ، رقم الحديث ٢٨٣٤ .

(٢) صحيح الجامع : (٦/٣٣٧) ، ورقمه : ٧٩٢٨ ، وقال الشيخ ناصر فيه : صحيح .

(٣) هذا جزء من حديث طويل سقناه بكامله في « دخول الجنة » .

(٤) أورد الشيخ ناصر الدين الألباني هذا الحديث في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » : (٣/٧٤) ورقمه : ١٠٨٧ ، وقد ذكر هناك أنه أخرجه كثير من كتب الحديث منها الكامل لابن عدي ، والحلية لأبي نعيم ، تاريخ أصبهان لأبي الشيخ ، وقد جمع الشيخ ناصر طرق الحديث ، وختم الكلام على الحديث قائلا : « وبالجملة فالحديث صحيح من بعض طرقه عن جابر » .

الفصل السادس

نعيم أهل الجنة

المبحث الأول

فضل نعيم الجنة على متاع الدنيا

متاع الدنيا واقع مشهود ، ونعيم الجنة غيب موعود ، والناس يتأثرون بما يرون ويشاهدون ، ويثقل على قلوبهم ترك ما بين أيديهم إلى شيء ينالونه في الزمن الآتي ، فكيف إذا كان الموعود ينال غب الموت ؟ من أجل ذلك قارن الحق تبارك وتعالى بين متاع الدنيا ونعيم الجنة ، وبيّن أن نعيم الجنة خير من الدنيا وأفضل ، وأطال في ذم الدنيا وبيان فضل الآخرة ، وما ذلك إلا ليجتهد العباد في طلب الآخرة ونيل نعيمها .

وتجد ذم الدنيا ومدح نعيم الآخرة ، وتفضيل ما عند الله على متاع الدنيا القريب العاجل في مواضع كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾[1] . وقوله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[2] .

---

(١) سورة ال عمران : ١٩٨ .

(٢) سورة طه : ١٣١ .

وقال في موضع ثالث : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[١] .

ولو ذهبنا نبحث في سر أفضلية نعيم الآخرة على متاع الدنيا لوجدناه من وجوه متعددة :

أولا : متاع الدنيا قليل ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[٢] .

وقد صور لنا الرسول ﷺ قلة متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة بمثال ضربه فقال : « والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه ـ وأشار بالسبابة ـ في اليم ـ فلينظر بم ترجع »[٣] . ما الذي تأخذه الأصبع إذا غمست في البحر الخضم ، إنها لا تأخذ منه قطرة . هذا هو نسبة الدنيا إلى الآخرة .

ولما كان متاع الدنيا قليلا ، فقد عاتب الله المؤثرين لمتاع الدنيا على نعيم الآخرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[٤] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤ ـ ١٥ .
(٢) سورة النساء : ٧٧ .
(٣) صحيح مسلم : (٢١٩٣/٤) . ورقم الحديث : ٢٨٥٨ .
(٤) سورة التوبة : ٣٨ .

وقد ذكرنا في كتابنا هذا النصوص الدالة على كثرة نعيم الدنيا وعدم نفاذه وانقطاعه .

الثاني : هو أفضل من حيث النوع ، فثياب أهل الجنة وطعامهم وشرابهم وحليهم وقصورهم ـ أفضل مما في الدنيا ، بل لا وجه للمقارنة ، فإن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا ومافيها ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا ومافيها »[1] وفي الحديث الآخر الذي يرويه البخاري ومسلم أيضا عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ولقاب قوس أحدكم من الجنة خير مما طلعت عليه الشمس »[2] . وقارن نساء أهل الجنة بنساء الدنيا لتعلم فضل مافي الجنة على مافي الدنيا ، ففي صحيح البخاري عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأت ما بينهما ريحا ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا ومافيها »[3] .

وإذا شئت أن تطلع على المزيد من النصوص المبينة لفضل نعيم الجنة على متاع الدنيا فاقرأ الفصل المخصص لنعيم الجنة في كتابنا هذا .

الثالث : الجنة خالية من شوائب الدنيا وكدرها ، فطعام أهل الدنيا وشرابهم يلزم منه الغائط والبول ، والروائح الكريهة ، وإذا شرب المرء خمر الدنيا فقد عقله ، ونساء الدنيا يحضن ويلدن ، والمحيض أذى ، والجنة خالية من ذلك كله ، فأهلها لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يبصقون ولا يتفلون ، وخمر الجنة كما

---

(١) مشكاة المصابيح : (٨٥/٣) . ورقم الحديث : ٥٦١٣ .
(٢) مشكاة المصابيح : (٨٥/٣) . ورقم الحديث : ٥٦١٥ . والقدر : الموضع والمقدار .
(٣) مشكاة المصابيح : (٨٥/٣) . ورقم الحديث : ٥٦١٤ . والنصيف : الخمار .

وصفها خالقها ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾(١) وماء الجنة لا يأسن، ولبنها لا يتغير طعمه ﴿ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾(٢) ، ونساء أهل الجنة مطهرات من الحيض والنفاس وكل قاذورات نساء الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾(٣) .

وقلوب أهل الجنة صافية ، وأقوالهم طيبة ، وأعمالهم صالحة ، فلا تسمع في الجنة كلمة نابية تكدر الخاطر ، وتعكر المزاج ، وتستثير الأعصاب ، فالجنة خالية من باطل الأقوال والأعمال ، ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾(٤) ، ولا يطرق المسامع إلا الكلمة الصادقة الطيبة السالمة من عيوب كلام أهل الدنيا ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴾(٥) ، ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾(٦) ، ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴾(٧) ، إنها دار الطهر والنقاء والصفاء الخالية من الأوشاب والأكدار ، إنها دار السلام والتسليم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾(٨) .

ولذلك فإن أهل الجنة إذا خلصوا من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، ثم يهذبون وينقون بأن يقتص لبعضهم من بعض ، فيدخلون الجنة وقد صفت منهم القلوب ، وزال ما في نفوسهم من تباغض وحسد ونحو ذلك مما كان في

---

(١) سورة الصافات : ٤٦ .
(٢) سورة محمد : ١٥ .
(٣) سورة البقرة : ٢٥ .
(٤) سورة الطور : ٢٣ .
(٥) سورة النبأ : ٣٥ .
(٦) سورة مريم : ٦٢ .
(٧) سورة الغاشية : ١١ .
(٨) سورة الواقعة : ٢٥ .

الدنيا، وفي الصحيحين في صفة أهل الجنة عند دخول الجنة « لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيًا »(١) . وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾(٢) .

والغل : الحقد ، وقد نقل عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب أن أهل الجنة عندما يدخلون الجنة يشربون من عين فيذهب الله مافي قلوبهم من غل ، ويشربون من عين أخرى فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم(٣) ولعلهم استفادوا هذا من قوله تعالى : ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾(٤) .

الرابع : نعيم الدنيا زائل ، ونعيم الآخرة باق دائم ، ولذلك سمّي الحق تبارك وتعالى ما زين للناس من زهرة الدنيا متاعا ، لأنه يتمتع به ثمَّ يزول ، أمّا نعيم الآخرة فهو باق ، ليس له نفاد ، ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾(٥) ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾(٦) ، ﴿ **أكلها دائم وظلها** ﴾(٧) ، وقد ضرب الله الأمثال لسرعة زوال الدنيا وانقضائها ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾(٨) . فقد ضرب الله مثلا لسرعة زوال الدنيا وانقضائها

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٣١٨/٦) .
(٢) سورة الحجر : ٤٧ .
(٣) التذكرة ، للقرطبي : ص ٤٩٩ .
(٤) سورة الإنسان : ٢١ .
(٥) سورة النحل : ٩٦ .
(٦) سورة ص : ٥٤ .
(٧) سورة الرعد : ١٣ .
(٨) سورة الكهف : ٤٥ ـ ٤٦ .

بالماء النازل من السماء الذي يخالط نبات الأرض فيخضر ويزهر ويثمر ، وماهي إلا فترة وجيزة حتى تزول بهجته ، فيذوى ويصفر ، ثم تعصف به الرياح في كل مكان ، وكذلك زينة الدنيا من الشباب والمال والأبناء والحرث والزرع . . . كلها تتلاشى وتنقضي ، فالشباب يذوى ويذهب ، والصحة والعافية تبدل هرما ومرضا ، والأموال والأولادقد يذهبون ، وقد ينتزع الإنسان من أهلـه وماله ، أمّا الآخرة فلا رحيل ، ولا فناء ، ولا زوال ﴿ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[1].

الخامس : العمـل لمتـاع الدنيا ونسيان الآخرة يعقبه الحسرة والندامة ودخـول النـيران ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[2].

---

(١) سورة النحل : ٣٠ ـ ٣١ .

(٢) سورة آل عمران : ١٨٥ .

المبحث الثاني

طعام أهل الجنة وشرابهم

سبق أن تحدثنا عن أشجار الجنة وثمارها ، وقطوفها الدانية المذللة تذليلا ، واختيار أهل الجنة من ثمارها ما يريدون ويشتهون ، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب ، ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[1] ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴿٧١﴾ ﴾[2] ، وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾[3] .

وذكرنا أيضا فيما سبق أن في الجنة بحر الماء ، وبحر الخمر ، وبحر اللبن ، وبحر العسل ، وأنّ أنهار الجنة تنشق من هذه البحار . وفي الجنة عيون كثيرة ، وأهل الجنة يشربون من تلك البحار والأنهار والعيون .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾[4] .

وقال : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾[5] . وقال : ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[6]

---

(١) سورة الواقعة : ٢٠ .
(٢) سورة الزخرف : ٧١ .
(٣) سورة الحاقة : ٢٤ .
(٤) سورة الإنسان : ٥ .
(٥) سورة الإنسان : ١٧ .
(٦) سورة المطففين : ٢٦ .

المطلب الأول
خمر أهل الجنة

من الشراب الذي يتفضل الله به على أهل الجنة الخمر ، وخمر الجنة خالي من العيوب والآفات التي تتصف بها خمر الدنيا ، فخمر الدنيا تذهب العقول ، وتصدع الرؤوس ، وتوجع البطون ، وتمرض الأبدان ، وتجلب الأسقام وقد تكون معيبة في صنعها أو لونها أو غير ذلك ، أمّا خمر الجنة فإنها خالية من ذلك كله ، جميلة صافية رائقة ، ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾(١) . فقد وصف الله جمال لونها (بيضاء) ثم بين أنها تلذُّ شاربها من غير اغتيال لعقله ، كما قال : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾(٢) ، ثم إن شاربها لا يمل من شربها ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾(٣) ، وقال في موضع آخر يصف خمر الجنة : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾(٤) قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات : « لا تصدع رؤوسهم ، ولا تنزف عقولهم ، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة ، وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله خمر الجنة ، ونزهها عن هذه الخصال »(٥)

وقال الحق في موضع ثالث : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ

---

(١) سورة الصافات : ٤٥ ـ ٤٧ .
(٢) سورة محمد : ١٨ .
(٣) سورة الصافات : ٤٧ .
(٤) سورة الواقعة : ١٧ ـ ١٩ .
(٥) تفسير ابن كثير : ٥١٤/٦ .

مِسْكٌ﴾[1] ، والرحيق الخمر ، ووصف هذا الخمر بوصفين : الأول أنه مختوم أي موضوع عليه خاتم .الأمر الثاني : أنهم إذا شربوه وجدوا في ختام شربهم له رائحة المسك .

المطلب الثاني
أول طعام أهل الجنة

أول طعام يتحف الله به أهل الجنة زيادة كبد الحوت ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يتكفّؤها الجبار بيده ، كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة » فأتى رجل من اليهود ، فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال : « بلى » . قال : تكون الأرض خبزة واحدة كما قال النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ إلينا ، ثم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : « ألا أخبرك بإدامهم ؟ بالام والنون . قالوا : وما هذا ؟ قال : ثور ونون ، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفا »[2]

قال النووي في شرح الحديث ما ملخصه : « النُزل : ما يعد للضيف عند نزوله ، ويتكفأها بيده : أي يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتستوي ، لأنها ليست منبسطة كالرقاقة ونحوها ، ومعنى الحديث : أن الله تعالى يجعل الأرض كالرغيف العظيم ، ويكون طعاما ونزلا لأهل الجنة ، والنون : الثور ، (والـ بالام) : لفظة عبرانية ، معناها : ثور ، وزائدة كبد الحوت : هي القطعة المنفردة المتعلقة في الكبد ، وهي أطيبها »[3] .

---

(١) سورة المطففين : ٢٥ ـ ٢٦ .
(٢) مشكاة المصابيح : (٣/٥٦) .
(٣) شرح النووي على مسلم : (١٧/١٣٦) .

وفي صحيح البخاري أن عبدالله بن سلام سأل النبي ﷺ أول قدومه المدينة أسئِلَةً منها : « ما أول شيء يأكله أهل الجنة ؟ فقال : زيادة كبد الحوت »[1] .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان أن يهوديا سأل الرسول ﷺ قال : « فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ » قال : زيادة كبد الحوت » .

قال : « فما غذاؤهم على إثرها ؟ قال : ينحرلهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها » .

قال : « فما شرابهم عليه ؟ » قال : « من عين تسمى سلسبيلا» ، قال : صدقت [2] .

المطلب الثالث
طعام أهل الجنة وشرابهم لا دنس معه

قد يتبادر إلى الذهن أن الطعام والشراب في الجنة ينتج عنه ما ينتج عن طعام أهل الدنيا وشرابهم من البول والغائط والمخاط والبزاق ونحو ذلك ، والأمر ليس كذلك فالجنة دار خالصة من الأذى ، وأهلها مطهرون من أوشاب أهل الدنيا ، ففي الحديث الذي يرويه صاحبا الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال نافيا هذا الظن : « أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون ، ولا يبزقون »[3] .

---

(١) النهاية لابن كثير : (٢/٢٧٠) .

(٢) النهاية لابن كثير : (٢/٢٧٠) .

(٣) رواه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٦/٣١٧) ، ورواه مسلم في كتاب الجنة ، باب أول زمرة تدخل الجنة ، (٤/٢١٧٨) ، حديث رقم : ٢٨٣٤ .

وليس هذا خاص بأول زمرة تدخل الجنة ، وإنما هوعام في كل من يدخل الجنة ، ففي روايةعند مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشدّ نجم في السماء إضاءة ، ثم هم بعد ذلك منازل ، لا يتغوطون ، ولا يتبولون ، ولا يمتخطون ، ولا يبزقون »[1] .

فالذي يتفاوت فيه أهل الجنة ممانص عليه في الحديث قوة نور كل منهم ، أمّا خلوصهم من الأذى فإنهم يشتركون فيه جميعا ، فهم لا يتغوطون ولا يتبولون ، ولا يتفلون ، ولا يبزقون ، ولا يمتخطون .

وقد يقال : فأين تذهب فضلات الطعام والشراب ، وقد وجه هذا السؤال إلى الرسول ﷺ من قبل أصحابه ، فأفاد أن بقايا الطعام والشراب تتحول إلى رشح كرشح المسك يفيض من أجسادهم ، كما يتحول بعض منه أيضا إلى جشاء ، ولكنه جشاء تنبعث منه روائح طيبة عبقة عطرة ، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يتفلون ، ولا يتبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون » ، قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء كجشاء المسك »[2] .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الجنة ، باب أول زمرة تدخل الجنة ، (٢١٨٨/٤) ، ورقم الحديث : ٢٨٣٤ .
(٢) رواه مسلم في صحيحه : (٢١٨٠/٤) . ورقم الحديث : ٢٨٣٥ .

المطلب الرابع
لماذا يأكل أهل الجنة ويشربون ويمتشطون

إذا كان أهل الجنة فيها خالدون ، وكانت خالية من الآلام والأوجاع والأمراض ، لا جوع فيها ولا عطش ، ولا قاذورات ولا أوساخ ، فلماذا يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ، ولماذا يطيبون ويمتشطون ؟ .

أجاب القرطبي في التذكرة عن هذا السؤال قائلا[1]: « نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن دفع ألم اعتراهم ، فليس أكلهم عن جوع ، ولا شربهم عن ظمأ ، ولا تطيبهم عن نتن ، وإنما هي لذات متوالية ، ونعم متتابعة ، ألا ترى قوله تعالى لآدم : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[2] . وحكمة ذلك أن الله تعالى عرفهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا ، وزادهم على ذلك مالا يعلمه إلا الله عز وجل » .

المطلب الخامس
آنية طعام أهل الجنة وشرابهم

آنية طعام أهل الجنة ، التي يأكلون ويشربون بها من الذهب والفضة ، قال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾[2] ، أي وأكواب من ذهب ، وقال : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾[3] أي اجتمع فيها صفاء القوارير وبياض الفضة .

---

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٤٧٥ ، وانظر فتح الباري : (٦/٣٢٥) .
(٢) سورة الزخرف : ٧١ .
(٣) سورة الإنسان : ١٥ .

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة . . . وجنتان من فضة[1] ، آنيتهما ومافيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما »[2] .

ومن الآنية التي يشربون بها الأكواب والأباريق والكؤوس ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾[3] والكوب : مالا أذن له ولا عروة ولا خرطوم ، والأباريق : ذوات الآذان والعرا ، والكأس القدح الذي فيه الشراب .

(١) أي : وللمؤمن جنتان .
(٢) مشكاة المصابيح : (٣/٨٦) .
(٣) سورة الواقعة : ١٧ .

المبحث الثالث

لباس أهل الجنة وحليهم ومباخرهم

أهل الجنة يلبسون فيها الفاخر من اللباس ، ويتزينون فيها بأنواع الحلي من الذهب والفضة واللؤلؤ ، فمن لباسهم الحرير ، ومن حلاهم أساور الذهب والفضة واللؤلؤ : قال تعالى : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[1] ، ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[2] ، ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[3] ، ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾[4] ، وملابسهم ذات ألوان ، ومن ألوان الثياب التي يلبسون الخضر من السندس والاستبرق ، ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾[5] ، ﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾[6] . ولباسهم أرقى من أي ثياب صنعها الإنسان ، فقد روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : « أتي الرسول ﷺ بثوب من حرير ، فجعلوا يعجبون من حسنه ولينه ، فقال رسول الله ﷺ : « لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أفضل من هذا »[7] .

---

(١) سورة الإنسان : ١٢ .

(٢) سورة الحج : ٢٣ .

(٣) سورة فاطر : ٣٣ .

(٤) سورة الإنسان : ٢١ .

(٥) سورة الكهف : ٣١ .

(٦) سورة الإنسان : ٢١ .

(٧) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة والنار ، فتح الباري (٣١٩/٦) .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن لأهل الجنة أمشاطاً من الذهب والفضة ، وأنهم يتبخرون بعود الطيب ، مع أن روائح المسك تفوح من أبدانهم الزاكية ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ في صفة الذين يدخلون الجنة : « آنيتهم الذهب والفضة ، وأمشاطهم الذهب ، ووقود مجامرهم الألوَّة ـ قال أبو اليمان : عود الطيب ـ ورشحهم المسك »[1] .

ومن حليهم التيجان ، ففي سنن الترمذي وابن ماجه عن المقدام بن معدي كرب عن رسول الله ﷺ في ذكر الخصال التي يُعطاها الشهيد : « ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا ومافيها »[2] .

وثياب أهل الجنة وحليهم لا تبلى ولا تفنى ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعم لا ييأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه »[3] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) مشكاة المصابيح : (٣٥٨/٣) ، ورقمه : ٣٨٣٤ ، وصحح الشيخ ناصر إسناده .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب في دوام نعيم الجنة ، (٢١٨١/٤) ، ورقم الحديث : ٢٨٣٦ .

المبحث الرابع

فرش أهل الجنة

أعدت قصور الجنة ، وأماكن الجلوس في حدائقها وبساتينها بألوان فاخرة رائعة من الفرش للجلوس والاتكاء ونحو ذلك ، فالسرر كثيرة راقية والفرش عظيمة القدر بطائنها من الاستبرق ، فما بالك بظاهرها ، وهناك ترى النمارق مصفوفة على نحو يسر الخاطر ، ويبهج النفس ، والزرابي مبثوثة على شكل منسق متكامل ، قال تعالى :﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[1] ، ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[2] ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[3] ، ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾[4] ، واتكاؤهم عليها على هذا النحو نوع من النعيم الذي يتمتع به أهل الجنة حين يجتمعون كما أخبر الله تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾[5] ، وقال : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾[6] ، ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾[7] والمراد بالنمارق : المخادّ والوسائد المساند ، والزرابي : البسط والعبقرى : البسط الجياد . والرفرف : رياض الجنة . وقيل نوع من الثياب ، والأرائك : السرر .

---

(١) سورة الغاشية : ١٣ ـ ١٦ .

(٢) سورة الرحمن : ٥٤ .

(٣) سورة الطور : ٢٠ .

(٤) سورة الواقعة : ١٣ ـ ١٦ .

(٥) سورة الحجر : ٤٧ .

(٦) سورة الرحمن : ٧٦ .

(٧) سورة الكهف : ٣١ .

المبحث الخامس

خدم أهل الجنة

يخدم أهل الجنة ولدان ينشئهم الله لخدمتهم ، يكونون في غاية الجمال والكمال ، كما قال تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾[1] ، وقال في موضع آخر : ﴿ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾[2] .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : « يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان أهل الجنة (مخلدون) أي على حالة واحدة مخلدون عليها ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن ، ومن فسرهم بأنهم مخرصون،في آذانهم الأقرطة،فإنما عبر عن المعنى ، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير . وقوله تعالى:﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾[3] ، أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤا منثورا ، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن »[4] .

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن هؤلاء الولدان هم الذين يموتون صغارا

---

(١) سورة الواقعة : ١٧ ـ ١٨ .

(٢) سورة الإنسان : ١٩ .

(٣) سورة الإنسان : ١٩ .

(٤) تفسير ابن كثير : (٧/١٨٤) .

من أبناء المؤمنين أو المشركين ، وقد رد العلامة ابن تيمية رحمه الله تعالى هذا القول ، وبين أن الولدان المخلدون هم خلق من خلق الجنة قال : « والولدان الذين يطوفون على أهل الجنة : خلق من خلق الجنة ليسوا من أبناء الدنيا ، بل أبناء أهل الدنيا إذا دخلوا الجنة كمل خلقهم كأهل الجنة ، على صورة أبيهم آدم »[1] .

---

(١) مجموع الفتاوي : (٤/٢٧٩) ، وانظر (٤/٣١١) .

المبحث السادس
شوق أهل الجنة

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة لسوقا ، يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال ، فتحثوا في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسنا وجمالا ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا ، فيقولون : وأنتم ،والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا »[1] .

قال النووي في شرحه لهذا الحديث : « المراد بالسوق مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق ، ومعنى يأتونها كل جمعة ، أي في مقدار كل جمعة ، أي أسبوع ، وليس هناك حقيقة أسبوع ، لفقد الشمس والليل والنهار ، . . . وخص ريح الجنة بالشمال ، لأنها ريح المطر عند العرب ، كانت تهب من جهة الشام ،وبها يأتي سحاب المطر ،وكانوا يرجون السحابة الشامية ، وجاءت في الحديث تسمية هذه الريح المثيرة ، أي المحركة ، لأنها تثير في وجوههم ما تثيره من مسك أرض الجنة وغيره من نعيمها »[2] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب في سوق الجنة ، (٢١٧٨/٤) ، ورقمه : ٢٨٣٣ .
(٢) النووي على مسلم : (١٧٠/١٧) .

• المبحث السابع

اجتماع أهل الجنة وأحاديثهم

أهل الجنة يزور بعضهم بعضا ، ويجتمعون في مجالس طيبة يتحدثون ، ويذكرون ما كان منهم في الدنيا ، وما منَّ الله به عليهم من دخول الجنان ، قال تعالى في وصف اجتماع أهل الجنة : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾(1) وأخبرنا الله بلون من ألوان الأحاديث التي يتحدثون بها في مجتمعاتهم ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾(2)، ومن ذلك تذكرهم أهل الشر الذين كانوا يشككون أهل الإيمان ، ويدعونهم إلى الكفران ، ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(3) .

---

(١) سورة الحجر : ٤٧ .

(٢) سورة الطور : ٢٥ .

(٣) سورة الصافات : ٥٠ ـ ٦١ .

المبحث الثامن
أماني أهل الجنة

يتمنى بعض أهل الجنة فيها أماني تتحقق على نحوعجيب ، لا تشبه حال ما يحدث في الدنيا ، وقد حدثنا الرسول ﷺ عن بعض هذه الأماني وكيفية تحققها .

فهذا واحد من أهل الجنة يستأذن ربه في الزرع ، فيأذن له ، فما يكاد يلقي البذر ، حتى يضرب بجذوره في الأرض ، ثم ينمو ، ويكتمل ، وينضج في نفس الوقت ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يتحدث ـ وعنده رجل من أهل البادية ـ : « إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربّه في الزرع ، فقال له : ألست فيما شئت[1] ؟ قال : بلى ، ولكن أحب الزرع ، فبذر، فبادر الطرف نباته[2] واستواؤه ، واستحصاده ، فكان أمثال الجبال ، فيقول الله تعالى : دونك يا ابن آدم ، فإنه لا يشبعك شيء » فقال الأعرابي : « والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا ، فإنهم أصحاب زرع ، وأمّا نحن فلسنا بأصحاب زرع ، فضحك رسول الله ﷺ »[3] .

وهذا آخر يتمنى الولد ، فيحقق الله له أمنيته في ساعة واحدة ، حيث تحمل وتضع في ساعة واحدة .

---

(١) أي فيما شئت من أنواع النعيم وألوان الطعام والشراب .
(٢) سابق النظر .
(٣) مشكاة المصابيح : (٣/٩٥) ، ورقم الحديث : ٥٦٥٣ .

وروى الترمذي في سننه ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه بإسناد صحيح عن أبي سعيد ؛ أن النبي ﷺ قال : « المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة ، كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي »[1] .

(١) صحيح الجامع (٦/ ٥:) ، ورقم الحديث : ٦٥٢٥ .

المبحث التاسع
نساء أهل الجنة

المطلب الأول
زوجة المؤمن في الدنيا زوجته في الآخرة إذا كانت مؤمنة

إذا دخل المؤمن الجنة ، فإن كانت زوجته صالحة ، فإنها تكون زوجته في الجنة أيضا ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾[1] ، وهم في الجنات منعمون مع الأزواج ، يتكئون في ظلال الجنة مسرورين فرحين ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾[2] ، ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾[3] .

المطلب الثاني
المرأة لآخر أزواجها

روى أبو علي الحراني في « تاريخ الرقة » عن ميمون بن مهران قال : خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أم الدرداء ، فأبت أن تزوجه ، وقالت :

---

(١) سورة الرعد : ٢٣ .
(٢) سورة يس : ٥٦ .
(٣) سورة الزخرف : ٧٠ .

سمعت أن أبا الدرداء يقول : قال رسول الله ﷺ : « المرأة في آخر أزواجها ، أو قال : لآخر أزواجها » ورجال هذا الإسناد موثقون غير العباس بن صالح فليس له ترجمة ، ورواه أبو الشيخ في التاريخ بإسناد صحيح مقتصرا منه على المرفوع ، ورواه الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد ضعيف ، ولكنه بمجموع الطريقين قوي ، والمرفوع منه صحيح ، وله شاهدان موقوفان : الأول يرويه ابن عساكر عن عكرمة « أن أسماء بنت أبي بكر كانت تحت الزبير بن العوام ، وكان شديدا عليها ، فأتت أباها ، فشكت ذلك إليه ، فقال : يا بنية اصبري ، فإن المرأة إذا كان لها زوج صالح ، ثم مات عنها ، فلم تزوج بعده جمع بينهما في الجنة » .

ورجاله ثقات إلا أن فيه إرسالا لأن عكرمة لم يدرك أبا بكر إلا أن يكون تلقاه عن أسماء .

والآخر أخرجه البيهقي في السنن أن حذيفة قال لزوجته : « إن شئت أن تكوني زوجتي في الجنة ، فلا تزوجي بعدي ، فإن المرأة في الجنة لآخر أزواجها في الدنيا»[1] ، فلذلك حرّم الله على أزواج النبي ﷺ أن ينكحن من بعده ، لأنهن أزواجه في الآخرة .

المطلب الثالث
الحور العين

يزوجهم الله في الجنة بزوجات جميلات غير زوجاتهم اللواتي في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[2] . والحور : جمع حوراء ، وهي

(١) هذا التحقيق أخذناه بشيء من الاختصار من « سلسلة الأحاديث الصحيحة » للشيخ ناصر : (٣/٢٧٥) ورقم الحديث : ١٢٨١ .
(٢) سورة الدخان : ٥٤ .

التي يكون بياض عينها شديد البياض ، وسواده شديد السواد . والعين : جمع عيناء ، والعيناء هي واسعة العين .

وقد وصف القرآن الحور العين بأنهن كواعب أتراب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾(1) . والكاعب : المرأة الجميلة التي برز ثدياها ، والأتراب المتقاربات في السن . والحور العين من خلق الله في الجنة ، أنشأهن الله إنشاءً فجعلهنَّ أبكارا ، عربا أترابا ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾(2) وكونهن أبكارا يقضي أنه لم ينكحهن قبلهم أحد ، كما قال تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾(3) ، وهذا ينفي قول من قال : إن المراد بالزوجات اللواتي ينشئهن الله في الجنة زوجاتهم في الدنيا إذ يعيدهنَّ شبابا بعد الكهولة والهرم ، وهذا المعنى صحيح ، فالله يدخل المؤمنات الجنة في سن الشباب ، ولكنهن لَسْنَ الحور العين اللواتي ينشئهن الله إنشاءً .

والمراد بالْعُرُب : الغنجات المتحببات لأزواجهنّ .

وقد حدثنا القرآن عن جمال نساء الجنة فقال : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾(4) والمراد بالمكنون : المخفى المصان ، الذي لم يغير صفاء لونه ضوء الشمس ، ولا عبث الأيدي ، وشبههن في موضع آخر بالياقوت والمرجان ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾(5) والياقوت والمرجان حجران كريمان فيهما جمال ، ولهما منظر حسن بديع ، وقد وصف الحور بأنهن قاصرات الطرف ، وهن

---

(١) سورة النبأ : ٣١ ـ ٣٣ .

(٢) سورة الواقعة : ٣٥ ـ ٣٧ .

(٣) سورة الرحمن : ٥٦ .

(٤) سورة الواقعة : ٢٢ .

(٥) سورة الرحمن : ٥٦ ـ ٥٨ .

اللواتي قصرن بصرهن على أزواجهن ، فلم تطمح أنظارهن لغير أزواجهنَّ ، وقد شهد الله لحور الجنة بالحسن والجمال ، وحسبك أنَّ الله شهد بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾[1]

ونساء الجنة لسن كنساء الدنيا ، فإنهن مطهرات من الحيض والنفاس ، والبصاق والمخاط والبول والغائط ، وهذا مقتضى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥ ﴾[2] .

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن جمال نساء أهل الجنة ، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوطون ، آنيتهم فيها الذهب ، أمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوه ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن »[3] .

وانظر إلى هذا الجمال الذي يحدث عنه الرسول ﷺ هل تجد له نظيرا مما تعرف ؟ « ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ريحا ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا ومافيها » رواه البخاري[4] .

---

(١) سورة الرحمن : ٧٠ ـ ٧١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ،كتاب الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري : (٦/٣١٨) ، ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها ، باب أول زمرة تدخل الجنة : (٤/٢١٧٨) ، ورقمه : ٢٨٣٤ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب وزوجناهم بحور عين ، فتح الباري (٦/١٥) ، والنصيف : الخمار .

وتحديد عدد زوجات كل شخص في الجنة باثنين يبدو أنه أقل عدد ، وإلا فقد ورد أن الشهيد يزوج باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ففي سنن الترمذي وسنن ابن ماجه . بإسناد صحيح عن المقدام بن معدى كرب قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ثلاث خصال : يغفر له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقربائه »[1] .

غناء الحور العين

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الحور العين في الجنان يغنين بأصوات جميلة عذبة ، ففي معجم « الطبراني الأوسط » بإسناد صحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهنَّ بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط . إن مما يغنين : نحن الخيِّرات الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرن بقرة أعيان . وإن مما يغنين به : نحن الخالدات فلا يمتْنه ، نحن الآمنات فلا يخفنه ، نحن المقيمات فلا يظعنَّه »[2] .

وروى سمويه في « فوائده » عن أنس ، عن رسول الله ﷺ : « إن الحور العين لتغنين في الجنة ، يقلن : نحن الحور الحسان ، خبئنا لأزواج كرام »[3] .

---

(١) مشكاة المصابيح : (٣٥٨/٣) ، ورقمه : ٣٨٣٤ .

(٢) صحيح الجامع الصغير : (٤٨/٢) ، ورقم الحديث : ١٥٥٧ ، وعزاه الشيخ ناصر أيضا إلى الطبراني في الأوسط ، وإلى أبي نعيم ، والضياء في صفة الجنة .

(٣) صحيح الجامع : (٥٨/٢) ، ورقمه : ١٥٩٨ .

غيرة الحور العين على أزواجهنّ في الدنيا

أخبرنا الرسول ﷺ أن الحور العين يغرن على أزواجهن في الدنيا إذا آذى الواحدَ زوجتُه في الدنيا ، ففي مسند أحمد ، وسنن الترمذي بإسناد صحيح عن معاذ عن رسول الله ﷺ قال : « لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا، إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو دخيل عندك ، يوشك أن يفارقك إلينا»[1] .

المطلب الرابع
يعطى المؤمن في الجنة قوة مائة رجل

عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع » . قيل : يا رسول الله ، أو يطيق ذلك ؟ قال : « يعطى قوة مائة رجل » رواه الترمذي[2] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (١٢٥/٦) ، ورقم الحديث : ٧٠٦٩ .

(٢) مشكاة المصابيح : (٩٠/٣) ورقمه : ٥٦٣٦ ، وقال محقق المشكاة : « قال الترمذي : حديث صحيح غريب » قلت (المحقق) : وإسناده حسن ، بل هو صحيح ، لأن له شواهد منها عن زيد ابن أرقم عند الدارمي بسند صحيح » .

المبحث العاشر

ضحك أهل الجنة من النار

بعد أن يدخل الله أهل الجنة الجنة ينادون خصومهم من الكفار أهل النار مبكتين ومؤنبين ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١) ، لقد كان الكفار في الدنيا يخاصمون المؤمنين ، ويسخرون منهم ، ويهزأون بهم ، وفي ذلك اليوم ينتصر المؤمنون ، فإذا بهم وهم في النعيم المقيم ، ينظرون إلى المجرمين فيسخرون منهم ويهزؤون بهم ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾(٢)

نعم ، والله لقد جوزي الكفار بمثل ما كانوا يفعلون ، والجزاء من جنس العمل ، ويتذكر المؤمن في جنات النعيم ذلك القرين أو الصديق الذي كان يزين له

---

(١) سورة الأعراف : ٤٤ .

(٢) سورة المطففين : ٢٢ ـ ٣٦ .

الكفر في الدنيا ، وكان يدعوه إلى تلك المبادىء الضالة التي تجعله في صف الكافرين أعداء الله ، فيحدّث اخوانه عن ذلك القرين ، ويدعوهم للنظر إليه في مقره الذي يعذب فيه ، فعندما يرى ما يعانيه من العذاب ـ يعلم مدى نعمة الله عليه ، وكيف خلصه من حاله ، ثم يتوجه إليه باللوم والتأنيب ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1] .

---

(١) سور الصافات : ٥٠ ـ ٦٠ .

المبحث الحادي عشر

التسبيح والتكبير من نعيم أهل الجنة

الجنة دار جزاء وإنعام ، لا دار تكليف واختبار ، وقد يشكل على هذا ما رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ في صفة أول زمرة تدخل الجنة ، قال في آخره « **يسبحون الله بكرة وعشياً** »[1] ، ولا اشكال في ذلك إن شاء الله تعالى ، لأن هذا ليس من باب التكليف ، قال ابن حجر في شرحه للحديث : «قال القرطبي : هذا التسبيح ليس عن تكليف وإلزام ! ، وقد فسره جابر في حديثه عند مسلم بقوله : « يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس » ، ووجه التشبيه أن تنفس الإنسان لا كلفة عليه فيه ، ولا بدَّ منه ، فجعل تنفسهم تسبيحا ، وسببه أن قلوبهم تنورت بمعرفة الرب سبحانه ، وامتلأت بحبه ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره »[2] .

وقد قرر شيخ الإسلام أن هذا التسبيح والتكبير لون من ألوان النعيم الذي يتمتع به أهل الجنة ، قال : « هذا ليس من عمل التكليف الذي يطلب له ثواب منفصل ، بل نفس هذا العمل من النعيم الذي تتنعم به الأنفس وتتلذذ به »[3] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ، فتح الباري : (٣١٨/٦) .
(٢) فتح الباري : (٣٢٦/٦) .
(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٣٣٠/٤) .

المبحث الثاني عشر

أفضل ما يعطاه أهل الجنة رضوان الله والنظر إلى وجهه الكريم

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير كله في يديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا » ، متفق عليه[1] . **وأعظم النعيم النظر إلى وجه الله الكريم في جنات النعيم ، يقول ابن الأثير : « رؤية الله هي الغاية القصوى في نعيم الآخرة ، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة ، بلَّغنا الله منها ما نرجو »**[2] .

وقد صرح الحق تبارك وتعالى برؤية العباد لربهم في جنات النعيم ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[3] ، والكفار والمشركون يحرمون من هذا النعيم العظيم ، والتكرمة الباهرة ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[4] ، وقد روى مسلم في صحيحه والترمذي في سننه عن صهيب الرومي رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ، وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك

---

(١) مشكاة المصابيح : (٨٨/٣) .

(٢) جامع الأصول : (٥٥٧/١٠) .

(٣) سورة االقيامة : ٢٣ .

(٤) سورة المطففين : ١٥ .

وتعالى » ، زاد في رواية : « ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[1] »[2] .

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة مجوفة ، عرضها ـ وفي رواية طولها ـ ستون ميلا ، في كل زاوية منها أهل ، ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »[3] .

والنظر إلى وجه الله تعالى من المزيد الذي وعد الله به المحسنين ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[4] ، ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[5] ، وقد فسرت الحسنى بالجنة ، والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم ، ويشير إلى هذا الحديث الذي رواه مسلم وذكرناه في صدر هذا الفصل .

ورؤية الله رؤية حقيقية ، لا كما تزعم بعض الفرق التي نفت رؤية الله تعالى بمقاييس عقلية باطلة ، وتحريفات لفظية جائرة ، وقد سئل الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة عن قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[6] ، فقيل : إن قوما يقولون : إلى ثوابه . فقال مالك : كذبوا ، فأين هم عن قوله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[7]؟ قال مالك : الناس ينظرون إلى الله يوم القيامة

---

(١) سورة يونس : ٢٦ .
(٢) جامع الأصول : (٥٦٠/١٠) .
(٣) مشكاة المصابيح ، (٨٦/١٠) ، ورقمه : ٥٦١٦ .
(٤) سورة ق : ٣٥ .
(٥) سورة يونس : ٢٦ .
(٦) سورة القيامة : ٢٣ .
(٧) سورة المطففين : ١٥ .

بأعينهم ، وقال : لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة ، لم يعبر الله عن الكفار بالحجاب ، فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾[1] ، رواه في « شرح السنة »[2] .

ومن الذين نصوا على رؤية المؤمنين ربهم في الجنات الطحاوي في العقيدة المشهورة باسم « العقيدة الطحاوية » ، قال : « والرؤية حق لأهل الجنة ، بغير إحاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا : ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾[3] ، وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه ، وكل ما جاء في ذلك الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد ، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ . ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه »[4] .

وقال شارح الطحاوية مبينا مذاهب الفرق الضالة في هذه المسألة ومذهب أهل الحق :

« المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية . وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة .وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون ، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين ، وأهل الحديث ، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة » .

---

(١) سورة المطففين : ١٥ .
(٢) مشكاة المصابيح : (٣/١٠٠) ، ورقمه ٥٦٦٣ .
(٣) سورة القيامة ٢٢ ـ ٢٣ .
(٤) شرح الطحاوية : ٢٠٣ .

ثم بين أهمية هذه المسألة فقال :

« وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها ، وهي الغاية التي شمَّر إليها المشمرُّون ، وتنافس المتنافسون ، وحُرِمَهَا الذين هم عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مردودون» .

ثم بين أن قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(١) . من أظهر الأدلة على هذه المسألة ، وأمّا الذين أبَوْا إلا تحريفها بما يسمونه تأويلاً : فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب ، أسهل من تأويلها على أرباب التأويل. ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص .

وبين خطورة التأويل : « وهذا الذي أفسد الدنيا والدين. وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل ، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم . وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم ، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية. فهل قُتِلَ عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد ؟ وكذا ما جرى في يوم الجمل » وصفين ، ومقتل الحسين ، والحرة ؟ وهل خرجت الخوارج ، واعتزلت المعتزلة ، ورفضت الروافض ، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، إلا بالتأويل الفاسد » !؟

ثم بين أن دلالة الآية على الرؤية من جانبين : الأول فقه النص. والثاني : فقه علماء السلف لهذا النص . ففي الأول قال :

«واضافة النظر إلى الوجه ، الذي هو محله ، في هذه الآية ، وتعديته بأداة

---

(١) سورة القيامة : ٢٢ .

«إلى» الصريحة في نظر العين ، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه - حقيقية موضوعة صريحة في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله .

فإن النظر له عدة استعمالات ، بحسب صلاته وتعديه بنفسه : فإن عدي بنفسه فمعناه : التوقف والانتظار : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾(١) . وإن عدي بـ «في» ، فمعناه : التفكر والاعتبار ، كقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٢) . وإن عدي بـ «إلى» فمعناه : المعاينة بالأبصار ، كقوله تعالى : ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾(٣) . فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر ؟ وساق في الثاني عدة نصوص عن السلف تبين فقههم للآية ، فعن «الحسن قال : نَظَرَتْ إلى ربها فنضرت بنوره ، وقال أبوصالح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(٤) . قال : تنظر إلى وجه ربها عز وجل . وقال عكرمة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾(٥) . قال : من النعيم ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(٦) ، قال : تنظر إلى ربها نظراً ، ثم حكى عن ابن عباس مثله . وهذا قول المفسرين من أهل السنة والحديث . وقال تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾(٧) . قال الطبري : قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك : هو النظر إلى وجه الله عز وجل .

---

(١) سورة الحديد : ١٣
(٢) سورة الأعراف : ١٨٥
(٣) سورة الأنعام : ٩٩
(٤) سورةالقيامة : ٢٣
(٥) سورة القيامة : ٢٢
(٦) سورة القيامة : ٢٣
(٧) سورة ق : ٣٥

ثم ذكر معنى الزيادة في قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[1] ، وأنها النظر إلى وجه الله الكريم وساق في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب ، قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[1] ، قال : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عندالله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو؟ ألم يُثقل موازيننا ويبيِّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهي الزيادة» . ورواه غيره بأسانيد متعددة وألفاظ أخر ، معناها أن الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل . وكذلك فسرها الصحابة رضي الله عنهم . روى ابن جرير ذلك عن جماعة ، منهم : أبوبكر الصديق رضي الله عنه ، وحذيفة ، وأبوموسى الأشعري ، وابن عباس ، رضي الله عنهم .

ومن الأدلة على هذه المسألة قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[2] . وذكر المصنف أن الشافعي -رحمه الله- وغيره من الأئمة احتجوا بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة ، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي ، وقال الحاكم : حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال : حضرت محمد بن إدريس الشافعي ، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ما تقول في قول الله عز وجل : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[3] . فقال الشافعي : لما أن حُجب هؤلاء في السخط ، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى .

---

(1) سورة يونس : ٢٦
(2) سورة المطففين : ١٥
(3) سورة المطففين : ١٥

ثم تعرض لاستدلال المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾[1]. وبقوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾[2]، وذكر أن الآيتين دليل عليهم ، فالآية الأولى : تدل على ثبوت رؤيته من وجوه :

أحدها : أنه لايظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل مالا يجوز عليه ، بل هو عندهم من أعظم المحال .

الثاني : أن الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله ، وقال : ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[3] .

الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ، ولم يقل : إني لا أرى ، أو لا تجوز رؤيتي ، أو لست بمرئي . والفرق بين الجوابين ظاهر . ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجل طعاماً صح أن يقال : إنك لن تأكله . وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي ، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار ، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى .

الرابع : يوضح الوجه الثالث قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾[4]. فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار ، فكيف بالبشر الذي خُلق من ضعف ؟

الخامس : أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقراً ، وذلك ممكن ، وقد علق به الرؤية ، ولو كانت محالاً لكان نظير أن يقول : إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام . والكل عندهم سواء .

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٣ .
(٢) سورة الأنعام : ١٠٣
(٣) سورة هود : ٤٦
(٤) سورة الأعراف : ١٤٣ .

السادس : قوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[1]، فاذا جاز أن يتجلى للجبل ، الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته ؟ ولكن الله أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار ، فالبشر أضعف .

السابع : أن الله كلم موسى ، وناداه وناجاه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة ، فرؤيته أولى بالجواز . ولهذا لا يتم إنكار رؤيته الا بإنكار كلامه ، وقد جمعوا بينهما . ثم أجاب على دعواهم أن «لن» تفيد التأبيد وتدل على نفس الرؤية في الآخرة ، وبيّن الشيخ أنها لو قيدت بالتأبيد فلا تدل على دوام النفي في الآخرة ، فكيف إذا أطلقت ؟ ولهذا نظائر في القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾[2] ، مع قوله : ﴿ وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[3] . ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها ، وقد جاء ذلك ، قال تعالى : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾[4] . فثبت أن «لن» لا تقتضي النفي المؤبد .

قال الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله :

ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقوله اردد وسواه فاعضدا

وأما الآية الثانية : فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف ، وهو : أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح إنما يكون

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٣
(٢) سورة البقرة : ٩٥
(٣) سورة الزخرف : ٧٧
(٤) سورة يوسف : ٨٠

بالصفات الثبوتية ، أما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به ، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً ، كمدحه بنفي السِّنة والنوم ، المتضمن كمال القيُّومية ، وفي الموت المتضمن كمال الحياة ، ونفي اللغوب والاعياء ، المتضمن كمال القدرة ، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير ، المتضمن كمال صمديته وغناه ، ونفي الظلم ، المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه ، المتضمن كمال علمه وإحاطته ، ونفي المثل ، المتضمن لكمال ذاته وصفاته ، ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن أمراً ثبوتياً ، فإن المعدم يشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه ، فإن المعنى : إنه يُرى ولا يُدرك ولا يحاط به ، فقوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾(1) يدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به ، فإن (الإدراك) هو الإحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ﴾(2) . فلم ينف موسى الرؤية ، وإنما نفى الإدراك ، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه ، فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك ، كما يعلم ولا يحاط به علماً ، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية ، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية. بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه .

ثم ذكر الشيخ أن «الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه ، الدالة على الرؤية متواترة ، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن . فمنها : حديث أبي هريرة : « أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول

---

(1) سورة الأنعام : ١٠٣

(2) سورة الشعراء : ٦٢

الله ﷺ : هل تُضَارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : هل تُضَارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا : لا ، قال فإنكم ترونه كذلك» ، الحديث ، أخرجاه في «الصحيحين» بطوله. وحديث أبي سعيد الخدري أيضاً في «الصحيحين» نظيره. وحديث جرير بن عبدالله البجلي ، قال : «كنا جلوساً مع النبي ﷺ ، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة ، فقال : انكم سترون ربكم عياناً ، كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته» ، الحديث أخرجاه في «الصحيحين». وحديث صهيب المتقدم ، رواه مسلم وغيره. وحديث أبي موسى عن النبي ﷺ ، قال : «وجنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب ، آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» ، أخرجاه في «الصحيحين» . ومن حديث عدي بن حاتم : «ولَيَلْقَينَّ الله أحدُكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له ، فيقول : ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول : بلى يارب ، فيقول : ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول : بلى يارب»[1] . أخرجه البخاري في «صحيحه» .

---

(١) راجع شرح الطحاوية : ص ٢٠٤ ـ ٢١٠

المبحث الثالث عشر

الفوز بنعيم الجنة لا يستلزم ترك متاع الدنيا

ظن الرهبان وكثير من عباد هذه الأمة أن نعيم الآخرة لا يمكن أن ينال إلا إذا رفض العبد طيبات الدنيا وملاذها ، ولذلك ترى هؤلاء يعذبون أجسادهم ، ويَشُقُّون على أنفسهم فيديمون الصيام والقيام ، وقد يحرِّم بعضهم الطيبات من الطعام والشراب واللباس ، وقد يتركون العمل والزواج وهذه فكرة خاطئة ، فإن الله خلق الطيبات للمؤمنين ، وذم من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1] .

والدنيا تذم إذا كانت شاغلا عن الآخرة ، أمّا إذا جعلها العبد معبرا ومدخلا لنيل الآخرة فالأمر ليس كما يظن بعض الناس .

(١) سورة الأعراف : ٣٢ .

المبحث الرابع عشر

آخر دعواهم

يمر المؤمنون في الموقف العظيم بأهوال عظام ، ثم يمرون على الصراط فيشاهدون هولا ورعبا ، ثم يدخلهم الله جنات النعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن ، فيرون ما أعد الله لهم فيها من خيرات عظام ، فترتفع ألسنتهم تسبح ربهم وتقدسه ، فقد أذهب عنهم الحزن ، وصدقهم وعده ، وأورثهم الجنة ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[1] . ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾[2] ، وآخر دعواهم في الجنات النعيم : الحمد لله رب العالمين ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3] .

---

(١) سورة فاطر : ٣٣ ـ ٣٤

(٢) سورة الزمر : ٧٤

(٣) سورة يونس : ١٠

الفصل السابع

المحاجة بين الجنة والنار

أخبرنا رسولنا ﷺ أن الجنة والنار تحاجتا عند ربهما ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : فمالي لايدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ - زاد في رواية : وغرتهم - فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي ، أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما النار : فلا تمتلىء حتى يضع رجله - وفي رواية : حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله - فتقول : قط قط قط ، فهنالك تمتلىء ، ويزوي بعضها إلى بعض ، ولايظلم الله من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقا » أخرجه البخاري ومسلم .

وللبخاري قال : « اختصمت الجنة والنار (إلى ربهما) ، فقالت الجنة : يارب مالها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ وقالت النار [1] فقال (الله)

(١) قال محقق جامع الأصول : كذا في الأصول المخطوطة . وفي النسخ المطبوعة : يعني : أوثرت بالمتكبرين ، قال الحافظ في « الفتح » : كذا وقع هنا مختصرا ، قال ابن بطال : سقط قول النار هنا من جميع النسخ ، وهو محفوظ في الحديث وأنظر « الفتح » (١٣/٤٣٤) .

للجنة : أنت رحمتي ، وقال للنار : أنت عذابي أصيب بك من أشاء ، ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما الجنة ، فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا ، وإنه ينشيء للنار[1] من يشاء ، فيلقون فيها ، فتقول : هل من مزيد ؟ ويلقون فيها ، فتقول هل من مزيد ، حتى يضع قدمه فيها ، فتمتليء ، ويزوى بعضها إلى بعض ، فتقول : قط قط ».

وله في أخرى : ـ وكان كثيرا ما يقفه أبو سفيان الحميري ، أحد رواته ، قال : « يقال لجهنم ، هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ فيضع الرب قدمه عليها ، فتقول : قط قط ».

ولمسلم بنحو الأولى ، وانتهى عند قوله : « ولكل واحدة منهما ملؤها ».

وقال في رواية: «فمالي لا يدخلني إلا الضعفاء الناس وسقطهم[2] وغرتهم ؟ » وفي آخره : « فأما النار ، فلا تمتليء حتى يضع قدمه عليها ، فهنالك تمتليء ، ويزوي بعضها إلى بعض » وأخرجه الترمذي نحو الأولى [3]. [4]

---

(١) جزم غير واحد من أهل العلم أن هذا خطأ من بعض الرواة ، وصوابه ينشيء للجنة .

(٢) السُّقْط : المزدرى به ، ومنه السَّقط : لرديء المتاع . وغرتهم : الغرّ الذي لم يجرب الأمور ، فهو قليل الشر منقاد .

(٣) رواه البخاري (٤٥٨/٨) في تفسير سورة (ق) ، باب قوله تعالى : ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ ، وفي التوحيد ، باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ، ومسلم رقم ٢٨٤٦ في الجنة،باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ، والترمذي رقم ٢٥٦٤ في صفة الجنة ، باب ما جاء في إحتجاج الجنة والنار .

(٤) جامع الأصول : ٥٤٤/١٠ ـ ٥٤٧ .

المراجع
مرتبة على حروف المعجم

١ ــ التخويف من النار والتعريف بدار أهل البوار . للحافظ أبي الفرج ابن الجوزي . المكتبة العلمية . بيروت .
٢ ــ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي . طبعة المكتبة السلفية. المدينة المنورة .
٣ ــ الترغيب والترهيب للمنذري . طبعة المكتبة التجارية . القاهرة . الأولى .
٤ ــ تفسير ابن كثير. طبعة دار الأندلس ـ بيروت ـ الطبعة الأولى . ١٣٨٥ ـ ١٩٦٦
٥ ــ تفسير ابن جرير الطبري . الطبعة الثانية ١٩٧٣ ـ ١٩٥٤ . طبعة مصطفى البابي الحلبي .
٦ ــ تقريب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني . طبعة المكتبة العلمية . المدينة المنورة .
٧ ــ جامع الأصول في أحاديث الرسول ، لابن الأثير . تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط نشر مكتبة الحلواني ومكتبة الملاح . الطبعة الأولى ١٩٣٢ ـ ١٩٧٢ .
٨ ــ رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار . للصنعاني . تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني طبع المكتب الاسلامي . بيروت .
٩ ــ سنن ابن ماجه . طبعة دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٣٧٢ ـ ١٩٥٢ .
١٠ ــ سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني ، نشر المكتب الإسلامي . بيروت الطبعة الأولى .
١١ ــ شرح العقيدة الطحاوية ، لمحمد بن محمد بن أبي العزالحنفي . نشر المكتب الاسلامي بيروت . الطبعة الرابعة . ١٣٩١هـ .
١٢ ــ شرح النووي على مسلم للنووي . طبعة المكتبة العصرية . القاهرة .
١٣ ــ صحيح البخاري . اعتمدنا على متن فتح الباري . طبعة السلفية ـ القاهرة . الطبعة الأولى .
١٤ ــ صحيح الجامع الصغير . للسيوطي تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نشر المكتب الاسلامي . بيروت الطبعة الأولى ١٣٨٨ ـ ١٩٦٩ .

١٥ ـ صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي . طبعة دار إحياء الكتب العربية . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٢ .
١٦ ـ فتح الباري . لابن حجر العسقلاني . طبعة المكتبة السلفية . القاهرة . الطبعة الأولى .
١٧ ـ لوامع الأنوار البهيَّة للسفاريني طبعة دولة قطر . الطبعة الأولى .
١٨ ـ مجموع فتاوي شيخ الاسلام ابن تيمية. جمع ابن قاسم. طبعة دولة المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى .
١٩ ـ مراتب الاجماع لابن حزم . طبعة المكتبة العلمية بيروت .
٢٠ ـ مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي طبعة المكتب الاسلامي دمشق الطبعة الأولى . ١٣٨١ ـ ١٩٦١
٢١ ـ نهاية البداية والنهاية لابن كثير . نشر مكتبة النهضة الحديثة . الرياض. الطبعة الأولى ١٩٦٨ .
٢٢ ـ يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار ، لصديق حسن خان . طبعة دار الأنصار . القاهرة . الطبعة الأولى . ١٣٩٨هـ ١٩٧١م .
٢٣ ـ اليوم الآخر في ظلال القرآن جمع وإعداد أحمد فائز. طبعة مؤسسة الرسالة . دمشق . الطبعة السابعة . ١٤٠٥ ـ ١٩٨٤ .

الفهرس

الباب الثاني الجنة

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ـ العقيدة في الله	الطبعة الخامسة
٢ ـ عالم الملائكة الأبرار	الطبعة الرابعة
٣ ـ عالم الجن والشياطين	الطبعة الرابعة
٤ ـ معالم الشخصية الإسلامية	الطبعة الرابعة
٥ ـ الرسل والرسالات	الطبعة الرابعة
٦ ـ المرأة بين دعاة الاسلام وأدعياء التقدم	الطبعة الثالثة
٧ ـ الصوم في ضوء الكتاب والسنة	الطبعة الثالثة
٨ ـ أصل الاعتقاد	الطبعة الثالثة
٩ ـ مواقف ذات عبر	الطبعة الثانية
١٠ ـ مقاصد المكلفين « النيات في العبادات »	الطبعة الأولى
١١ ـ القياس بين مؤيديه ومعارضيه	الطبعة الأولى
١٢ ـ ثلاث شعائر	الطبعة الثالثة
١٣ ـ جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة	الطبعة الأولى
١٤ ـ خصائص الشريعة الاسلامية	الطبعة الأولى
١٥ ـ تاريخ الفقه الاسلامي	الطبعة الأولى
١٦ ـ الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية	الطبعة الثانية
١٧ ـ نحو ثقافة إسلامية أصيلة	الطبعة الأولى
١٨ ـ سلسلة محاضرات إسلامية	الطبعة الأولى
١٩ ـ القيامة الصغرى وأشراط القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢٠ ـ القيامة الكبرى	الطبعة الأولى
٢١ ـ الجنة والنار	الطبعة الأولى

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية ـ عمان
١٩٩٠/١٠/٧٠٢

يُطلَبُ هذا الكتابُ في
المملكة العربية السعودية
من

دَارِ الهِجْرَةِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوزِيعْ

ص.ب ٢٠٥٩٧ الثقبة ٣١٩٥٢ الخبر
تلفون الخبر: ٨٩٨٣٠٠٤ تلفون الرياض: ٤٧٩٢٠٥٥



هاتف ٦٩٣٩٤٠ ـ فاكس ٦٩٣٩٤١
ص.ب ٢١١٥١١ عمّان ١١١٢١ ـ الاردن